

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

/Amly

الوارثون

تأليف

د. خليل جليل خليل

د. خليل جليل خليل

مكتبة مدبوله
١٩٨٨

الوَارِثُونَ

تأليف

د. خليل جيسن خليل

١٩٨٧

الناشر
مكتبة مدبولي

الْوَارِثُونَ

— ١ —

- أريد أن أقابل « سعادة » النائب العام .
— ومن انت ؟
— انا الامباشى حسن خالد حسن .
— وما هو الامباشى حسن خالد ؟
— يبدو أنك نسيت اللغة العربية . كلمة « ما » يخاطب بها الجماد والحيوان . أما الانسان ، مثلى ومثلك ، فيخاطبونه « بين » .
دارت هذه المحادثة ، بين فتى نحيل ، ممتشق القوام ، يرتدى بسزة عسكرية . يلطع على ذراعيه شريطان احمران ، يعلنان رتبة الامباشى . بدلته الكاكي مكوبة . زرايرها تضوى . وضع طربوشا فاقعا على راسه . عوجه على الناحية اليمنى . فمس حاجبه الايمن . كما يفعل الكبراء والوسماء . اعد نفسه للقاء النائب العام . الطرف الثانى فى المحادثة . رجل متوسط العمر . راسه بتكور أصلع . وجسمه أكثر تكورا . كتب على باب غرفته : سكرتير النائب العام . احمر وجه السكرتير . سرت الحمرة الى صلغته . رمشت اهدابه رهشا متقطعا ينم عن صدمة ، احدثتها عبارة الامباشى الاخير . قال للامباشى فى غضب واضح :
— كيف تكلمنى بهذه اللهجة ؟
— كيف تخاطبنى كما يخاطب الجماد ؟
وتدخل رجل كان جالسا الى جانب منضدة السكرتير . وقف ليهمس فى اذن الامباشى : « هذا سيادة المستشار ، سكرتير معالى النائب العام » . اراد حسن ان يخفف من توتر الرجل . فهو اكبر سنا . واقدم فى مهنة « العدالة » ! ثم هو « المفتاح » الى النائب العام . رقق صوته :

— ما قصدت أن أكون جافاً فنحن حملة مؤهل واحد . . .
فغر المستشار فاه . شاركه الضيف دهشته . لم يستطع المستشار
أن يتغلب بسرعة على المفاجأة . تولى الضيف الكلام عنه :
— كيف ؟

— ألم تسمعا عن العسكري الذى نال ليسانس الحقوق . وأصبح
« أستاذا » ؟
ورد الضيف :

— أنا قرأت عنه . الجرائد والمجلات نشرت قصته .
— أنا صاحب هذه القصة . خطأ واحد ، وقعت فيه الجرائد . قالت
عنى اننى عسكري . ولكننى أمباشى !

كان الضيف فرحاً ، اذ يلتقى بحسن . بينما السكرير « المستشار » ،
لم يكن منفعلاً . نظرة مستغربة : كيف يحمل هذا الامباشى المؤهل الذى
يحملة المستشار ؟ . لون من الاعتداد فى هذا الامباشى لا يرحب به .
ظهرت هذه المعانى وغيرها فى رد المستشار :
— وماذا تريد ؟

قالها بنغمة جافة . لم يجزع حسن ، لأن هذه الجفوة قد تكون نذيراً
يعرقل هدفه . ولكنه جزع لمعنى آخر : القضاء أخطر مهمة ، فى بلد يتفشى
فيه الظلم . ويعيش فى كل زاوية من زواياه . كيف يقبل هذا المستشار ، أو
القاضى ، أن يكون سكرتيراً ؟ واخذته ذاكرته الى رحلة بعيدة . « المستشار »
السكرتير يذكره بنفسه ! عمل مراسلة لمكتب القائد ، عندما كان فى الجيش .
قالوا له أن هذه الوظيفة يختار لها أكثر الشاويشية امتيازاً . وأختر كذلك
حارساً ومراسلة « لمكتب رئيس أركان حرب الجيش كله » عندما كان باشجاويشاً .
وقيل له أن هذه أرفع مهمة ، يمكن أن يطمح لها ضابط صف فى الجيش .
ورضى بهذه المهمة عندما وجد ضابطاً من عائلة « أرسقراطية » يعمل ياوراً
للرجل نفسه . فالمراسلة والياور يؤديان خدمات شخصية للقائد . وتوزع

تلك الخدمات بينهما حسب دنوال خدمة او علوها . وكذلك شأن السكرتير :
الجزء الأكبر من عمله خدمات شخصية .

كيف لعمرى يقبع هذا القاضي على هذا الكرسي ؟ نسي حسن رد
الرجل الجاف ، وتعاطف معه . وقال له :

— لو تفضلت ، أريد أن أقابل النائب العام .

أحس الرجل باللهجة الرقيقة ، فقال :

— هل هناك موعد ، أو خطاب توصية ؟

— لا .

تحرك الرجل بصعوبة في مقعده . بدا أنه لا يدري بماذا يجب هذا
الإباشي العجيب . أخيرا وجد حلا :

— « معالي الباشا » ، النائب العام ، مشغول !

« يادى المصيبة » . لم تكن المصيبة ، ان النائب العام مشغول ، ولن

يقابله . وسيظل موضوع مستقبله معلقا . ولكن صفعته كلمتا « معالي

الباشا » . أيوجد في مرفق العدل « معالي » ، و « نواظى » ؟ بإشوات

وسوقة ؟ لقد طرده « معالي الباشا » رئيس أركان حرب الجيش من خدمته ،

لأنه وجده يستنشق الهواء على شاطئ البحر في الاسكندرية ، في فترة

راحته . ماذا سيسنع به « معالي الباشا » النائب العام ؟ أيتوزع أصحاب

« المعالي » و « السعادة » و « الدولة » على الاقطاعات الزراعية ، والجامعة ،

والوزارات ، والنيابة العامة ، والمشروعات الكبرى ، ليكونوا طبقة تملك

المال والأرض والوصولجان ؟

استيقظ حسن بسرعة ، ليتخلص من هذه التأملات ، التي تلاحت

في كل مكان . أراد أن يحسم الموقف مع هذا الرجل ، الذي يتعاطف معه

كقاضي ، ويتنافر معه كسكرتير . على أنه لم يعد يتعاطف معه . كنف يقبل

قاضي جليل أن يكون سكرتيرا ؟ وقال له :

— جنّت لكم من عند وزيرالدفاع !

كان وزير الدفاع ، في ذلك الوقت هو حيدر باشا . ذو « هيل وهيلمان » وزير للدفاع ، وياور للملك . . يقدم للملك خدماً ، شخصية حميمة ترفعه درجات علا ، ويبطش عن طريقها بمن يشاء . وعندما سمع السكرتير اسم وزير الدفاع ، اجاب في سرعة واهتمام :

— هل معك خطاب من معالي الوزير ؟

— لا . الوزير قال لي شفهيا : اذهب وقابل النائب العام .

حسن ، امباشي في الجيش . في قاع السلم الاجتماعى . كما يقال . قصد ان يذكر الوزير من غير كلمة « معالي » . والنائب العام من غير كلمة « سعادة » . نوع من الاعتداد بالنفس . او نوع من التفاز من هذه الالقاب وربما نوع من التعالى لابن من أبناء الشعب . يعتقد ان الشعب هو اصل هذا البلد وصاحبه . وبالتالي فهو صاحب المكانة العليا فيه . وسأله القاضى بفتور :

— هل استطيع ان اعرف موضوع المقابلة ؟

— سوف اشرحه للنائب .

اعتدل المستشار في جلسته ، وقال باعتداد :

— لا . مهتئ هنا ان اعرف ماذا يطالب زيار « معالي » النائب العام .

الحمد لله له مهمة . اجابه حسن :

— اريد ان اعين وكيلا للنائب العام .

جحظت عيننا الرجل . نز من جيبه عرف كثيف . نسائل :

— كيف ؟

ثم تذكر ان الامباشي حصل على ليسانس الحقوق ، فقال :

— اقصد ما درجتك في الليسانس ؟

— جيد جدا .

— عظيم ، مبشروك .

أخيراً ، أصبح السكرتير انساناً ، وهذا الإيماني . ثم دخل حجرة النائب العام .

لم يقل وزير الدفاع للإيماني : اذهب للقاء النائب العام . لسبب بسيط : انه لم يره ! حصل حسن على الثقافة والتوجيه والليسانس ، بجهوده الذاتية ، دون مدرس ، رغم الحياة العسكرية الشاقة . يحدث ذلك لأول مرة في الجيش . لذلك عقد حيدر باشا مؤتمراً صحفياً ، ليشيد بجهوده . ووجد بأنه سيكونه مكافأة كبرى بمعينه في وظيفة ممتازة ، تلقى بتفوقه وكفاحه .

انتظر حسن تحقيق الوعد ، دون جدوى . عين زملاؤه ، الذين يلونه في الترتيب ، في الوظائف المتميزة : كوكلاء للنائب العام . ومندوبين بجلس الدولة ، ومحامين بقضايا الحكومة . ونبت هو « إيمانيا » يتقاضى أربعة جنيهات ، مرتباً ، لمدة ستة أشهر ! ذهب الى مكتب وزير الدفاع عدة مرات . لا فائدة . ماذا فعل معالي الوزير ؟ ويجب « الياور » نارة بأنه لا يدري . وأخرى بأن معالي الوزير تحدث مع سعادة النائب العام .

قرر أن يتولى شئونه بنفسه . ويذهب للقاء النائب العام . ويطلب بحقه . ليست النيابة العامة جزءاً مما من مرفق العدل ؟ هل يمكن أن يظلم من أولئك الذين يتخذون من العدل مهنة ؟

غلب السكرتير في غرفة النائب العام . ازدادت مخاوف حسن . أخيراً جاء . وجهه أحمر ، مكور كما هو . لا يظهر عليه غضب أو رضا . قام حسن لاستقباله . تكلم الرجل :

— معالي النائب . بعد جهد كبير بذلته معه . وافق على أن يتقابلك .

— شكراً « سعادة » المستشار .

حسن ذو تفكير غريب : شاء أن يحضر ببذلته العسكرية . يقتحم بها هذا العرين العالى للعدالة . انه يعلم أن هذه المكاتب العليا تضم الطبقة

التي تحكم مصر . شهدها حينما كان يعمل حارسا لرئيس أركان حرب الجيش ، الذي كان يعمل ياوراً للملك في الوقت نفسه . وشهدها في قصر الملك ، وقصور الباشوات ، والاغوات ، حينما كان يرافق الباشا في رحلانه وحفلاته . يود أن يعرف ما اذا كانت موجودة كذلك ، في مرفق عزيز الى قلبه وعقله . تقطر عرقه في جوف الصحراء وتبظ الشمس . واصطكت اسنانه وعظامه في زمهرير البرد ، ليدرس ويذاكر للانتماء اليه : مرفق العدل . من الممكن أن يرتدى حلة « مدنية » انيقة . لكنه شاء أن يضع العدالة في مواجهة أبناء الشعب . يرتدون لباسهم الشعبي كما هو . دون تزييف أو تزويق . لديه غرام عجيب بتعمرية المشكلة الاجتماعية في مصر . حتى لو جعل من نفسه حقل تجارب !

دخل على النائب العام بخطوات واثقة ، وقامة سابقة . قام الرجل لتحيته . استبشر خيرا . النائب العام يعود للجلوس على كرسیه . ترك حسن واقفاً . لم يدعه الى الجلوس على أحد المقاعد الوثيرة ، التي تزدهم بها القاعة الفخمية . قال النائب العام :

— نعم ؟

نعم . وأنا واقف ، ولا يدعوني للجلوس ؟ هل الرجل يعلم اننى احمل المؤهل نفسه الذي يحمله ؟ ربما اكون اكثر منه نفوقا . ففى ايامه كانوا يعينون الحائزين على درجة « مقبول » في مناصب النيابة . وانما حصلت على « جيد جدا » . كان بلوغ الحساسية بالنسبة لكرامته . ينافح منها مهما كان شأن المتعرض لها . هذه الحجرة المترفة ، ومقاعد الفاخرة ، هى حجرة الدولة ، التي ينتمى لها حسن ، كما ينتمى هذا الرجل . انه بؤدى وظيفة عامة . يتقاضى ما هيئه من الضرائب . التي يدفعها الفقراء ، اكثر مما يدفعها الاغنياء . جلس على أحد المقاعد . واجاب النائب العام :

— جئت « لسعادتك » ، لتعيينى وكبلا للنائب العام .

تجرت عينا الرجل . صوبهما نحو حسن . تجمعت فيهما معان
مختلطة : دهشة من اقتحام هذا الامباشى عربنه الذهبى . جلوسه على
المقعد ، دون أن يدعوه . طلب التعيين في وظائف النيابة . احسن الفتى
في نظرتة معنى آخر : ما الفرق بين هذا الامباشى ، والمساکر والامباشية
والضباط الموضوعين في خدمته . يقفون على باب مكتبه ، كما كان حسن
يقف ، عندما كان يعمل مراسلة مكتب ، لقائده في الجيش . او يحرسونه ،
كما كان يفعل مع رئيس اركان الحرب . لكن هناك فارقا اكيدا : فارق
العلم . انه يحمل ليسانس الحقوق ، كالنائب العام تماما . ومع ذلك فهو
يدرك ، أن هذا الفارق ليس فارقا طبقياً . فهو يرفض تسميم المجتمع الى
طبقات ، لان الله خلق الناس سواسية .

سأله النائب العام سؤالا غير متوقع :

— من الذى قال لك ان تحضر الى مكتبى ؟

— لا أحد .

تبرم النائب العام قائلا :

— السكرتير قال : ان حيدر باشا هو الذى ارسلك .

— الحق ان حيدر باشا لم يفعل . ولكن « ياوره » قال لى ان

« الباشا » تحدث مع « الباشا » النائب العام .

— معالى حيدر باشا لم يحدثنى .

فطن حسن الى ان الانسان في هذا البلد يستحيل عليه ان يصل
الى حقه ، الذى يكفله له الدستور ، والقانون ، والأخلاق ، الا اذا تحدث
« الباشوات » مع بعضهم بعضا بشأنه ! اراد حسن ان يهدى من « اللعبة »
قليلا . فلا وزير الدفاع اوصى به . واذا اوصى به ، وأم يستجب النائب
العام ، فلن يقتل اباشوات من أجل أبناء هذا الشعب . قال حسن :

— على اية حال ، لست في حاجة بأن يوصى بى أحد . جذت لمثل

العدالة لبعظيتى حتى في التعيين في النيابة . حصلت بى درجة « جيد

جدا « . وانتم عينتم الحاصلين على « جيد » . (وسعادتك) ، واعضاء
النيابة العلية الذين يمثلونك ، تعتبرون القضاء الجالس اواقف ! فانتم
لا مراء ، تعدلون بين الناس .

ابتسم النائب لهذا التعبير . فالقضاة يطلق عليهم « القضاء الجالس »
والمحامون هم « انقضاء الواقف » . واعتبر ذلك الاصطلاح ابتكارا من
حسن . فوكيل النيابة يقف عندما يترافع في القضايا ، امام المحكمة . ثم
يجلس بعد ذلك . تعلق امل حسن بهذه الابتسامة . تأمل النائب العام
وجه حسن . نبث لحظة بوجه له نظرات ، قطعها اهدابه ، في رمشات
متتابعة . ثم قال له

— قدم طلبك الى السكرتير . وسنرى .

احس حسن بأن الرجل « يزحلقه » فقال على انمور :

— لقد قدمت طلبا منذ ستة اشهر ، بعد تخرجي . وقد عين زملائي
الذين بلونتي في الترتيب . وانا اطلب من سعادتك رفع هذا الظلم .

— قلت لك قدم طلبا ، وسننظر فيه .

— انا في الواقع اريد وعدا من « سعادتك » .

يبدو أن النائب العام قد برم بهذا الابهائى . صوته يحدد :

— لا استطيع أن اعدك بشيء . سنبحث موضوعك .

سكت النائب العام . تردد قليلا . ثم قال في نبرة غير صديقة :

— يبدو أنك مصر على أن نسمع بقية الشروط . الحق ، إن حيدر باشا

كلمنى ! ...

وقاطعه حسن :

— صحيح ؟ عظيم .

— لا تقاطعنى .

وسكت برهة . ثم غابا حسن :

— وقلت له ، اننا لا نستطيع قبولك في وظائف النيابة .

جفل حسن :

— لماذا .

— لقد ذكرت الأسباب لوزير الدفاع . فأطلب منه ان يبينها لك .
ما زال حسن يأمل في هذا الرجل فقال له :

— جئت كموطن ، يطلب العدل ، من انسان ، يسهم في ادارة مرفق
العدل في بلدنا .

— ما دمت مصرا على سماع الاسباب ، فأعلم ان طلبك رفض لانك
عسكري !

صدمة ترنح لها حسن . وخطبه قائلا :

— لكن حيدر باشا عقد ندوة صحفية . اشاد فيها بالجندى الذى
حقق عملا لم يتحقق في تاريخ الجيش . حصوله على اللبائس وهو في
خدمة جلالة الملك . وفاخر به كثيرا .

— حيدر باشا رجل عسكري . يمكن ان يفاخر بك ، وبجيشه كما
يشاء . ولكننا هنا لا يمكن ان نعين « امباشيا » وكيفا للذائب العام .

— العسكري والانباشي يحميان الوطن . ويحمين « سعادتك »
واسرتك من الاعداء ، اليس هذا اشرف عمل ؟

يبدو ان حملة الجيش للوطن ، لم تكن في انقاموس الوطنى للنائب
العام . لعل هذه العبارة قد اسامت اليه . فقد رد النائب العام في استياء
ظاهر :

— كيف تذكر اسرتى في حديثك ؟

سكت برهة ثم واصل :

— ما دمت قد ذكرت الأسر . فسوف اذكر لك شرطا اساسيا من
شروط القبول في وظائف النيابة العامة . الشرط الاول نيس التقدير : ممتاز
او جيد جدا . ولكن يجب ان يكون المتقدم من « أسرة »

ورد حسن في الحال :

— أنا من أسرة . وكل الناس من أسر !
— هل أنت ذكي ، أم تتذكى على ؟ الأسر معناها الأسر الكريمة ،
ذات الثراء ، والوجاهة ، والوضع الاجتماعي المتميز . هل فهمت ؟
— الناس يقولون أن والدي كان يملك عشرين فدانا . وجدى كان
يمتلك مائة فدان . وكانوا من عمد القرية ووجهائها . ولكن الخواجات
اغتصبوا أرضنا . فهل ننتقل من « أسرة » إلى قبيلة ، أو جموعة هجبية ،
لأننا لا نملك شيئا

وتردد حسن قليلا ، ثم قال :
— لو صحت نظريتك ، فشعبنا الذي لا يملك الأرض ولا رأس المال ،
يعتبر شعبا من الهمج !

انتفض النائب العام في كرسيه لهذا القول . وهم ساقطين بعمل عنيف .
لولا أنه تذكر جلال منصبه . هل يقتتل مع أمباشي ، ومع أمباشي مثقف ؟
السحافة في تلك الأيام حرة . لساتها طويل . وتحول الشروع في العنف
إلى عبارة حاسمة .

— لا يجوز أن نعين « أمباشيا » ، وكيلًا للنائب العام . تفضل !

* * *

قطاع آخر من قطاعات الدولة ينهار . أخطر قطاع على الإطلاق .
يمكن أن يتصدع صرح العدالة ؟ تأمل حياته : مأس ومظالم يمسك بعضها
برقاب بعض ، وتمسك جميعها برقبته ! فكلمنا تخلص من مأساة ، أطبقت
عليه فاجعة .

لم نستطع الحكومة « الوطنية » ، حكومة صدقي باشا في الثلاثينات ،
أن تحمي الأرض الوطنية . فتركناها نهبا للبرابيين من الخواجات وغيرهم .
انتزعوا ملكية الأرض من والده ، ومن غيره من الملاك الوطنيين ، نظير
ديونهم الفاحشة ، التي عجزت الأرض عن سددها . تفوق في امتحان
الشهادة الابتدائية . كان أول اقلية « الشرقية » . ربع ذلك طرده
وزارة المعارف التي كان يتربع عليها حلمي عيسى باشا ، حرمة حقه في

التعليم المجانى . لم يستطع دفع المصروفات . عمل كنانا للانفار فى وسية
خواجة يونانى مساحتها خمسمائة فدان . وهو صبرى فى اثالثة عشرة من
عمره . كان يعمل ستة عشرة ساعة فى اليوم نظير قرش ونصف يعول به
اسرة من ثمانية افراد . ذاق مع الفلاحن بشاعة الاستغلال الاتطاعى .
طرده الخواجة صاحب انوسية من رحمته ، لانه أجرى للفلاحين حسابات
امينة . جرى الخواجة خلفه فى جنح الليل مهددا اياه بالرصاص .

تلوع عسكريا فى الجيش ، ليهرب من الاقتطاع الزراعى . جابهه
الاقتطاع العسكري بحياة اكبر مشقة ومهانة . معالم وسية الخواجة اليونانى
تتبدى سافرة فى الوسية العسكرية : هناك الخواجة سرد الاقتطاعية ،
والفلاحون ارتقاؤها . وهنا ضباط الوسية وعساكرها . ناضل فى الجيش
حتى حصل على انثقافة والتوجيهية . طلب نقله الى التدريب العسكري ،
ليواصل دراسته الجامعية . كاتأوه بتخفيض رتبته من باشجاويش الى
امباشى . حرموه من نصف مرتبه ، اى من اربعة جنبهيات . كان يرسل هذه
الجنبهيات الاربعة الى اسرته لتعيش عليها . قررت الدولة تجويمهم .
حرمتم منها .

كان عليه ان يراجع ميزانيته . مرتبه اسبح اربعة جنبهيات . احتفظ
لنفسه بثلاثة جنبهيات تغطى عيشه ، وملبسه ، ومسكنه ، وكتبه . ولا تسئل
عن الترفيه الذى كان عليه ان يشارك رفاته فيه . اما الاسرة فكان عليها .
ان تكتفى بحنيه واحد . رجعت الى مستواها فى الثلاثينات . كان يعطيها
الجنبه « كنه » الذى كان يأخذه مرتبا شهريا من الخواجة : « وكانك يابوزيد
ما غزيت ! »

وحيثما دانت تطوف النضال ، اذا بانائب العام يتابى عليه الثمار .
يمنعه حقه فى وظائف النبيلة . يعطها للأطل نفوتا . هذه الوظائف للأغنياء .
وليست للعساكر الفقراء . ومصدر الغنى لا يهم . قد يكون الأرض ،
والعمارات ، ورأس المال ، والتجارة . وحتى التجارة فى المخدرات وفى
الدعارة ، يمكن ان تخول اصحابها هذه الوظائف « الارستقراطية » . لا احد
يستطيع ان يتبين اصل اثراء . فالمخدرات والدعارة ، تحولت الى عمائر ،
وأرض ، ومتاجر ، وأموال ، ترشح صاحبها للوظائف المميزة .

ذبة إله الكبرى كانت في كلية الحقوق ، وفي خريجها الكبار . مر عليه حتى الآن نموذجان من هؤلاء : عميد الكلية المترف . والنائب العام ، الذي يحتفظ بوظائف وكرامته لابناء « الاسر » .

كان يعتقد ان كلية الحقوق انشئت لندافع عن الجوعى والمقهورين . فوجدها تجعل من الجوع فقها ، ومن البؤس علما ، ومن ملكية الطبقة المستغلة حقا مقدسا لا يعلوه حق . تهافت آماله في دراسة عاش من أجلها عمره . وها هو ممثل كبير للمعداة كان يطمح صاحبنا ان يكون وكيلنا من وكرامته . فاذا به بحرمة أمينته .

ما العمل ؟ ان ابواب الوسية تصفع في وجهه بابا بعد آخر . على ان هذه الصغمة الأخيرة : بعد هذا النضال الطويل ، وبعد ان حصل على الليسانس ، كانت تعمقتها عالية . تصم السمع ، وتشرح الفؤاد .

الالوان المأساوية الماضية تتبلها فتانا بمصابرة عجيبة . كان ينخطى هذه الصور من المعاناة ، وكأنه في سباق للحواجز . ينخطى حاجزا تلو الآخر ، ليصل الى نهاية السباق ظانرا بالمركز الاول . ومع ذلك فقوى القهر مازالت تعترض سبيله ، وتضع امامه حواجز جديدة .

رفض النائب العام تعيينه في وظائف النيابة ، كان قاسيا قسوة خاصة . لقد تحمل كل هذه العناءات عندما كان غضا فتيا . يفرحه انضال ، ويلعب بقلبه الصغير الانتصار . كان وجدانه كذلك صغيرا . استشعر الالم والاضطهاد الاجتماعى . لكن الالم كان يتكسر على صخرتين : صخرة العزيمية والنجاح ، اذ يتهلل كلما تخطى عقبة اجتماعية . وصخرة اخرى هي وجدانه الناشئ . لم يكن وجدانه قد نضج ليستوعب الالم استيعابا اجتماعيا كاملا . كانت كمية الالم ونوعيته اقرب ما تكون الى الالم الرومانسى . يتذوقه المرء تذوقا فرديا ، يمكن ان يطهره . لكنه يزول ، وتحل محله فرحة بالكفاح الناجح ، تذيب الالم .

لكن المطاف ينتهى بالمناضل . فيحقق نصرا على قوى الجهل والنظاف .

ويتفوق في اللبسانس . ثم يجابه بالقوى العانية مرة اخرى . يقول له النائب العام ، في « بساطة » شديدة ، ان طلبه رفض لانه عسكري ، ومن الفقراء ! لا ريب انها خيبة امل ، لها مرارة خاصة فردية . غير ان هذه الصدمة كبرت مع كبر وجدانه . لم تعد قضيه ، قضية فرد يعانى من الظلم ، اينما ولى وجهه . ولكنها قضية شعب تمثت طبقة معينة بمصيره ومقدراته . ومن ثم اصبح المصاب هنا كبيرا . انه التنظيم الاجتماعى نفسه . نبا لمجتمع الوسية : الفقراء المتفوقون لا يتعلمون . والفقراء المتفوقون لا يمينون في وظائف النيابة العامة ، وغيرها من الوظائف المرموقة . هذه مقصورة على الفئة الملكة الحاكمة .

استوعب حسن اللطمة الأخيرة في وجدانه تماما . ماذا يصنع ؟ انه انسان فرد . وماذا يمكن ان يصنع فرد في مجتمع عريض طويل . الدولة ، الوسية انكرى ، تصب بلاءها عليه . تمنعه حقه في وظائف النيابة . تعطيه مرتبا قدره اربعة جنيهات ، وهو حامل لللبسانس الحقوق . المؤهل العالى الذى يحمله الوزراء والنائب العام ورؤساء المحاكم . هذا المجتمع العريض ، الذى يضرب الظلم والاستغلال عميقا في جذوره ، لادد لاصلاحه من جماهير كبيرة منظمة . اما الفرد ، حتى لو تنقف ، وحمل اللبسانس ، فهو وحده هزيل .

ليس امامه غير طريق واحد : العلم ! لكنه شق هذا الطريق من قبل . نال الابتدائية والثغافة والتوجيهية واللبسانس ، وهو عسكري . لم يجده العلم نفعا . وعلى الرغم من الأزمة التى يجتازها ، برقت في ذهنه صورة : شاهد فيلما لنجيب الريحاني ، الذى ذهب ليعمل مدرسا ، لبنت احد الباشوات . رأى في قصر الباشا رجلا بالغ الأماقة . سألته : من انت . واجابه :

— انا مريى جيمى !

واشار بيده الى كلب صغير يمسك بمقوده . وقال له نجيب الريحاني :

— معنى انت بتاع الـ

— ايوه ، وانت ؟

وبدرت حركة من نجيب الريحاني . من اصبعه الاوسط . صاحبها
صوت معين من فمه :
- انا بناع علم !

هل يبضى حسن ليكون « بناع علم » ، بعد ان شهد مصير المثقفين
والمتعلمين في المعتقل عام ١٩٤٩ ؟ وراى هوان الانسان وحقارته ضاربا
ومضروبا ، ناهش اللحم ، ومنهوش العظام . وبعد ان تعرض لظلم النائب
العام . يابى وظائف النيابة على الفقراء ، الذين يكونون شعب محر .

صابه التمزق مرة اخرى .. لكنه اخذ يللم صحائف نفسه المهلهلة .
ويرتتها مما لواصل جولة اخرى من الصراع . لاشك ان الريحاني يقصد ،
بالاشارة المهينة من اصبعه ، والصوت المشين من فمه ، التعليم والعلم في
البلاد المتخلفة . العلم مصدر رقى الامم جميعا ، وقوتها ، وتقديها . ما باله
ليس كذلك عندنا ؟ على انه لا مجال امام فنانا ، الا العلم . ظل يعانى
البطالة ستة اشهر . ثم تذكره وزير الدفاع ، لما راى المسااة فاقعة ..
عينه في وظيفة من الدرجة السادسة ، في مصلحة الطيران المدني ، التابعة
لوزارة الدفاع . اصبح يحصل على اثني عشر جنيتها كانت لها فرحة
خاصة . فقد رفض والد « عالية » ، الفتاة التي احبها ، وهو في الجيش ،
ان يزوجها له ، لان مرتبه كان ثمانية جنيهات . وهناك عريس آخر ، يقبض
اثني عشر جنجا . واسف لان المرتب السخى جاء متأخرا !

لم يكن طموحه . ابان كفاحه ليعام ، وظيفة ضئيلة ، واثني عشر
جنيتها . لجأ الى الدراسات العليا ، لعل فيها املا . ليس هناك امل مرئى .
لكن العمل في هذه الادارات الحكومية شبه البطالة . لا تمتعة فيه . نصف
الليل ونصف النهار فراغ . كيف يملاه ؟ ام يمتد على حياة الكسالى ، ورواد
المقاهى ، والارصفة . اذن لابد من مواصلة الدرس .

درس القانون العام بكلية الحقوق ، ونال دباوما فيه . ثم حصل
على دباوم الاقتصاد في السنة التالية . كان يدرس للنسابة ، اكثر مما يدرس
للاستفادة . فالقوانين والاقتصاد في كلية الحقوق ، هي قوانين الريسية
واقصاها .

بعد حصوله على الدبلومين تراءى له بصيص من أمل . لا يدري أن كان البصيص قوفا ، أم كان ومضة خابية ، سوف يطويها الظلام ؟

* * *

جامعة أسيوط تعلن عن بعثات في الدراسات القانونية والاقتصادية . تردد في التقدم إليها . لكنه العلم ، ولا سبيل غيره . لعله يجد العنل هذه المرة في الصعيد ! وتقدم إلى بعثة الاقتصاد . لجنة البعثات ، التي تنظر في الطلبات تتبع وزارة المعارف . جسده يرتعد عند ذكر هذه الوزارة . مقضية المجانية التي حرم منها ، وطرده من المدرسة ، تصدع كيانه . وزارة المعارف تقصر المعرفة على الأغنياء . مازالت القاعدة مطردة : النيابة العامة لا توظف إلا الأغنياء ، أبناء « الأسر » ، ولا يرتقى الفقراء إلى هذا الشرف . « والأسر » هنا هي أسر الباشوات ، والبكوات . أحفاد الاغوات الخصيان ! خدم السلطان ..

أمن الممكن أن تسود في لجنة البعثات الفلسفة التي تسود في وظائف النيابة العامة ، وتحتكر البعثات للفئات الغنية ؟ لكن أعضاء هذه البعثات سيكونون أسانذة في الجامعات . انتطلب هذه الوظيفة العلمية أن يكون الإنسان وجيها غنيا ، « ابن عائلة » أو « ابن ناس » ؟ هل لهذه الفئة عقول متميزة ؟ أنكون سبطنها على الوظائف العلمية سببا في تخلف العام في بلادنا ؟

كيف يمكن أن يستثنى أسانذة الجامعات من هذا المعيار ؟ انه مطبق على نطاق واسع . ولا مفر من تطبيقه في الجامعة . الاسانذة هم الذين يطهون هذه الفئات التي يرسم حولها اطار « ارسقراطى » . كيف يكون الاستاذ الذى يعد وكلاء النيابة فقيرا ؟ تناقض يتعذر على المجتمع ، المنسجم في قيمه ، أن يقع فيه !

تطير حسن حينما وصل إلى هذه الفكرة . سبيل العلم ، هو الطريق الوحيد الباقى له . ربما يكون معجونا بالوحل ، الذى يفرزه نظام تميم

متخلف . انه خاض الوحل والروث من قبل في مزرعة الخواجة اليونانى . كان يقدم العلف ، مع الكلابين ، لمواشى الخواجة في « الاصطبل » . حدث كان ممسكا بمخازن العلف والحبوب . ولكن الجوع تسره على ذلك . الجوع الذى كان يتهدده واسرته ، عقب ضياع ارضهم . اما ان يخوض الوحل والروث ليحصل العلم ، فإى علم هذا ، وإى بلد ؟

اخذت اصليح اليأس تلعب على اوتار مشاعره . لكنه كان يكره كلمة « اليأس » . وجه اليه ضربات تاصبات ، ابان كفاحه الطويل . صم اذنيه عن النغمة ، التى يعزفها ذلك المخلوق الكريه .

برقت في ذهنه بارقة . عاوتت على تمزيق الظلام ، الذى بدأ يزحف على نفسه . وبيدت اللحن اليأس ، الذى كان يعوى في داخله . وزير المعارف في تلك الايام كان طه حسين . ماذا يستطيع الاغنى وسط غابة من المبصرين ؟ يستطيع ! المبصرون يرون قبح التنظيم الاجتماعى ، وملامحه الشائثة ، فاعتادت ابصارهم عليها . واعتبروا الظلم ، وهو القاعدة ، عدلا . ونظروا الى القهر المستمر ، المنصب على الناس ، والاستغلال المتكرر ، الذى يغشاهم ، عنى انها الحرية والمساواة . لكن هذا الرجل لديه مبرة : ليست له عينان . ولكن له بصيرة الانسان .

كان طه حسين مثلا من امثله العليا . رافق براعه صبيبا . حينما كان تلميذا في المدرسة الابتدائية . وقرا بنهم شديد جانبا كبيرا من ادبه ، وهو عامل صغير في وسية الخواجة اليونانى . كان يصطحب الايام ، وعلى هامش السيرة ، والوان ، ودعاء الكروان ، والمعذبون في الارض ، معه الى الحقل . بعد ان يمد الأنفاس ، ويقيدهم في البومية ، يذهب الى شجرة وارفة من الاشجار التى تحف بالترعة . كانت ظلالها ، وادب طه حين ، يخففان عنه حر الهجير . قضى مع طه حسين لحظات حلوة . طعامه في تلك الايام طعام فقير : الخبز الاذرة والمخلل . لكن غذاءه الذهنى كان دسما . شبع جوع العقل ، وتوقه للمعرفة . كانت القراءات الادبية هي الينابيع العذبة التى تخفف من جفاف عيشه . القطر الذى يبيل بالحب روحه العطشى .

لم يعترف من أدب طه حسين فحسب ، بل اقبل على كتابانه السياسية . الكاتب الأديب الإنسان ، لديه ، هو الذى يعبر عن معاناة الجماهير الكادحة . الجماهير بكثرتها الكثيرة : التى تكون صاب البشرية . وهو الذى ينثر فى طريقها وعقولها نورا ونارا .

قرر حسن ان يلتقى بطه حسين . فهو لا يطمنن لوزارة المعارف ، حتى فى عهده ! ولا للجنة البعثات التابعة لها . ودخل حجرة السكرتير الخاص . لأول مرة يعترف بأنه قد يكون للسكرتير الخاص مهمة انسانية . كان سكرتير طه حسين مرافقه ، والقارئ ، للأدب والسياسة له . كان مهذبا رقيقا دمثا . اهذه طبيعته ام ان العبقري اسمهم فى هذا الطابع الجبيل ؟

قص حسن عايه قصته . نأثر السكرتير بقصته . فان اديبا . ظهره . أنار القصة على ماقيه ، وفى صوته . ترك الناس الذين يزدحم بهم مكتبه . دخل الى مكتب الوزير . جاء مسرعا لبصطحب حسن للقائه . ومكث معها يستمع الى الحوار :

اهلا بالامباشى الأستاذ . تفضل بالجلوس .

— اهلا باستاذى الدكتور .

— أسناذك ؟ ! حسبك دارسا للقانون والاقتصاد .

كان حسن قد أرسل طلبا للدكتور طه حسين ، أرفقه بتاريخ مختصر الكفاحه ، وبإحدى المجلات التى نشرت قصته ، وأجاب :

— اى مثقف فى مصر ، وفى العالم العربى ، تتلهذ عليك . مهما كان نوع التعليم المهنى الذى حصل عليه . وأنا سعيد ، اذ « تلذبت » على يدك .

ابتسم الأديب الكبير ، وقال بصوت جهورى ، نبراته كرنين الفضة :

— وما العلاقة بين الاقتصاد والقانون والأدب ؟

— الاقتصاد والقانون يوضحان العلاقات الاجتماعية — بالمعنى الواسع للكلمة — بين الناس . ويحددان ملامح التنظيم الاقتصادي الاجتماعى

واسمه . والأدب — ولست أدبياً — تعبير رفيع ، يصور الحياة الانسانية تصويراً جميلاً ، يظهر قبح النظام الاجتماعى أو وسامته .
رجع العميد بعنقه للخلف ، وارتفعت هامته . وهى عادة تزيده اناقة وجلالا ، وقال :

— لو كنت قابلتك من قبل ، لاقترحت عليك دراسة الأدب .
— كم كنت أتمنى . لكنى ، ولو لم احترف الأدب ، فأنى أهواه .
— كيف ؟
— قرأت كتبك صبياً ، وأعيد الآن قراءتها شاباً . وأصبحت بسبب حلوتها ذواقاً للأدب .
— ألم تذق حلوة أدبية أخرى ؟ ان الأدب ملىء بحلوى « مشكلة »
من كل نوع .

— بلى . استروحت العبير ، يتضوع من حدائق المنفلوطى ، واحمد حسن الزيات ، والمازنى . وأرتشفت رضاباً شهياً من شومى وحافظ .
والمتنبى ، وفطاحل الجاهلية والاسلام فى الشعر والنثر . وقرأت القرآن المعجز . ولمست الخير والحق والجمال لدى جان جاك روسو ، وفولتير ، وجى دى موباسان ، وفبكتور هيجو ، وبودلير ، وشكسبير وبرناردشو .
وكشفت لى بوشكين وتولستوى ، وترجنيف ، وتشيكوف ، وجوركى عن جذور العلاقات الاجتماعية بين الناس .

كان عميد الأدب العربى يستمع وخلصات وجهه الصبوح ، تنبسط سعادة وبهجة . وتدخل العميد :

— يبدو أنك اضررت بمهنتك ، اذ اطنبت فى غيرها .
— المجال الذى حبيتنا فيه يسعدنا ، ولا يضرنا .
— اذا كنت قرأت كل هذه الآداب ، ولا أخالك الا استوعبتها ، فماذا تركت من جهدك للاقتصاد والقتلون ؟

لفتة ذكية من وزير المعارف ، الذى ينير ببصيرته الطريق للملايين فى مصر والوطن العربى . واستمر الرجل :

- الحديث معك شائق . لكن اذا كان ذلك جهدك في الهواية ، فما بال جهدك المحترف ، اى فى القانون والاقتصاد .
- ورد حسن ، الذى وصلته الرسالة على الفور :
- تقدمت لبعثة الاقتصاد لجامعة اسيوط .
- اوراقك وصلت . والعدل سياخذ طريقه .

سكت حسن لحظة .. اخذت صور الظلم التى تعرض لها ترى فى مخيلته . دفعته هذه الصور ، ان يعيدها على سبغ العميد . نم يكن يدري كيف قرئت له . وازاف لها ، حرمانه من وظيفة وكيل النيابة . ثم قال :

— وددت ان اتعرف على مذاق العدل . لم اتذوق طعمه طوال حياتى . هذا السرد العاجل للمظالم غير من وجه العميد . وتطب ما بين حاجبيه لكنه استرد شكله المسح . وقال بتوكيد واضح النبرات :

— لا تخف . اعدك ان تنصف انصافا كاملا . اما تصتك ، فقد فانت تصورائى للمعذبين فى الارض . والحق ائنى لو امكننى الكتابة فى هذا الموضوع مرة اخرى ، فسوف اتحدث عنك ، وعن « المناضلين فى الارض » . وهذه مرحلة اعلى من المعذبين فيها !

بعد اسبوعين من هذا اللقاء ، نال حسن حقه فى بعثة الاقتصاد لجامعة اسيوط . تذوق العدل لأول مرة . طعمه سائغ ومرير ! كان العدل حلوا ، حلوة فردية . انصف بعد سلسلة طويلة من الاجحاف الاجتماعى . لكن نشوة الاحساس بالعدل لم تعمر طويلا . ما كان لينتشئ بمذاق للعدل ، فردى محدود ، حتى لو افنقده ثلاثين حولا . ليست الفكرة عدلا جزئيا ، ينعم به فرد ، ويحققه له وزير فرد .

القضية لديه ، هى العدل الاجتماعى . ونظام المجتمع كله . نظام لا يتساوى الناس فيه فى تولى الوظائف العامة . نظام يجهل الفقراء ، ويجوع الملايين . تحتكر انقطة المستغلة فيه ارض الشعب ورأسماله . توجهها توجيهها مشوها ، يخدم اغراضها الترفية ، وتترك الوطن يرسف فى اغلال التخلف والفسر .

هناك كفيف عبثى واحد . وهناك الامباشى حسن . يسطرع
اصطراعا مريرا مع المجتمع ، خلال ثلاثين عاما ليصل الى ترار واحد
عادل ؟ لو انه لم يقنم باب الوزير ، البصر بغير عينين . الذى راى كفاحه
ببصرته ، ماكان قد حظى بحقه . الم تر ان اغائب العام ، الواسع العينين ،
لم ير فى نضاله جمالا ؟ وعلى العكس ، راى فيه قبحا لا يلىق بالوظيفة
الظليدة .



الطبقة تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله ! ليست هى الطبقة الشعبية ،
فهذه مأكولة مأكولة ! ولكنها طبقة الاثراء ، والابهة . هذه الطبقة شغلت .
أو شأغلت علماء الاجتماع والسوسولوجيين . تسملت اليها فئات وسطى
ودنيا ، جعلتها عالما هرمى الشرائح والطبقات . تطورت داخلها علاقات
عجيبة . الطبقة الغنية الدنيا تحسد الطبقة الغنية العليا . لكنها نتكتم ذلك
الحسد . وعلى العكس ، نبدى ولاءها واكبارها للشرحة العليا . وتسعد
اذ تعود تلك الشريحة الطبقة كلها الى السيطرة الاقتصادية على رأس المال .
والأرض ، والناس . وهى تطمح فى أن يأتى دورها ، لتنفز الى القمة .
وتنعم بالآء القيادة ، وتغترف من كتوزها .

والقلة الراسمالية فى القمة ، تحنكر الثراء . فرغت من أمر الجماهير .
المحرومة من المنكية والحكم ، بالاستغلال ، والقهر ، والاعتقال . الطبقة
البرجوازية المتوسطة ، يجب أن تخضع للون من الاستغلال . يشمع شهوة
الشريحة العليا ، انى مزيد من الثراء والسلطان . وعليها أن ترضى بذلك .
فالقمة تحمى الطبقة كلها . وهذا ثمن الحماية .

قرا حسن فى نظام الطبقات . اراد التعرف على علاقة الانسان
بالانسان .. كان همه أن يجلو الحقيقة فى العلاقة بين المالكين وغير المالكين .
وقد وصل الى أن هناك نزاعات بين الشرائح فى الطبقة الغنية . ولكنه لم

يصل الى علمه ، ان النزاع داخل تلك الطبقة يمكن ان يستمر .. وتبلغ شراسة الفئة العليا ، الى درجة الفك بأبناء الشريحة الأدنى .

قوى الثورة تصطرع مع قوى الظلام . الطلبة والعمال ، ينظمون انفسهم ، ويثورون على قاهريهم . وتتألف اللجنة العليا للطلبة والعمال ، لتنظيم كفاح الشعب ضد اعدائه ، المستعمرين من الداخل والخارج . انهم نضال الجاهل في المنتصف الثاني من الاربينات ، بوعى عميق بمشكلة الاستعمار ، بشطريه الخارجى واداخلى . هنتف الجاهل بسقوط الاستعمار . دمجنه في الهتاف بسقوط الملك والاتطاع والراسالية .

امتدت الثورة الى الصحف والمجلات . صالت الأقلام الحرة التقدمية . اشتركت في اثاره النراى العام . حقق مجلس الدولة فترة من اعظم فتراته الذهبية . احكامه كانت انتصارا للحرية ، ودحرا للاستعمار ، ولحكومات التى نؤازره . هوجمت مواقع الانجليز المتبقية في القاهرة والاسكندرية ، طبقا لمعاهدة ١٩٣٦ . نزحت قوات الاحتلال الى منطقة قناة السويس .

تصاعدت ثورة الجاهل الوطنية والاجتماعية . تردد صداها في الوطن العربى . الاستعمار الخارجى والداخلى ، يفكر في موضوع بنقده . وكانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . الانجليز ، اسانذة الاستعمار ، منحوا الصهاينة وعد بلفور ، بانشاء وطن قومى صهيونى في فلسطين . ابان انتدابهم على فلسطين ، منحوا اليهود اقطاعات ، واقليم . اباحوا لعصاباتهم أسلحة ، ومعونات ، وتديبا . اصبحت العصابات جيشا قويا . السوس ينخر في اجساد الانظمة العربية ، وفي جيوشها . النظام المصرى والجيش ، تعرضا لسوس أكثر شراسة ، يليق بكانتها في الامة العربية ! اليهود حلفاء للاستعمار القديم الجديد ، اى للاستعمار الانجليزى الأمريكى . الطبقة الراسالية الحاكمة ، الاستعمار يحميها من ثورة شعوبها عليها . خطر الجاهل اصبح داهما في مصر : الفلاحون يهاجمون ثفانيش الملك ، والامراء والباشوات ، في كفور نجم ، وبهوت ، وساحل سليم ، وغيرها . اذن فلينسحب الانجليز من فلسطين ، بالاتفاق مع النظم المتواطئة .

نحركت الجيوش العربية الى فلسطين . فرضت الاحكام العرفية في

كل مكان في الوطن العربي . وجهت الاذاعات والمصحف الشعوب العربية
للعنصرية الصهيونية . انشغل الناس بالقضية الجديدة . تركوا قضيتهم الكبرى
مع انظمتهم . اعلن قيام اسرائيل .

رضيت الطبقة الحاكمة في مصر بالصفقة . الحماة الخارجيون للنظام
يخطلون بذكاء ، لوقايتها من شر الشعب المصري المستطير . يتحون للملك
والباشوات فرصة ذهبية ، الاتجار في السلاح . تكوين الثروات الطائفة
من توريده للجيش المقاتل في فلسطين . لا يضر الطبقة كثيرا ، ولا يتعارض
مع فلسفتها في الاثراء ان تكون الاسلحة فاسدة !

اذا قتلت الاسلحة الفاسدة العسكري المصري ، فهو مقتول مقتول ! :
بالاسلحة الفاسدة ، وبرصاص اليهود . او بالجوع والمرض والجهل ، التي
يصبها عليه النظام . مات بها اليوم او غدا . اما الضباط من الطبقة العليا
فانهم بقوا في القاهرة . لم يذهبوا للمعركة ، انضباط من الشريحة الدنيا عليهم
الاستشهاد في سبيل الشريحة العليا .

كان هذا هو منطق الطبقة الحاكمة في مصر ، والانظمة العربية الاخرى .
وترتب على هذا المنطق ، ان انهارت الجيوش العربية كلها . ورجعت
مهزومة مهينة . وانتصر اليهود ، وقامت اسرائيل . واصبح للاستعمار
والصهيونية ، والراسمالية العالمية ، والراسمالات التابعة في العالم العربي ،
قاعدة دائنة في قلب ذلك العالم !



احدثت الهزيمة صدى بعيدا في وجدان الجماهير المصرية والعربية .
لم يعد الفساد مقصورا على التصرفات الداعرة ، التي يرتكبها قادة النظام ،
في مجال النساء ، والخمر ، والانتصاب ، والازلام . ولكنه امتد الى انفاق
كدح الجماهير ، وثروات مصر على تلك الموبقات . لم يتخذ الفساد

البعد الفردي الاخلاقي فحسب . تعمق الفساد في وجدان الناس ، واصبح قضية اجتماعية . اصبح نتيجة للعلاقات الاقتصادية بين قلة تملك وتحكم . وتفترس عمل الناس وارزاقها . تنفقه في ملذاتها ومبائتها . وشعب لا يملك شيئا غير عمله . بل ان الفساد اصبح مسافرا بربريا ، بالانجار في الاسلحة الفاسدة ، وبيع الجنود بيعا رخيصا للعدو .

لهذا اشتدت الحركة الوطنية ، وشملت اليمين واليسار . زاد انصار الاخوان المسلمين من ناحية ، والشيعيين من ناحية اخرى . وانضم الوسط الوطني المضروب في حرب فلسطين . تكونت في الجيش جماعت نائرة وطنية . اصبحت ترى ان النظام يفتك بمصر : يمينا ، ووسطا ، وسارا . وتكونت مجموعة الضباط الاحرار .

فورة الجماهير ضد الانجليز والملك ، ابان الاربعمينات . ومعركة فلسطين ، والهزيمة الفادرة فيها ، قوت من جماعة الاخوان المسلمين . خاضوا مع غيرهم المعركة ضد اليهود . اكتسبوا خبرات في القتال . سلحوا جانبيا كبيرا من شبابهم . التربية الدينية والسياسية التي بثها فيهم زعيم قدير هو حسن البنا . كل ذلك جعل منهم قوة كبيرة ، نوات النظام ، وتصدت لحكومة النقراشي .

قتل النقراشي « باشا » في قلب عرينه ، وزارة الداخلية . قتله ضابط شرطة ا شاب من الاخوان المسلمين ، لبس زي البوليس . انظره امام المصعد الكهربى ، وصرعه برصاصاته . قامت الدنيا ، ولم تقعد . جلس ابراهيم عبد الهادى مكان النقراشي . اقام مجزرة للاخوان المسلمين . لأول مرة يمتطى حكم مصر ارهابى كبير . صرع حسن البنا في اهم شوارع القاهرة . شارع الملكة (رمسيس الآن) .

قامت حملة مسعورة ضد الاخوان المسلمين . شملت اولادهم واخوانهم وزوجاتهم وامهاتهم . والقوا في سجون ومعتقلات ، تنضال امامها سجون

المالِك وسرا ديبهم . وشمل الاعتقال حسن ، لان صدق له في كلية الحقوق ، كان اخوانيا ! .

الارهاب جعل الوسية انكبرى غابة ، ينمذر السيطرة عليها . الجانب الخارجى من المسيطرين على الغابة فيه ذكاء . هذا الامناء الجسدى ، الذى اخذ به السعديون ليس سياسة حكيمة ، ولا يخدم نظام الوسية . وصدرت انصيحة بالتخفيف من غلواء الحملة .

ولكن البلد يمور . الاخوان المسلمون لهم امصار كثيرون . اليساريون . وقد انشغل النظام منهم بعض الشيء بنصفية الاخوان . نشطوا في الجامعات ، وفتيات العمال ، وجباعات المثقفين . فاعوا الى انفسهم . وتذكروا العملاق الرائد في الريف : الفلاحين . قامت هيئات ضد الاقطاع . اشتد ساعد بعض انفتاح الثورية وصحنها اسهمت في اليقظة العامة التى شملت الجماهير . فكانت هناك صحيفة « مصر الفتاة » ، وشبابها وحزبها ، الذى تطور مع الحركة الوطنية الاجتماعية . فاطلق على نفسه : الحزب الاشتراكي . اسهمت صحيفته ، وزعيمه احمد حسين ، في اشغال الوعى في تلك الفترة . كذلك قامت جرائد الجماهير ، والملايين ، وغيرها . ونشط الحزب الوطنى .

فطن الاستعمار الخارجى الى الخطر الذى يتهدد الوسية . اوحى الى الملك بتغيير الوزارة . حكومة من الاقليات ، لا خير يرجى من ورائها . المطلوب تغيير بشر خيال الناس * حكومة الوفد . صاحب الاغلبية ، حسب تواعد اللعبة الديمقراطية التى برسمها النظام .

لكن الوفد فريق من الباشوات . في اول تكوينه كان يضم الباشوات جميعا . ثم انصرف منه فرق تلو فريق للتنافس على الزعامة . وللفرقة التى احدثها الاستعمار الخارجى الداخلى .

لا ترى الجماهير اى فارق اقتصادى اجنعاى بين باشا « الوفد » ، وباشا « الاحرار الدستوريين » ، وباشا « حزب الشعب » ، حزب سدقى

باشا . الباشوات جميعا شركاء في النوسية . يملكون اقطاعات لا حدود لها ، وراسمال لا نهاية له . الباشوات الوفديون يستغلون العمال والفلاحين ، وغيرهم من الكادحين ، تماما كما يفعل الباشوات « الاحرار » ، وباشوات « الشعب » ! وهم حريصون على النظام حرصا لا يقل عن باشوات الاقليات . الزعيم المؤسس للحزب حرم على العمال والفلاحين والمثقفين ، وهم الاغلبية ، صاحبة الحق انديمقراطى فى الحكم ، ان يؤلفوا حزبا مناهضا للراسمالية . وفرض هو والباشوات . جميعا ستارا كثيفا من الظلام على عقول الناس . منعوا عنهم اية ثقافة او فكر ، يسهم فى تحررهم من مستظلمهم .

افتى سادة النظام الاجانب ، بضرورة قيام حكومة للوند . هو الذى يستطيع ان يهدى ، من روع الجماهير ، ويمتص ثورتهم . وجاءت حكومة الوند . وجدت ان الشعب اخذ على عاتقه عملية الجهاد ضد الاستعمار . تكوئت الجماعات الدنائية المقاتلة . اشترك فيها المواطنين من كل لون . تعبت الجماعات الانتحارية الانجائيز فى منطقة القناة . سببت لهم ازعاجا بالغا . حرقت المعسكرات . دمرت العربات . اغتالت الجنود وانضباط . فجزت السفن .

اضطرت الجماهير حكومة الوند الى الغاء معاهدة ١٩٣٦ . كان الفحاس باشا وصفها ، عندما وقعها ، بأنها « معاهدة الشرف والفخر » ! اجتاحت الموجة الوطنية المنصاعدة انبوليس . تعاون مع المواطنين فى القناة . كنا نألفه متعاوننا مع الانجيز . ضرب مظاهرات الطلبة فى القاهرة والاسكندرية . ادرك الانجيز ذلك . حاصروا مبنى محافظة الاسماعيلية . كان يضم فريقا كبيرا من عمساكر الشرطة . ارسل الانجيز اليهم انذارا لتسليم والخروج من المبنى . رفض الجنود البواسل الانذار . هدم الانجيز ، حاملوا « رسالة الرجل الابيض الحضارية » المبنى على جنود الشرطة . سقط المعساكر الابطال ، شهداء فى معركة الوطن .

القاهرة ، ومدن القطر كلها ، تجيش بشعور وطنى متوقد . تمور

بالشباب الذى جاء دوره ليتخلص من قاهره . اشعلت معركة البوليس فى الاسماعيلية ، والشهداء العساكر الذين تساتطوا فيها ، النار فى عروق الشباب الوطنى . تأججت الحماسة فى صدورهم . صمموا على مقاومة المحتل ، الذى يحى نظاما خربا . ويشارك مادته تجويع مصر .

عاش فتاتا هذه الحادثات جييما . اراد ان يرافق الذين يقاثلون الانجليز فى القناة . فرأى زملاؤه ان يبقى فى مركز التدريب بالقاهرة ، فهو بخبرته العسكرية ، يكون اكثر فائدة لحركة المقاومة . فسوف يدرب ويعد مئات الابطال . معسكر التدريب اعد فى قلب الصحراء ، حتى لا تقع عليه عيون اجهزة الامن الخارجى والداخلى .

وبينما كان هو وزملاؤه مستغرقين فى تدريب المقاتلين ، جاء زكريا ، احد المتدربين يلهث من بعد . باثره حسن :

— خيرا يا ابا الزكر ؟

— الامر شر لا خير .

— ماذا حدث ؟

— احرقوا القاهرة .

— من الذى احرقها ؟

— رأيت بعينى الناس ، وكان الجن قد ركبهم . والشياطين قد نفثت النار فى عبونهم وانفواهم وايديهم . فقلبت القاهرة الى جهنم

واستمر زكريا ، ومازال يلهث :

— وحاولت ، مع بعض الزملاء منعهم . لم يكن حرصنا على المبانى المحروقة ، بقدر ما كان حرصنا على التضحية الوطنية . تحويل القاهرة الى ركام لن يخدمها .

وقال حسن :

— هذا ما توقعتة . بلغ العفن بالنظام درجة ، لم تجد الجماهير معها ،
الا النار لتتعامل معه .

واشترك عبد المقيت أحد المدربين في الحوار :

— كان لابد من النار ، لتطهير آثام النظام . جرائم النظام استشرت
في جسد البلد . فكان لابد من الحريق للتخلص من النظام وجرائمه .

ورد زكريا :

— بعض الناس يقولون ان الانجليز هم الذين أحرقوا القاهرة .
والبعض يقول الملك . الانجليز ، والملك ، لهم مصلحة في ضرب المقاومة
المسلحة للاستعمار . ويستشهدون على ذلك بأنه في الوقت الذي كانت
النار تاكل القاهرة ، كان الملك يقيم وليمة لضباطه الكبار . وطلبت الحكومة
تدخل الجيش ، فلم يفعل ، الا آخر النهار ، حينما أصبحت القاهرة اطلالا .

وتسأل عبد المقيت :

— ما هو الجزء الذي أحرق من القاهرة ؟

وأجاب زكريا :

— وسط البلد كله .

وعلق عبد المقيت ،

— وسط البلد معظمه مملوك للطبقة الرأسمالية المستغلة . متاجرهم
وعماراتهم ومكاتبهم هي التي أحرقت . كم من الاستغلال والنهب مارست
هذه الفئة . كم من دماء أبناء الشعب سفكت . وكم من أرازمهم نزفت . وكم
من كدحهم حول الى ثروات طائلة ، تكفل لهم الترف والمجون . وتنزل
الشتاء والهزال والموت، البطيء والعاجل بالملايين . الا يكون عدلا ان تحرق
هذه الثروات التي جمعت من حبات عرقنا ؟

وأجاب زكريا :

— ولكن اليس حراما ان يحرق الشعب ثرواته ؟

— الشعب صنع الثروة بعمله . الطبقة الثرية انتزعتها منه قسرا .
لم تعد ثروته . ليس في استطاعته استردادها . قوى الاغتصاب تحول
بينه وبين ثروته . ليس امامه الا حرقها .

— هناك بيوت ومحلات صغيرة التهمها الحريق .

واكد عبد المقيت :

— العدد الأكبر من المحلات التي أحرقت ، هي المحلات التجارية
الرأسمالية الكبيرة . ومنها محلات اليهود والاجانب . . السلع والمجوهرات
والترغيمات ، التي كانت تعرضها هذه الدور لا يملك شراءها الا الاغنياء .
سلع استفزازية ، اثارت البائسين المحرومين ندموها . الا تذكر يا حسن ،
حينما كنا نخرج في انخميس والجمعة ، ونحن عساكر في الجيش ونقف امام
هذه المحلات ، نتحسر على المعروضات ، ونلعن الحرمان ؟

ورد حسن :

— اذكر ... اننى اميل الى رأيك ، بتحفظ ساذكره فيما بعد . يبدو
ان الجماهير اننى اسهمت في الحريق كانت واعية بالفكرة التي تقول بها ،
وهي تدمير ملكية الراسماليين . احرقت الجماهير ايضا دور السينما
الاجنبية : ريفولى ومترو وغيرها . . وهي دور متخصصة في الافلام الاجنبية ،
الامركية والانجليزية اساسا . فهى تقضى بالحريق على مراكز الاستعمار
الثقافى . وهو لا يقل خطورة عن الاستعمار السياسى . واهرقت كذلك دور
اللعو ، ومنها كازينو الاوبرا . والناس ، بذلك العمل ، يهدمون مواخير
الاجنياء المتذلين ، والاكوار التي يمارسون فيها الدعارة .

واراد زكريا ان يعضى في سرد ما سمعه من انباء عن الحريق :

— انهم يتهمون كذلك : احمد حسين ، زعيم مصر الفتاة ، بالتحريض
على الحريق . يقولون ان شبابه قام بالدور الأكبر فيها .

ورد عبد المقيت :

— أنهم يبحثون عن كبش فداء . ويبدو أن أحمد حسين أضعف هذه الكباش . لا أقصد أن مجموعته ضعيفة ، فهو زعيم لا مرء . شبابه شديد المراس . صوت أحمد حسين وجريده أسهبا ، لا جدال ، في اشاعة الوعي الوطنى والاجتماعى بين الجماهير . وكان هذا الصوت عاليا ، جذب اليه السلطات . الشيوعيون مستترون . والاخوان المسلمون مضروبون . وعلى ذلك فالحزب الاشتراكى « مصر الفتاة » هو المجموعة انظاهرة الخطيرة التى يجب ضربها هذه المرة .

— كذاك تقول ان الجماهير الشعبية هى التى أحرقت القاهرة ؟

اندفع عبد المقيت يجيب :

— الاجابة على تساؤلك هى نعم . لكن لى اعتراض على كلمة « القاهرة » . القاهرة لم تحترق كلها . هذه هى الاحياء الشعبية التى تسكنها الأغلبية الكبرى من الناس لم يصبها اذى . انه ليس « حريق القاهرة » . ولكنه حريق محلات الاغنياء والاجانب بالقاهرة .

مازال زكريا غير مقتنع :

— كيف تفسر حرق المحلات الصغيرة ؟

ورد عبد المقيت :

— المحلات الصغيرة التى يملكها متوسطو الحال ، المجاورة لمحلات الاغنياء لا يمكن منع النار عنها . وهذا ثمن يدفعه أصحابها . فى سبيل الهجوم على الطبقة المستغلة . هم كذلك أسهوا فيما أصابهم . امتلكوا محلات تجارية مجاورة لمحلات الاغنياء ، وفى أحيائهم . وفى هذا انذار لهم ، حتى لا ينطلقوا الى الراسخالية الكبيرة ! •

ضحك حسن . كانت نظريه دائما الملاحظات الذكية . وعلى الرغم من انه زامل عبد المقيت زمنا طويلا ، الا ان هذا الاخير كان جادا مندمجا فى
١١٠٠٠ . أزعجه الضحكة . توقف عن الحديث متسائلا :

— ما هي النكتة التي اضحكك ؟

ورد حسن :

— حينما تكون اللحة ذكية ، فهي اقوى من النكتة ، في توصيل المعنى الى الانسان .

وهذا عبد المقيت .. واستطرد :

— أما الانجليز والملك ، الذين يتهمهم البعض باشمال الحريق ، فدورهم ، في اعتقادي كان مقصورا على استغلال الحادثة ، والاغادة منها . اوحوا الى عملائهم بتوسيع نطاق الحريق . المحلات الصغيرة التي احرقت كانت بتحريض هاتين القوتين ! حتى يوصف الحرق بأنه شامل . وليس موجها الى الطبقة الرأسمالية المستغلة . وبهذا يكون « المخبون والفضويون والغوغاء » — الصفات التي يطلقونها دائما على الجماهير — هم الذين اشعلوا النيران .

بقيت تساؤلات لدى زكريا :

— اذا كانت هذه حركة جماهيرية ، كما تقول ، بماذا تفسر اذن ذلك النهب للسلع والمجوهرات ، التي قام بها بعض الناس ؟

واجاب عبد المقيت :

— ماذا تنتظر من شعب فقير محروم ؟ لم يترك له النظام مجالا ليعيش . ابتز النظام عمله ، وحوله الى سلع ترفية ، ومجوهرات مبهرة ، اسالت لعابه . ليس امامه وسيلة مشروعة لنعم بثمرات عمله . فليأخذ نصيبه من الغنيمة بأه طريقة . انا لا ادافع عن هذا السلوك . وعلى أية حال ، فقلة من الناس هي التي عملت ذلك . ولكنني اود ان اتول ان التنظيم الاجتماعي والاستعمار هما اللذان حرضا على الحريق والنهب ...

وهذا تدخل حسن :

— ولو انني اوافقت يا عبد المقيت على تحليلك . الا ان النار والتخريب

وسيلتان لا تصاحبان أوطانا ، ولا تغيران نظما اجتماعية . فالجواهر ، كما تقول : اشعلت الحريق ، بطريقة ثنائية . أرادت ان تعلن سخطها بوسائل عنيفة لما نفذ صبرها ...

لم يبهل عبد المقيت حسن ليتم حديثه ، قاطعه قائلا :

— الشعوب كلها ؛ انتفضت هذه الانتفاضات ، على مقتضى الساطة وانثروا فيها . وكان الحريق والتدمير لممتلكات الطبقة الغنية ، ولرافق الدولة الظالمة ، من وسائلها في كل زمان ومكان .
واستأنف حسن الحديث :

— هبات الجواهر النطقائية حقيقة تاريخية لا جدال . انها الحركات الناجحة التي تستهدف تغيير نظام اجتماعي ظالم ، وتقيم بدلا منه نظاما عادلا ، هي تلك الحركات انى نظمت فيها الجواهر تنظيميا واعيا . هذا التنظيم يقود الناس باصرار وصبر للقضاء على القلة الحاكمة الفاسدة . هنا يمكن للجواهر ان تحقق ثورة اجتماعية . تتمكن بها من السيطرة على الثروة والسلطة .

وسكت حسن قليلا ليواصل :

— اما اذا كانت الفكرة مجرد حريق ، وثار من الاغنياء وممتلكاتهم فحسب ، فقد يكون ذلك سببا لان تقوم قوى العسف ، ببوابة اخرى من القهر ، وتدعيم النظام

قطع صوت المذيع من الراديو حديث حسن :

اذاعت السراى الملكية المرسوم التالى :

أحرق الخونة ! قاهرنا العزيزة . وللغضاء على المارقين ، والمحافظة على وطننا الحبيب . قررنا اتخاذ الاجراءات التالية :

● تعلن الاحكام العرفية ، ويحظر التجول بين الساعة السادسة مساء والسادسة صباحا .

- تصادر الصحف والمجلات جميعها ، التي اشعلت الفتنة .
 - تتال وزارة الفحاس باشا ، التي تسببت باهمالها في وقوع الكارثة .
 - يتولى رئيس الديوان الملكي السابق تشكيل الوزارة الجديدة .
 - يلغى الحزب الاشتراكي « مصر الفتاة » وتصادر جريدته وأمواله .
- وأمتلات المعتقلات مرة أخرى بالاحرار من كل لون . وقبض على
الفدائيين الذين يقاثلون الانجليز في منطقة القناة . ونقلوا الى سجون النظام،
وسراديه البربرية .

* * *

« ايها المواطنين »

جاننا من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان الثاني :

« اجتازت مضر فترة عصيبة ، في تاريخها : من الرشوة وانفساد
وعدم استقرار الحكم . وتسبب المرتشون والمفرضون في هزيمتنا في حرب
فلسطين . وتضافرت عوامل الفساد . وتآمر الخونة على الجيش . وتولى
امره اما جاهل او فاسد . وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا . وتولى امرنا
في داخل الجيش رجال. ننق في قدرتهم ، وفي خلقهم وفي وطنيتهم . ولا بد ان
مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب » .

استمع حسن الى هذا النداء ، ووجف قلبه . استولى الجيش على
الحكم . هدير الدبابات والعربات المصفحة يأتي عبر الاذاعة ، مختلطاً
بهتافات الجماهير ، تحيي ابطال الجيش . فرحة تلقائية ، تعبر عن امل
في انتحر ، ظل رابضاً في صدور الناس زينا وسبعة آلاف سنة . هل الشعب
صادق الفطرة ؟ اذا فرح ، فهو التحرر الحقيقي ؟

يبدو أن الحادثات تؤكد ذلك ، لأول وهلة . المبادئ الستة تعلن :
القضاء على الاستعمار . القضاء على الإقطاع ، والراسمالية المستغنة ،
أقامة مجتمع عادل ، وحياة ديمقراطية سليمة ، وانشاء جيش وطنى قوى .

الفرحة طاغية : طرد الملك . الاصلاح الزراعى . سرت فى كياته
نشوة . غطت على ذلك النرد ، الذى انتابه ، حينما استمع نبيان الجيش
الأول . غاص التخوف فى مكان سحق فى وجدانه .

حينه كفاح موجع . عانى اقطاعا شرسا . بكل قسماته من استغلال
وقهر واذلال . لهذا كان ابتهاجه بالغا بمبدأ القضاء على الإقطاع ، وبضربة
الاصلاح الزراعى . هرب بجلده من وسية الخواجة اليونانى ، وتطوع فى
الجيش لبيجده وسية عسكرية ، أكثر شراسة بفهرا . كانت فرحته بتطهير
الجيش وتقويته ، فرحة كبيرة .

والملك وما ادراك ما الملك . لملك مع صاحبنا حسن تاريخ حافل !
ليس تاريخا شخصيا . الملك فى القمة ، وهو فى القاع . وفى مجتمعنا ،
ليست هناك علاقة حميمة بين القاع والقمة . لم يكن ينكر على الملك فسوقه
الشخصى . فاحاكمون فى كل زمان ومكان ، وخاصة فى عالمنا المتخلف ،
فاسدون الا قليلا . ولكنه كان يركز على الفساد الاجتماعى والاقتصادى .

رافق الملك حسن منذ ان كان صبيا . استعاد ذلك الحديث الذى دار
بينه وبين انخفير محمد خطاب ، فى وسية الخواجة اليونانى . شكا الصبى
لانخفير ظلم الخواجة للفلاحين ، وسرقته لهم . وقال له انخفير :

ان الوسايا والاقطاعات سواء . نفس الصورة من السرقة والذل
عاناها فى تفانينش الملك والامراء والباشوات المصريين . الاستغلال واحد ،
لبس المستغل تبيعة ؛ طربوشا او عمة او طاقية ، او كان حاسر الرأس !
ويصر الملك على مصاحبة الفتى فى رحلته فى الجيش . كان اول لقاء

بينهما ، أمر صدر من رئيس أركان الجيش . بتغيير شعار الجيش من « الله - الوطن - الملك » الى « الله - الملك - الوطن » . كان التغيير منطقيًا : الملك يملك الوطن ، ومن الطبيعي أن يتقدم الملك على الملوك .

لقاء الملك الثالث مع فنانا كان عنيفا . انتقى به في المظاهرات الكبرى التي اجتاحت الاسكندرية (والقاهرة ومدن الاقاليم) في النصف الثاني من الاربعينات . مظاهرات تهتف بسقوط الإنجليز والملك . لهذا كانت سماعته بطرد الملك ، لا تقدر . غاص وسط الجماهير يصفق للجيش ويهتف .

الفرحة تنراخي عندما آب الى فراشه . التردد : الذي حرمه اول الامر حلاوة الفرحة الطليقة ، اخذ يتللمل في اعباته : لقد قامت في سوريا حركة للجيش . استولت على الحكم . زعيم الحركة اسمه الحقيقي «الزعيم» او حسنى الزعيم . صورة طبق الاصل من حيث شكله وحركاته وانفخاخ اوداجه من « موسولنى » . لكن هل يدل شكل « الزعيم » على طبيعة النظام ؟

دول امريكا اللاتينية مثل صارخ على تلك الحركات . فرق من انضباط، بتحريض ادارة المخابرات المركزية الامريكية استولت على الحكم في تلك البلاد . ومارست ديكتاتورية قاهرة ضد شعوبها . هذه القلة تقسم خيرات البلاد مع الشركات الامريكية العابرة للقوميات .

ايمن ان تكون حركة جيشنا من هذا النوع ؟ الجيش ضد الملاك والاتطاع . فرض قانون الاصلاح الزراعى . كيف يمكن ان يكون فاشيا ، واداة في يد القلة الرأسمالية ، وشركات الاستعمار ؟ هذا التساؤل من روعه . لكن الامس الجيش هو المؤسسة القديمة ؟ كان الملك يستخدمها في ضرب الحركات الشعبية ، وفي حراسة الوسية الكبرى . ايتسق النظام العسكري الصارم ، الذي يحكمه مبدأ « نفذ الاوامر ولو غلط » ، مع ديمقراطية سلبية ؟

التقسيم الطبقي الحاد الذي شهده ، حينما كان عسكريا في الجيش .
جمل المخاوف تتسلل الى قلبه . من اية فئة اجتماعية جاء قادة الحركة ؟
من الطبقة البرجوازية . بعد معاهدة ١٩٣٦ ، وبعد اندلاع الحرب العالمية
الثانية ، بدأ التوسع في الجيش . فتحت ابواب الكلية الحربية امام شرائح
أخرى ، من الطبقة البرجوازية . كان الضباط يختارون من الشريحة العليا
فحسب . الفارق الفكري بين شرائح الطبقة البرجوازية : كبيرة ، أم
متوسطة ، أم صغيرة ، فارق زمني ! البرجوازية الصغيرة تعمل لتكون
متوسطة ، وهذه تطمح ان تكون كبيرة .

نحن اذن امام مجموعة من ابناء المهد والاعيان والتجار والاغنياء ،
الذين يملكون وسايا تعمل فيها الجماهير . ما الفرق بين ان يمتلك الفرد
أو الاسرة ، مائتى فدان أو مائة ، وبين الخمسينية فدان ، التى كان يملكها
الخواجة اليونانى ؟ الرجل الثانى فى الثورة ، والقائد العام للجيش ، كان
خاله القائد العام للجيش ، ووزير الحربية فى عهد الملك . كان اداة للملك
فى افساد الجيش ، واستخدامه لتمجيد الجماهير . ما هو الضمان لكى لا يخرب
الجيش نفسه ، ويخرب الحكم ؟ ومن ثم ضياع امل الجماهير فى مجتمع جديد ؟

ظلت هذه الافكار العاتية الصرصر تعصف بفتانا . الا ان المخاوف
تتراخى بالخطوات الواثقة لتطبيق الإصلاح الزراعى ، طرد الملك ، الغاء
الالقب ، الغاء الاحزاب القديمة . وتتراخى النشوة . تذوب ، لتحل مكانها
غصة : قتلوا العمال فى كفر الدوار . علقوهم فى مشانق نصبت فى قلب
المصانع . سالت دماؤهم على الآلات نفسها ، التى يسبل عرقهم عليها ،
لينتجوا كساء للجماهير الكادحة ، وللقلة المترفة جميعا . كيف تقبل ثورة ،
قامت من اجل الجماهير ، واكثرتهم من اعمال وافلاحين ، ان تقتل العمال ؟
هل قتلت العمال حقا ؟ ام ان هناك قوى أخرى ، هى التى تقتل العمال ،
وتقتل الثورة فى نفس الوقت ؟ .

ما بال هذا الفتى ، يذلف بنا في اصرار نسي القضايا العامة . نسي ان خطة نضاله ضد الجهل ، كانت تبدأ بالابتدائية ، وننتهي بالذكثورة . لماذا تستغرقه المشكئة الاجتماعية ؟ الجوع والجهل والقهر ، التي اعترك معها ، تتحول في وجدانه الى قضايا تغشى الشعب المصرى بأسره . اليس لهذا الرجل شعور فردى ، يجعله يفرم بذاته ، كما يفرم انفسه ؟ الا يود ان يتفرغ لحل مشكلاته الخاصة ، ومشكلات أسرته . وهى مشكلات عزال !

ما خطبه ؟ كان أجره اليومى قرشا ونصف ، فى وسية الخواجة ، يعيش منها واسرته . نسي هذا الوضع . هرون خلف الفلاح محيد محمود فى جنح الليل . سرق له « شوالا » من الأذرة من مخزن الخواجة ، الذى يمسك بفنايحه . وذلك ليطمم امرانه وبناته الجوعى . شهد الخواجة يطرده من قصره المترف ، فى الوقت الذى كان كلبه يطمم بالحمام . لو ضيطة الخواجة كان مصيره السجن .

فقد وظيفته فى وسية الخواجة ، دفاعا عن الفلاحين . امر على اجراء حسابات امينة لهم ، حتى لا يفتنم بالخواجة حقوقهم . طرده الخواجة عندما لم يفلح معه الوعد والوعيد .

وعندما بدأ مشواره ضد الجهل ، لم يتصد فحسب ان يكون مجرد حامل للبياسنس أو الدكتورة . وان يحسن خله . ولكنه قصد ان يكون مثلا . جعل من مناهضة الجهل قضية عامة . يتصدى لتقيام بها المحرومون من التعليم . حينما حصل على الليسانس ، نشر قصته فى الجرائد والمجلات . لم يفعل لانه اراد ان يفاخر بأنه أول جندى يحرص فى الجيش على الليسانس . ولو ان هذا المعنى كان يود ان يصل الى حبيته عالية ! فعل ذلك اساسا . لانه اعتبر ان طرده من المدرسة المعجزة عن دفع المروفات قضية عامة ، وليست قضية فردية . اراد ان يكون قدوة يحذونها العاجزون عن دفع النفقات المدرسية . وجدت الفكرة تجاوبا بن العساكر وغيرهم من الجاهل الفقيرة .

وفي هذا المجال ، لاحظ حسن ظاهرة اجتماعية غريبة : كلن بعض ملائنه قد ساروا على دربه . لكنهم رفضوا نشر قصتهم . كانوا يتبرأون من ماضيهم ، وكانه سبة . ومن الانتفاء الى الجماهير الشعبية التي اتوا منها . وكان الانتفاء اليها عار يشين الانسان . وحيرته هذه الظاهرة . ربطها بالبرجوازية . فالفلاحون ينتجون الغذاء ويطعمونا . والعمال يكسونا ويؤونا . والفئات البرجوازية المتنوعة ، تعيش على انتاج هذه الجماهير الشعبية ، ثم تتعالى عليها . . . امر غريب ، يثير قضية التخلف . ويذكرنا بمثل شعبي جميل وعميق : « ادينى حسنة : وانا سيدك » !

وفي فترة من فترات الانتفاخ الى هومو الفردية ، ركب البحر الى انجلترا ، ليحصل على الدكتوراة في الاقتصاد . ولبعد استاذاً في الجامعة . ومن هذه المنارة ، يمكن ان يكون مصدراً للاشعاع . يسكب في وجدانات الشباب نور الثورة العلمية الاجتماعية .



السفينة الرشيقية البيضاء ، تسرى على صفحة البحر الفيروزية . كما تسرى البجعة البيضاء في « بحيرة البجع » . البلية الذي ابندعه تشايكوفسكى ، الفنان الروسى . موسيقاه تبهج القلب ، وتنمى الروح . الاداء الرفيع الراقص يتسامى بالانسان الى آفاق وريدية من الجمال والحب . على هذه الانغام ، ووسط هذه الالوان : لون انبحر ، ولون السماء ، ولون الامانى ، اقلع الى انجلترا . هذا هو البحر الابيض المتوسط ، الذى طالما غازله في خرائط الجغرافيا ، في المدرسة الابتدائية . كانت امنيته ان يراه فاذا به يركبه !

جلس على حافة السفينة ، يرقب « البجعة » « والبحيرة » . البحر

ناعم رقرق نسيح يمدد الى الافق البعيد . هناك تخلط زرقته القوية بزرقة السماء الباهتة . كانت « البجعة » وهى تنساب فى الماء ، ترك خلفها شريطا فضيا . تتناثر على جنباته فقاكات الماء وزبده . فتضيف لمسة لنوحة الرائحة .

استغرق فى هذه الصورة المترامية ، بلا حدود او بربواز . وبدأ ان الطبيعة تتيح له فاصلا هادئا . ينتقل خلاله نقلة حضارية . يفتح فيها صفحة جديدة من كتب حياته . وبينما هو مأخوذ مسحور باللوحة الخالدة ، اذا بصوت يفاجئه :

— هالو .

لم يكن قد سمع هذه الكلمة من قبل . الحق انه لم يسمعها بهذا الجرس الموسيقى . استدار ليرد السلام . وفوجيء : كانت التى القت بالنحية غادة حسناء . على شفتيها بسمة تسحر ، وفى عينيها نظرة تسكر . جمالها من انواع الاسبابى ، مهذب بامسات روماتية ! اللون الخمرى ، المزوج بذهب الشمس . نم يستطع الذهب ان يغطى الورد ، الذى تفجر فى الخدود . شعرها اسود فاحم . استرسل فغطى اردافها . واتاح لنسيم البحر ان يداعبه ، مداعبة مثيرة . العينان دعجاوان . تنسل عليهما رموش طويلة مقوسة ، لم تفدها صناعة التجميل . جسدها رشيق . فيه دفء البحر الابيض ، وغجربة اوربا . مدملج بعض الشيء ، ليرضى الذوق الشرقى ! نظر اليها مبهوتا . لم يرد التحية . واصلت هى :

— كيف حالك ؟

قالتها بتجليزية ، تدل على انها ليست انجليزية . رد عليها ، ولما يفق من المفاجأة :

— بخير ، وانت ؟

— فى احسن حال ، شكرا .

وتشجع وسألها :

— من أى البلاد أنت ؟

— هل تستطيع أن تخمن ؟

فكر جاهدا ، ليثبت لها غراسته . التخمين صعب . هى من حوض البحر المتوسط . ليس لها طابع أهل الشمال . شاطئ البحر طويل . التى برمية : أنت ايطالية !

فرحت فرحة ، صاحبها صرخة ناعمة ، وقالت :

— ما هذا الكفاء ؟ هل التقت بإيطاليين من قبل ؟

— لا . لم أعرف غير الانجليز واليونانيين !

وسكت لحظة . واراناد للحديث أن يستمر :

— هل تعرفين من أى البلاد أتيت ؟

— هذه بمسألة واضحة . أنت مصرى ! أنا أسافر كثيرا الى الاسكندرية . لى فيها اقارب واصدقاء .. وانت من السهل التعرف عليك : لونك الاسمر ، وقوامك ، وشاربك ، وملامحك ، لا يمكن للانسان أن يخطئها .

جلست الى جانبه . قدمت له سيجارة :

— شكرا ، لا أدخن .

— غير معقول . لماذا ؟

— لأسباب اقتصادية .

— الى أين أنت ذاهب ؟

— الى انجلترا ، لاعد رسالة للدكتوراه فى الاقتصاد السياسى ، ولاعود أستاذًا فى الجامعة !

— أوه !

دهشة واعجاب في عيني الحساء : رجل لا يدخن لاسباب اقتصادية ؛ وسيكون دكتورا في الاقتصاد ! سعد بمحبة الفتاة . الا انه برم بمسرى الحديث . اتخذ الحديث دروبا مألوفة . ليس فيه اثاره . الاثارة كانت في لفتاة ذاتها . المتحدث معها ؛ لا يستطيع ان يفكر في شيء آخر ، غير الاثارة التي تفيض في كل جزء من جسدها . تاه في عينيها ، وتدثر باهدابها . النسيم لا يظن عليه بخصلات من شعرها تداعب وجهه . لبث البحر تشتد نسيماته فيلتفع بشعرها . ويحس في ظل هذه الغلالة الحريرية الفاحمة بدفء جسدها الفجري .

ماذا دها المكفح ؟

انه في الثلاثين من عمره . مضاهها في مجتمع يكبت الغريزة بطرق بدائية . التركيبة الاقتصادية الاجتماعية فيه تقهر غرائز الانسان . المعتدات ، والتقاليد ، والحياة المرة . كان تقيا . منعه تقواه ان يتماثل مع البنات الفلاحات العاملات في الوسية . بل منعه اعتبار اقوى من التدين ، او هو مرتبط به : الخوف من الله . كان حرمانه من انتعظيم ، وضياح ارض والده ، والحياة البائسة ، التي فرضت عليه في اقطاعية الخواجه ، جعلته في خوف شديد من ان يرتكب معصية . فقد تصور ان اية خطيئة ، سوف تذهب بالوظيفة ، التي يتميش منها وعائلته .

الرعب الذي سكب في كيانه خطيب المسجد في القرية . التركيز على العقاب والوعيد . صور العذاب البشعة التي تنتظر الناس في الآخرة . كل هذا جعل الجزء الاكبر من تقواه مبنيا على الخوف والقهر !

لم يتحرر من الخوف ، الا بعد ان نتقف . افلت بعقله ووجدانه من ارهاب مجتمع الوسية وفلسفته . اسهم نضجه ، ونضاله ، وقراءاته ، في اجتلاء الصورة المثلى للاديان : التوحيد ، وعلاقة الحب بين الانسان وربه . فطن الى ان الرسائل السماوية ، نزلت من اجل افضل مخلوقات الله ، واكرمهم نديه ، وهو الانسان .

كان النظام الاجتماعى الاقتصادى للموسبة ، لا يتيح لفتانا ان يفرغ فرائزه لا حراما ولا حلالا . الامراغ الحلال للفريزة يكون بالزواج . تسر على عدم الزواج في مجتمع الموسية مرات عدة : مرة وهو في السادسة عشرة من عمره . استهوته فتاة ذهبية الشعر ، ملائكية الوجه ، صارخة الاثوثة ، في الرابعة عشرة من عمرها . رآها في كفر صقر . واد عاطفته ولم تمر اسبوعا . كيف يضم هذه الوردة ، والراعم التي تنفتح حولها الى الجيش الذى يطعمه . كان مرتبه جنيا واحدا . يجب الا يكون لسكان الموسبة عواطف وغرائز تتماثل وعواطف البشر وغرائزهم .

وتهر حبا ريطه بينت عمته « عالية » . استمر بضع سنين الى ان نضح في سن الشباب . شعر ان اباه « البرجوازي » ياباه عليه ، لانه ميسور الحال . واكبر الظن ان اباه ، اذا لم تضع ارضه ، كان سيقض ان يزوجه ابنة عمته ، لان اباه اقل منه غنى !

جاشت هذه الافكار في ذهنه ، حينما يستمع الى فائنة السفينة . اشتعلت هذه المعنات في كيانه . امتزج بها ذلك الشرر الفريزي الذى تطاير من عينيه ، حينما جنست الفجرية الى جانبته .

ماذا يفعل ؟ ان مجتمع الموسبة ، صب عليه قهرا اجتماعيا وجنسيا . وفرض عليه حياء ، حين يتحدث مع النساء ! هل تشمر هذه الحسناء بالجحيم الذى يستعر في داخله ؟ الا ترسل عينيه شواطى الى جسدها ؟ انها اثنى . لا بد قد احست حرارة الشواطى ! هل عالج مجتمعها تلك المسائل اجتماعيا : فاصبحت اعصابها هادئة . الحديث مع شاب غريب ، تنتفض فيه الرجولة ، لا يحرك فيها ساكنا .

اسعفه الحرص على كرامته بكل سلبى . لن يبدأ هذه الفتاة بموضوع يحرجه . وينال من اعتداده بنفسه ، وبانتمائه لبلده !

استأنفت الفتاة الكلام ، ووجهته وجهة اخرى . كان لحديثها

الذى اتخذ ابعادا شائقة ، ودل على قراءات عميقة ، فضل تفتيت
الرغبة التى جاشت فى صدره .

رباه : ان القهر لا يقتصر على البلاد المختلفة . هناك قهر أكثر ضراوة .
تصبه علينا الثقافة والحضارة . هذا اللون لا يقل عن قهر المخلفين لبعضهم
بعضا . انه قهر أكثر رقيا ، نرضى به . بل قد نطلبه ونهواه . انه قهر
انتقاة !

* * *

مجتمع السفينة مجتمع عجيب . يخلف تماما عن المجتمع الذى تركه
فى اليابسة . الناس هنا يطفرون ويهرحون . يرقصون ويتفتقون ويأكلون !
وجوههم واجسادهم تطفح بالصحة . تلون الدماء الدايقة من الداخل وجنائهم
ووجنائهم . كيف يبرى نفشى الامراض وسوء التغذية فى شعب بأسره ،
تركته ورائى ؟ كيف تفيض انماء من وجوههم ، فتصبح شوهاء شاحبة .
وقد كانت وسيمة فى عهد الفراعنة ! ؟

يا بنى . بريك تذل عن هموك العامة . استمتع بشبابك ، فقد انتصف
العمر . الحبوبة التى تنفجر من حولك . تدعوك للمشاركة فيها . كيف لعمري
انسى اهلى وامتى ؟ الست قطعة منهم ؟ كيف اعنأ ، بعيشى والبؤس
يسحقهم . والاسفلال ينهش ما فيهم من حياء ؟ هل الالم الذى تفرضه
على نفسك ، والحرمان اذى تصر عليه ، سيجرح الملاين فى بلدك ؟ لا ،
لن يحررهم . مجرد ألم وحرمان . يفرضهما فرد على نفسه . ولكننى أخشى
ان يجعل التنعم منى شخصا آخر : انفسم عن الكادحين ، وانضم الى
المترفين . واكون بذلك وبالا على اهلى .. هل لا تثق بنفسك وبمبادتك
ومثلك ؟ بنى . ولكن .. ليس هناك لكن

اقبلت حسناء السفينة لتساعد فى انتزاعه من هذا المونولوج الداخلى .

أقبلت تنهادى كقصن البان . يحرك : انعم به ينثنى ، أم تستجلى نضارته .
أم تستروح شذاه . كان حسن شرها : استمتع بهذا كله !

جاءت في وقت هو في أمس الحاجة إليها . ودنو تنقذه من هذه الأفكار
المدمرة . أنه يهفو لإنعم بهجتمع السفينة . أنفض واقفا لاستقبالها بحرارة ،
سألته دهشة :

— ما هذه الحماسة ؟

— انك تثيرين أي بليد .

— أوه !

زاد التورد في وجنيزها . خشى أن يكون قد أغضبها ، فسكت ولم
ينبس . وأحست أن كلمة « أوه » ربما تكون قد صدمته ، فأرادت أن تخفف
عنه ، فقالت له :

— المصريات أكثر إثارة .

انحمت الإيطالية المثيرة المناضل لتعتيد . ماذا يقول وماذا يعيد ؟
لمحت فيه اعتزازا ببلده ، برجالاتها ونسائها ، فالتقت عليه هذه العبارة
المقتضبة . لم يشأ أن ينال من بنات وطنه . وترر الأَمْضى في التنزل بها .
يجب على هذه الانثى ، التي جعلته يلهث من انوثتها ، أن تعلم أنها أزاء
رجل ، لا لكل الرجال !

اقترحت عليه أن يتناولوا الغداء سويا . ونهض على الفور : يليى
هذا الاقتراح المنقذ .

* * *

قاعة الطعام رشيقة أنيقة . المناضد عليها مفارش نظيفة ناصعة .
نسقتها ، ووضعت الزهور فوقها . يد ماهرة فنانة . خلعت على الغرفة
بهجة وجمالا . كانت الغرفة كلها « مشهيا » كبا ، يذكى شهية الركاب .

ويدات اطباق « الاورديفر » تتوالى . معذرة لاستخدام المصطلحات الاجنبية، فنحن في رحلة الى اوربا ! كانت اطباق المشهيات — وهى تعتبر مدخلا للوجبة — مذهلة . طبق من السلطة الحمراء والخضراء المختلطة بالزيتون والسردين والجبرى . سبق هذا الطبق قطعة من « ائباى باى » نوع من الفاكهة يشبه الشامام الصغير . طعمه ملحي خفيف ، احلى من الشهد ! ولحقة طبق آخر كبير من المكرونة « الاسباكىتى » ، باللحم المفروم والصلصلة والجبن الرومى المنزوية . ومازلنا في دنيا المتعدبات والمشهيات ! استغفر الله . الجبنة الرومى ، التى تضاف فقط لاعطاء نكهة للطبق الفاخر ، البت على فتانا المواجه : كانت الجبنة الرومى والنبيد والروم تقدمها خبارات اليونانيين لاعيان مصر وملاكها . وتكتب عليهم « كميالات » ، فاحشة الربا ، بقتيتها . كانت ثمل ديونا ثقيلة على المدنيين ، تعجز اراضيهم عن سدادها . وتنتزع منهم الارض ، لياخذها الخواجات . كان هذا البند مع بنود اخرى سببا في ضياع ارض والده . على ان لفظ الجبنة ، قد عاد بذكرته الى حقبة كاملة من حياته ، حقبة الدراسة الابتدائية . كان غذاؤه الرئيسى فيها العيش الاذرة ، والجبن القريش .

استيقظ حسن من هذه اللحمة ، على نغم الديمقراطية الحسنة ، تقول له:

— ما رايت في المشهيات الإيطالية ؟

— احتار بين مشهيات الطعام . والمشهية الإيطالية الفاتنة ، التى

تشاركه المائدة . نثر انسلامة ، وقال لها : ان الاكل الطليانى لذيذ .

— الذ من الاكل المصرى ؟

بماذا جيب ؟ هل يمضى في نظرتة الضيعة في الوطنية ؟ هل الدفاع عن

الطعام في بلد تجوع فيه الاكثرية الكبرى ، 'و تاكل طعاما يشبه الجوع ،

هل يعتبر ذلك دفاعا امينا ووطنيا ؟ انه يدافع عن بلاده طالما كنا في مجال

الوطنية الصحيحة ، او حتى الرومانسية . فعدن قالت له ان « نساء مصر

اكثر اثاره » ، ركبته الثمرة الوطنية ، وآمن بقولها ، رغم توعد الرغبة في

عروقه • لكن حساسيته للطعام قوية . أمضى نيفاً وعشر سنين . يتصارع فيها مع الطعام المتردى ، الذى ننوء به الاكثرية الكبرى من بنى وطنه ! ان الحديث عنه ، والثورة عليه . وليس الدفاع عنه ، واجب وطنى .

وانته سرقة الخبز . من مطعم المدرسة . حركت اصابعه . اخذت تتسلل نحو الخبز الإيطالى الفينو الناصع . لاحظت الفتاة اصابعه تتحرك فى شكل تشنجات ، بالقرب من رغيف الخبز . كان بوده ان يأخذ لقيمات منه ، يضمها فى جيبه ، لبتعشى بها ! كما كان يفعل وهو تلميذ فى مدرسة الزقازيق .. سالته الفتاة ماذا اصاب اصابعه لا استيقظ من غفوته قانلاً فى عصبية : لا شىء . لا شىء . تذكر انه لم يجب على سؤالها ، فرد عليها ردا هروبيا :

— نحن مازنا فى المشهيات . كيف اقرن بين مشهيات ايطاليا ، ومشهيات مصر ؟ دعنا ننهى من المشهيات اولا . ثم نرى الاطباق الرئيسية . ثم نحاول ان نقارن .

— ممل حق .

استغرق فى عيني الفتاة ، لكى يغرق فيها ذكرياته ، او لكى تنقذه منها . اكل المشهيات بشراهة . واكلت هى بقدر . كانت تعلم ان هذه مشهيات فحسب . وان هناك اطباقا اصلية اكثر اشارة للشهية .

وجاء دور الاطباق الاساسية . جاءت « ندلة » . ايطالية هيفاء . حينما نأملها ادرك لماذا اصبح « مايكل انجلو » مثالا ورساما خالداً . لقد خلق له الله : الفنان الاعظم : نماذج معجزة بشرية : تعاونه فى رسم لوحاته ومقل نمائيله .

طلبت « الندلة » اليهما ، بصوت كحفيف انزهر : ماذا تريدان كطبق اساسى اول ! ؟ عرضت عليهما بعض ما لديها : اصناف لم يسمع بها من

قل . كانت لهجة المضيفة بالانجليزية مكسرة ، فلم يفهم منها شيئا . وكأنه كان سيعرف على هذه الألوان من الطعام لو عرضت عليه بالعربية ! وحتى ينقذ نفسه ، طاب من رقيقته أن تتولى هي الاختار . وان تنتقى طبقا ايطاليا . . واختارت طبقا يجمع بين شرائح الديك الرومي وقطعا من المعجول الصغيرة ، تختلط بالأوان من المكرونة . وعش الغراب .

وأكل . كان الطعام الايطالى من الطعامة ، بدرجة انسته الماضى المجيد ! وانساه استغراقه فيه : انه برفقة ساحرة السفينة . لاحظت الفتاة ذلك فعاتت له :

— لم اعد فى حاجة لتقارن لى بين المطبخ الايطالى ، والمطبخ المصرى . هذا النهم الذى تلتهم به طعامنا ، وانصرافك عنى ، يعتبر ابلغ اجابة !

وجاءت الحلوى . ليس لها مكان فى معدته . لكن لا يستطيع ان يقاوم « الجيلاتى الطلبانى » الذى أسس على قاعدة عميقة من « سلطة الفاكهة » . جاءت الفاكهة من المنطقة الباردة فى اوربا : والمعتدلة فى البحر الابيض ، والاستوائية فى افريقيا !

لفت الاكلة الغنية رأسه بضباب كثيف . أوقفت قدرته على التمتع بحديث صديقته وبحسنها . استأذنها ان يذهب الى « كابينهته » لينام . الشمب المصرى ينام فى « القيلولة » . وهو حفيظ على هذا التراث !

* * *

استيقظ حسن ، بعد ان انقشعت الإخرة ، التى تصاعدت من الوجبة الغنية الى تلافيف مخه . وجد الحركة على السفينة صاخبة . الحياة تضى . المسافرون لا يهداون . كان هو الوحيد الذى خدمت أنفاسه . أخذ يمشى الهوينى على ظهر السفينة . شمس الاصيل تلون وجوه

الفتية والفتيات . نسيمات البحر تداعب الشعور المرسله ، فتثير الشعور
المشاعر ! جلس الفتية والفتيات على حافة السفينة : اثنين اثنين . حلت
النسيمات اليه . الهمس الموسيقى ، والقبل البحوحة ، « والصمت الرهيب » !
أنامل رقيقة نربت على كتفه . النفث . أحلى وجه ، وأشرس جسد . تخطرا
معا على ظهر السفينة . انتحيا مكانا قصيا . اختارته هي . أسرعت ذقات
قلبه . لعل هذا الاختيار له دلالة رومانسية . وبدأت تحادثه :

— كلمنى عن المجتمع المصرى !

— اللسه !

نطقها بالعربية . وسأته :

— ماذا تعنى ؟

كلمة « الله » ، التى تعرفها بالعربية . تقابل كلمة « جد » بالانجليزية .
وهذه الاخيرة تستخدم ، حين يستعز الانسان بالله على امر مكروه او
فاجع . واجابها على الفور :

— كلمة « الله » يستخدمها الناس فى مصر فى مجالات الاستحسان
والاعجاب .

الحق ، انه استنجد بكلمة « الله » لتعنى معناها ، حينما يستخدمها
الاوربيون ! كان ينتظر منها كلمة حثوة ، تنسق مع اطياف الفسق ، ولجين
التمر . فى هذا الجو اشاعرى ، تمنى لو يسمع كلاما آخر . المفجربة نعمن
فى اشعال الغريزة فى دماغه بجبالها . ثم تقهرها بحدتها .

ازدادت حيرته : هل يكره الحديث عن المجتمع المصرى ؟ الم يعيش
فى قلب ذلك المجتمع مع جماهير المزرعة والجيش والجامعة ؟ لماذا
يتبرم بهذا الحديث ؟ لعله انسان : يخضع لنداء الغريزة . التى كتبت فيه

منذ كان في المزرعة صبياً . خمس عشرة سنة من القهر الغريزي . لم يحس به أبان نضاله . لكن الغريزة استيقظت متوحشة . بعد أن نال الليسانس وازدادت بدائية عندما ركب السفينة الى أوروبا . واستعرت في كيانه كنه حينما التقى بهذه العجربة .

من الطبعي اذن ، في هذا الجو الروماني ، الذي يحرك الحجر ان يتوقع حديثاً من لون ، يخفف من وتدة الرجولة في اعطافه . و اراد ان يحول الحديث لتبلاء مع الجو الذي يحيط به :

— ان الحديث عن المجتمع المصري حديث طول . يمكن ان نتناوله في وقت آخر . دعينا الآن نجري حديثاً خفيفاً . يتواءم مع رقة النسيم ، وضوء القمر .

— هل ستدرس الادب الروماني في انجلترا ؟

قاتلك الله ايها العجربة النائرة .

— لا . سأدرس الاقتصاد .

— لماذا اذن لا نتحدث عن المشكلات الاقتصادية في مصر وفي ايطاليا ؟

— حرام عليك . ستأخذ منى هذه المشكلات أربع سنوات . دعينا نطرق موضوعاً آخر .

— ماذا تقترح ، الحب في مصر ؟ !

— لا . الحب في ايطاليا !

— « ده الملى انت فالحقيه » .

— على العكس ، انا خائب في هذا المجال .

— هل لم تحب من قبل ؟

— احببك

انتفضت الفتاة . وهي جالسة . ونظرت اليه نظرة جادة قاتلة :

— هذه طريقة لا تجدى . انت ناضج ومثقف . ولا احسبك من ذلك
النفر ، الذى يلين بالمواقف القاء اهو ح . انى اقدر لك عمرا يقترب من
الثلاثين . وانى لا اعتقد ، ان هناك شابا فى مثل هذه السن ، وليست له
تجارب فى الحب والنساء ، حتى ولو كان من مصر !

— انا آسف . كنت اهزل معك .

— بطريقة بلدى !

— اعتذر .

— نستأنف الحديث اذن بمستوى اعلى .

— تفضلى .

— هل لم تحب من قبل ؟

— بلى .

— حدثنى عنها .

— ماذا يجدى الحديث عن تجربة . مضى عليها اكثر من عشر سنوات .
احببتها حبا جارفا . لسنن طويلة . ولم اسطع ان اتول لها انى احبك .
ثم تزوجت غيرى . لاسباب اجتماعية طبقية . وانا ارجوك رجاء حارا الا
نكنى جراحى ، فقد اذبلت . ولا اريد لها ان تنزف من جديد . وانا وان
كنت سيطرت على قلبى ، فالمشكلة الاجتماعية مازالت قائمة فى وجدانى .
وسوف يجرنى الحديث الى سؤاات الاول : المجتمع المصرى .

— وما العلاقة بين الحب والمشكلة الاجتماعية ؟

كلمات الحب ، واللبيقية . والمشكلة الاجتماعية . وشاب لا يستطيع
ان يقول لفناته « احبك » : اثار هذا فى الفتاة فضولا . للاسماع الى هذا
الرجل الغربى . وتساقلت :

— لكن ما هذا التناقض ؟ لا يستطيع ان نبوح لحبيبتك . خلال سنوات طويلة . بكلمة « احبك » . ثم ذئولها لى . ولم اتض معك يوما .

كان يود ان يقول لها ان يوما واحدا معك . يساوى سنين . ولكنه امتنع . لا يود ان يتلقى درسا آخر . وقل لها :

— كنت في سن المراهقة . مرهف الحس ، حيا . وكانت تربيى . وكانت هناك المشكلة الاجتماعية . والعلاقات الطبقيه ، حتى داخل الاسرة الواحدة . وكنت في عمية صراع رهيبية ، ضد الجهل والجوع والقهر . فلم استطع ان اتقول لها الكلمة التى يقولها سائر الناس ، في كل زمان ومكان . اشدت فضولها . واسمعت حدقناها مرة اخرى . هل فكرة الحب هى التى اثارتها ام افكار الصراع . ام مزيج منها جميعا ؟ رأى في عينها رغبة شديدة في الاستماع للقصة كلها

انقذه « الجونج » ، او جرس العشاء . وذهبا الى صالة الطعام . واعيد المشهد من جديد : انواع وكميات من الطعام لا تخطر ببال .



جاء المساء . وجاءت معه زرافات الشباب . تفتال كالطواويس في تمصاتها وفسانها ، ذات الالوان الكرنفالية . تجمعوا حول حمام السباحة . واهل الفنانة ، ماشرق لطلعتها وجدان فتانا . كانت تلبس فستانا أنيقا . تبين منه ان كل شىء في ايطاليا يشكله فن رفيع . « النرزى ، الذى فصل الفستان » يبدو انه تعشق جسدها . خاط الفستان فنا : قبل ان يحبكه ثوبا . هل كان هيام الخياط بجسدها ، يشبه هيام حسن به ؟ يقال ان الفنانين حين يبدعون تمثالا لجسد فائن عار ، فانهم يستغرقون في الفن . محراب الفن ، معبد لا تدخله الشهوات الإنسانية . فتانا ليس فنانا . ولا يريد ان يشكك في هذا القول . لكنه شهد تماثيل ولوحات ابرزت جمال الجسد

الانسانى . صورت ثيابه . وخفقانه ونبض الجنس فيه . الفنان العبقرى .
لا يصور الا ما يشعر به . والصدق عنصر اساسى فى الفن الخالد . فكيف
يصور الفنان الملهم جسدا . لا يحس باضطرارم الغريزة فيه ؟

ابرز الفنان كل ما يمكن ان يفوق الانسان لرؤيته من جسدها .
كشفت عن عظمة الفنان الاكبر ، حينما يريد ان يبهز البشرية بنماذج معجزة
من خلقه . كانت تلبس رداء فى الصباح ، و آخر لوجبة الغذاء . وثالثا
لفترة بعد الظهر . وثوبا رابعا للعشاء . وخامسا للسهرة ! وعندما راي
هذا الفنان الاخير ، كبت تساؤلا . اتحمنه على دنياه فى السنين ذاكرة
عنيده . لكن الفتاة تمارس لعبتها : ترتدى فساتين خمسة جديدة كل يوم .
السؤال يضغط على وجدانه : كم فستانا او « جلابية » تلبسها الفلاحات
والعاملات فى مصر فى السنة ؟

تجمع الكرنفال حول حمام السباحة . وبدأت فرقة الموسيقى ترسل
انغامها متنوعة : كلاسيكية ، وخفيفة ، وجاز . سلطت اضاء على مياه الحمام
جعلتها تتخذ اللون « التركوازى » . تماما كماء البحر تحت اشعة الشمس .
وانسكبت على الفرقة العازفة شعاعات امتزجت بالانغام . وكونت تجانسا
نفيا ، بين تلك العناصر الجمالية : المرئية والمسموعة والمحسوسة .

كان الجو رومانتيكيا ، حقيقة وحلما . حركت الموسيقى اسراب
الراقصين والراقصات . بقى حسن مكانه ، ومعه رفيقته الفجرية . أخذت
تنظر اليه نظرات غير مالوفة . بقى ساكنا . ينست من النظر اليه . نهضت
من مقعدها . وقفت الى جانبه . جذبه من ذراعه :

— الا نريد ان ترقص ؟

غطاه عرق غزير . ارتقص ؟ انا لم اتعلم الرقص ، ولم امارسه ، اللهم
لا رقصا من نوع آخر : رقصة الجوع ! حينما كنت اشعر بنشبات معدنى
وأمعائى ، كنت انتنى معها . الناس الذين نشأت معهم لا يعرفون غير هذا

النوع من الرقص . آه .. كان هناك لون آخر . كان الخواجة الاقتطاعي يعطى الخوله كرابيع وعصيا . يضربون بها الاولاد والبناات في الحقل ، فدنثنى جذوعهم . كنت اثنتى معهم . لم يكن أحد يضربنى ، فقد كنت كاتب الوسية . ولكن الصبية والصبايا كانوا من بلدى ، وابناء اهلى وجيرانى . كنت طعمة منهم ، فرقصت معهم ، وتأوهت . ما كنت بمستطيع شينا في هذه السن ، وفي هذه الوسية . أنا صبي مثهم . لا استطيع ان آمر الخوله ان يرفقوا بالاعواد الغضه . هذه اوامر الخواجة . ان وقتت ضدها: فهو الطرد والحرامن من الرزق .

اعوذ بالله : هناك ضرب آخر من الرقص . وددت لو لم اتذكره . ولكنها الذاكرة السنونة : الرقص الذى تمت به : اثناء اعتقالى ! كانوا يفترسون « عونى » الاخوانى صديقى ، والعنسو المرح فى « شلنى » فى الغرفة المجاورة لتلك التى يحقون معى فيها . كانت صرخاته وعواؤه تحدث نغما بشعا ، يدفعنى الى الرقص ! كان رقصا مرعوشا مقطعا . كبتسه حتى لا يراه المحققون . واجاب الحسناء :

— آسف لا استطيع الرقص .

— لماذا ؟

— لانى لم اتعلمه .

— سأعلمك .

— لا استطيع . اعذرنى .

وبعد هنيهة ، جاء رجل وسيم ، يطلبها للرقص . اعذرت . سألها :

— لماذا لا ترقصين معه ؟

— انا لا اريد ان ارقص الا معك !

كان اليوم الثانى على السفينة يوما تمطيرا ! انبحر مرید . اسماء
مكفهرة . تمنق بها سحائب صيف دكنا . لا تزيد ان تنقشع . المطر ينسل
من البحر . لينهل فيه من جديد ! جلس فى الركن القصى من السفينة ، الذى
اختارته فتانه لهما للجلوس فيه . لكنها لم تحضر . تأخرت عن مواعدها .
ماذا دهاها ؟ تليل فى مقعده . نهض لبيحث عن صديقه . طاف بالسفينة
مرتين . لا اثر لها . هل هى مريضة ؟ ربما . هل اذهب الى غرفتها ؟ خطوة
جريئة كيف نتخذها ؟ « روح يا اخى الكابينة . تحرك . حنفضل خيبة لحد
امتى ؟ » نضجت الفكرة فى ذهنه . شجعه عليها انها قالت له ، مرة ، دينها
افتقدته ، انها اوشكت ان تاتى الى حجرته .

دق باب الكابينة ، ودق قلبه . جاءه صوتها الفجرى انثويا مستخدنيا :
« ادخل » . ودخل . الفاتنة فى فراشها : شحوب ضئيل ووجهها . زاد
من انوثتها . حمرة خدفة فى انفها . اشارت الى اسابتها بنزلة برد . تهمل
شمرها فى فوضى ، زادت من عجريته واغرانه :

— صباح الخير .

— صباح الخير .

— ماذا بك ؟

— لا شىء . برد خفيف . آثرت ان اعالجه بالبقاء فى الفراش .

— افتقدتك . جلست وحدى فى الركن : ولم استطع . فمتشت السفينة

شبرا شبرا . ثم حضرت الى هنا ، فاعذرينى .

— لا بأس عليك . توقعت حضورك .

— بيدو اننى سوف لا استطيع الصبر على بعاذك .

— « وبعدين » ؟ لم تنفق على ان تبعد عن الغزل ؟

— نعم . نكن اذا اجتمع رجل وامراة . ربطتهما رابطة ، دعينى لا

اسميتها حبا . فالحب لا يبنى بين يوم وليلة . رابطة حميمة . مفعمة بالصدقة

والمودة . يستشعر الانسان الراحة فيها ، حينما يجلس الى انسان معين . ويحب حوارهُ ، ويسعد بأفكاره . اذا توافرت تلك الرابطة ، الدس مشروعا بأن يشير الرجل الى جمالها باشارات مهذبة ، بين الفينة والفينة ؟

فكرت قليلا ، عساها تجد اجابة على تساؤله :

— لا بأس . بشرط ان تكون مهذبة . ولا تهدف الى غير ذلك . ثم تكون عارضة لا تفسد الحديث الاصيل .

وسكنت لحظة اردت بعدها :

— لماذا نتعجل الامور ، امامك وقت طويل في انجلترا . والنساء هناك جيلات سوف يشبعن فيك هذا النهم .

وجاء وقت الغداء . وطلبنا من « المنردوتيل » . ان يتناولاه في الغرفة . فأجابهما الى رغبتهما . جلس على كرسي قريب من سريره . والحق ان الرغبة الغريزية لم تفارقه . ولو انه تظاهر بأنه انسان « مثقف » او « متحضر » ! وضعه الآن اردأ مما لو كانت صحيحة البدن . المرض اضاف عنصرا جديدا . يجعل التفكير في هذا الاتجاه ينم عن تخلف شديد !

في هذا الجو ، ابتأس مزاجه : البحر المنجهم . انساء الفاضبة . الحسنة الممنعة . الطعام المترف المترف . الاطباق الرئيسية الفاخرة . الفاكهة الفارقة في « الايس كريم » . الخوخ ! كان الخوخ من حيث الحجم واللون والطعم ورائحة : فاكهة محرمة . لم يرها من قبل ، ولم يذتها . كيف يذوقها دون ان يراها ؟ الذاكرة الجموح امينة ؟ فنشتت عن الخوخ في دروبها . وجدت انه رآه وشبهه ! لم يكن في روعة الخوخ الطلياني . لكنه كان خوفا ! كان يمشى مع مجموعة من زملائه من كلية الحقوق ، في شارع سمعد زغلول بالاسكندرية . احس بعبيق « كوكتيل » من الفاكهة . من بينه الخوخ والتفاح ، يتسلل الى انفه . كان آتيا من محل فاخر للفاكهة . نادي زملاءه . اوقفهم امام المحل قائلا : تف . شهيق !

ومع ذلك لم ركز فتانا على اى شيء من هذا . ركز فقط على اطباق المشهيات ، فائحة الشهية ، او مقدة الوجبة . لم يستطع ان يقهر الذاكرة . يبدو ان انشء الوحيد الذى لا يصيبه القهر فى المجتمعات البشرية ، هو الذاكرة ! انها تقفز معه ، وتمشى ، وتجرى ، وتتحدث ، وتحلم ، وننام ! عاونت العجربة الحسنا على شحذها .

ايقلته صديقته من تلك الففوة :

— اين ذهبت بك الامكار ؟ هل جئت لنسرح ، او لتسلىنى ؟

قرر ان يشركها فى سرحانه ، وان يسليها . سوف يفرها بالموضوعات التى ترضيها الى ان تشبع ، وتطلب موضوعات ترضيه . وفاجاها بقوله :

— لقد سألنى بالامس عن الطعام فى مصر .

سرى الجذل الى وجهها . اخفى الشحوب الذى سببته نزلة البرد . طيب يا قاتلة . قتلت غريزتى ، كما قتلنا مجتمع الوسية : بالرغم من اختلاف وسيلة القتل . سوف افرغ فى جوفك جرعات كالعلم ، الى ان تستجدى بى ، لاعفك منها .

رجتسه :

— بربك حدثنى ، فانت ولد طيب .

— الامر الذى فاجأنى ، هو هذه الوجبات البالغة الغنى ، التى تقدم لنا فى السفينة . ساكتفى بالحديث عن مقدمتها . عن الاطباق التمديدية . التى تثيرون بها شهية الناس . فى بلدنا ليس لدينا مشهيات . والحق . انهم لا يحتاجون اليها . فلديهم مشه قوى جدا ، يفوق كل المشهيات . وهو رخيص جدا . بل هو يقدم للكثرة من الناس مجانا . انه الجوع !

ومزعت الفاتنة الراقدة . واسرع بالقول :

— لا تغزعى . انت التى طلبت منى ان احدثك فى هذا الموضوع المثير .

فلا تقاطعيني بالفرع .

سكت لحظة ، بلع فيها رقه ثم واصل :

— اننى اود مخلصا ان يصل مستوى الغذاء في مصر ، الى مستوى المقدمة . او الفاتحات للشهية في اوجبة الايطالية . واقتصد بمصر شعبها ، او اكثريته الكبرى . باستثناء القلة المتخمة التى تستغل الشعب ، وتعيش عالة عليه . المشهيات الايطالية وحدها تضم جميع العناصر الرئيسية اللازمة لجسد الانسان .

انتعشت العجرية . همت بالقفز من سريرها . ابقاها حسن في السرير بلهسة من يده لعى كنفها . لته ما لمسها . الممسة الكهربائية سرت في جسده كالخريق : هل من المعقول ان تنفرد بانثى . تتضائل امام انوثتها كل الاذات . اجلس معها في غرفتها وحيدين . تنهارض في اغراء فانك . يتمدد جسدها على السرير . تغطيه ملاءة خفيفة : لا تخفى تضاريسه . ثم نتحدث عن مشكلة الغذاء الفقير لجماعير مصر !

رباه : ان العذاب الوان . هذا اللون الذى اكابده الآن ، لا عهد لى به من قبل . وقيل ان يضعف . جاءه صوتها يقطع تفكيره :

— قبل ان تمضى في الحدث . احب ان اتقول لك ، ان ما تشهده على السفينة ، ليس هو المجتمع الايطالى . التجمع على السفينة تجمع سياحى . ومستوى الغذاء هنا ، ليس هو مستوى غذاء الشعب الايطالى . جزء كبير من شعبنا ليت لديه مقدمات . او مشهيات . تسبق الوجبات الرئيسية . غذاؤه الرئيسى هو المقدمة نفسها ، او بعضها .

احب حسن ان يزيد معرفته بالمجتمعات الاوربية . قبل ان يعرض عليها عناءات مجتمعه . اراد ان يستمع الى انسانة ، يبدو عليها مثقفة . تنتمى الى بلد اوروبى متحضر . وهى تنشر « غسيها القذر » . قيل ان يفعل هو ذلك . ولو انه يدرك ادراكا ناضجا ، ان عرض المشكلة الاجتماعية لشعبه ، ليس عرضا « لغسيل قذر » . القذارة الحقبة هى ان يصر المسيطرون والمالكون في مصر على قذارة الغسيل . سألها :

— كيف وإيطاليا بلد متقدم ؟

— الحقيقة ان إيطاليا بلد نصفه متقدم ، ونصفه متخلف . الجزء الشمالى ، حيث وصل التصنيع درجة لا بأس بها ، يعتبر متقدما . بينما الجنوب مازال زراعيا . يرين عليه اتخلف . الفلاح الإيطالى قريب من الفلاح المصرى . صحيح ان مستواه المعيشى أعلى بعض الشيء . ولكنه مازال يستخدم المحراث البدائى . الذى تجره البقرة . تماما كما يحدث فى مصر .

وخاضت الحسناء المريضة فى وصف حالة الفلاح الإيطالى . كانت عكس الصورة البراقة التى انطبعت خطأ فى ذهنه . . وسكنت لحظة . ثم مضت تقول :

— . . . على ان الفلاح الإيطالى يلبس حذاء . وبدلة من قماش معقول ! وصلت اليه الرسالة التى المحت الإيطالية « المهذبة » إليها : احفاء هو القاعدة العامة بين الفلاحين فى مصر . والجلاليد الممزقة . التى يلونها انتراب ، والعرق ، والحشرات ، هى لباس زراعنا .

ذلت الإيطالية الى طعام الفلاح الإيطالى :

— طعام فلاحينا صورة متواضعة لاطباق المشهيات التى فاجأناك فى السفينة . هذه الاطباق ، أو بعضها ، هى وجبتهم الرئيسية : طبق مواضع من السلطة ، والمكرونه الاسباكيتى : باللحم المفروم . أو بغيره ، وقطعة من اللحم ، وأحيانا فاكهة أو حوى .

— « بس كده » ؟ ياملاة النبى . ياملاة النبى !

— ماذا تقول ؟

— عفوا . اود ان اتول ، والعمال فى الصناعة والتجارة والمرافق ؟

— هذه قصة تطول . هم ، لا مراء ، احسن حالا . ولكن الراسماله نطحنهم . ورجال الكنيسة يخربون وجداناتهم ، ووحدانات الفلاحين معهم .

ينافحون عن حقوقهم ، ومستوى أجورهم ، بانحسنى تارة وبالغف تارة
أخرى ، وبالأضراب تارة ثالثة . والصراع يضى .

— ما اثر نقابات العمال فى إيطاليا ، والأحزاب التقدمية المتعاطفة معها .
فى مستوى معيشة العامل ، وفى الحياة السياسية بحسبة عامة . ؟

— هذا موضوع كبير ، يا صديقى المصرى . ولعلك تعلم أنه فى
الانتخابات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية حققت القوى اليسارية التقدمية
نجاحا كبيرا . أوشكوا أن يحرزوا أغلبية المقاعد ، ويكونوا الحكومة التى
تحكم إيطاليا .

— هذه ظاهرة غريبة . المؤسسة الدينية فى إيطاليا ، أقوى مؤسسة
دينية فى العالم الغربى كله . واثرها فى الشعب الإيطالى واضح . فهو
شعب متدين . كيف تحقق قوى اليسار هذا النجاح فى مثل هذا المجتمع ؟

بذات القوى التقدمية بهذا خارقا فى نوعية الشعب الإيطالى ، وفى
وقايتة من التشويه الذى يباشره رجال الدين عليه . وأنت تعلم بقية القصة
بلا شك : تحالفت كل قوى القهر والرجعية على وقف تحرر الجماهير
الإيطالية . فالرأسماليون ، والمؤسسة الدينية ، والأحزاب القديمة ،
والمخابرات الأمريكية ، وعصابات المافيا ، ودول العالم الرأسمالى جميعا .
كل أولئك نزلوا المعركة . وانفقت أموال طائلة . واطلقت أكاذيب قاتلة .
ووجهت تهديدات ماحقة لكثير من الناس . ولو أن اليسار حظى بأكبر قدر
من الأصوات ، إلا أن تلك القوى المضادة للاشتراكية ، بما فيها الاشتراكيون
الديمقراطيون ! تحالفوا جميعا ضده . حصل على ٤٩٪ من أصوات الناخبين ،
وكان يجب أن يحرز أكثر من ٥٠٪ منها .

خاضت به الفجرية غمار التاريخ الإيطالى : كانت الكنيسة أكبر
اقطاعى فى أوربا . تلك تلك أطيائها الزراعية . ارتكب رجال الدين أبشع
جرائم التاريخ من تعذيب وقتل ، واستغلال للعاملين فى أراضيهم . تابعت
الحركة الدينية فى عصر الاقطاع وفى عصر النهضة . بينت الفجرية السمات

الدينية والدينية المؤسسة الدينية : وزراء ، سفراء ، واقتصاديون ، وسياسيون ، وفنون ، وقسس ، ورهبان . وكيف تحولت المؤسسة من الاتطاع الى الصناعة . كيف تملك رجالها المصانع والبنوك والمناجر ، الى جانب الحقول . وكيف اشتركوا مع الشركات الراسمالية العابرة للقوميات في ملكية المصارف والمشروعات . وكيف أصبحت المؤسسة جزءاً من الاستعمار الدولي والراسمالية العالمية . كان نصيبها هو الأرباح الضخمة . ومهمتها أن تجعل القهر والاستغلال للجماهير في العالم ، وكأنه قسواعد مقدسة نزلت من السماء .

سكنت العجربة الحساء . تمنى الا تسكت . ود لو تحدثت الى آخر الدهر . نقتنه الفاننة من دنيا جسدها ، الى دنيا أكثر فتونا . وعذما سكنت ، حيره سؤال صعب . كيف تجمع هذه الفتاة كل هذه الالوان من الجمال : وجه ساحر ، جسد خصيب وانوثة ، عقل ووجدان ينبثق منها فكر انساني أكثر خصوبة وسحرا .

وعلى الرغم من الدنيا التي نقلته الفاننة اليها . الا ان تساؤلا تقليديا .
أو قل « متخافا » ورثه من بيئته . خطر في باله ، فقال لها :

— هل استطيع ان أسالك عن درجة التعليم التي وصلت اليها ؟

— وصفت الى الثانوية !

أواه : وددت لو يستمع معي ، الى هذه العجربة الإيطالية ، حاملة اثناوية ، المفتون في مصر . ورجال الدين : المشايخ والقسس والاحبار . وكذلك الساسة ، واساتذة الجامعات . ليروا كيف يدرس الفكر الانساني كله : شرقه وغربه . اقطاعه وراسماليته واشتراكيته .

كنت أود بصفة خاصة ان يستمع اليها البنات والنساء في بلادى . وخاصة ربات الخدور ، المحصنات ، ذوات الصون . اللاني يرغبين عن

العمل ، وعن الثقافة ، وعن القيام بدور ايجابي لقهر التخلف ، الذى يعتبر
تاخر المرأة ، أحد عناصره الرئيسية .

وددت لو يرين هذا الجمال المبهر . ولينبهرن ، بدرجة اكبر ، بعقلها ،
وثقافتها ، والانسانة الرياضية فى وجدانها .

* * *

استيقظ حسن فى اليوم التالى على شمس صحوة . السماء تشارك
البحر لونه . وتعدده بانها لن تسلبه تطرانه . وتميدها اليه دموعا ! فلاليوم
جميل : ولا مجال فيه للدموع . انتظر صاحبتة فى مكانها المفضل . انت فى
موعدها . شفيت من الوعكة . الحوار الساخن بالامس ، قضى على البرد
الذى اصابها . جاءت يانعة ، تنبض بالحياة ، وتفوح بالمطر . تلوى اعناق
الرجال ، ونزيع ابصارهم .

الناس فى السفينة يعتقدون ان حسن اسعد انسان بينهم . الم يحظ
باجل مسافرة على الاطلاق ؟ اية سعادة ؟ انهم لا يعلمون ، السعادة التى
يفكرون فيها كانت تعاسة له . لا تصور واحد منهم نوع السعادة ، التى
غمرتة بالامس حين تحدثت اليه .

جلست بجانبه . اقتربت منه بدرجة اكبر مما كانت تفعل . جسدها
يلتصق به . انه يخشى هذا الجسد ويهواه . باشر النسيم دعابته المحببة .
عابثا شعرها ، ونثره عليه وكأنه يذار بها من أعين الحساد !

الجرعة التى احتساها بالامس بدلت نظرته للفتاة . مازال الوجه
الصباح ، والعينان الدعجوان ، مصدر سعادة له . ولكنها أصبحت خلفية
جميلة .

التصاقها به اليوم غير عادى . ماذا يعنى ؟ هل يعنى التصاقا فكريا ؟
انفكر بيكن ان تحد دون التصاق محسوس . سلوك الفتاة معه ، فيها مضى ،

كان واضحا لا لبس فيه . انهاليسست من انصار المتعة العارضة ، والحب الساذج . حديثهما بالامس تلب شعوره نحوها ، من نزوة لحظية الى تلاحم ثقافي محبب . تراجعت الرغبة الغريزية تراجعا كبيرا . في عينيها بريق غير مألوف . معان لا تستطيع أن يسبرها . ماذا ترد ؟ حيرته الفجربة الشائرة .

كانت متعاونة معه هذه المرة كذلك . انقذته من حيرته اذ عاتبته :

— وعدنتى بالكلام عن المستوى الغذائى فى مصر . ولما تكذبنا ، حتى ادرت الدفة بذكاء . جعلتنى احدثك انا عن الغذاء ، والسياسة ، والدين ، والتاريخ ، فى ايطاليا .

— كنت رائعة .

— اشكرك ، لكنى اريد ان استمع اليك .

— الغذاء فى بادي شىء مختلف تماما ، عن مستوى الغذاء الذى تحظى به اعداد كبيرة من انشعب ايطاليا . الغذاء الذى حدثنى عنه ، ولو انه يمثل جانبا متواضعا من مشهات السفينة ، الا ان فيه كل العناصر الغذائية ، اللازمة لنمو الانسان ، وللمحافظة على حيويته . . .

سكنت حسن قليلا ثم استمر :

— المشكلة عويصة ، ولا ادرى من اين ابدأ ؟

— ابدأ بداية تاريخية .

— سأحدثك حديثا واقعيا . عاصرته بنفسى ..

قص عليها قصة حياته ملخصة تلخيصا شديدا . ركز على اوان الطعام التى تعرض لها والتي كانت نموذجا لطعام الاكثرية الكبرى من شعبه: العيش الاذرة ، والجبنه القريش فى المدرسة الابتدائية . الجوع فى الصباح والمساء فى المدرسة الثانوية . العيش الاذرة والمخلل فى وسبة الخواجة

اليوناني . وذكرها بأن ذلك كان في الثلاثينات . ابان الازمة الاقتصادية العالمية ، التي اجتاحت العالم الراسمالي المتقدم والمتخلف .

ردت عليه الفتاة ، وقد شحب وجهها اليانع :

— لكن الازمة كانت هنا كذلك في اوربا وفي امريكا . غذاء الناس لم يندحر الى هذه الهاوية .

— الازمات في ظل الراسمالية تطحن الفقراء ، وترفق بالاغنياء ، كانوا أفرادا ام دولا .

— صدقت .

واستمر حسن :

— كان الناس احسن حالا في الاربعينات . الحرب العالمية الثانية احدثت نوعا من الرخاء صاحبه تضخم كبير . زادت نسبيا أسعار المحصولات ، والاجور . ولكن الجنيه اصبح يشتري سلعا اقل . على ان الحرب تطلبت امرا انحط بمستوى الناس . استيلاء السلطة العسكرية البريطانية على محصولات الناس ، واقواتهم قسرا . دفعت فيها اثمانا بخسة ، لتغذى بها العساكر في الجبهة . وعاونت الحكومات « الوطنية » الانجليز في ذلك . ولا ندرى هل كانت المعاونة طوعا او كرها . فالحكومات حليفة الاستعمار . ومن الصعب التفرقة بين القسر والرغبة الحرة .

وتحسن مستوى الغذاء في اواخر الاربعينات ، واول الخمسينات . اصبح قطاع كبير من الناس ياكلون الفول !

شبهت الغجرية تائلة :

— الفول ؟!

— أجل ، هل تستكثرون الفول على الناس ؟

— مطلقا . ان دهشتي لسبب آخر .

— ما هو ؟

— أنت مثقف ومناضل . ولست سطحيا كبعض الناس الذين التقيت بهم .

— تولى دون مقدمات . ولا تخاف .

— الفول تأكله الحيوانات فحسب في اوربا . لست اتصد اوربا المتقدمة ، كإنجلترا والمانيا وفرنسا ، ولكنى اتصد كذلك اوربا نصف المتقدمة كإيطاليا ، ونصف المتخلفة كالليونان ! والاذرة التي ذكرت ان الخبز . الذى تأكله الكائنة ، صنع منها ، هي غذاء الخنازير .

رنت كلمات « الحيوانات ، واليونان ، والخبازير » في وعى حسن ، وفي لا وعيه . ارتسم امامه على الفور محمد خطاب الخفير في وسية الخواجة اليونانى ، حينما قال له كلاما مائلا : العيش الازرة والمخلل هو طعام العبيد . تذكر أبو حطب الخولى الذى سمع الخواجة يقول : ان الازرة تأكلها الخنازير في بلده اليونان . قالا له ذلك ليبررا سرقتهما للقمح من جرن الخواجة . وليجناه على الانضمام اليهما ، وترك طعام العبيد والحيوانات .

لم يكن الفلاحون ، وحسن من بينهم ، يعرفون الفول كغذاء . كان هذا مستوى اعلى بالنسبة لهم . ولكنهم كانوا يرونه . وكان هو امينا على مخازنه . يطعم به البقر والجاموس والحمر المملوكة للخواجة .

اوجعه رد الفتاة عليه . اهله وعشيرته منخلفون عن الحيوانات في اوربا . لكن لماذا يغضب ؟ هناك قلة تغتال عمل الكثرة . وتترف منه . تاركة لاغلبية الناس ، غذاء منحطا لا يليق بالانسان . وترغمه على ان ياكل غذاء الحيوان . الفتاة لم تقصد اهانته ، او اهانة بلده . انها تطمن الظلم الاجتماعى في بلدها ، وفي بلده .

ولماذا يذهب بعيدا . اليس الفول غذاء لحيوانات الاغنياء في مصر

نفسها ؟ ألم يقدمه الكلايون لبهانم الخواجة اليونانى . بل ان الطعام الذى خلقه الله للذئاس ، تأكله الحيوانات ، وطعام الحيوانات يأكله البشر ! ألم تر الى كلب خلية الخواجة ، يطعم الحمام والمشويات فى نمه . وحصان الخواجة يطعم بالسكر ؟

ابتسم فى وجه الفتاة باشا . دهشت ، حيث توقعت غضبه . احب ان يقنمها ساخرا او جادا بطعامة الفول :

— الفول يا سيدتى ، وسيدة السفينة الاولى ! طعمه لذيد .

— ما حكايية السيدة الاولى هذه ، اهكذا تنظر الى ؟

— انى اهزل معك . الا اهزل معك ولو مرة واحدة ؟

— حسن . انى استمع .

— الفول يعتبر غذاء لطبقات الشعب المصرى كله .

— غير معتول .

— الطبقات الغنية تأكل الفول مشاركة منها لجماهير الشعب ! لكنها

تأكله لماما . وتجعل منه طبقا « أرستقراطيا » . ياكونه بالزبد ، ولشعب

يأكله بزيت بذرة القطن . يضيفون اليه البيض . واحيانا اللحم ، أو الكبدة ، وشرائح الدجاج .

— هل تذوقت هذه الاطباق ؟

— سمعت عنها . ولكن اكون امينا ، فانى اكلت الفول بالبيض !

— هل هو لذيد ؟

— كان طبقا يمثل مرحلة أعلى بالنسبة لى . فكان لذيدا !

— كانك تأكل طعام الحيوانات ؟

تماما كما قال له ابو حطب الخولى فى وسية الخواجة اليونانى .

اعتذرت الحسنا عن هذه السقطة وقالت :

- نحن اصدقاء . وانا آسفة .
- لماذا نأسفين ، وعذه حقيقة .
- حسبتك غضبت .
- ان زميلا لك ، يملك افكر ، لا يفضب ، والا غدا سطحيا .
- أشكرك .
- أنا اكل الفول في الصباح . وأعلم انه اكل الحيوانات ، حتى قبل ان التقى بك . ولكنه مستوى غذائي اهل من الخبز الاذرة والمخل والجبن القريش ، التي صاحبتي نيفا وعشر سنوات . وتاكل الفول معى صباحا وظهرا ومساء ، وبصاحب أحيانا بالاطمية ، وهي ايضا فول مجروش ، تاكله معى شرائح كثيرة من الطبقة المتوسطة . . ويشاركنا فيه المحظوظون من الطبقات الشعبية . ولو ان كثرة اخرى في القاع ، لم ترق الى هذا المستوى بعد .

بدأت هذه الصورة تزم ما بين حاجبيها ، ثم قالت :

— وماذا صنعت اللورة ؟

- انورة مازالت جديدة . عمرها ثلاث سنوات . وهي تكافح في تطبيق قانون الاصلاح الزراعى . ولعل هذا القانون ، بحول الفلاحين المستفيدين منه ، من مستوى العيش والمخل الى مستوى الفول !

كيف تسكنون على هذه الاوضاع ؟

- سؤال كبير يتطلب جلسات طويلة من الحوار . ولو ان الشعب المصرى لم يسكت .

— كيف ؟

- قصة طويلة . دعيني اركز على الغذاء . احكام ، والانجليز ، والراسماليون ، والمشايخ ، والتسسس ، والاطباء ، ووزراء الصحة ،

والاذاعة ، والجرائد ، كل أولئك يقولون للناس : ان الفول غنى بالبروتينات . لا تقل قيمته عن اللحمة والبيض . فليهنأ الفقراء بأن الله خلق لهم الفول . والله نفسه كذلك : هو الذى خصص اللحوم والطيير والاسماك ، وغيرها من الخيرات للاغذاء فقط . وعلى الفقراء ان يقتنعوا بما قسم الله لهم !

تقبل الشعب هذا الغذاء « الفنى بالبروتينات » . والذى يستخدم للحيوانات فحسب فى اوربا . وحيوانات الاترياء فى مصر . كان الناس راغبين . مستواهم الغذائى متدن . فجاء الفول ، ورفع منه !

استتمعت الفتاة اليه ، وحدقتها نسمعان مع كل كلمة قولها . وشفناها تنفرجان مع كل عبارة . انمجم فى الحديث . لم يعد يرى فى العيون سحرا ، ولا فى الشفاة فتنة ! وسألته :

— ألم يقل لهم احد : ان البروتينات نوعان : نوع حيوانى ، يأتى من لحوم العجول والخراف والدبوك الرومى والدجاج والاسماك . وهو النوع الممتاز ، الضرورى للجسد الانسانى . وهو طعام الانسان ، فى كل مكان . يحترم فيه الانسان . ونوع نباتى ، وهو الموجود فى الفول وغيره من النباتات . وهو احط أنواع البروتينات وافقرها . والاصرار على تناوله فحسب ، يصيب الانسان بفقر الدم ، والانيميا ، والبلاجرا ، وغيرها من امراض سوء التغذية .

— الهذا تشحب وجوهنا ، وتحمر خدودكم ؟ ! . . سابوح لسك بسر : اناشخصيا لم اكن ادرى شيئا عن هذه التفرقة ، بين البروتينات الحيوانية والنباتية . لذلك كنت مخدرا انا الآخر ! وصدت هؤلاء الناس فما بالك بشعب تطيح فيه الامية .

وانهى « جونج » الغذاء هذا الحوار انشاك الشائق . اكبر الظن انه كان لهذين الانسانين ، بصفة خاصة ، نوعا من المشهيات .

السهرة تبلغ ذراها . الموسيقى تصخب تارة . وتحلم تارة أخرى .
ركاب السفينة يمتزجون بطاقتها . يرتصون رقصات « التانجو » « والفالس »
الأوربية الهادئة . « والسبنا » « والربما » الأمريكية الثلاثينية الراضة .
« والروك أند رول » : الأمريكية المعرودة .

مديقتنا حسن معزول عن هذا الجو . عزلته شطحاته الفكرية .
ومجتمع لم يعلمه هذه الأنواع من الرقص . أصابت اللعنة مديقته . صادقت
رجلا ، صورة للشعب المصرى الكادح . حرمت نفسها من الضحك والمرح .
كانت سعادتها في الجلوس اليه ، والجدل معه . سعادة أكبر من هذه
المتع : التي تنضح من حولها .

وجدت رغيقتا في انتظارها . لجين القمر ينسكب على وجهه . وكأنه
يحاول أن يخفف من سمرته ! اتخذت مكانها الى جانبه . التصقت به ، كما
لم تلتصق من قبل . أحس اندفء يغزو جسده . لمح في عينيها . على
شعاعات التمر ، وثريرات السفينة ، نظرات عميقة ناعسة ، ذات حلاوة
خاصة .

لم تكن الغريزة قد قتلت فيه . لم تستطع الاحاديث المنقفة النورية ،
التي اسهمت فيها العجربة ، أن تقضى عليها . كانت مضطجعة في داخله .
متحفزة . تنوق لمن يوقظها . لم يكن متأكدا : هل الانتصاق الحميم .
والنظرات الحانية ، دعوة لامسية غرامية لا هل هي رغبة عجزية ؟ أم نحن
مازلنا في دنيا الثورات والمشكلات الاجتماعية ؟

لمح في النظرات اعجابا . اهو اعجاب به كرجل . أم اعجاب بمناضل .
ما زال يعيش عناءات شعبه ؟

يبدو أن الفتاة بدأت تميل اليه . استجابته لرغبتها في الابتعاد عن
الجنس ، اثار اعجابها به . رات في نضاله ، وفي اسهامه في الحوار .
سورة حلوة ، لفتى سمهري الروح ، رشيق الفكر . قبل أن يكون قوامه

سمهريا رشيقا . بدأ قلبها ينبض نحوه نبضا خاصا . لا ندري ان كانت احبته . فلاحب بين الناصجين لا يتم في يوم وليلة . لكن الواضح ان الفتاة تعلقت به . الاشراقة انعامة في عينها . والدفاء المنساب من جسمها . علامات على الطريق .

لم يفتن تماما لهذا التعبير . حسبه اعجابا بافكاره . وكان هذا خطأ مادحا ! ولكي تزيد العجربة من حيرته ، قالت له :

— هل ستحدثني ادلة عن الحب والمشكلة الاجتماعية ؟

هذا ما كان يتوقعه تماما . من العجربة المثقفة . هذه الفتاة ، تمزج جمال الحب بقبح المشكلة الاجتماعية . اتعتقد ان الحب يحل المشكلة الاجتماعية . وهل هذا ممكن في مجتمعات تحتد فيها شراسة الانسان ، وضراوة التملك ! من العسير القول بانها ترمى الى ذلك . فهي مثقفة ، ومتعمقة في مسار التاريخ . اتردد ان توسع من آفاق المشكلة الاجتماعية ! اتود ان تظهر ابعادها الاخرى . غير السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ وبذلك تمزج المشكلة الاجتماعية بأجل ما يملكه الانسان . وهو الحب . الحب يشوه في ظل نظام طبقي ظالم . ويسمو في نظام عادل . ينساوى فيه الانسان والانسان . اذ كيف يزدهر الحب الا في جو من المساواة . افتاة عاشقة لمشكلة الانسان . كان على حق حينما تحفظ بالنسبة لنظراتها انساهمة ، وجسدها المفروس في جسده . ومع ذلك اراد ان يعزف على اوتار النظرات الشجبة . وعلى دعوة الحب المذثرة بالمشكلة الاجتماعية ، وقال لها :

— الا نستطيع ان نفصل الحب عن القضايا الاجتماعية ؟

— هذه نظريتك . فقد قلت لي ان الحب والمشكلة الاجتماعية متلازمان .

— قد يكون هذا مرتبطا بقضية معينة ، ولم اتصد به نظرية عامة !

— انت تشوقنى للاستماع اليك . لعل النواتج تساعدنا على صياغة
للنظرية !

— أف لك !

— نعم ؟

تدفعينى احيانا للحديث بالعربية .

— وددت لو نطقتها .

— انا مستعد ان اعطيك اياها .

— متى ؟ ساغادر الباخرة غدا .

شرخت هذه العبارة صدره . لمحت سوفيا الاسى على وجهه . حاولت
جهدها ان تنسه جراحه . ادركت سببها بفريرة الانفى . وقالت له :

— لا تستخدم براعك في الحوار . وتغير مجرى الحديث .

نظن على الفور ان الرابطة الثقافية النضالية . هى الاصل في علاقته
بهذه الفتاة . وحتى لو كان هناك تحول . فمضى يتم ؟ انها راحلة في الصباح .
فلبصر على انه حفى بعلاقتها الفكرية . المسائل الاخرى لا تشغله . ومع
ذلك فقد ود لو يداعب رفيقته ، ليعرف حقا ان كانت لا تلقى بالا للجنس .
قال لها :

— أرجو ان تعذرينى ، اذا كنت ظلت ان الحب والمشكلة الاجتماعية
لا ينفصلان . هل نستطيع ان نفضلهما . ولو لوقت قصير ؟
كانت دهشته بالفئة حين اجابته :

— ممكن !

مزقته هذه انكبة ، كما لم تمزقه كلمة واحدة من قبل . اثارته اشجانه.
وتطلعاته ، وكبتا عبر ثلاثين عاما .

— هل انت جادة ؟

- نعم .
- غير معقول ! هل تقصدان ان نفضلهما : لنخضعهما للنحليل ، حتى يكون :لنقاش علميا . ؟
- لا . . اقصدا ان نفضلهما كما تهوى !
- اشتعلت عروقه . نصاعدت ضربات قلبه . داخله يمور . غطى جسده عرق غزير . اراد المناضل ان يحدتها فتمنم . رات ارتباكه فقالت :
- ماذا دهسك ؟
- حاول ان يسترد جأشه : فأجابها :
- لا شيء .
- لماذا تطلعت الحديث ؟
- شعرت بدوار مفاجيء . سيزول حالا
- أحست جبهته بيدها . وجدنها متوقدة . قامت له :
- هل احضر طلبيبا ؟ ام تود ان نذهب الى غرفتك ؟
- طمانها انه بخير . تركته لحظات : ليستعيد قواه . قالت له :
- هل يحدث لك ذلك الدوار دائما ؟
- لا . يحدث فقط في لحظات معينة . يذب الى انه يحدث لى لأول مرة !
- ولم تفهم . خشيت ان تكون قد قسمت عليه . وطلت لعلاقة معه الى علاقة فكرية فحسب . لكنها الآن تصدقه القول . انها على استعداد لنصل الحب عن المشكلة الاجتماعية . ما باله لا ينمشر ويستجيب .
- قالت له بنغمة انثوية ، ليست في حاجة لاستخدامها :
- هل نذهب الى غرفتك . او الى غرفتي ؟
- اندنع في داخله حريق . اسهمت عوانق الدنيا والآخرة في اطفاء

الحريق . عاقته عن تقبل العرض الجميل ، الذى كان حلما : الدين ، والقيم . والنضال ، والحرمان الطويل . اخذ ينسأل تساؤلات غريبة : هل الفتاة بكرا لم سبيا ؟ . . اذا كانت « بكرا » ، فقد صور مجتمعه البكارة غولا مخيفا . ازالتها جريمة كبرى ، لا يود ارتكابها . واذا كانت « سبيا » ، فمن الذى سبها . ! . . لم يسألها عما اذا كانت متزوجة . لا يريد ان يعتدى على حق انسان آخر . تجملت عليه عقد تاريخية مركبة ، جعلته ينكس عن العرض .

— لكن الحوار فى غرفتك حوار مكبوت .

— لا تخف . سيكون هذه المرة طلبقا !

احب ان يراوغ . لا يريد ان يشوه صورة الفتاة الثائرة فى وجدانه ! وسأل نفسه سؤالا اشد غرابة : الا تخاف من الحمل ! . . انها ستغادره غدا . هل بتركها وحدها ، نجتز عذابات ليلة واحدة . مع انسان غريب ؟ واقترح عليها ان يواصل الحديث عن الحب والمشكلة الاجتماعية ! !

فطنت الى انه يتهرب . وعلى الرغم من ثورتها وثقافتها . وعلى الرغم من رغبتها فى الاستماع اليه ، الا انها شعرت بجرح موجه . اعتذرت عن دعوتها . وكانت احلى اماتيه . الانثى التى يتحدى جمالها نساء السفينة جميعا . ظهرت خيبة الامل فى عينيها . حاولت ان تداريها ، فلم تسنطع . استأذنته لننام مبكرا ، فستغادر السفينة فى الصباح . تركته مضيفا .

لم ينم طموال ليلته . بكر فى انذهاب الى غرفتها . دق بابها . جاءه الصوت الفجرى الذى يمشقه : ادخل . تهلت لرؤيته . ظنت انه جاء ليعتذر لها . ويدغدغ مشاعر الانوثة فيها . والحق انه ذهب ، ولم تستبعد مشاعره هذه المعانى . الرغبة فيها ، وترده ، ارتقا جنفيه ، استعرا فى صدره طول الليل . لكن العقبات الاجتماعية والتاريخية عقبات ضاربات . وقتن جميعا ضد رغبته فيها . قال لها وليته ما نكلم :

— جئت أعاونك على حمل حقائبك !

أشاحت بوجهها عنه . لكن البسمة الهادئة التي نقيته بها أول مرة ،
ما لبثت أن عادت إلى شفتيها . وقالت له بهدوء مبالغ فيه :
— خل عنك . الحقيقية خفيفة . أستطيع حملها . أنا لست مترفة .
أنا عاملة في مصنع للنسيج بكبرى . نشأت في أسرة شعبية ، ربها عامل
في ورش السكك الحديدية .

وبهت حسن : كل هذه الثقافة . والنورية . والمعرفة ، وعاملة
نسيج : يا للمعلم والمتقنين في بلدي . كبرى ! التي أنفق الملك فاروق ثروة
محر ، وعمل فلاحها . على الفواني فيها . كبرى هذه تنتج هذه الثائرة ،
التي تشغل وجدانها بمشكلة الملايين الكادحة في مصر ؟ !

وعندما عاد إليها هدوءها . استأنفت حديثها معه . وتمنت لو قصر
عليها صور الحب والمشكلة الاجتماعية في بلده . وقد كانت على استعداد
أن تحدثه عنها في بلادها . لولا أن السفينة رست في نابولي . وحن موعد
الفرار .

ولما صعدا إلى ظهر السفينة . وصاحبها إلى سلم الهبوط إلى رصيف
الميناء ، مد لها يده :
— وداعا يا فتاتي .

كان عمده بالمناضلين ، أن الفقر يشوه وجوههم . والتخلف يهزل
أبدانهم وعقولهم . ولكن بعد لقائه بالعجربة المنقصة ، أدرك أن هناك
مناضلات يجتمعن بين العقل المستنير ، والجبال المثير . كانت ثقافة الفتاة ،
وحصيلة المعرفة لديها ، وانطاقة الثائرة في وجدانها ، قد ردت الأمل لفتانا .
فأصبح أكثر إيمانا بأن الكادحين في قدرتهم أن يتحرروا من نير الظالمين .

مد لها يده . . . لم تأخذها . كانت تخشى له مفاجأة : قبلته في فمه

قباة طويلة مسكرة . تركته يترنح ! اعذه قباة نلحب ، ام قباة للنضال في سبيل المشكلة الاجتماعية ، ام هى مزيج منهما ؟

أقلعت السفينة من نابولى . وصلت الى جنوة مع الغسق . ركب حسن المطار . قام برحلة لييلية . كانه اراد الا يرى في رحلته الى انجلترا ، غير سويا الايطالية ، وشواطئ بلادها الجميلة . اغمض عينيه على صورتها . ركب السفينة من كاليه بفرنسا الى دوفر بانجلترا . كان الصبح قد تنفس . وبدت انجلترا لناظريه .



الريف الانجليزى . انخضرة الخضراء تسقيها السماء مباشرة . دون مساطة النهار ! الزهور تحيط بالمبانى الانيقة ، ذات الاسقف الحمراء . حبات المطر تنحدر عليها ، فتغسلها . وتزيدها رونقا وبهاء . ما بال المطر هنا ينثر درره ، فيزيد الريف رواء ، بينما يجعل من الريف المصرى كومة من الوحل والروث . ويجعل من القاهرة مستنقعا كبيرا ؟

قضى ارجوك . لا استطيع ان ادرس ، واستمتع . والمقارنات تثبت الى ذهنى . وتعكر صفوى . وابرم مع الذاكرة هدنة . اشترطت لكى تكون امينة معه ، ان تكون مؤتنة وقصيرة .

انفلاح الانجليزى ، يتخايل فوق الجرارات ، وآلات البذر والحصاد . يرتدى حلة من الصوف . وقبعة انيقة . ويلبس حذاء جلديا ، تصل رقبته الى ما تحت الركبة . مرت صورة الفلاح المصرى كالعاروخ في مخيلته : ممزق الثياب ، حانيا ، تخنرق البلهارسيا جلده . لتسكن عروقه ، ولنانى على ما يسيل فيها من دم فقير . ومرق سهم آخر : الى اى مدى تسبب هذا الفلاح المتقدم في فقر ذلك الفلاح المتخلف ؟

— هذا مستحيل .

— اعتذر اليك .

— لتد وعدنى بهدنة .

— آسفة وسأحافظ على وعدى قصير الاجل .

انسابت صور الريف الانجليزى رائعة : الحدائق النضر . والفلال
الحرير . والغابات الخضر . تعكس نغمات اللون الاخضر جميعا . البحيرات
انزرقاء تنساب فوقها حمام بيضاء ، ذات اشعة ملونة .

بشر صحيح ابدين . تطفح وجوههم بالحياة . تفيض ابدانهم قوة .
اطفال يتخطرون كالطير ، ويطفرون كالغزلان .

حتى الحيوانات . البقر والخيل تنبض اجسادها بالقوة والعيشة
الرخية . حيوانات مترفة لا تعمل . امر غريب ! ايعجب المرء بالانسان
العامل . وبالحيوان المعطل ؟ ادى استخدام الآلات فى الانتاج الزراعى الى
ان يعفى الحيوان من العمل . تبطل العامل ينخفض بالانتاج ، ويتسبب فى
ناخر الانسان . لكن تعطل الحيوان ، فى هذه المجتمعات يسهم فى رخاء
الانسان .

البقر والحمر وانجاموس الهزيل فى مصر . البهائم الجائعة المتخلفة :
العابطة كالانسان ! هل الحيوانات عندما تنمى الى مجتمع متقدم ، تكون
مقدمة هى الاخرى ؟ احتج حسن على ذاكرته :

— أنت لا عهد اديك !

— نحن فى دنيا الحيوانات ، لا دنيا البشر . وكان اتفاقنا على بأساء

الانسان فحسب .

— انا قصدت بأساء المجتمع كله .

— لك حق . فالحيوان شريك للانسان فى الحياة الاقتصادية
والاجتماعية . فهو جزء من المجتمع الانسانى ! وانى لاعدك ان انفذ الهدنة
القصيرة .

— اشكرك ، رغم ان ثقتى فيك ليست كبيرة !

القطار النظيف المريح . لا نقسم فيه الناس الى طبقات ! يسرى كالنسيم فوق القضبان . لا تكاد تحس له صلصلة ، او صفرا ، ولا يثير غبارا . انهى انقطاع متعة حسن بالريف الفاخر . اوصله الى لندن بسرعة .
المدينة العتيبة الشاسعة . مبانيها منخفضة . تتكون من طابق او اثنين . تحيط بها حدائق فيحاء . ينسق فيها الورد البلدى ، متعدد الالوان . بدت له لندن مدينة من الفلل والنورد البلدى !

* * *

— • —

رحلة البحث عن مسكن رحلة مأساوية . عرت امامه جانبا من حضارة « انرجل الابيض » . عندهما وصل الى لندن : اقام في نزل كبير ، يطلق عليه « البوردنج هاوس » . لكنه يود ان يسكن وسط اسرة . يستأجر منها غرفة . وذلك ليتسنى له ان يحسن من لغته الانجليزية . وليدرس عن كتيب الاسره في هذا انبلد .

بدأ مشوار البحث . الغرف المعروضة للايجار ، يعلن عنها : اما على واجهة المنازل . واما لدى السماسرة . اراد حسن ان يوفّر عمولة السمسار . ذهب بنفسه يدور على الدور . فاجاه الاعلان التالى :

« غرفة للايجار — المونون لا يقبلون » . او كما يقول المطلون عن سياراتهم للبيع في الجرائد المصرية : « الوسطاء يمتنعون » . وذهب الى بيت ثان : « الملونون يمتنعون » . وهكذا بيت ثالث ورابع . وفي المحاولة الخامسة لم يستطع ان يهضم الفكرة .

هل هو ملون ؟ ماذا يعنى الاصطلاح ؟ دق جرس الباب . واطأت منه

ربة انبيت . نظرت الى بشرته الداكنة . قالت على الفور : « آسفة ،
الملونون لا يقبلون » . احب أن يحاورها . قفلت الباب . تهلل كثيرا ، اذ
وجد غرفة اخرى . لا يذكر اصحابها شيئا عن موضوع الملونين . قرع الباب
بمقرعة من الحديد ، تشبه مقارع البيوت القديمة في القاهرة ! فتحت سيدة
الباب . لم نقل شيئا . لم ترد على نحيبه لها . صفعت الباب دون أن تتكلم .
اشتكى لزمال له بالكعبة ، من أيرلندة ، يدعى وليم . اجابه : الحى
اذى تبحث فيه عن غرفة . هو حى الطبقة المتوسطة العليا . وهى تحاكي
الارستقراطيين . وهم قوم محافظون . أفكارهم قديمة .
وسأله حسن :

— ألم ينتقف هؤلاء الناس ، ليعرفوا أن هذه النظرة للاجناس نظرة
متخلفة ؟

— هذه مشكلة عويصة . ربما نناقشها معا فى وقت آخر . وأجدر بك
أن تتفرغ الآن لاجاد سكن ، بيقك النشرد ، بدلا من الحوار !
أقترح عليه صديقه حيا للطبقة المتوسطة « الوسطى » أو « الدنيا » .
المساكن هناك ارخص . ولن تجد هذه النظرة العنصرية الصارمة .
ذهب حسن الى تلك الاحياء . لم يجد الطبقة المتوسطة « الوسطى » .
احسن حالا من الطبقة المتوسطة العليا . ولا الطبقة المتوسطة « الدنيا » ،
اقل سوءا من الشريحتين اللتين تعلمونها .

عجيب أمر هذا انبلد . يفاخر ابناؤه بانهم طبقوا الديمقراطية فى اول
مجتمع بشرى فى العصر الحديث . بعد أن كانت الديمقراطية فكرة نظرية
فى عهد الاغريق القدامى . الديمقراطية تنضين المساواة الكاملة بين الناس .
بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين . أنهم يقولون كذلك بانهم ينشرون
« رسالة الرجل الابيض » على وجه الارض . لينعم العالم بالأحضارة
والديمقراطية .

خطرت له فكرة مجنونة . غير أنه يحتاج الى مرافق ، فالفكرة خطيرة .
وهو في عربين الاسد . الاسد البريطاني ، كم ارهبه وهو صغير . ارهبه
« كاريكاتيرا » في الصحف المصرية . وارهبه وهو شاب في الجيش . كان
يذهب الى شاطئ النيل ، لينعم بفسحة العصارى يوم الخميس . بعد
اسبوع من الطوابير والمناورات الشاقة . منظر نكتات الجيش الانجليزى
على شاطئ النيل . يفسد متعته . جنود الاحتلال يلوثون النهر ، الذى
نستقى منه مصر الخضراء . وضع على مدخل كوبرى قصر النيل اسدان
حديديان . رمز بريطانى ، يشر في وجدانه غثيانا وقهرا . مازال الاسدان
يقبحان الكوبرى ، والنيل من تحته . حتى بعد جلاء الانجليز بثلاثين عاما !
لابد ان ينشبت بحقوقه في هذا البلد . يكفيها انها سلبت حقوق شعبه
نيفا وسبعين عاما . اختار زميله الايرلندى ليرافقه في تنفيذ فكرته . قال له :

— سوف اسكن احدى الغرب المنوعة على « الملونين » .

— انريد ان تشق طريقك الى الفرقة بالقوة ؟

— لا . لن اقول لك ماذا سافعل . ولكنى اسالك : هل ترافقنى ؟

— دون ان اعلم موضوع المرافقة .

— هل انت خائف ؟

— نحن قهرنا الانجليز يا بنى !

— ونحن في سبيل قهرهم .

— ساذهب معك .

— يا ولد . هذه شهامة اولاد البلد !

وشرح حسن لسديته « وليم » . شهامة اولاد البلد الفقراء . حتى
لو كان ذلك على حساب مواردهم المحدودة . ولاخطار التى قد يتعرضون
لها .

في صبيحة يوم من أيام السبت . بدأ الصديقتان المصري . والاييرلندي . تنفيذ الفكرة ؛ التي لم يطلع حسن زميله عليها . مضيا من بيت الى بيت ، حتى انيا الى بيت صفيح اتيق . تحف به حديقة صغيرة . فواحة بالورد البلدي . اليافطة اللعينة تعلن بحروف اكثر بروزا من غيرها : « الملونون ممنوعون » . دق وليم الجرس . فتحت الباب زهرة يانعة . مازالت اكملها بحرسها . بنت صغيرة ؛ في عمر البرعم ونضارته . بادرتها :

— صباح الخير .

وردا عليها معسا .

— صباح الخير .

واكمل حسن :

— كيف حالك ، ابتها الفتاة الجميلة ... ابتها السيدة الصغيرة ؟

— في احسن حال . أشكرك . ماذا تستطيع ان افعل من اجلكما ؟

اغرت الفتاة حسن على ان ينولى هو الكلام :

— ابن والداك ؟

ردت ردا فيه اعتداد الكبار :

— أنا اقوم مقامهما .

— اريد ان استأجر الغرفة الخائية عندكم .

— تفضلا .

قادنها الى الغرفة ، لينترجا عليها . وقالت لهما :

— اتروق لكما . ؟

ورد حسن :

— نعم .

— هل أنت الذى ستسكن عندنا ؟

— نعم . اذا احببت .

وخشى حسن ان تكون الصغيرة على علم بموضوع الالوان . وان
والديها قد صبا في جوفها ذلك الشراب العنصرى المر . كان يخشى على هذه
الفنأة الطهور ان تلوثها تلك القيم . اكثر من خشيتها على ضياع الغرفة منه .
اجابت الفتاة فى لغة حلوة :

— تفضل . مرحبا بك .

عال . جلس الشابان فى الغرفة انتظارا لرب البيت او ربه . جاء
معا فى الثانية عشرة . طارت المصفورة . تحمل لهما النبتة : مامى — دادى .
انا احرت الغرفة الخالية . قمت بعملكما . الضيفان ينتظرانكما فيهما .
وجاء صاحبا المنزل الى الغرفة الموعودة . ووجها : من المستاجر الابيض ام
الاسمر ؟ لم يحببا الشابين . وقاداها الى غرفة المعيشة . خاطب الرجل
وليم :

— هل أنت الذى تريد ان تستاجر الغرفة ؟

واجابه وليم :

— لا . هذا السيد . هو الذى يحتاج اليها .

— حسبك انجليزيا .

فطن الرجل للملاح الى ان لهجة وليم . ليست لهجة انجليزية نقية .
ورد عليه وليم :

— لا انا ايرلندى .

بدا على وجه الرجل : على التو : ان ايرلندى اخذ يتنزل من نظره .
انخفض من قمة الجنس الابيض ، الى الانجليزى ، الى حضيضه ، الى
ايرلندى ! لهذا خاطبه على الفور دون مجاملة :

— الم بقرا اعلان ناچير انشقة ؟

ورد وليم :

— نعم قراناه .

— كيف ندخلان بيتى ، اذن . فى غيبتى . وغيبه زوجتى ؟

كان الرجل الانجليزى . صاحب البيت . يخاطب وليم فقط ، واهل
حسن تماما . طعنه فى كرامته ، صبر عليها . ولكن عندما لفظ عبارته
الاخيره رد حسن :

— ان ابنك الجميله ، كانت لطيفه ، ودعنا للدخول .

وهنا تدخلت « الرعمة » بحماس وبراءة :

— نعم يا دادى . انا طنبت منهما الدخول وانتظاركما .. وددت ان
اقوم بعملكما . هل ارتكبت خطأ ؟

طلب الرجل من ابنه الذهاب الى حجرتها . غادرت الحجرة .
وبعد ان قفلت الباب خلفها قال صاحب البيت :

— هذه بنت صغيره . ما كان يجب ان تستفلاها .

وانتفض ولام :

— كيف يخاطبنا بهذه اللفه ؟

— كيف تفتحنا بيتى دون اذن ؟

ودولى حسن الكلام :

— الحقيقه اننى لم افهم الاعلان تماما عندما قرانه .

ورد الرجل :

— كتبت فيه ، بحروف كبيره جدا . يقرؤها من له عينان ، ان الملونين

لا يقبلون .

كان الرجل مصرا على مخاطبتهما بلهجة غير سديقة . وكان وليم منحرفا
لمهاجيمته لولا ان حسن خان يسموته . وقال حسن :

— من مقصد باللونين ؟

— كل من ليس ابيض .

— في شمال مصر . مصريون بيض البشرة . وفي تونس والجزائر
والغرب . وسوريا ولبنان وفلسطين بيض كثيرون . هل تعتبر هؤلاء من
الجنس الممتاز ، ومواطنيهم السمرا او السود من جنس منحط ؟

— لا اريد ان ادخل معك في جدل . انت اسمر ملون . ولن تسكن غرفة
في منزلي على الاطلاق !

ودخل وليم :

— سديتي جاء من بلاد له حضارة عمرها سبعة آلاف عام . وهي اول
الحضارات الانسانية على الاطلاق . تسبق لحضارة الرومانية بازمنة
الاف سنة . وعندما جاء الرومان لغزو بلادنا . كانوا يطلقون على سكان
الجزر البريطانية : البرابرة .

— لا اريد درسا في التاريخ .

واجهز عليه وليم :

— فاذا جاز ان يكون هناك جنس ممتاز وآخر منحط — وهذا لا يجوز
الا في الفلسفات الرجعية والاستعمارية — فان الجنس المصري من ارفع
الاجناس . والانجليز من اخطاها .

وهو الرجل ان يلكه . لولا ان ضبط نفسه . وببرود شديد ، قال لهما:
— عن اذنكما : ساذهب للتواليات .

وبعد دقيقتين تمام . دخل الحجر . لم يكن وحده . كان معه جندي
من جنود الشرطة . عريض المنكبين ، فارغ الطول . خفض من راسه لكي

يمر من باب الحجره احمر الوجه . صارم الملامح . وجهه مكتظ باللحم والجهامة .

هم حسن باستقبال رجل الشرطة واقفا . كان الودعوف طبيعيا . فهذا ممثل البوليس البريطانى . ومنظره انفخيم . لا يثير الرهبة فحسب . بل يثير الاحرام ايضا . كذلك . نشأ فتانا نشأة قروية . كان ومازال . يتقف لاي انسان يدخل عليه حجره ، وهو جالس . يقوم لتحيته مهما كان موته في السلم الاجتماعى .

أوما اليه وليم ان يبقى جالسا . يا بنى ، يا حبيبى . نحن نقف للشرطة في مصر حتى للمساكر ! كانت بدلة رجل سكوتلانديارد فاخرة . مسحته جيدة . معتد بشخصه . لم يكن من الممكن ان يفرق المرء بين ضابط وعسكرى . لى واحد . الكرامة واحدة . والصحة انجيدة واحدة ! ونظر حسن الى وليم ، تعجبا . كانت نظرة وليم حاسمة . بنى مكانه جالسا . وراى وليم واضعا ساقا على ساق . ففعل نفس الشيء ! كان الجلوس ، ووضع ساق على اخرى . والشرطى وصاحب البيت واقفان ، كل اولئك هذا من روعه . واعطاه ثقة .

تساءل الشرطى :

— ما المشكلة ؟

ورد صاحب البيت :

هذان الرجلان اقتحما منزلى في غيابى . ويريدان استئجار الغرفة الخالية بالقوة .

اندفعت الفتاة الصغيرة نحو ابها والشرطى قائلة :

— لا يا ددى . انا قلت لهم يدخلان البيت . وينظرا لك .

كانت البرعمة قد اثارها ان يحضر شرطى من سكوتلانديارد الى منزلها .

فدخلت الغرفة خلفه . ولما رأت « دادى » لا يقول الحقيقة ، اعترضت عليه . .
بنخ . بنخ ! ايتها الوردة المبرعمة النظرة .

وجه رجل الشرطة سؤالاً الى وليم :

— ما الذى جاء بكما الى هنا ؟

— جنفنا لنستأجر الغرفة المعلن عنها للايجار .

— بالقسوة . ؟

— لملك سمعت ما قائلته البنت الصغيرة ؟

— سمعتها . انما هذه طفلة .

تصدى حسن للاجابة . جاء دور القانون :

— لكن قولها ينفى انما اقتنعنا المنزل عنوة . وينفى اهم ركن فى
الجرمة وهو القصد الجنائى .

دهش الشرطى للاجابة ، وقال :

— هل انت طالب ام محام ؟

— اتقوم بدراسة لاقتصاد لنيل الدكتوراة . لكنى درست القانون كذلك .

وقال رجل البوليس :

— سأسال كل منكما سؤالاً واحداً فحسب . بعده اتخذ قرارى .

وتوجه بسؤاله الى رجل التبيت :

— اتريد ان تؤجر هذه الغرفة لهذين السيدين ؟

وتدخل حسن :

— انا الذى اريد استئجارها .

ورد صاحب البيت :

— لن يسكن غرمتى . لون .

— وسأل الشرطى حسن :

— هل تصر على سكنى الغرفة ، بعد أن رفضك صاحبها ؟

— نعم !

وعقب الشرطى :

— اذن هيا بنا الى مركز الشرطة .

مركز ابوليس . مبنى صغير . رئيسه كونستابل . يسمو « الكونستابل الرئيسى » يجلس فى غرفة متواضعة . ابلغه الشرطى الذى صحبنا . بادعاء طرق النزاع . منظر الكونستابل كان مهيبا ، صارما . دياغم تحية بعد الظهر « من تحت ضرسه » . ودعاهم للجلوس .

قرر الكونستابل ان يحقق الموضوع بنفسه . فهو يضم انجليزيا . وايرنديا . ومصريا . وسأل الشرطى :

— هل نكدت من واقعة دخول المنزل قسرا ، دون اذن صاحبه ؟

— هذه الواقعة لم تثبت . فعندما ادعى صاحب البيت ذلك . ردت عليه ابنته . بأنها هى التى طنبتهمهما الدخول . وانتظار ابيها ...

— ما سن هذه الفتاة . ؟

— نحو عشر سنوات .

وبدا رئيس المركز التحقيق بسؤال صاحب المنزل :

— ما شكوك ؟

— دخل هذان ارجلان منزلى فى غابى . واحتلا الغرفة الخالية بالقوة ، حيث وضع فيها المصرى حقيبة ملبسه .

— دعنا نتجاوز عن مسألة دخول البيت فى غيابك . فقد ثبت ان ابنتك هى التى سمحت لهما بذلك . وهذا امر اثباته عسير .

وسأله المحقق :

— هل ارتكب المصرى او زميله مخالفة اخرى في المنزل . غير رغبتهما في استئجار الغرفة .

— لا .

— الا تريد ناجير الغرفة للمصرى ؟

— لا . وما كان له ان يدخل بيتى . انا كتبت في الاعلان المطلق على باب المنزل بخط عربى « الملونون لا يقبلون » .

رفع رئيس الشرطة تبعه المشهورة . ثم حك جبينه ، ووضعها على راسه مرة اخرى :

— ماذا تقصد بالملونين ؟

— كل الاجناس عدا الجنس الابيض .

ثار وليم . تدخل في المناقشة ، دون اذن من رجل البوليس :

— صديقى ليس ملونا .

وتدخل حسن :

— لا يا وليم . انا ملون . انا اسمر !

وهمس وليم في اذن حسن :

— لا تهزل . فنحن في مركز البوليس .

واستطرد وليم :

— سيدى رئيس الشرطة : ان صديقى جـ ، من بلد متحضر . اشعت حضارته على العالم بأسره . منذ آلاف السنين . ولا يمكن ان يوصف جنسه بأنه متضع . وانا اعتبر هذه اهانة يجب ان يحاسب هذا السيد ، صاحب المنزل عليها ...

ورد رئيس الشرطة :

— أنت ستعقد المشكلة . لا نريد تفريعات للمشكلة ، اذا اردتم حلها .
ثم سأل حسن :

— هل دخلت منزل هذا الرجل دون اذن ؟

— الفتاة الصغيرة « الجميلة » ، هي التي سالتنا ان ندخل .

— هل رايت الاعلان المعلق على الباب الخارجى ؟

— نعم . ولم أوافق عليه .

— لماذا ؟

— لاننا فى إنجلترا ، وانتم تفخرون بان لديكم دستورا يكفل الديمقراطية
والحرية والمساواة بين الناس جميعا . فكيف تميزون بين الملون وغير الملون؟
— هل قرأت دستور بلادنا ؟

فطن حسن انى ان الكونستابل يمتحنه . فليس هناك مجلد يطلقون
عليه اندستور فى إنجلترا . واجابه :

— دستور بلادكم غير مكتوب . ولكنه مجموعة من القواعد والنظم
والسلوكيات ، استقرت فى التاريخ البريطانى . ولا تستدعى جمعها فى كتاب .
كما تفعل بلاد اخرى .

— هل درست تاريخ إنجلترا الدستورى ؟

— نعم . نظام التعليم اذى اخذه الانجليز عندنا ، جعلنا نعرف ملوككم
جميعا . ولا نكاد نعرف نملوك الفراغة !

بسة محافظة على شفاة الكونستابل :

— انت محظوظ ! ماذا كان حالك لو ذهبت الى الولايات المتحدة ؟ هناك
لا تستطيع ان تتركب اوتوبيسات البيض . ولا الدخول فى مدارسهم او
معاهدهم . ولا الاكل فى المطاعم المخصصة لهم . ولا الفنادق . ودور اللهو .
ومنزلهم ، من باب اولى . محرمة على الملونين .

— الى هذا الحد ؟

— هل لك صديقة انجليزية . او بيضاء ؟

— لا ، للأسف . مازلت أبحث !

قال رئيس انشركة ، الذى لم يكن ننقصه روح الفكاهة :

— أرجو لك التوفيق !

— من « بقك لباب السما » !

وقرب حسن المنزل الشعبى الى ذهن الكونستابل .. الذى عاد

يخاطب حسن قائلا :

— لو وجدوك مرافقا لفناء بيضاء ، قد يقتضيك ذلك حياتك . ربما

قرات عن العصابات البيضاء . التى تجعل من قتل الملوذين رسالة وهواية .

وقال حسن بعد تردد ، فهو فى عرين الحرس الداخلى للإمبراطورية :

— أرجو أن تسمح لى بالقول ، بأن الامريكان هم ابناؤكم . المستم

الدولة المستعمرة الام ؟ انجنرا ارضعت ابناؤها فى الولايات المتحدة ، هذا

الازدراء للاجناس غير البيضاء .

وفطن رجل انشركة البريطانى الى أن منهما « ملونا » يهاجم

الإمبراطورية . قال بصوت جهورى :

— لا تنس أنك فى انجلترا ، وفى قلب لندن ، وقلعة البوليس . فلا

تقل شيئا يؤخذ عليك . ويعقد المسائل ضدك .

وتسأل حسن :

— هل الاجناس البيضاء كلها سواء فى هذا التعالى السلالى ؟

— لو درست تاريخ الاجناس . لوجدت أن الجنس الانجلوسكسونى

هو اعلى الاجناس .

وتلهل وليم فى كرسيه . وبدا ارتياح على وجه صاحب المناء . واحب

حسن أن يستخدم اسلوبه الساخر . فقال مخاطبا الرسمايل :

— هل ادلى لك بطرفة تاريخية عن الاجناس ، التي سصارح على سيادة الجنس البشرى ؟

— تفضل .

— ان فلاسفة انصيرية . وقادتها . امثال زيشة وهنر . الذين يؤمنون بسمو جنس وانحطاط الاجناس الاخرى ، يقولون : ان « الانجوسكسونيين » . الذين ينهاي الانجليز والامريكان بالانتماء الهم ، ويستمدون منهم التفوق السلالي ، جاءوا من المانيا : ولم يكونوا اعلى جنس عندك . بل كان الجرمان الآرون ، اعلى الاجناس على الاطلاق !

يبدو ان « الطرفة » وخزت الكونستابل . وطعنت صاحب انبيت عميقا في علو جنسه . ولكنها اطربت ولم الابرلندي . وقال الكونستابل :

— اذا كنت متعمقا في قراءتك عن انصيرية . بهذا الشكل ، فلماذا تنوم هذا السيد ؟

— انا لا الومه . ولكنى انوم فانسفة نظام بأسره .

كان السحتيق والحوار . قد طال . وجاء موعد انصراف كبير الكونستبلات . قال لهما :

— هذا هو قرارى : لم يثبت دخول هذا السيد المصرى منزل السيد الانجليزى بالقوة . دون اذن . نهبنا على السيد المصرى الا بدخل بيت غيره بهذه الطريقة .

ارجو ان نوقما على المحضر .

وقما . وانصرفا .

« زوبعة في فنجان » .

كان حسن يود أن يثير قضية الاضطهاد « اللونى » في قلب البوليس . حتى ولو خاطر بدخول منزل انجيزى في غيبة صاحبه . وكان لديه أمل « رومانسى » . في أن البونيس سرغم الرجل على ناچر غرفته له . . كان يطمح كذلك ان تنشر الجرائد قصة الامتحان العنصرى . لكن خاب امله . . الحربة والمساواة في التقاليد الدستورية الانجليزية . وضعت للانجليز . ينعمون بها وحدهم . أما الملونون فهم قادمون من بلاد معظمها مستعمرات لهم . يمارسون فيها السيادة على شعوبها . والاسيلاء على خيراتها . كيف يتخيل المسودون ان يتساووا مع السادة ، في معقل السيادة ؟ لو حدث ذلك لنداعت الامبراطورية .

لكن الفكرة تنفص عليه عيشه : كيف يحنقر وطنه بجنود الاحتلال الانجيزى ؟ ويمتهن هو في انجلترا نفسها امنهانا عنصريا ؟ لطفق يبحث عن حل يزجرح به هذا الحجر الثقل الجديد عن صدره . لا وسيلة غير الحوار ! يبدو ان الحوار اصبح طريقا للهروب من المأسى . لقد جابه المأسى الفردية . التي حاقت به وبأسرته . ولكن حينما تصبح المأساة دولية . كحالة الاحتقار العنصرى ، ماذا يمكنه ان يصنع ؟ لقد وصل الى نتيجة في تحليله لقضية مجتمع الوسية ! لابد له من جماهير غفيرة منظمة تجتث جذور الوسية . فهل يتطلب الامر لتخلص من الوسية الاستعمارية . التي تضطهد الاجناس الملونة . ثورة شعبية ؟

اذا كان الامر كذلك فاجوءه لحوار . كلما تزامت به الامور . يعتبر مشروعا . من يحاور اوليم . انه ايرلندى . ولو انه غير ملون ، الا انه في اسفل سلم السلالات المنازاة ! وهو مستنير الفكر ، يعادى الاستعمار والراسخالية . في جلسة من جلسات الشاى في الكلية . بدأ حسن الحديث :

— ونيم . بماذا نفسر هذه الظاهرة العنصرية ؟

— ورد عليه وليم :

— فكرة السموالعنصرى ، في نظرى ، نشأت أساسا من العلاقات

الاقتصادية والاجتماعية بين الناس . المجتمع الطبقي تملك فيه طبقة راسر المال والارض . ولا تملك الطبقات الاخرى . وهي الاكثرية . الا عملها . يبنى على ذلك ان الطبقة الاولى تستخدم الفئات الاخرى بأجر . هذه الطبقة هي التى تدفع الاجر ، وتحدده ، وتمنعه . بطرد الآخرين من العمل .

لذلك تتحكم فى أرزاقهم ، ومن ثم فى رقباهم . كما كان حال الإرقاء والعبيد فى العهد الاقطاعى والمهد القديم . العلاقة هنا هي علاقة سيد بمسود . فنمائل طبقة واتضاع اخرى ، ينجم عن هذه العلاقة . وبدعم ذلك ان الطبقة الاولى تتحكم فى السلطة . وتمسك بالجهاز الثقفى ، وتوجه المجتمع الى هذه الفلسفة .

وتسائل حسن :

— وما علاقة ذلك بالبيض والملونين ؟

— اذا نقننا هذه العلاقة الطبقيّة الداخلية الى المجال الدولى ، لوجدنا ان هناك دولاً ازدادت قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية . ثم استعمرت هذه الدول . الدول الفقيرة المستضعفة . واصبح الاستغلال دولياً . الدول الراسمالية « البيضاء » نستعمر الدول « الملونة » فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . ومن هنا نشأ تمييز بين الدول :

دول تملك مستعمرات . وارضى . وراسمال فى دول اخرى مستعمرة او تابعة . الاولى تعتبر دول « السادة » والاخرى دول « العبيد » . ومن هنا نشأ التمييز العنصرى وكان له اثر تراكمى . هذا الاستغلال لموارد الدول المتخفة الملونة . ولعمل اهلها جعل المرض والامية والتخلف ، تعيث فى تلك البلاد . وتجعل من بنيتها آدميين من مستويات مادية وثقافية متردية . بينما العلم والتقدم والخصى والصحة من نصيب البيض . استفندوا الى هذه العناصر ، واعتبروا انفسهم شعوباً سامية .

تسائل حسن : ما هو الحل العمالى ؟

— لا حل عندي الا ان يذهب الى احياء الطبقة العاملة . لن نجد
لهذه اللافئة « الملونون ممنوعون » اثرا .

أخذ حسن « قطار تحت الارض » . عندما صعد الى سطح الارض .
وجد دنيا مختلفة تماما . كانت هذه المنطقة هي « شرق لندن » . هل
يسمونها كذلك ، لانها مختلفة كالشرق ؟ ام ان الذين خططوا لمدينة لندن .
ارادوا ان يكون شرقها فقيرا . شأن الشرق : الادنى والاوسط والاقصى .
الذى تسببوا في افقاره ؟

الشوارع ضيقة ، لكنها نظيفة . المباني كالحة . يتشقق طلاؤها .
الذى يشبه الهباب . ليس هنا حدائق ، ك تلك التى تخف بالمنازل في الاحياء
الآخري . الناس هنا اقل اناقة . ملابسهم ليست ممزقة ، لكنها من نوع
رخيص . الباعة يركنون عربانهم في الشارع . ويبيعون الفاكهة والخضر
وغيرها . الطرقات تعج بخلق الله المتخلفن : الملونين . الهنود الحمر
والسمر ، والافارقة ، والكاريببيون ، والامريكيون الجنوبيون . والآسويون .
اليفط الذى تعلن عن الغرف المعروضة للايجار ، ليس فيها عبارة « الملونون
يمنعون » ! النازحون من الدول الفقيرة « الملونة » . جاؤوا الى هذا
الحى ، ليشاركوا الطبقة العاملة الإنجليزية عيشها وسكنها ومسئولها .

يبدو ان الطبقة العاملة في انجلترا . اكثر سراحة مع الملونين . واذا
كان الامر كذلك ، فما سبب تلك السراحة ؟

هل المجتمع الإنجليزي مجتمع طبقي ؟ ايجاد فيه فقراء ؟ اينشابهون
مع فقرائنا ؟ من الضروري ان يكون المجتمع الإنجليزي طبقياً . ليس مجتمعا
راسمالياً ، يحتل المركز في الراسمالية العالمية . ألم يكف النهب . واستنزاف
موارد المستعمرات . لعلاج الفقر في بريطانيا ؟ لماذا تتعاطف الطبقة العاملة
مع الملونين جميعا ؟ اباكون ذلك لان الراسمالية تستغل الطبقة العاملة
والملونين جميعا . وبذلك ينشأ تعاطف بين المستغلين ضد مستغليهم ؟

دخل حسن بيينا ليرى الغرفة الخالية . البيت نظف من الداخل .
لكن غرفة ضيقة . الفراش فقير . سرير سفرى قديم . مرتبه مريجة
لحسن الحظ . المنظر مقبض . يطل على البيوت ذات الحوائط « المهيبة » .
لا حدائق ولا زهور . غرفة حمام ونوايت واحدة . يستخدمها جميع من في
البيت .

كان قد ارهقه البحث عن سكن . استأجر الغرفة نظير جنبيين في
الاسبوع .

* * *

كان استقبال انجلترا لفتانا لطمة نكرامته . ولكرامة الجنس الذى
ينتسب اليه - الا يكفى هؤلاء القوم بامتهان « الملونين » في المستعمرات ،
وابتزاز عرقهم وثوراتهم . فيصرون على امنهاتهم حينما أنون الى بلدهم ؟
بالهذا العالم : المنونون منلون الاغلبية الكبرى من خلق الله . العنة
البيضاء ، تحقر من شأنهم . الكثرة الماونة اوزة تبيض لهم ذهبا ، ومعادن .
ومواد غذائية وزراعية . وعملا انسانيا . تزيد الاوزة من رخالهم . وتكفل
نهم التقدم الصناعى والحضارى . ويبقى للملونين التخلف والمهانة

على الدم في عروقه . كان مضطجعا على سريره « السفرى » في
غرفته المتواضعة . نور شاحب . يتسلل من نافذة لها زجاج ،
وليس لها « شيش » . تلمل في سريره . فكرة الاضطهاد العنصرى
تلتسه . ولكنه فاق على سؤال ايقظه : هل جنت الى انجلترا لتقاتل
الفرقة العنصرية ، ام جنت لندرس الدكتوراه ؟ وكبت مؤقتا قضية
« الاجناس » بعد ان كبت قضية « الجنس » في السفينة الإيطالية .
الكبت يبرى اشكالا والوانا !

في الصباح ذهب الى الكلية التي سيدرس فيها . ووجدها مدرسة !
« مدرسة لندن للاقتصاد وعلم السياسة » . اشهر كلية لدراسة
الاقتصاد في العالم . المبنى من الخارج ليس فخيا . اقيم على شارع جانبي
صغير . الحوائط غيرها تدخان والنسب والمطر .

المبنى من الداخل متواضع كذلك . غاية في النظافة والتنظيم . افواج
الطلبة . تعد الى المدرسة زرافات ووحدانا . ملح حسن بينهم كثيرا من
الملونين . عجا : الانجليز يقبلون « الملونين » في جامعاتهم ومدارسهم .
ولا يقبلونهم في بيوتهم !

قام حسن بجولة . تعرف على قاعات الدرس . والمكتبة ، والمطعم .
والكافيتريا . و « اللوج » ، الذي يسترخى فيه الطلاب ، ويستمعون الى
انغام موسيقية هادئة . كل شيء كان عاديا عدا المكتبة . تنظيم مدهل .
ياتيك الكتاب الذي تطلبه في دقيقة . بل تاتيک الوثائق الفادرة في بضعة
دقائق . بانوك بها الى المتعد الذي تجلس عليه . القاعات المتخصصة
تنظم بحيث تقرا فيها الكتب التي تعرض لموضوع معين . كتب تأتي من كل
ركن في العالم . حديثه وقديمه .

بالمكتبة اقسام . تضم الوثائق والمراجع عن بلدان العائتم الثالث
جميعا : امريكا وآسيا وامريكا اللاتينية . دولة دولة . وجد حسن فيها
وثائق ومراجع عن الانتصاه المصري . لا توجد في مصر ! كيف جمع هؤلاء
القوم كل تلك المراجع لا هل سرقوها كما سرقوا الثروات المادية والتاريخية
لتلك البلاد ام وجدوا ان ابناء تلك الامم يفرطون في ثرواتهم العلمية ، كما
يفرطون في ثرواتهم . وفي ميراثهم الحضارى لا ام ان الحكومات في هذه
المناطق لا شأن لها بالعلم ولا بالتاريخ ؟

كانت « المدرسة » بينا . ومسدودعا للعلم والمعرفة ، ومندى ،
ومتقى . ومطما . وقاعة للموسيقى . ومكتبة باللغة الثراء . فخامة المبنى

فحامة عليية . غرف الاساتذة بسيطة : منضدة صفرة وكريسيان . لكن مكتبة الاساذ حافلة ، تمتد بعرض الحائط وارتقاعه .

زار غرفة العميد : لا طنافس ولا مسجاجيد عجمية ، ولا نجف كريستالي ، ولا مقاعد من طراز لويس الرابع عشر . قفزت صورة من بلده امامه : بعض الاساتذة لدينا متواضعون . غرفهم تشبه غرف الاساتذة الانجليز . لكن ما ان يصعد الاساذ الى رئيس للتسم ، او الى عميد للكلية . حتى تتدلب استاذيته راسا على عقب . بدلا من ان يزداد استاذية ، ويزيد من حجم مكتبه . نجده يعنى اول ما يعنى بحجم منضدة مكتبه . وبالسجاجيد والطنافس والنجف !



المجموعات « الملونة » في الكلية تنجذب الى بعضها بعضا : مجموعات سرراء وسوداء وصفراء . وحمراء . وتلجية : الاجناس الحمراء هم الهنود احمر . والتلجية هم الاسكيمو ! كانت هذه المجموعات البشرية تكون لوحات رائعة الالوان . العنصريون لا يرون ما فيها من جمال .

خضع حسن رانغا لهذا الاستقطاب . كان يود الا يختلط كثيرا بالمصريين او العرب . يريد ان يحسن لغته الانجليزية . ان لم يختلط بالانجليز . فلن تستقيم لغته . الهنود والباكستانيون ، والانسارقة يشوهون الانجليزية . حينها ينطقون بها . لم يتركه المصريون . حاصروه . فلم يجد بدا من صحبتهم . وكانت هناك مغربات : معالجة الشعور بالغرابة . الضحك وتبادل القفشات . مناقشة القضايا الوطنية الساخنة .

على انه كان يهرب احيانا . ويختلط بالانجليز وغيرهم من الاوربيين . كان يبحث عن افكار جديدة ، ووجوه جديدة .

حظى بشعبية بين طلبة الكلية وطلباتها . أصبح المعرى المنشق ، البرونزى ، ذو الشارب الخاجم . مدعوا من كل « شلة » . ومطوبوا ليشارك في الشاي على كل منضدة . أخذ يتدّمل بين المناضد « الملونة » و « البيضاء » . وهو في نقله يثير ضجة هنا . ويفجر ضحكا هناك . بهذا أسهم في أن تهوج تلك البيئة الانجليزية الباردة ، بالصخب والحركة والحياة .

انتابته سعادة طفولية : ربات البيوت يرفضنه كملون . لكن لونه الخمرى وقامته الفارعة ، وضحكته العالية ، جعلت حسان الكلية يرمقنه بنظرات فيها ود واعجاب . جاءت فتاة بولندية . بارعة الجمال ، طالبة معه في الكلية . كان يجلس مع زملائه المصريين يتناولون اشاي الساعة الرابعة . فاجاته الفتاة :

— اتنى ادعوك لبتى هذا المساء !

صاحت « الشلة » المصرية : الله الله . تسامى فرحا ، وهو لا يصدق أذنه :

— اشكرك كثيرا . لكن لماذا ؟

غريب أن يتساءل شاب في الثلاثين . عن سبب دعوة فتاة حلوة له الى منزلها ! تخيل أصدقاؤه ، أنها دعوة لتفترام .

مازال ساذجا في شئون النساء . تذكر العجربة الإيطالية على ظهر السفينة . انتقل بخياله نقلة غريبة : الفتاة من بولندا . هل تريد ان تناقشه في الاشتراكية ؟! . لم تمهله الفتاة ليرسح بخياله :

— اريد ان اسجل ضحكك الرائعة على المسجل في منزلى !

كان يضحك ملء صدره . وملء حنجرتة . وكأنه يغسل بالضحك ، ما حاق به في حياته من هموم واشجان . ضحك في الجبش ، وفي الجامعة ، م ٧ — الوارنون

ماشاء، له الضحك . ولكنه لا يذكر ان كان قد ضحك في وسية الخواج
ايونانى . انه يذكر تفاصيل دقيقة عن حياته في الوسية ، عاشها ثانية
ثانية . ولكن الذاكرة يكتنفها ضباب كثيف ، فيما يتعلق بالضحك !

هل كان ضحكه عاليا منسابا ، أم كان خفيضا مكبونا . خفضه
الجوع . وكبته الاستقلال . اشتهرت ضحكته بين زملائه الطلاب في جامعة
الاسكندرية . كانت مجموعة اصدقائه تلتقى مساء كل خميس في محطة
الرمل بالاسكندرية . وطلب ادهم تحديد المكان : لان محطة الرمل مسرحية ،
وفيها جمهور غفير . ورد عليهم اسماعيل زعزوع ، عضو مرح في الشلّة :
— لا تهتوا بذلك ، حسن سبضحك . وسيرشدنا الى المكان !

جلجت ضحكاته واصدقاؤه المرربون في شوارع لندن نفسها :
كانوا بنجولون في شارع ريجنت . من اكبر شوارع لندن . واطلق ادهم
« قفشة » . قرعت الحناجر الشابة في الفضاء . اذابت جليد الشارع
الانجليزى المنضبط من غير بوليس ! كان الشارع يغص بانناس . تنساب
فيه السيارات الخاصة ، والايوبيسات العامة . لا تحس لها ضجيجا .
الناس يهيمون . وموتورات العربات لا تسمع لها دورانا . و « الكلاكسات »
صامتة تماما . وكانها منزوعة من السيارات .

جاء رجل انجليزى متوسط العمر . وسالهم : من اى بلد انتم ؟

تملكهم حيرة شديدة : لا شك ان هذا النوع من الضحك غير مالوف
فى انجلترا . هل ينظرون الى هذه الظاهرة على انها من ظواهر التخلف ؟
نحن لا نريد ان نرمى بلادنا بالتخلف . نعم ، هى متخلفة . ولكن لا نريد
ان نقل من شأنها امام الاجانب ، بصفة خاصة الانجلز . ونحن مازلنا
نسارعهم في معركتنا الوطنية .

لكن هذا الرجل . لا يأتى من انرصيف المقابل . ايهمنا بالتخلف . لعله
يرمى بالهدوء ، اتانل . الذى يطبع الحياصة الانجليزية . ورأى في قهقهتنا

خترافا حلوا لهذا الهدوء . ان في وجهه نظرة سديقه . وعلى شفتيه
بتسامة راضية . لهذا انبرى احدهم ليرد على نساؤه :

— لماذا ؟

— لا لشيء . اريد فحسب . ان اعرف ما هو البلد السعيد الذي
جنتم منه !؟

سمدت المجموعة . عبرت عن سعادتها بضحكة جماعية مجلجلة .
اسمدت ارجل كثيرا ، ودعته للاشتراك فيها ! قالت المجموعة له في صوت
واحد :

— جننا من مصر .

بعد ان تيزقت امداء الضحكة الجوفاء في الفضاء . نعلقت بحذته
غصاة ! لامراء ان مصر ، بلد سعيد . اسهمت في سعادته بريطانبا
بأسمعياره ، ونهب قطنه وخيرانه . ليزداد التقدم الصناعى والرخاء
لشعبها . وليسعد شعب مصر بالتخلف والتأخر . الم يسعدنا انبريطانيون
كذلك بطبقة حاكمة تسفك عرق اهلها ، وتنشب انيابها في رقابهم ؟

على ان الغصة ازدادت كثافة عندما نظر الى زملائه . كانت وجوههم
جدلة . مشرقة بلابهة . انهم يمتقدون حقا ان بلادهم سعيدة . لم
يشغلهم اى معنى من المعانى التى طافت بذهنه . اواد : ان المتخلفين
سعداء بتخافهم ! بل ان الذين سيكونون اسانذة للمتخلفين سعداء ! واغلب
الظن انهم ، ومعظمهم اقتصاديون . سوف يعلمون الطلبة . ان التخلف
وانسعادة قريتان . الم يقل الانجليزى المتقدم ، ان بلادهم سعيدة ؟

* * *

زهدي في الالتقاء بالمجموعة المصرية : ضحك كله خواء . احاديث
فارغة . ترك هذا وراءه في بلده . جاء الى هذا البلد لينعلم اشياء جديدة .

وليرى انماطاً من السلوك مختلفة . عله يصل الى فهم حقيقي لمشكلة الجوع والجهل والتهر في بلده . يريد أن يتعمق جذور الخفاف ، الذي يرين على مجتمعه . وهذا يتطلب أن يبحث كيف تقدم الإنجليز ، وكيف ظل بلده راكداً .

عزم على أن يفلت من هذه الصحبة . لولا أن التقى بعبد الحى . زميل يدرس الدكتوراه في المالية العامة . ليمود استاذاً بجامعة القاهرة . صورة لفلاح المصرى . لولا أن الفلاح هنا أثيق الثياب . يدرس للدكتوراه في جامعة اكسفورد ! جاء الى لندن ليفيد من مكتبة مدرسة الاقتصاد .

عبد الحى له نصيب كبير من معارف متنوعة . غير أنه كان عدوانياً « لا يعجبه العجب » : كل شيء في مصر منهار . فاسد . حكوماتها غير كفئة . أسانذتها وعلمائها جهلة . هجوميته تحسد فقط على الاسانذة والحكومة . وتتخذ نغمة متبولة عندما يهاجم أصدقائه . كان حسن يستمتع بهذا الهجوم :

« فلاحين ايه وعمال ايه ، وتنمية ايه ، اللى انت جاي تعمل فيها دكتوراه . مانيش فايدة » . كان حسن يتقبل الهجوم ، لان فيه نبرة صديقة .

تمت بين حسن وعبد الحى صداقة قوية . نعم فيها حسن بلوان المعرفة ، التى كان عرضها عبد الحى . وكان من نفحات عبد الحى على حسن أن قدم له زميلاً . أفاض في صفاته الممتازة ، ونفوته العلمى : حصل على بكالوريوس الاقتصاد من لندن ، بدرجة ممتاز . وبعد رسالة للدكتوراه على يد أشهر اقتصادى انجليزى على الإطلاق : هو « البروفسور هكس » ، الحائز على جائزة نوبل . وهو شاب جاد ، ذكى :

— الدكتور . مصيلح الصراف .

— أهلاً يا دكتور .

— الاستاذ حسن خالد .

لم يلقيه عبد الحى بالدكتور . كما لقب مصيلح . يبدو ان حسن كان مستجدا في دراسة الدكتوراه . حيا مصيلح حسن قائلا :

— هيلو !

نطق بها بطريقة الانجيز . كان مصيلح طويلا ، رشيقا ، دقيق الملامح . اخذ يخرج « البيب » الذى كان ممتعا في جيب جاكته الامامى . وعلبة التبغ من الجيب ارجائى . ملا « البيب » بالتبغ . واخرج عابرة الكبريت من جيب ثالث . اشعل غليونه . لم يتكلم . احب عبد الحى ان يملا الفراغ . قال له كلمة عن دراسة حسن . عقب مصيلح على ذلك بههمة . سحب نفسا طويلا من غليونه . اطلق الدخان ليرسم سحابة تخالط وجهه . التفت الى حسن قائلا :

هيه « بتعمل ايه هنا » ؟

كان اللقاء للوهنة الاولى ليس مبشرا . كما انه لم يكن منفرا . اللقاء حتى الآن لم يتجاوز الشكل : هدى ، مصيلح « الباب » هـ لو . يشبه فيها بالانجليز . جاكته فصلت تماما بالطرقة الانجليزية . ووضع على اكمامها عند الكوعين قطع من « الشموه » .

الشكل غير حاسم . لكن النغمة التى قيلت بها جملة « بتعمل ايه هنا » ليست مريحة تماما . واجابه :

— جئت اعد رسالة للدكتوراه .

— ما هو موضوعها ؟

— القوى المعوقة للتنمية الاقتصادية في مصر .

— « هو ده موضوع اقتصادى ده » ؟

تفوه مصيلح بهذه العبارة ، وهو في وضع استفزازى : البيب مطلق

بين أسنانه . دخانه يغبر وجهه ، ووجوه الواءءين معه . كان مائلا بجذعه قليلا الى الجنب . يهز وسطه . يده في جيب بنطلونه . صعدت الدماء الى رأس حسن . كان ينتوق ان يتقى بانسان . قدمه له صديقه عبد الحى ، في صورة مشرفة .

كان حسن قد انف انماطها مختلفات من البشر . لكن هذا النمط مفريد . صابر نفسه . اراد ان يتحقق من الصفات الممتازة التى وصفه بها عبد الحى . نظر الى عبدا نعى الذى أسهم فى تهدئة الموقف . مخاطبا مصيلح :

— طبعا يا دكتور مصيلح . هذا موضوع اقتصادى . ان عقبات التنمية ، أو اسباب التخلف قوى يجب ازاحتها . لكى نتقدم مصر اقتصاديا واجتماعيا .

هدأ حسن بعض الشيء . هز مصيلح وسطه مرة أخرى . امسك بقلبونه . أخذ يداعب النار المشتعلة فى التبغ . ثم قال :

— طبعا . (قالها بالانجليزية) . لكن عنوان البحث يشبه موضوع الانشاء .

سكت عبد الحى . لم يجد حسن نفسرا لسكوته ، غير رابطة معينة ، تربطه بمصيلح . رابطة العم والشهرة والنسب ! مصيلح يدرس فى جامعة اكسفورد مثله . ونشر على رسائنه الاستاذة « اورسولا هكس » زوجة « البروفسور هكس » المشرف على رسالة مصيلح !

أخذ حسن يعتمد على نفسه . فى حوار ه مع مصيلح . قال له :

— هل مشكلات التخلف الاقتصادى فى العالم الثالث « انشاء » ؟

— نعم .

— كلا . انها قوى هدم : لا قوى انشاء !

— هذه فلسفة وليست اقتصادا .

— هل تعرف شيئا اسمه معوقات التقدم الاقتصادي ، يا أبا مصيلح ؟

وقبل ان يجيب على سؤاله . . استطرد حسن :

— هل تصرف أولا لمماذا قتت بك يا أبا مصيلح . ولم اقل لك يا ابو مصيلح ؟

وتردد مصيلح . . ثم استعاد شكله « البروفيسورى » . ولمس اللبيب ، وكأنه يستهد منه الشجاعة :

— هل هذا امتحان في اللغة العربية ؟

— من الضروري ، وسوف تكون اسنادا في الجامعة . ان تكون ملما بلغة بلدك . « أبا » منصوبة لانها منادى . ولانها من الاسماء الخمسة ، فننصب بالالف . لمالك لا تدرى ما هي الاسماء الخمسة ؟ هي : « أبوك — واخوك — وحبوك — وفوك — وذو « وك » .

ود حسن ان يضع كلمة « ملعون » قبل هذه الاسماء الخمسة !

اكتأب وجه مصيلح . لكنه اشرق ثانية حينما قال له حسن :

— لابأس على « عربيتك » . فانجليزيتك جيدة . اجبنى نو تفضلت على سؤالى عن مشكلات التخلف .

تلعنم مصيلح مرة اخرى ، ثم اجاب ببرود . خاله من صفات الانجليز .

— مشكلات التخلف ليست موضوع دراستى ، ولا تعزنى !

— كيف لا نعى بالتخلف ، ونحن متخلفون ؟

أرد وجه مصيلح . تراخت أسنانه . نسى انه يدخن اللباب . سقط منه على ارضية الغرفة . تبعثرت محتوياته . لم يدرك انه شوه الارضية

البراقة ، بتراب غلبونه . التقط الغليون ، لم يعن بتنظيف آثاره .. هاج
حسن تائلا :

— أنت المتخلف ، ونست أنا ! أنت متخلف بالتهريف . لانك مرتبط
بانفلاحين والعمال وغيرهم من الفقراء . وهؤلاء هم المتخلفون في بلادنا .
الاتعد رسالتك في الدكتوراه عنهم ؟

من الغريب ان هذا الهجوم لم يستتقز حسن ، بل جعله بجنح
بالحديث :

— أنت تهتم العمال والفلاحين والفقراء فحسب بالتخلف .. من اى
طبقة اتيت ؟

احمر وجه مصيلح . اخذ نفسا من البيب ، الذى تصالح معه مرة
اخرى . لعله يوحى له بالفكار معاونة . واجاب :

— والذى موظف كبير . مدير خزانة البلدية بالاسكندرية . وعنده
املاك كبيرة .

— يعنى صراف .

— صراف « ازاي » ؟! هذا لقب فحسب . لكن أسرنا عريقة .

— اشكرك ، اذ اعطيتنى مادة يمكن ان نتعرف بها على اصل كثير
مما يسمى بالعائلات او الاسر الكريمة في مصر .

موضوع « الاسر الكريمة » : اثاره النائب العام معه . حينما تقدم
له بطلب التعيين في وظائف النيابة . رفض تعيينه . لان هذه الوظائف
مقصورة على ابناء « العائلات » الثرية الوجيبة . وهو ليس منها . وراى
في حواراه مع مصيلح متنفسا لتحليل هذه الظاهرة . صحيح ان صلاح نيس
من الاسر « الارستقراطية » . او الوافرة الغنى . ولكنه يتشبه بهم .
ويتوق للانتماء اليهم ، والى قيمهم . فالحديث معه مشروع .

وناجا حسن مصيلح :

— أرجو أن تسمح لى بالقول بأن والدك كان صرافا ، وبهذا ينطبق اللقب عليه .

سكت حسن هنيهة ، وراى سلاح تحمر عيناه ، فأسرع بالقول :

— لا تغضب . فكلمة « صراف » . هى اللفظ القديم لكلمة « مدير خزائنة » ! ومهمة الصراف أن يجمع الضرائب من المومنين . والسيارفة كما نعلم ، كانوا يسرقون الفلاحين ، بزيادة الضرائب عليهم . يدفعون للدولة الضرائب الرسمية . ويستلبون الباقي . هذا الى جانب الرشاوى والهدايا « والمزايم » وماشاكلها .

ارتعش مصيلح . قائلا :

— هذه بذاه .

— وعلى ذلك فثروة والدك ، ان كان ماتتوله عن ثروته مسحبحا . مسروقة من الفلاحين الذين تصفهم بالتخلف . وبهذا يصبح التخلفون مصدر ثروة المتقمنين !

التفت مصيلح الى عبد الحى ، كانه يستنجد به . رآه مسرورا . يتنسم ! واصل حسن الكلام :

— لا تبئس يا عم مصيلح . فقبح عائلتك يمانل عائلات او امرا كثيرة . اثبتقت من الفلاحين وكونت ثرواتها ، بطريق او بأخر ، منهم . واحترف بعضهم حرفا ومهنا . ارتحلوا بها الى المدن ، او زاولوها فى انقرى . ثم انقلبوا على اصلهم . واصبحوا عالة متعالية عليه .

اكفهر وجه صلاح . على الرغم من انه ليس من العائلات الثرية . ثم يتركه حسن ليتنفس :

— خذ مثلا : عائلة « الحمصار » كان منشئها يقود الحمير . والا ما العلالة بين لقبه والحمير ؟ اكان يهواها مثلا ؛ وعائلة « الخيال » ، لا بد

ان عميدها كان يسوق الخيل . ويمكنك ان تطبق النظرية على « اسر كريمة » كثيرة . يحتفظون لها بالوظائف المنزلة في مصر : الحيوان . والجحش ، والبغال ، والخشاب ، والفول ، والمطار ، والدخاني ، والنجار ، والحداد ، والجزمجى . والقائمة طويلة

علت الابتسامة وجه عبد الحى ، وقال :

— « ياه » انت لبخت قوى !

— ما رايك في هذا التفسير يا دكتور عبد الحى ؟

— والله شاطر يابو عنى .

واصفر وجه مصليح مرة اخرى . كان اللونان الاصفر والاحمر يتناوبان وجهه مع حجم الجرعة التى يفرغها حسن في جوفه . واحب حسن الا يفقده ، فأمعن في ساديته :

— وليس اذل على أنك من وسط شمبى . ان اسمك « مصليح » . وهل هذا اسم با شيخ . يليق بجامعة اكسفورد ؛ انهم حتى لم يسموك « مسلحا » !

— انا لست شمبيا . ولا تنطق بهذا مرة اخرى . والا انصرفت .

ومضى حسن . فالحوار اصبح لذيذا :

— قل لى بربك : ما هو موضوع رسالتك للدكتورة . التى يشرف عليها الاقتصادى العالمى هكس ؟

اعتدل صلاح . تكلم والبيب بين اسنانه :

— انا ادرس صناعة القطن في لانكشير .

— يا صلاة الزين ! يا صلاة الزين ! يامستر مصليح !

لم توجهه هذه التسمية . ربما تكون اسعدته :

— هل هذا موضوع يكتبه شاب مصرى . سيعود ليكون استنادا
بجامعة مصرية ؟

واجاب في برود شديد :

— ولم لا .

— ألم بلغت نظرك الفقر الكالاح ، الذى يجتاح الاكثرية الكبرى من
ابناء بلدك ؟ الا تكتب شيئا تسهم به في علاج ذلك الفقر ؟ اليس في محر
صناعات ناشئة . او صناعات يمكن أن تقوم ؛ لنسهم في تقدم وطنك ؟ هذه
موضوعات جديرة بعقلك المصرى . فأنت مصرى على كل حال . ولا بد ان
مشاعرك جزء من مشاعر مواطنيك

وقاطعه مصيلح :

— يا اخى دعنا من هذا الانشاء . كيف اتوم بعمل رسالة محترمة في
مثل هذه الموضوعات ؟ هل في بلدك احصاءات او بيانات ؛ تساعدنى على
عمل رسالة علمية ؟

— الاحصاءات يمكنك الحصول عليها من الاجهزة الرسمية . ويمكنك
القيام بها بنفسك . والمكتبة هنا ثرية بأرقام عن مصر ، لا توجد لدينا .
— ليس هذا ممكنا .

— الا تشعر بأنه ليس من الطبيعى . ان يهمل الباحث مشكلات وطنه .
وهى عويصة . ثم يستخدم عقله في خدمة بلاد متقدم ، ليس في حاجة لجهوده ؟
— العلم لا يعرف وطنسا .

— لكن وطنك اولى بعلمك . وخاصة ان الظلم الاجتماعى والنخلف .
يضربان عميقا في جذوره . وهو يحتاج لقدراتك العقلية للاسهام في ازاحتها .
—

— هل خصصت في رسالتك فصلا ، لتبين كيف ازدهرت صناعة

القطن في لانكشير على حساب الفلاح المصري . ممر كانت مزرعة كبيرة للقطن . استغلّت أرضها وعمل ابنائها . لاننتاج قطن رخيص اللون . يحنكر شراؤه تجار وصناع لانكشير ويوركشير . ويسهم قطننا في ازدهار هذه الصناعة . التي تقوم بعمل رسالة فيها . رغم اننا نسببت في فقر بلدك .

— ان رسالتي علمية . فيها رياضيات . وتحليلات بيانية ، لا تستطيع انت فهمها . ولا شأن لي بموضوعات « الانشاء » التي نتحدث عنها .
وجه حسن حديثه الى زاوية اخرى ، فقتل لمصليح :

— ألم يدر بخلدك ان ترد النفقات التي انفقته عليك الجاهير في مصر لتطليح . دفعت في شكل ضرائب ، وعرق تصيب من جباههم . انها دين عليك . ويجب ان ترده .

— الجاهير لم تطليح . ابى هـ الذي علمني من امواله الخاصة . وانا تعلمت في المدارس الاجنبية . ودمع والدى مصروفاتها من جيبه . لا فضل لاحد علي .

— والدك ، اما دفع مصاريف تطليح في المدارس من مربيته . وهو مأخوذ مباشرة من الضرائب على الفلاحين والعمال وغيرهم . واما ان يكون قد استلب من هؤلاء بطرائق غير مشروعة .

— سنعود للكلام الفارغ مرة اخرى .

— لا نزاع في ان مصاريف بعثتك الحالية تدفع بواسطة الجاهير في

مصر .

لم اجد مصليح ما يرد به . واحسن حسن ، الذي وجه الحوار للتكليل بمصليح . اذا به ينكل بنفسه . هذا نموذج . سيعود اسنادا في الجامعة . ينقل قيمه وفلسفته الى الاجيال التي ستحرر الوطن .

عاد مصليح بعد انتهائه من دراسة الدكتوراة الى مصر . اشتبك في

مشاحنات فردية متعالية تافهة ، مع زملائه واساتذته . وجد الجميع أن
من المستحيل التعاون معه .

وبرم هو بابينة التي أنجبتة . غادر مصر غير مأسوف عليه . ذهب إلى
انجلترا ، أنبينة التي تلاته . وجد وظيفة فيها . سعد بالبينة الجديدة :
بينة هيلو ، والبايب ، والكيمان الشمواه ، وروفسور هيكس .

تخايلت في ذهن حسن فكرتان : هل حزن على ثروة انسانية ضاعت
على بلده ؟ أنفق الكادحون ما يملكون من عمل وجهد لاعدادها . أم لعله
سعد ، إذ هاجر مصر إلى غير عودة . وبذلك نجا الطلاب من قذوة ضارة ؟

لا فكالك لحسن ، ولوعبه ولا وعيه . من أن يربط بين صور بشرية
قد تترايط ، أو تتنافر . ذكره مصيلح بمحمد خطاب ، خفير الجرن في وسية
الخواجة اليوناني ! وبالحوارات التي دارت بين حسن وبينه . ما هذا
اللفو يا أبا علي ؟ كيف يمكن الربط بين دكتور « أكسفورد » ، وخفير فقير
أمي في استطاعة الخواجة ؟ أصح حسن ، أو بتعبير أمح . أصرت ذاكرته ،
على أن هناك ترايطا وتقابلا . تحاور حسن مع محمد خطاب في الظلم الواقع
على الفلاحين . كان الخفير أكثر وعيا من الناحية الاجتماعية . استطاع أن
يفرق بين السرقة القانونية ! والسرقة المباشرة ، التي يمارسها الخواجة
على الفلاحين . الأولى : أيجار مرتفع ، وأجور منخفضة ، وشروط مزارعة
مجحفة ، تخولها القوانين للخواجة . والسرقة المباشرة تتمثل في سرقة جزء
من محصولاتهم حينما تدخل مخازنه ، فننقص من وزنها ، ويبخس ثمنها .

قال الخفير لحسن ، أن الظلم والسرقة المباشرة ، موجودة في كل
الوسايا . وأن البلد وسية كبرى . ينهبها الانجليز ، والملك ، والخواجات ،
والباشوات ، ومن على شاكلتهم . ابن وعى هذا الفلاح الأمي من وعى
مصيلح دكتور « أكسفورد » ؟ أنه لا يحس بالاستعمار ، ولا بالخواجات
والباشوات . ومن ثم لا يدري الأسباب الحقيقية للتخلف في بلاده .

النشابة بين الدكتور محيلح ، ومحمد خطاب الخفير ، أن كلاهما سارق . الدكتور يسرق الدولة والجواهر . التى وصفها بالتخلف ، النقود انى انفتت عليه لتعليه . ثم يهرب من انبلد كآى سارق ، قبل ان يضبط بجريمته . بفر دون أن يسدد الدين . الناس فى مصر متواضعون . لا يطالبونه بسداد الدين نقدا . لكنهم يودون لو افاء عليهم من علمه . وأسهم هذا العلم فى ازاحة كابوس الفقر والتخلف عنهم .

والحق . ان محمد خطاب الخفير يمكن أن يبرر سرقة . هو مظلوم . الخواجة يسرق كدحه وكدح اولاده . لهذا فهو يسترد حقه بسرقة القمح والغلال من جرن الخواجة . وهذا فى نظره سليم من الناحية الاخلاقية . برر محمد خطاب سرقة باعتبار انساني آخر : انه لا يستطيع ان يجوع ، هو واولاده ، وهذه الخيرات الجميلة فى حراسته . وانه واولاده لا يستطيعون اكل الخبز الاذرة ، الذى لا يأكله الا العبيد .

على ان دكتور اكسفورد : وخفير وسية الخواجة فى قرية الرباعى — وكلاهما من الفئات الوسطية — يشتركان بشكل يدعو الى الدهشة والتأمل ، فى نظرتهما للجواهر العابلة والفلاحية : الم يقل الدكتور ان هؤلاء متخلفون ، برغم انهم يدفعون نفقات تعذيبه ؟ الم يسبهم الخفير بالعبيد ؟ والعبيد هم الذين يزرعون الارض ، التى تنتج القمح . انذى يسرقه محمد خطاب : ليأكل واولاده خبزا ابيض طريا !

* * *

احساس بالغرابة يكتنف مشاعر قناتا . الغربة بالمعنى الدارج للكلمة . وليس الاغتراب بالمعنى الاجتماعى والنفسى . فالاغتراب يخيم عليه ، حتى فى بلده . انطبقه اثربة . بنماكها للارض ولراس المال : قد عزلت الجواهر

الشعبية العاملة : وابقتها مغزبية عن وسائل الانتاج ، بل عن الانتاج نفسه .
لكن الغربة التي يحسها حسن من ذلك النوع المألوف : بعده عن بلده واهله
وصحبه . كان يمني انفسه بأنه سيجد في هذا انجاد المتقدم . ما يشغله .
ولكنه في ايامه الاولى في انجلترا ، شعر بالعزلة والضياع . الانجليز لا
يقبلونه في بيوتهم لانه ملون . خاب امله في بعض المصريين في لندن كذلك .
فهم اما فارغون من حيث الوعي الاجتماعى . والادراك الانساني ، او
ممسوخون شأنهم .

حتى انشمس المشرقة . والسماء الزرقاء ، لا وجود لها في هذا البلد !
كانت السماء عبوسا مدرازا . المطر الغزير ينهمر طول اليوم . لا يرحم
الناس ، ولا يعبأون به ! نبتلعه الارض اولا بتأول . السيارات تنساب في
يسر . والمشاة يهرعون . والحياة تمضى .

اخيرا اهنت انشمس . اضاف الناس لتحية الصباح : « يوم لطيف
مشمس » . كان ينظر الاوتوبيس في محطة تربية من مسكنه . ترتفع الى
جانباها كنيسة رشيقة . بنيت على طراز القرون الوسطى . وقف حسن في
« الطابور » انتظارا للاوتوبيس .

وجاءت ! جاءت هيفاء ، تنخطر من بعيد . عود خيزراني - يتأود بقدر .
توام ممشوق . هامة مرتفعة . خطوات وانقة . استمدت رفعتها ووثوقها :
من جمال باهر ، واعتداد انجليزى ، مقبول من الفاننات ! انعكس سنى
الشمس على شعرها الذهبى فزاده سناء . تسطل السناء الى عيني حسن
فبهرها . استغرق في هذا الانتاج الذهبى ، المترسلة ذؤاباته على كتفها
وظهرها . لم يفتن الى ان جمال عينيها ييز كل جمال . ابتسمت له .
فأشرقت ابتسامتها في كياته . هنالك فقط ، تملى بأجل عيني ، وقعت
عليهما عيناه . كائنا زرقاوين . من الصعب وصفهما بئون السماء أو بؤن
البحر . كان توامها فارعا ، لكنه مازال الرجل ذو القوام الاطول . انقوام
على المرأة !

أحسن حفظه كان يقف في آخر المطبور . وعندما ابتسمت له ، أشعلت
البسمة في داخله قوى ، تود أن تغالب الغربة والوحدة . تشجع وقرر أن
بهاذئها . صاحبة هذه البسمة المشرقة لن نصدك . بادرها قائلا :

— صباح الخير . صباح جميل . وشمس مشرقة .

ردت التحية في حياء أننوى ، ثم سألته :

— ماذا تصنع في إنجلترا ؟

— أعد دراسة لنيل الدكتوراة في الاقتصاد السياسي ، لآعود أستاذًا
في الجامعة !

نفس « الاكاشيه » ، الذى أراد أن يجذب به اعجاب الفجرية
الإيطالية ، على ظهر السفينة . وتأت له بمتسمة :

— حسن جدا . أنت رجل عظيم أذن .

ارتفعت معنوياته . الكلمات لأجل فتاة قابلها على الإطلاق .

— أشرك .

— ما رأيك في لندن ؟

— الشهر الذى قضيته فيها شهر كذب !

— لماذا ؟

— نفسى متأزمة ، وأشعر بالوحدة .

أمل ، بهذه الإجابة . أن يثر فيها الوطنية ! لملها تود أن تحسن من
صورة بلادها عنده . فتصادقه ، وتعالج وحدته . وكان ساذجا ، إذ قالت
له :

— يمكنك القضاء على الشعور بالوحدة في الكلية مع الاصدقاء ،

والصديقات . وهم كثار .

خاب ظنه . لكنه تكلم الخبة . لاحظت الفتاة أن الاوتوبيس رقم ١٣٤

الذاهب الى الجامعة ، قد مر منه عدد من الاوتوبيسات . ونم يركب ايا
منها . فسألته :

— لماذا لم تركب الاوتوبيس- ١٣٤ ؟

— انه لم يتوقف .

— لن يتوقف ، الا اذا اشرت اليه . هذه محطة اخفارية .

وسألها : اى اوتوبيس مستغلين ؟

— رقم ٤٣ .

وجاء رقم ٤٣ ، قرر في لحظة يائسة . ان يركب معها اوتوبيسها .

وتالت له :

— اسمح لى . هذا هو الاوتوبيس انذى سأأخذه « باى باى » .

وتردد . ثم تشجع :

— سأخذ هذا الاوتوبيس معك .

— انه غير ذاهب الى الجامعة .

— اذا لم يكن لديك مانع . اسحبك . تم اخذ مواصلة من هناك .

ادهشها اقتراحه . لانا انها كانت في غاية الرقة :

— لكن اظن ان لديك محاضرات .

— لا . اننى ذاهب للمكتبة فحسب . ونسف ساعة معك ، قد يكون

لها اثر معنوى كبير .

انداح الورد في وجهها . خجلت من الاطراء . وشكرته . جلس الى

جانبها في الطابق العلوى للاوتوبيس . قضى معها نصف ساعة ، في حديث

بهيج ، ورفقة شهبية . سألها :

— ما اسمك ؟

- برندا .

- ماذا نعملين ؟

- سكرتيرة في شركة .

وسألته عن اسمه ، وموضوع دراسته . وأجابها :

- أعد رسالة عن موضوع تد لا يروق لك .

- وما يدريك ؟

تشجع وقال لها :

- أعد رسالة عن القوى العاتقة للتقدم في مصر .

- موضوع شائق . مشكلات التخلف في أفريقيا وآسيا وأمريكا

اللاتينية صارخة . وهي مكتوبة بأساليب بعضها فني . وبعضها يسير .

ويكفي أن يكون الشخص مستترا ذا وعى إنساني . ليدرك أنه يجب القضاء

على التخلف ، الذي يشوه البشرية في ثلاثة أرباع العالم .

- هل يظل هذا رأيك ، إذا قلت أن أكثر معوقات التقدم شراسة

هي الاستثمار والاتطاع والراسمالية المحلية .

- أنا سعيدة إذ نضع هذه القوى في مقدمة أسباب التخلف في بلادكم .

لبت مصباحا هنا ليسمع . الأفضل الا يكون هنا . قد يعطى هذه

الانجليزية المسنيرة صورة شائمة لمنقنى مصر . تهلل لحديثها :

- اشكرك على رأيك في موضوع رسالتى ...

وتعجل الامور كعادته . زادت وحدته من نعجه . فاستمر :

- أنت لست جبيلة نحسب . فكلك ذكبة القلب . مسنيرة الوجدان .

كانت الجرعة كبيرة . لم يالف الانجليز هذا اللون من المبالغة . مرة

اخرى ، زاد احمرار وجهها . لم ترد . حاول ان يهدى من روعها :

- اعذرنى ، فانت حقاجبيلة . واذا كنت قد غضبت . فاننا آسف .

— لا تتأسف . 'ننى خشيت أن نكون مبالغا .

كان حسن لا يبالغ . أم يكن انبهاره بجمالها . لانه وحيد . او لانه لم يعبر عن غرائزه تعبيرا طبيعيا لمدة طويلة . ولكنها كانت منه الاعلى فى الجمال . كان يعشق الشعر الذهبى . والعيون انزرقاء ، والبشرة الوردية ، والقامة الالهفاء . الزرقة فى عينها زرقة عميقة . خلاصة نقيه لاجيال واجيال ... ظلت الزرقة فى عيون تلك الاجيال تصفو ، الى ان وصلت الى هذه النغمة الحلوة .

قوامها بانى : بض . النساء فى باده اكثرهن مبطرخات . تزداد « بطرختين » ، حينما يتزوجن ويلدن . لا يتحركن فى بيوتهن الا بين المطبخ ، والسفرة ، والسريير !

سألته عن مصر . واجاب ، وكأنه مرشد سياحى :

— نعتبر مصر — ولا اقول ذلك كمصرى منحس لبلده — من اهم واجبل المناطق السياحية فى العالم . انها تبرز اسبانيا وايطاليا واليونان وفرنسا وانجلترا . فى اليونان حضارة واحدة ، وفى ايطاليا كذلك . فى اسبانيا توجد حضارتنا نحن العرب . مصر : نجعم كثيرا من حضارات التاريخ : الحضارة الفرعونية ، أعرق حضارة فى الدنيا . الحضارة القبطية المسيحية . المسيح والعذراء جاءا الى مصر .

— هل هذا صحيح ؟

— نعم .

واستطرد حسن :

— الحضارة الاسلامية . الحضارة الاغريقية والرومانية نهما وجود فى مصر . هناك آثار للفرس والهكسوس والمغول ، والفرنسيين والانجلز . هذه الحضارات الاخيرة ، خربت الحضارات السابقة عليها !

— كيف ؟

- ان عمى الا حضارات استعمارية نزفت مواردنا وتاريخنا .
- لك حق . هل زرت المتحف البريطانى هنا . ومتحف « اللوفر » فى
باريس ؟
- لا .
- ستجد فيها اقساماً ضخمة للآثار المصرية . فيها قطع نادرة ؛
لا توجد فى مصر . سرتوها من بلادكم لا جدال فى ذلك .
- انتعش لهذه الاجابة . وتشجع ليضيف :
- هذا الى جانب الموارد الاقتصادية . التى نهبت من بلادنا . ومن البلاد
المستعمرة الاخرى .
- طبعا .. ان الحديث معك شائق ومثير . وكنت اتمنى ان امضى
معك الى مالا نهاية . لولا اننى لابد ان اغادر الاوتوبيس فى المحطة القادمة .
فهنا محل عملى .
- وددت ان اكمل لك الحديث عن مصر .
- احب ذلك . وارجو ان استمع اليه فى فرصة اخرى .
- وهل هناك فرصة اخرى ؟
- من بدري ؟
- هل نلتقى غدا ؟
- لا اعرف .
- لمحت الاسى بعنو وجهه . وكان مشرقا ابلن الحديث معها .
استدريكت :
- على اية حال ، انا آخذ الاوتوبيس . كل يوم الى عملى ، من المحطة
نفسها .
- فى اى وقت ؟

!م يثلق جوابا . كانت تد غادرت الاوتوبيس .

ذهب حسن الى محطة الاوتوبيس ، قبل الوقت الذى التقي بها بالامر فيه ، بنصف ساعة . ومكث بعده بنصف ساعة اخرى . ثم تحضر . أحس بخيبة امل ماحقة . خبت ومضة من الامل ، اتارت وجدانه . نخيلها فيها الرفيقة والصديقة . ود ان تعينه على دحر هذه الوحدة الموحشة . كان متعطشا للحب . نمنى لو تروى قلبه الجديب . وان تسمح بيدها هذا الغمام القاتم . الذى يسود سماء هذه البلاد . كانت الفعادة الانجليزية اللمسة الحنون الوحيدة . اننى أحس بها في هذا البلد .

لبث حسن مواظبا على الذهاب الى محطة الاوتوبيس كل يوم . يمكث ساعة بين الامل واليأس . نم يذهب الى كليته . ويعود منها مساء .

الصدمة التى اصابته بضياح حسناء انجلترا من يديه . الانتظار الطويل عند محطة الاوتوبيس كل يوم ، اديا الى سقوطه في برائن الانفولوزا . وما ادراك ما الانفولوزا في انجلترا . انها ككل شىء في هذا البلد : قاتلة !

كان للانفلوزا اننى فتكت بحسن فواند عدة : اكتشف جانبنا انسانيا في الانجليز . كان حسن قد نرك الحى الشعبى في شرق لندن . اخنط شهرها بالطبقة العاملة الانجليزية وبالفنات الملونة . القادمة من البلاد المتخلفة . اكتشف دنيا العمال الانجليز . والمدارس الفكرية التى تقسمهم . وبحث في نقابات العمال . وتعرف على علاقة هذه الطبقة بالرسماليين وبالاحزاب : المحافظين والعمال والاحرار والشيوعيين . وسع معرفته بالدول الفقيرة في آسيا وامريقيا . اضاف كل لوانك الى التخلف الذى عاشه في مصر .

اكتفى حسن بهذا القدر . شاء ان يجرب حظه مرة اخرى في احباء الطبقة المتوسطة . يريد ان يدرسها . الطبقة العاملة ، « والملونون » ، يقربون الى حد ما ، من البيئة التى نشأ فيها . تردد . تجربته مع « يفظ » « الملونون يمتنعون ! » مازالت تجرح احساسه . على الرغم من حياته

الضنك . وأصطراعه مع انقصر . الا ان نشأته الريفية جعلته يمشق الطبيعة . ومنذ جاء الى انجلترا . وانساء غاضية . تسيل مآقيها ليلا ونهارا . نها في صدره ضيق بهذه البيئة المعنمة . الحى العملى ، ليس به حدائق تحف بالمنازل . كالأحياء المتوسطة . الحى البلدى . ليس به ورد بلدى !

لعله كذلك يريد ان يرى وجوها اخرى ، غير الوجوه الملونة . ومستوى معيشة أعلى من مستوى الفئات العاملة . يبدو ان هذه الفئات تعانى ضنكا في حياتها . لا يبلغ ، حقا ضنك العمال في بلاده . ولكنه ضنك على أبة حال .

لجأ الى السمسارة . حتى لا يواجه بحاجز اللون . سأنه السمسار :

— من اى بلد أنت ؟

واجابه :

— من مصر .

— لحسن حظك ، ندى غرفة يقبل صاحبها تأجرها للمصريين ! ؟

وازداد فضوله :

— للمصريين فحسب ؟

— نعم .

— هل تعلم لماذا المصريون دون سائر المونيين ؟

— هذا الرجل كان أستاذا للمصريات في الجامعة . امضى كذلك جانباً

من خدمته انمسكرية في الحرب العالمية الثانية في مصر .

تهلل جذلا . الحضارة الفرعونية الودية نشفع له لدى الحضارة

الصناعية الحديثة . لا مراء ، ان هناك وصلا بين الحضارات !

استاجر الغرفة . كانت صغيرة ، لكنها اتيقة . بها مدفأة تعمل بالغاز .

نهمة ذاتهم « انشلن » في عدادها ، في لحظة ! كان لها باب بطل على حديقة

صغيرة ، فواحة بالورد البلدى . الورد البلدى الابيض . بلون انهار .
والاصفر « الغيار » . والاحمر مجروح الشفاة !

استبشر بالفرقة : وبسيده المنزل . امرأة قصيرة القوام ، دقيقة
الملامح ، فى حجم المصفورة ! تطفر داخل الحجرات تنظفها ، ونجلها .
والابتسامه تملو وجهها « المسمم » . ومن الغريب ان زوجها كان ضحبا ،
طويل القامة ، عريض الاكتاف ، فى ساقه عرج خفيف . اثر اصابة فى الحرب .
كانت هذه الفرقة فالأ حسنا لحسن . النقى صبيحة سكناه فيها .
بفانته الانجليزية عند محطة الاونوبيس . كانت الغناه عنوانا نابضا للحى
الائق . ولكن انحى غدا فى اليوم القالى . كتابا « مجهول العنوان » !

فوجيء فى هذا المنزل بهفاجأة سعيدة . وجد فى المنزل غرفة اخرى .
كان يسكنها « وليم » ! لم يشأ وليم ان يحدثه عن الغرفة الخالية . نجرسهما
معا فى استبعاد اللونين ، قاسية . لم يرد ان يجرح مشاعره مرة اخرى . لكنه
سعد بقبول حسن فى المنزل سعادة كبرى : سعادة مصدرها الصداقة ،
والفكر الانسانى المشترك .

وبرزت شهامة وليم مرة اخرى . عنى به ابان مرضه عناية خاصة .
جمله يؤمن . بأنه يمكن ان تكون فى هذا البلاد ظلوب طبية انسانية . كانت
ربة البيت كذلك غاية فى الرقة والحنان . احضرت دواء من الصيدلية . اذابته
فى وعاء به ماء مغلى . وضعت فوطه على راسه ، غطت وجهه . قالت له :
استنشق بخار الماء والدواء . ظلت تفعل ذلك ، طيلة العشرة ايام التى
افترسته فيها الانفلونزا . كانت تعد له أطباق الشورية الساخنة . وغيرها
من ألوان الغذاء . كانت سيده من انجلترا . فى الستين من عمرها ، لها
قلب من ذهب .

وليم . متوسط الطول . ملامحه تقرب من ملامح ابناء الشرق الاوسط
« البيض » ! يذكرك وجهه بالسحنة السورية . ذكى ، حلو الدعابة ،

- واسع الاطلاع . عندما خنت حدة الانفلونزا . اخذ يداعب حسن :
- اعتقد انك نست مصابا بالانفلونزا . انت محاسب بشيء آخر !
- ماذا تقصد لا
- انت تعرف تصدى .
- قال ذلك بابنسة خاصة . وسأل حسن عن متاعبه الحقيقية ! الواقع ان صورة الحسنة ثم تفارته . وصارح وليم :
- انتقيت بها على محطة الاوتوبيس . بارعة الجبال ، فذة .
- يا سلام ! . . . وماذا فعلت بها ؟
- لا شيء . هي التي فعلت بي . اعطنتني املا . . صرعته في اليوم التالي . ذهبت ولم تعد .
- اين تسكن ؟
- في هذا الحي .
- هل تعرف عنوانها ؟
- نعم .
- اذهب ودق على بابها !
- هل انت من مصر ، أم من ايرلندا ؟ انت تفكر تماما . كما يفكر بعض المصريين المخاطرين .
- اذا لم تكن جسورا . دعنى اقوم لك بالمهمة !
- لا يا حلو . العيب غيرها !
- ضاع عليه شهران . لم يحصل فيهما شيئا . على ان معاناة من نوع جديد كانت تتربص به .

عندما فشل حسن في جولته الاولى للحب ، بدأ يركز جهده في دراسته .
أخذ يتصل بالاساتذة ، يعرض عليهم موضوع رسالته ، للاشراف عليه
وتسجيله . بدأ بجامعة لندن . قابل « البروفيسور » روبنز * رجل طويل
القامة ، متين البنيان ، أثيرق اندياب . من ذوى القبعات العالية : التى
تبسها انطبقة الارستقراطية فى إنجلترا ، او انطامحين للانتساب اليها .
كان له اسم كبير بين منظرى الاقتصاد الرأسمالى . ادلى بدلوه فى الحوار
انشهير عن أزمة الرأسمالية التى تبدت فادحة فى الثلاثينات .

ذهب حسن للقائه فى مكتبه . غرفته لا تتسق مع مظهره الارستقراطى .
ولا مع لقب اللورد الذى منحه له ملكة انجلترا حديثا . لم يفت حسن ان
يهنئه به . يبدو ان الرجل يحترم علمه . لا يريد ان يكون مكتبه فخما . كانت
الفخامة فى مكتبته الضخمة الحافلة بالكتب العلمية .

عرض حسن على الرجل موضوعه : وخطة دراسته . التى الاستاذ
عليها نظرة . ثم قال له « ان الموضوع شانق » . لكن للانجليزى طريقة
معيّنة . بعد ان يصف الموضوع بأنه جيد ، او هام ، تانى بعد ذلك كلمة
« لكن » . ويعقبها كلام يهدم المتدمة ! واستطرد البروفيسور روبنز :

— انت تعلم اننى مشغول . ولا اسطيع ان اشرف عليك . وقد كان
ذلك يسعدنى .

ورد عليه حسن :

— سوف لا اكون عبئا ثقيلًا عليك . ويكفينى لقاءك ساعة واحدة . كل
خمسة عشر يوما .

— ليست المسألة عبئا ثقيلًا او خفيفا . انا لا استطيع ان افيدك .
لانه ليس لدى وقت .

لم يشأ حسن ان يكرر رجاءه . فالانجليز لا يقبلون التكرارات

والرجاءات . ومع ذلك فقد اراد ان يأخذ رأى منظر كبير ، من منظرى المدرسة
اراسمالية فى الاقتصاد ، فى موضوعه . سألته :

— هل أستطيع ان اعرف رايك فى الموضوع ؟

— حسنا ، الموضوع ليس سهلا . فهناك اقتصاديون معروفون ،
كتبوا فى الاستعمار . منهم كما تعلم هوبسون . ودراب . وباران ، وسوزى ،
وغيرهم . وهناك لينين ، اذا اردت اضافته لهؤلاء الاقتصاديين . وهناك
هنود ، مثل « دت » وفرنسين ، مثل بظهايم ، وبولنديين كاوسكار لانج ،
وغيرهم .

— هل من نصيحة تسديها الى ؟

وكانت المفاجأة التى اذهلت حسن قال البروفسور :

— اقترح عليك ان نترك هذا الموضوع ، ونغيره ! الموضوعات التى
تناولت التخلف والتنمية تكثف بها الكتب . كان الرجل ، قد اكتسب جدية
معينة . وغلبت على صوته رنة خاصة سألته حسن :

— ايمكننى ان اعرف سبب اقتراحك ؟

— حسنا . سوف لا تجد كثيرا من الاسانذة الانجلز . يشرف على
مثل هذا الموضوع .

ورأى الرجل الملاح وجه حسن يتجههم : فاستدرك قائلا :

— اعنى انهم ليسوا متخصصين فى هذا النوع من الدراسات !

وصلت حسن الرسالة التى يريد بروفسور روبنز ان ينقلها اليه .
شكره وانصرف .

لم تكن الصدمة قاصمة . وعيه تطور . قراءاته تقدمت . اصبح يدرك
الحقيقة البدئية : الرجل استاذ كبير فى بلد راسمالي . منح لقب « لورد »
نولانه الفكرى والعلمى للاستعمار وللراسمالية . كيف بربك تتوقع منه

الإشراف على رسالة تهاجم الاستعمار . ونكل اليه امراض النخف . الى تنفسي في البلاد الفقيرة . كيف يقبل ان يهاجم الرأسمالية المحلية . وهي حليفة للاستعمار . وتابعة له . وتنسب اليها السبب الرئيسي الثاني في تخلف البلاد .

راى حسن انه من العبث ان يحاول مع اساتذة آخرين في جامعة لندن . فروبنز كبيرهم . وهم لا ريب على منواله بنسجون . على انه لا بأس ان يجرب حظه في جامعة اخرى .

أراد أن يتخذ من موضوع رسالته أداة يخبر بها الاساتذة الانجليز . انذين ملأوا الدنيا « علما » ، وشهرة ، كما ملأوها استعمارا . لقد وقف على رأى المحافظين ممثلا في اللورد الاستاذ روبنز . وأثر ان يخبر علماء الاقتصاد من حيث انتماءاتهم الفكرية . فالفكر هو الذى يبين مكان العالم من مشكلة الانسان . ذهب الى الاستاذ « براون » في جامعة ليدز . كان من « الاحرار » ، او « انبراليين » . وجد ممثل الاحرار « عبدا » للاستعمار والرأسمالية . الفارق ان الاحرار يؤمنون بالرأسمالية المتوسطة . والكبيرة غير الاحتكارية . والمحافظون يؤيدون الرأسمالية الاحتكارية . والواقع ان المحافظين اكثر عنمية من الاحرار . فلا بد للرأسمالية . وعلاقتها الانتاجية ، ان تنتهى الى الاحتكار . لهذا رفض براون الرسالة بحسم وصراحة . . قال له : اننى ثمة لهذا النظام . ومجدى العلمى بنبتق عنه . وانا حفى بهذا المجد . لهذا ارفض رسالتك التى تهاجم الاستعمار والرأسمالية

سافر الى شمال الجزر البريطانية . حيث توجد جامعة ادنبرة في سكتلندا . لعله يجد لدى الاساتذة « الاسكوسس » أملا . بعد أن خابه رجاؤه في الاساتذة الانجليز .

الاسكتلنديون يفاخرون بأن اهم ماوك الانجيز ، جرى في عروقتهم دماء سكوتلاندية . لعل اصلهم الرفيع . ينعكس عليهم . فيقبلونه في جامعاتهم .

قابل « البروفيسور مارتن » . لم يكن مارتن بأحسن حالا من روبنز وبراون . « من روبنز وبراون الى مارتن . يا قبي لا تحزن » . او « يا عقلى لا تحزن » !

تحزبت الامور . أسود وجه انجلترا ، جنوبه وشماله . لماذا يحمر لونها في خرائط الجغرافيا ؟ قد يكون اللون الاحمر ، سواء كان على الخريطة ، ام في وجوه بنينا راجعا الى كمية الدماء وانغذاء اننى امنصت من عروق انبناء المستعمرات .

لا طائل من رحلة البحث عن العلم . وعن استاذ يشرف على رسالته . هو يريد موضوعا يجتث جذور التخلف في بلاده . وهم يريدون له بحثا عن تقدم الصناعة الانجليزية : النسيج والفحم والخشب ! هنالك يمكن ان تفتح له صدور الاساتذة ، وابواب الجامعات .

فكر في الذهاب الى جامعة دبلن بايرلندة . الايرلنديون لا يحبون الانجليز . خاضوا ضدهم معارك للاستقلال . عاصرت الحركة الوطنية المصرية . ربما يتعاطفون مع الشعوب المطنعة الى الاستقلال . لكن ايرلندة ليست متقدمة صناعيا كانجلترا . هي اترب الى ادول الفقيرة منها الى الدول الغنية . ما الفرق اذن بين اسانذنا واسانذتهم ! النظام الايرلندى . نظام محافظ راسمالي . تسيطر عليه الكنيسة الكاثوليكية . وهي اشد تمسكا بالافكار القديمة من الكنيسة الانجليكانية . التى يبيعها الاسانذة الانجليز . وعدل عن فكرة الذهاب الى ايرلندة .

ما العمل ؟ آه . بقراىل واحد . بمصيص تراقص في ذهنه فأنعشه : « البروفيسور آرثر لويس » . استاذ الاقتصاد بجامعة مانشيستر . ذاع مسيته في العالم الثالث .

الرجل ملون مثلنا ، بل حانك « اللون » . كان لويس من جزر الكاريبى من جامايكا . لونه داكن . ملامحه أفريقية « محسنة » !

ذهب الى مانشستر . مدينة صناعية كبيرة . استقبلته استقبالا خانفا . سحابة سوداء تائهة نطقت المدينة وسماءها . خليط من الضباب ودخان المصانع . يطلقون عليها " سموج " بالانجليزية . كانت قاتلة حقا .

أوشك حسن أن يخنق ؛ لولا أن جاءه النمرج . دخلت كامبوريا الفندق الذى ينزل به هيفاء من مانشستر . ثلاثى الضباب والدخان ! لم يضع وقتنا . ذهب اى المكان الذى جلست فيه فى جزاة غير مالوفة منه . وبأدراها :
— مساء طيب .

ابتسمت الفتاة عن شفاة مكنتزة عميق . وعن « ضب » انجيزى سكر .
قالت :

— انقول : مساء طيب قل مساء قائل وخائق .

— لكن حضورك قد بدد الدخان والضباب .

تقبلت المجاملة ؛ وقالت له :

— شكرا .

كانت رائعة انجمال حقا . . يبدو ان كل فتاة هنا رائعة انجمال ! امر فى كرم مصرى . ان يقدم لها الشاى والسادوتشات والكعك . استجابت لكرمه . سعدت وتنى الامانى !

نساء الشمال فى اجسادهن دبلجة . وفى عيونهن نداءات . همس لنفسه . « رينا يتم بالخير ! » تبادلوا الاسئلة الاجوبة عن الاسماء والبلاد ، والعمل . وعندما انتهى الشاى ؛ قالت له انها يجب ان تذهب الى البيت . لقد جاءت من العمل مباشرة واهلها فى انتظارها .

تماما كما تفعل البنات فى محسر ! ابدى رغبة عارمة فى ان يراها مرة اخرى بعد ان تعود لذويها . ابتكر سببا للمقابلة . لجأ الى الاساليب التى يستخدمها الشباب فى بلاده . اقترح عليها الذهاب للسبينا .

ثم يبد على الفتاة انها ضاقت بالاقتراح . وعدته وعدا لم يشك فيه ، بانها ستعود للقاءه . خرج معها يودعها . اختارت مكانا ينتظرها فيه . جاء في الموعد . انتظر وانتظر . ساعة بعد الموعد المحدد . لم تحضر . كنم الدخان والضباب انفاسه من جديد !

ذهب في الصباح للقاء الاستاذ لويس . لم يكن الوصول اليه سهلا . لابد ان تمر على السكرتيرة انتى تحفل بحجرة انيقة . سألته انسكرتيرة الحسناء :

— هل « البروفسور » ينتظرك ؟

— لا اظن ذلك .

— اخشى انك لا تستطيع لقاءه اليوم . برنامج حافل .

— اتيت من لندن خصيصا لمقابلته . والحديث معه . بشأن رسالتى . فأرجو ان اتمكن من لقائه اليوم .
— دعنى اسأله .

سرت انسكرتيرة كاتنسة . الى حجرة الاستاذ . وعادت في الحال :
— نيس ندى البروفسور وقت هذا الصباح . سيراك في الرابعة بعد انظهر .

وفي الساعة الرابعة تماما دخل حسن غرفة البروفسور لويس . ليست غرفة متواضعة ! لا يشبه غرفة اللورد روبنز ، ولا براون ، ولا مارتن . احس على الفور انه دخل منطقة متخلفة ! الغرفة وثيرة . فيها ابهة وفخامة ورباش ، مألوفة لدينا في الدول المتخلفة . المظاهر والترف الذى يضيع الموارد في بلادنا . بدلا من استخدامها في التنمية . وبرر حسن موقف لويس . الرجل امين مع نفسه ، ومع قيم بلاده . لا يريد ان يظهر بمظهر متواضع ، لا ينطبق على بلاده . ولا على سلوك الصنوة فيها !

استقبله البروفسور لويس ، باستاذبة واضحة . لم يلحظ مثل هذا

المظهر الاستاذى عندما قابل الاسانذة الآخرين . رجل فارح . مكتنز الاكثاف .
داكن اللون : افريقي السمات . كان يعالج مه ادلة رياضية من المعادلات
البسيطة على السبورة . كان مستغرقا فيها . خيل لحسن أن هذه المعادلة .
سوف تلغى التخلف والفقر ، في بد لوييس . وفي العالم الثالث !
تعجل الاستاذ الحديث :

— ماذا يمكن ان اقدمه لك ؟

— أرجو ان تشرف على رسالتي للدكتوراة .

— هل سجلت الموضوع في الجامعة ؟

— معى الاوراق كلها . وسوف اسجلها . الامر يتطلب استاذاً يقبل
الإشراف عليها .

حك « البروفيسور » صلته السراء . التى حجب « لونها » ما فيها
من بريق . وقال :

— لنستمع لك ، ثم نرى .

— اشكرك . اننى اعد رسالة للدكتوراة في معوقات التقدم . او
مشكلات التخلف . اننى عرضت لها في كتابك .

— هذا موضوع شائك وطويل . واخشى الا نستطيع الالمام بأطرافه .

— سأحاول التركيز على عقبتين ، هما : في نظري ، اصل كل العقبات .

— ما هما ؟

— الاستعمار ، وقوى الاقطاع والراسمالية المحلية .

برقت عينا الاستاذ من خلال نظارته السمكة . عينان تعطيك الطابع
الافريقي . كانت هاتان العقبتان ، لا ذكر لهما في كتابه . الذى يعتبره
« المتخلفون » موسوعة في التنمية . وقال في انجليزية لا تخو من لكسة
كاريبية :

— سيبان غريبان .

— أحببت أن أخرج عن النطاق الكلاسيكي ، الذي يكتفى بذكر مظاهر التخلف : كالايمية والمسئوى الصحى المتردى . وازدين والعادات والتقاليد ، وعبوب السوق . وتأخر الصناعة ، ونخف المرأة ، وغيرها .. هذه ليست أسباب التخلف ، ولكنها مظاهره . الأسباب الدفينة توجد فى التنظيم الاجتماعى ، وملكية الأرض ورأس المال . واستخدام ناتجها فى ترف القلة المالكة ، وحرمان التنمية والتقدم الصناعى والزراعى منه . والاستعمار ينهب موارد الدول المتخلفة . وبذلك يتسبب فى ركودها . سواء كان استعماراً قديماً ، أم جديداً فى شكل شركات عابرة للقوميات . هذا هو الموضوع مختصراً ، أو موضوعاً « فى فوتمة » ، كما يقول الانجليز .

— يبدو أنك متأثر بالفكر الاشتراكى .

— ليس من الضرورى أن أكون اشتراكياً ، لأرى التخلف ممسكاً بخناق سلاذى .

— أتم يملك احد الاشتراكية الديمقراطية ؟

— قرأت فيها .

تبسط وجهه القاتم . واشرق كالقمر . الثمر من الناحية الأخرى !

نتمجج حسن وسله :

— لعلك توافقتى أن مشكنى الاستعمار ، والاتطاع والراسمالية

الحلية هما العقبتان الرئيسيتان أمام التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، فى البلاد المنخفضة .

— لا أستطيع أن أوافقك . فهذه ليست مسألة سهلة . الاستعمار له

فوائد . وله مضار . والراسمالية قادت التقدم الاقتصادى فى الدول الراسمالية الغربية .

وأعمل حسن فكره لحظة . يريد أن يتأكد من أن الحوار لا يمس شخص

الاستاذ . يريد ان يقبل الاشراف عليه . وفي الوقت نفسه . لا يريد ان يبدو سطوحيا ، يوافق على كل شيء . سأل الاستاذ :

— ما هي فوائد الاستعمار في جامايكا . وفي مصر ؟

تحرك الاستاذ في كرسيه . وابنسم ابتسامة خفيفة . وشتت عن اسنان ناصعة :

— لا ادري من السائل ومن المسئول ؟ . . ومع ذلك . فانت تعلم فوائدده في مصر . اما في جامايكا ؛ فقد انشأ الاستعمار مدارس . ومستشفيات ، وطرقا ، وعمائر ، ومشروعات وغيرها .
ورد عليه حسن :

— المدارس التي انشئت من خرجت ؟ خرجت اقتصاديين وادباء وقانونيين وتجاريين ؛ وسكرتاريين وغيرهم من الفئات الضئيلة الاسهام في التنمية بالمعنى الحقيقي . ضيعت القوى البشرية . وهي اعلى عوامل الانتاج . لم تخرج مهندسين وزراعيين ؛ وصناعيين وتكنولوجيايين ؛ وعلماء . وهم عصب التقدم الصناعى والزراعى . القاعدة الانتاجية الحقيقية في كل مجتمع .

دهش . لان البروفسور لويس . لم ينزعج من هذا الرد . على العكس تبدت اسنانه البيضاء ، تعبيراً عن بسمة راضية . وعقب الاستاذ :

— انت تستخدم كتيبى ضدى ؟

ومضى حسن :

— المستشفيات . ماذا كان شأنها ؟ المستشفيات الصغيرة الخاصة تعالج القلة المترفة . وهذه لا شأن لها بالتنمية . فلا هى تعمل في مشروعات التنمية . ولا هى تنفق اموالها فيها . والمستشفيات العامة تعالج الفقراء علاجاً غير فعال . ثم يكن الهدف انسانيا ؛ بقدر ما كان اقتصاديا . كانوا م ٩ . - نشرحات

يعالجون العاملين من الملايا والبلهارسيا . لكي تزيد انتاجتهم في المزارع الاجنبية الكبرى ، وفي المناجم . فواندها وارباحها للمستثمرين الاجانب . حدد للعامل الوطني اجر رخيص ، « حفة من الارز » كما سميت سياسة الاجور في الشرق الاقصى .

لم يكن « البروفسور » سعيدا ، بهذا التفسير للمستشفيات . كان يهز راسه ، ولا يدري حسن ان كان موافقا ، ام غير موافق . مثل هذا التفسير لم يرد في كتابه !

واستمر حسن :

— والممائر . والفلل من يسكنها ؟ الانجليز والموظفون الذين يعملون في مكاتبهم او متاجرهم . والقلة الغنية ، التي تعيش على النشاطات التي يسمح بها الاستعمار . ولست في حاجة لان اذكرك بملايين الاكواخ . التي تنحشر فيها شعوبنا في ابيالاد المختلفة .

— صدقت .

انتعش حسن لهذه الكلمة . اطمأن انه يسير على الدرب . واصل حديثه في حماسة :

— وما المشروعات ؟ خذ مثلا ، مزارع الموز في جايبكا . والقطن في مصر . . اخذ المستثمر الاجنبي الاراضي في كلا البلدين ، بالفصب . او بشن بخس . العمال الوطنيون رخيصو الاجر ، يعملون فيها قهرا . يصدر الموز الى انجلترا ليكفل ترفا للمستهلك الانجيزي . والقطن ليكفل للمصانع والمستهلك ربحا وترفا . حرمت هذه ابيالاد من زراعة ارضها بالحبوب اللازمة لغذاء شعوبها . سادت المجاعات .

عند هذه النقطة ، نظر البروفسور الى ساعته ، والى السبورة ، وعليها المعادلة الرياضية . التي ستنتقد جايبكا والعالم المتخلف من بأسائه ! وصلت الرسالة الى حسن . ومع ذلك اراد ان يستدرج الاستاذ للحديث فقال :

- هذا عن فوائد الاستعمار في جمايكا . فما هي مضاره ؟
— أنت غطيت الفوائد والمضار جميعا . وقلبت الفوائد مضارا
صمت الاستاذ قليلا . ونظر الى السبورة . مرة اخرى . وقال :
— انا اخشى ان يكون الوقت قد مضى بنا . فم بعد لدينا متسع منه .
— كما ترى .
— حسنا . ماذا يمكن ان اقدمه لك ؟
— ان تفضل بالاشراف على رسالتي .
— :ؤسفنى . اننى لا استطيع .
انزعج حسن . كتم انزعاجه ، وقال :
— اعلم انك مشغول . واعبائك كثيرة .
— ليست الفكرة . مشاغل واعباء . اعفنى من ذكر الاسباب .
— كنت الامل ائباتى . فقد اعتذر قبلك استاذة آخرون .
— وسوف يعتذر الباقون جميعا !
— اذن اعفيتك من ذكر الاسباب . فقد عرغتها .
— اشكرك ربما لا تمرنها كلها .
— لكنك لست كالاستاذة الانجليز . جئت من منطقة متخفة . وعانيت
مثلنا . او عانى آباؤك انبساء ، والقهر ، والاسترقاق ، والاستغلال .
حسبت ان مشاعرك مع المتخلفين .
— ارجو الا تسترسل . هذه قضية منتهية . لا عودة للمناقشة فيها .
سكت الاستاذ الملون هنيهة ، واصل الحديث بعدها :
— على اننى ، وقد سمعت بمررتك . اود ان اهبس في اذنك بنصيحة :
لن نجد استاذا في هذا البلد يقبل هذا الموضوع . واجدر بك ان تغيره وتنتقى
موضوعا مقبولا . فاذا فعلت : يمكن ان نلتقى . ونرى .

كان رد حسن حاسما :

— اننى مقتنع بموضوعى . لابد لى من دراسته . اننى ارى غيه
خدمة لبلادى . ودون القضاء على هذين المعوقين . لا امل فى قهر التخلف .
اعتزته خيبة امل . ثم تكن الخيبة هى اعتذار الاستاذ لويس المون
عن قبول الاشراف على الرسالة . ولكن لانه يقول — وهو من بلد متخلف —
ما يقوله البيض « المستعمرون » .

غادر حسن الحجرة . لم يمر على السكرتيرة احسنا . ليشكرها .
على غير عادته فى الحفاوة بالחסناوات ! كان كل شىء قبيحا فى مانشستر .
بل فى انجلترا كلها . كان اويس صورة للنخبة المثقفة « البرجوازية » ، فى
حزب العمال الانجلىزى .



الظلام يخيم حوله فى هذا البُد . غير انه لا يقارن بالظلام الذى غشيه
فى اتضاعبة الخواجة . او فى عراكه مع الجهل ، فى الوسية المسكرية . انه
اليوم يأكل ، وكان الجوع رفيقه ، فى تلك الفترة الغابرة . الطعام الانجلىزى .
المسلوق غالبا . يعتبر قفزة غذائية وصحية للامام . نعم باكلات السمك
وانبطاطس المحمرة « واليوركشاير بودنج » تلك الفطيرة التى تشتهر بها
مدينة بوركشير . المدينة التى تشتهر كذلك بصناعة القطن . والذى اسهم فى
تقدمها ، وفى رخاء أهلها ، وفطيرتهم ، الفلاح المصرى !

لا يقاس كذلك رفض الاسانذة الانجلىزى قبول موضوعه لدراسة
الذكوراة . برفض وزير المعارف فى مصر طلبه للتعميم المجانى رغم نفوقه
وفتره ، وطرد من المدرسة وحرمانه من التعليم . كان يواجه ، وهو صبى .
لين العود ، نظاما اجتماعيا شرسا ، مهمته تحهيل الملايين ونجوبهم .
انه يسلم بانه لا مجال للمقارنة . لكنه يحس بأن هناك نوعا من

الرابطة ، بين الطرد من المدرسة الثانوية في مصر ، والطرد من دراسة الدكتوراة في إنجلترا . الحكومة التي حرمتها من التعليم في مصر : كانت حكومة صدقي باشا . مثل الراسمالية المحلية . وهو بانثالي الحليف الاقتصادي والسياسي للانجليز والملك . هذا اللون من الحكومة تقوم استراتيجيته على تجهيل الجماهير . الجماهير المتعلمة ، يمكن ان يرقى وعيها وندرك حقوقها . يمكنها كذلك ان تنظم نفسها . للقضاء على مستغليها .

اما رفض موضوعه لدراسة الدكتوراة نسبيته واضح : انه ذهب لمهاجمة الاسد البريطاني في عرينه . يريد ان يثبت علميا ان الاستعمار والراسمالية هما سبب الفقر في الدول المنخفضة . ودون القضاء عليهما لا امل لبلاده في التقدم . ويريد كذلك — وهذا لعمرى امر عجيب — ان يشرف على تك الرسالة اساتذة انجليز !

تفهم موقف الاساتذة الانجليز . ينافحون عن بقية المجد . انذى امدعم الاستعمار به . جعل الثورة الصناعية . تقوم في بلادهم . قبل البلاد الاوربية الاخرى . اثروات المنقولة من المستعمرات اسهمت في بناء الاقتصاد الانجليزى وفي رخائه . ومن هذا الرخاء تعلم هؤلاء الاساتذة ، واسبحوا مشهورين . تغزو كتبهم آفاق الارض . لا يهتم هؤلاء العلماء . بعد ذلك ، ان تكون الامبراطورية البريطانية ، قد بنيت من عمل ابناء المستعمرات . ومن عرقهم المنقطر . العناء اذن هم حماة النظام ومنظروه . الهجوم على على الاستعمار والراسمالية مرفوض . هذان هما سبب ما يرفلون فيه من وضع اجتماعى ، ومكانة علمية .

على ان الامر الذى لم يتفهمه . بل جزع له : هو هذا « البروفسور » لويس . الرجل قدم من اندول الفقيرة ، التي عانت من الاستعمار . انه لا شك قد رأى ، وسمع ، وقرأ ، ان آباءه جلدوا ، وهم يزرعون الموز : في مزارع المستعمرين . كانوا يستخدمونهم بأجر رخيص . وفي ظروف عمل

مرهقة . نكى بذهب الموزرخيصا للمستهك الانجليزى . وغير الربح لصاحب المزرعة . الا يعلم هذا الاسناد المتعلق . ان اجداده قهرت انسانيتهم ، وحفيت اقدامهم وتشسقت ايديهم فى مزارع قصب السكر . السكر الذى ذهب لانجلترا ليسهم فى صنع « شكولاته » فاخرة . يستمتع بها ابنؤها . ويترك العلقم المر . يتبلغ به الجمايكون .

ما بال هذه الصورة لا تترأى لعينيه . ولم تظهر فى حديثه . ثم نعلق بوجوده صور الفقر يطحن مواطنيه . والتخف يمسح انسانيتهم ؟

صلة هذا الرجل بجذوره تقطعت . اصبح نبتة جافة ، لا طعم لها ولا رائحة . لعل الاستعمار جاء به من كوح فى غابة . علمه فى مدارس الارساليات الدينية . التى فتحت هذه البلاد مع عساكر الجيش ورجال الاعمال الانجليز . ثم جاءوا به لانجلترا . ولا بد انه كان ذكيا .. واصلوا تعليمه عاليا . اعطوه الدكتوراة . واغلب الظن ان موضوعها كان فى آلاء الاستعمار على «جيايكا» ثم نصبوه استاذا . عالما من اعلام الاقتصاد . يعتبر ناكرا للجميل . اذا تم يدافع عن النظام . الذى كمل له المجد . واشهرة . والعينى الباذخ . اذن فكرة مسنولية الاستعمار . وحليفته الراسمالية المحلقة عن الفقر فى البلاد المتخلقة فكرة خاطئة ، يجب مقاومتها . وطرده من بصر على الكتابة فيها . ومحاولة اغرائه بتغيير موضوع الدراسة ، ليتسق مع الثقافة الاستعمارية .



القطار ، الذى ركبه من مانشستر الى لندن . يمرق به فى نعمة ويسر بين الجبال والوديان والبحيرات . يشق انجزر البريطانية من الشمال الى الجنوب . ينساب بين اجمل بقاع تلك الجزر . جبال ذات قمم بيضاء كالشمع . لكنها لا تذوب ، فهى قمم من زمهرير ! نلال بمنزرجة ، كبحر مانج من الخضرة

اليانعة ، غابات باسقات . أروع مناطق إنجلترا : منطقة البحيرات .
مرت هذه اللوحات البديعة ، أمام ناظريه ، وكأنه لا يراها .

كانها ليست انطبعة التي سحرته دائما . وكتب بين احضانها ، احدى
ما كتب : من اقتصاد وسياسة ، وادب . كانت الطبيعة صحراء عندها
استأنف دراسته الثانوية في الجبش . وكانت بحرا عندما كان يدرس في
جامعة الاسكندرية . وكانت قبل ذلك . حقول الوسية اليونانية . عندما
كان يكتب الاتفار .



مر بأزمات طاحنة في بلاده . ولكن الوانا أخرى من انشقاق كانت تنتظره
في إنجلترا . ولما تراكمت الازراء عليه ، هبت قوى من داخله تصارعها .
انلجت ومضة من ماضيه لتتخذ ارادته . أصبحت الومضة شعاعا .
تجمع لشعاع فصار قبسا ، مزق ظلام الازمة .

التفاؤل يمضى . والدراسة تصاعد نحو غايتها . ينرك منزله في
السابعة صباحا . ليكون في « المدرسة » في الثامنة . ويبدأ على انفور التهام
الكتب في المكتبة . كان يمكث فيها احدى عشر ساعة . يسير فيها بطون
الكتب ، ويستدر أسرارها .

اقطع عن نوم القيلولة . طيلة السنوات الثلاث التي امضاها في إنجلترا .
أسهم في ذلك ملاحظة فمكة ، ابداها زميل الماني من الكتبة . كنا يحسنيان
الشاي ذات صباح . بادره الالماني بلهجة عربية ركيكة ، مقبولة :

— صباح الخير .

— صباح النور .

أثارت النخبة ، موضوع التحايا التي يتبادلها الناس في الدول المختلفة . تحدث الألماني عن تحية الصباح عندهم ، وتحية بعد الظهر ، وتحية المساء . ورد حسن :

— لا توجد لدينا تحية لفترة بعد الظهر .

وسارع الألماني يسأله :

— هل تعرف لماذا ؟

— لا .

— لان الناس ينامون بعد الظهر في مصر !

صباح مشرق . أصرت الشمس على ان تمزق السحاب الكثيف . الذي ازهق انفاس الناس . فرضت الشمس سماء زرقاء صافية . كانت سخية . اشاعت في الكون دفئا . استشرى في اوصال اشياء . جعل الناس يطفرون في الشوارع . طاقة الشمس كانت وقودا ، حرك اجسادهم . التي جدها البرد . خضعت حسان لذن معاطفن . زهرات ، تنثرن في الشوارع عطر الحب ، والوان الربيع .

كان قابعا في حجرة المكتبة . اطلت عليه الشمس . تسللت الاشعة الحانية من النافذة . اصابته ارتعاشة جذلة . انتفض واقفا . جمع اوراقه ، وغادر المكتبة . هذا يوم الطبيعة !

ذكرته الشمس بمصر . قفز الى ذهنه على الفور ، زميل مصري ، مريض بمستشفى . يقع على الجانب الآخر من نهر النيل ، القريب من الكلية . فرصة ليرافق الشمس والنهر اطول مدة . ذهب الى المستشفى ليعود زميله . ولما فرغ من زيارته ، اخذ طريقه الى باب الخروج . فجأة ، شاهد انسانا ، كان آخر من يتوقع ان يرى . انسانا تمنى ان يراه اثناء الليل ، وطرفا من النهار ! اعطاه احدى الاماني . ثم وادها !

راى « برندا » امامه ، وجها لوجه ! كان المستشفى في وسط

المدينة . بعيدا عن الحى الذى يسكنانه . ما كان لاي منهما ان بنصو .
انها سوف يتلاقيان هناك .

نلثم حسن . انثابنه قشعريرة فى يوم دقء ! كانت أمنيته الكبرى ان
يراه . ها هى ذى تفاجئه . بادرها على الفور ، وكأنه طفل يلث :

— مفاجأة جميلة .

— نعم ، مفاجأة لطيفة .

— أين أنت ؟

— فى لندن .

— بحثت عنك طيلة الشهرين الماضيين . اوشكت ان اقتحم عليك
منزلك .

— اوه . يالجرانك . شكرا على انك لم تفعل .

— لماذا ؟

— ان أبى رجل شديد !

— الله ! حتى هنا فى انجلترا ؟

— طبعا . هل الآباء عندكم كذلك ؟

— الآباء عندنا يقتلون !

— اوه . ريباه !

— ماذا كنت تفعلين هنا ؟

— كنت أزور خالتي المريضة .

— لابس عليها .

— شكرا .

اتخذ الكلام اتجاها عاديا ، انجليزيا ، لا يشبع . تردد حسن فى ان
يرفع من درجة حرارته . لم يأف الغزل الانجليزى بعد . هل هناك نمط

عام للغزل . أم إن هناك انماطا كثيرة ؟ صداقتها تكفيه . أيا كان مستوى تلك الصداقة . النظرة اليها كسب كبير . يريد لها أن تؤنس وحدته . حتى لو كان الابناس ثقافيا ! تشجع وغير مجرى الحديث :

— لقد أرسلت اليك خطابا .

ردت عليه .

— وصفني .

— لم تردى عليه .

— أنا آسفة .

وخطى خطوة أكثر شجاعة :

— ماذا يجدى الأسف ؟ وقد كنت عنصرا في الإزمة التي حاقت بى

في بلادكم ؟

— ازمة .. ؟ .. اية ازمة ؟

— ازمة الهوان اللونى . وازمة الاسانذة الانجليز . لا يقبلون موضوع

رسالتي .

— هل حدث ذلك لك ؟

— أجل .. بعدها جاءت ازمة الانفلونزا . والوحدة . وازمة الحرمان

من صداقة جميلة . حين لم تردى على خطابى . انك حتى لم تعودى تأخذين الأوتوبيس ، من المحطة التي التقينا فيها أول مرة .

— أنا آسفة . أنا حقا آسفة .

خشى أن تفر منه مرة أخرى . شجعته نبرة الصدق في أسفها على أن

يتبول لها :

— هل يعنى هذا أن نبدأ بدءا جديدا ؟

— نبدأ ؟ .. نبدأ ماذا ؟

— الصداقة بيننا .

— نحن أصدقاء .

— صداقة نلتقى فيها عن طريق الصدفة — هذا اذا كانت الصدفة
موانيسه .

— آسفة . لا أستطيع ان اتك باننظام .

— نلتقى بغير اننظام !

ابتسمت وقالت :

— دعنى احدثك بصراحة .

ازداد وجيب قلبه . الصراحة قد نكون قاتلة لامانه .. ومضت
تقول :

— انى جد آسفة على ما سببته لك . لم اكن ادرى ان مقابلة
عارضة . ستفعل بك ما فعلت . يبدو انكم عاطفيون . سريعو الانفعال .
توقفت لحظة ثم استطرقت :

— انا لا أستطيع ان اخوض الآن عماية الحب . او العلاقة مع اى
رجل . انا مازلت فى الثامنة عشرة من عمري . وانا طالبة فى الثانوية .
مازال محيرى الدراسى لم يتبين لى . اعمل الآن مسكرتيرة فى شركة من
اشركت بعض الوقت . وانت رجل ناضج . لا تتعجل . سوف تقابلك حتما
فنيات ناضجات . يلغن بقوامك السمهري . ولونك الخمرى !

انعكس كلامها ، على رفته وصراحته ، فى قلبه جراحا . وفى نفسه
خيبة . لم يخفف من ألم الجراح ، تلك الكلمات . التى وصفت بها قوامه
ولونه . ليس هذا اللون ، الذى يعجبها . هو سبب اضطهاده فى انجلترا !

اجابها بقلب كسير :

— انا لا اريد الاك !

واستطرد في حماسة . طرق ناحية حساسة ، بجرأة غير متوقعة :
— .. واعدك وعد الرجال ، باننى لن المسك . فسئلك لا يهم .
— انا آسفة . انت لم تفهمنى . الموضوع ليس سسنا . ولا خوفا
منك . لكننى في المرحلة التى اجتازها الآن . نبيس لدى استعداد نفسى .
لابدا علاقة مع اى رجل . وليس الموضوع متعلقا بك فحسب .
اجابة صريحة وامينة . لكنها لا تهدد نفسه المزمته . غاض امله
تسلل ابوهن انى جسده ، ومعنوياته . تركها دون ان يحييها . لم يرد
ذلك . ونكن الضياع الذى غشيه ، هو الذى اراد .



انفض عرس الشمس . انقلبت الاشعة الذهبية انى اسلاك من
حديد صدىء ! انعكس الصدا على الناس في الشوارع . صارت ملابسهم
دكناء . بشرتهم مريدة . وجوههم تذكر حمرتها . لا بلون الورد ، لكن بلون
الدماء !

تواترت صور المعاناة التى تعرض لها . منذ فترة مبكرة من صباه .
حملت العذابات اليه هذه المرة مخاوف جديدة . كان يرفضها دائما . هذه
المخاوف ، لو استقرت في نفسه ، لعاقبت طموحاته . مخاوف تتراقص
كالشياطين : القدر . الحظ . النسيب ، المصير التعمس .

بماذا يفسر هذا الاصرار من القدر على ملاحظته ؟ وهل لابد ان يكون
القدر دائما مخربا ؟ بدا القدر الرحلة معه مبكرا . وهاهو يواصل صب
لعناته عليه .

على انه ليس قدريا . لم يندب حظله . ولم ينزع من بنائه ،
وهو صعبى عندها ضاعت الارض . والدته بكت الارض .

ونسبت لتقدر والبخت سبب الكارثة . الا انه يرى ان القدر لم يسلب الارض . ولكن سلبها شخص بعينه . هو الخواجة اليونانى . وان الخواجة كان مرابيا . وكان يتجر فى الخمر فى بلد مسلم . يبيعهما لاعيان الريف فى محر بثمن مرتفع . يقرضهم النقود بربا فاحش . يتراكم الدين عليهم . يعجزون عن سداده . تنتزع الارض منهم . يتملكها الخواجات . ليس القدر هو الذى انتزع الارض . . ولكن الخواجة بنى اليونانى ! مكنه من ذلك نظام اجتماعى معين . وحكومات تعاون فى نقل ملكية الارض الوطنية الى الاجانب . وجيش من الاحتلال الانجليزى يحى امتيازات الخواجات .

وحيثما اناخ كاهله الاستغلال . واستخدمه خواجه يونانى آخر ببلغ خمسة واربعين قرشا فى الشهر . لم يكن ذلك نصيبا . وحيثما انصب الاستغلال والقهر على انفلاحين فى وسية الخواجة ، لم يكن ذلك حظا . ولكنه كان نظاما يمتلك فيه الخواجات والباشوات الارض ، ويحرم منها ملايين الفلاحين . كان نظاما من صنع المستغنين للبشر . وليس من صنع القدر .

طبق حسن فلسفته على نفسه : لو اسنم لمطرده من المدرسة وتجهيله ، ولاستغلاله فى الوسية وتجويعه ، واعتبر ذلك قدرا لا فكاك منه ، ما كان قهر الجهل والجوع .

فلسفته تنامى . يبدو راضيا ، اذ يرفض اسانذة الاستعمار موضوع رسالته ! لماذا لا يضى فى النضال ؟ ألم يزل الثتافة والتوجيهية دون مدرسين ؟ لماذا لا يحصل على الدكتوراه ، دون اسانذة ؟ همته ، وهو صبي ، كانت قصصا . مابالها توشك ان تتقاعس به وهو فى شرح الشباب . وعادت العزيمة :

ما الدكتوراه ، وما جامعات بريطانيا . وما الاسانذة الانجليز ؛ الدكتوراه معرفة تحصل وتنظم . وتطلع للهدف الذى ترثو اليه . اصبت

تادرا على تحصيل العلم . انسمت آفاقك ومداركك . لم يتبق الا التصميم
والإنكار . عليك أن تتبدع عملا ، يسهم في المعركة ضد الفقر في بلادك .
والدكتوراه اسهل تطلعا من « الثقافة » والتوجيهية !

ماذا يضيف الاستاذ الى طاب ادكتوراه في مصر ، وحتى في انجلترا ؟
اغلب الاساتذة في مصر ، لا يرون طلبة الدكتوراه . مشغولون برغيف
الخبز (او بالجانو !) . الدولة التجهيزية لا تكرمهم . ومادام الحاكمون
مشغولين بمقضايا بنيت السلطان . وتراكم الثروات . فالاساتذة كذلك في
حل من تثبيت « الجانو » ، والسلطان العلمى والتجارى على الطلاب .
وتثبيت ادخل من الكتب . التى تترجم ، او تنقل من مراجع اجنبية بالية .
بهذا يضيع طلاب الدراسات العليا « والوطبا » . انن ليس هنالك جديد
في دراسة الدكتوراه . دون اساتذة مشرقين . بل هى بالنسبة لى فلسفة
منعشة : حرمنى دولة الوسية من مدرسيها وحرمتنى الوسية الاستعمارية
من اساتذتها . فلا زاول هواينى المفضلة : التعليم دون مدرس او استاذ .

وما الاساتذة الانجليز ؟ كلامهم في كتبهم . يمكن قراءتها باستخدام
المقل والمعجمات . في اشرفهم على الرسائل لا يقونون جديدا . عار على :
لو كتبت رسالة دكتوراه ، نبحت في صناعة القطن الانجليزية « بلانكشير » ،
كما يعمل مصيغ . وكثير غيره . ما اغاظة ان اقدم موضوعا ، يقبله الاساتذة
لانجليز . يكون نافها . وعديم القيمة بالنسبة لبلادى ؟ لن اتال الدكتوراه
من هذا البلد ، اذا تم اتبع النهج الراسملى . سوفه ابرز تخريب الاستعمار
والراسمنة لبلادى ، مهما كره الكافرون بالانسان .

بقى موضوع لا يهزنى . ولا انتشى به كالأخرين . دكتوراه من
جامعات انجلترا او فرنسا او أمريكا . عتدة غرسها الخواجات في تفكيرنا .
هذه الفكرة لن تنفخ في اوداجى . ولن تنير في تعاليا اجوف .

المشكلة بالنسبة لى الآن . هى المكتبة . والحق . ان المكتبات في

هذا البند حاشدة . مضيئة بالعلم والمعرفة . من الحق كذلك انها انعكاس للتقدم الصناعى والحضارى . الذى قطعته انجلترا . لكن من الحق ايضا . انها انقطعت هذا التقدم من شعوب المستعمرات .

سأبكت هنا سنتين . وهما كامينان لآعب من انهار المعرفة . التى تفرق هذه انبلاد . سوف استقطر هذه الكتب ، واسكبها رحيقا فى رسالتى . وسوف أشكل الرحيق لىكون شفاء للتخاف فى بلدى . عطفى ووجدانى صتلها الكدح والصراع مع انجوع نفسه ؛ لا مع كته . ومع التخلف ذاته . لا مع وثائقه . ومع القهر الحقيقى . لا مع مؤلفاته . هذه المراجع النابضة بالحياة . تنرى المعارف المكتوبة . وتمكن الكاتب من تقديم علاج اصيل للتخلف . ورسم مسار مضى لتتقدم . لانه علاج استقطر من شقاء الملايين . ولانه مسار يقتحمونه بأمل وثقة وعمل .

وسوف اعود الى بلادى . وسأجد استاذا لا يقل عن الاسانذة الانجليز علما . وهو ابن بلدى على اية حال . مهما كان فكره . فلا شك ان البؤس يحرق به مباشرة . ولا يبعد المكان والزمان بينه وبينه . كما حدث للاستاذ لويس . سيكون عطوفا على موضوع الرسالة . الثورة كذلك فى مصر ، تقضى على الاتطاع . وبخوض معركة ضارية ضد الاستعمار . وترنو الى اقتصاد وطنى « مصر » مستقل . لا ينهش لحمه الاجانب . تاركين العظام ينخرها السوس والراسالية المحلية . فى هذا الجو لآبد ان تكون فرصتى افضل .

* * *

نسى حسناء انجلترا . او هو فى الحقيقة تناساها . لم يحقد عليها . انه لم يحبل حقدآ لآحد . حتى لمن وجهوا اليه تلك الضربات الاجتماعية القاصمة . كيفه يحقد على الجمال . وهو من عشاقه .

حاول أن يرفه عن نفسه ، كما يفعل الآخرون . هذه لندن ، والوان
الترفيه فيها متعددة . تتراوح بين الترفيه الرفيع ، والوضيع .

كان يغادر السفارة المصرية ، الموجودة في حي راق من احياء لندن
« الماي فير » . رأى غادة هيفاء من بعيد ، تتخطر على الرصيف . كانت
فائنة . الا توجد في هذا البلد غير الفائئات ؟! حدجها بعيونه النفاذة . كانت
تقترب منه . وبسمة مرسومة نعلو شفتيها . بادرته :

— مساء الخير .

— مساء الخير .

— هل تحب ان آتى معك ؟ !

عوجىء ! تردد . لم يعرف بماذا يجيب ؟ بلد غريب : فريق يرفض
صدافتك . ويفر منك . وفريق يتقرب اليك . ويعرض نفسه عليك . ولما
وجدها تنتظر رده قال :

— لا . اشكرك !

فطن : رغم انعدام خبرته في هذا الميدان . الى انها امرأة عامة !
وهذا هو المجال الوحيد في حياته الذى ينفر فيه من العمومية ! مجال
النساء . لكن كيف تكون البغى ساحرة على هذه الصورة ؟! قامة تتأود ،
فتتاود معها رغبتك . هامة مرتفة ، وكانها لا ترتكب امرا مشينا . المصحة
والجمال وانرخاء تنبض في جسدها . استغفر الله ! الدعارة هنا مختالة
ايه . بيننا الدعارة في بلدى مهينة منكسرة :

كان يشئى مع خمسة من اصدقائه على شاطئ النيل . « اصطادوا »
امراة ، قصيرة انقامة ، هزينة الجسد . سوء التغذية ، شوه وجهها .
واعطاه لونا كالتراب . لم نلح المساحيق الثقينة في تغيير هذا اللون .
اخذها ابنا « الاسر » ، خريجو الجامعة ، الى شقة ادهم . لم يرد ان
يساحبهم . لكنه ذهب ليدررس ! كان في البيت ثلاثة « شحطة » : اخوة

صاحب الشقة . تناوب أبناء « الأسر » . النى وصفها الفائب العام . بأنها
الاسر الوجيية الثرية . التى يحتفظ لها بالوطنائ الممتازة ، تناوبوا المهام
هذه الفريسة الشعبية . كانوا يلغون فيها كالكلاب . ثمانية غلاظ شداد :
يفنكون باتسانه . ينخر المرض والفقر والمجتمع فى سدرها . وجسدها
المعروق .

دعى للإدخول . رفض ! كان الدين هو السد الاول ضد هذه
الجريمة . لكن تطورت معه قيم أخرى . العملية الجنسية عنده : لون من
انتوامل الجمالى بين انسان وانسان . انه انتقائى ، فى هذا الموضوع .
نشأ لديه نفور من المرأة « العمومية » . لكنه عندما دفعه هؤلاء الشباب الى
الدخول عنوة ، شهد منظرا : تجسد فيه الهوان الانسانى . كان يظن أن
الهوان الانسانى فى المعتقلاات محسب . ولكنه وجد له صورة بشرية زرية
أخرى . ما الفرق بين أن تذهب ظهور الشباب بسياط انقهر . وبين أن تذهب
عورة هذه للإنسانة الفقيرة المريضة الجائعة . لا رحمة هنا ولا انسانية
هناك . مجتمع يتهن بعضه بعضا ! ولا يكفل للعاهرات عملا منتجا شريفا .
هذا المنظر المقزز أصبح حائلا أشد مناعة بينه وبين الجريمة .

رفض حسن دعوة البغى الانجليزية ، رغم حرمانه الشديد . ورغم
أنها كانت بغيا من بلد متقدم صناعى ! يقبه بحضارنه ، التى لم تكفل عملا
محترما انتاجيا لهذه الفتاة . فى الراسمالية يخضع الانسان للربح وللتجارة ،
حتى فى الدعلة .

ليس أمله الا الترفيه الرفيع : ليغترف منه ماشاء له الاغتراف .
هناك دور الموسيقى والمسرح والسينما ، والمتاحف . والمراسم ، ودور
الرقص .

* * *

عام ١٩٥٦ ، عام القضايا الوطنية الساخنة . يبدو ان الاحداث العامة لا تود ان نفارقه . انه رفيقها . وصفيها ، وخليقها ! تطيرت القضايا الهامة من انجاهه الاخير نحو الترفيه . الترفيه هنا - ولو انه يبدو ضرورة . تنقذه من الفراغ العاطفى . الا انه خطير .

فالترفيه مشفق من « الترف » ! والترف اذا ما أمسك بناصريته ، سيكون ذلك نهاية مكافح . نشأ غرام بينه وبين المشكلات العامة . لكنه غرام انانى . الحق ، انه انانى من جانب واحد . كان ، خلال حياته كلها عاشقا للقضايا الاجتماعية . بل كان شهيدا لها . سميدا بالشهادة . الانانية كانت من جانب تلك المشكلات الاجتماعية ! لا جدال انها احبت فتانا ، واستأثرت به . منحته سعادة غامرة ، بقدر ما منحته شقاء غامرا . الآن تضن عليه ان يتخفف من اعباء الدراسة . ومن الخواء الغريزى . شعورها بالخوف من ان يتردى في وهدة الترف . لا اساس له . فهو عدو للترف وللثراء . فكيف يقبل التؤوع في برائن اعدائه .

كانت الاحداث العامة جساما . لكنها كانت منعشة . وهل تلام تلك الاحداث عندما تكون مصدرا لانعاش الناس ؟ استغرقته الاحداث . لم يعد هناك وقت للترفيه . الاحداث نفسها تحمل الترفيه بين جوانحها !

الحكومة الوطنية في مصر . وقد مضت في تطبيق الضربة الاجتماعية الاولى . وهى الاصلاح الزراعى . بدأت ضربة ثانية ، هى بناء السد العالى . كان السد العالى معركة مع الاستعمار القديم والجديد . ومع المؤسسات الدولية التى تمثل الرأسمالية العالمية . ولو انها رسميا تمثل الامم المتحدة !

حينما اتخذت الحكومة قرارها بانشاء السد العالى . لم يكن هناك من يعترض على 'نشانه . ولم يكن ذلك نتيجة لاقهر الذى يقول به المعارضون

نهما . ولكن لان غوائده الاقتصادية كانت واضحة للجميع . الاتطاعيون هم الذين يمكن ان يتعدوا بناء السد . لا لانه ضار . فهم سيفيدون منه . سيظلون نسبيا كبار ملاك الاراضى ، حتى فى نطاق قانون الاصلاح الزراعى ! لكنهم يكرهونه ، تنقمتهم على الحكومة . وهم مجد من امجدها .

المركة ، اذن . كانت مع الولايات المتحدة . وانجلترا . والبنك الدولى ، انخاضع للامريكيين من حيث رساماله وادارته . الغرب يريد ان يحتوى مصر . يريد لها مزرعة للمواد الاولة اللازمة لصناعته ، وسوقا لتلك المصنوعات . يريد لها عضوا تابعا لحلف الاطلنطى يسند الغرب فى حربه اباردة والساخنة . ضد الاتحاد السوفييتى والجيبة الاشتراكية . من المفيد ان يقرضها الغرب بناء السد . ولكن تحقيقا لهذه الاغراض .

مضت المفاوضات مع امريكا والبنك الدولى . طالت . اجريت الدراسات . الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التى تجنيها مصر منه كبيرة . لتقترح ان وجدت هزينة . قرر الغرب ان السد العالى مشروع ذو جدوى اقتصادية واجتماعية كبيرة . يوفر المياه اللازمة لمصر طول السنة . يزيد مساحة الارض الزراعية . ويولد طاقة كهربية تحرك المصانع . وتثير التنمية . ونشر القرى .

على ان انغرب استشعر ان حكومة مصر طموحة : شباب وطنى ، طرد الملك . انتهى لاقطاع . يحقق الاصلاح الزراعى . وها هو بينى السد العالى . هذا الشباب يخيف . يتهجم نهجا استقلاليا . يعمل على توحيد الامة العربية . بنشئ علاقات مع الدول الاشتراكية . والادعى من ذلك انهم ينشئون مع شعوب العالم الثالث جيبة قوية ، يطلقون عليها « جيبة الحيد الايجابى وعدم الانحياز » . هذا تخريب لاستراتيجية حلف الاطلنطى . الدول الظاهرة فى هذه الجيبة . الهند . ومصر . ويوغوسلافيا ، دول عدوة . حيدها يقوى الاتحاد السوفيتى . انتشرت فلسفة

" مكارثى " . وهى أن " الحديد عمل لا أخلاقى " . من ليس معى . فهو عدوى . انه شيعوى !

غدت انتياداة فى مصر . الشعور بالقومية العربية فى الوطن العربى كله . وكان لعبد الناصر اثر واضح فى بعثها ورسوخها . القضية الاولى التى نجح حولها العرب ويختبرون فيها قوميتهم . هى فلسطين . لا بد من تحرير فلسطين المحتاة من اعدو الصهيونى . البشر لدى العرب كثير . المطلوب هو السلاح . لم يعرف العرب مصدرا لسلاحهم طوال العصر الحديث ، غير الغرب . الغرب ، هو خالق اسرائيل . وصانها ، وحامياها . من المذاجاة ان يطلب العرب منه سلاحا . رفض الغرب طلبا للسلاح تقدمت به حكومة مصر . وبازت للحاكمين فى مصر العلاقات الحقيقية للقى الدولية . لاحظ المفاوض المصرى ان حماسة الولايات المتحدة وانجلترا لبناء السد العالى تراخت . ان الحصول على سلاح غربى لتحرير فلسطين مستحيل .

اذن لا بد مما ليس منه بد . لم تعد المشكلة مشروعا ، بالغ الحيوية لمصر وانميتها . بل اصبحت قضية منعلقة بالكيان القومى . وبالاستقلال السياسى والاقتصادى للبلاد . وغدت بالنسبة للحكومة قضية متصلة بكرامة النظام وسعته .

الاتصالات مع الغرب تنقطع . المحاولات لانقاذا لا تحقق نجاحا . سعد الزعيم المصرى المعركة . طرحها امام الشعب . يقوى وعيه بالمشكلة . انقلبت معركة السد العالى من معركة اقتصادية الى معركة وطنية وقومية . بكل معانى الكلمة . لم يعد الموضوع قضية ارض عطشى تتطلب الماء . ولا ريفا مظلما يحتاج للكهرباء . ولكن شعبا يريد التحرر الحقيقى من الاستعمار القديم والجديد . ومن التبعية التى تفرض عليه الفقر . وتعمق فيه التخلف . الجبهة الداخلية تقوى . ادى غليانها الى قرار يتخذه عبد الناصر .

« يسلح انجيش المصرى . من الجبهة الاشتراكية » ، من شيكوسلوفاكيا . والاتحاد السوفيتى . صاروخ دوى انفجاره فى أرجاء الغرب كله . بدأت معركة الاستقلال الحقيقى . ضيعة القطن ، وميرة الخيرات ، ذات الجو الحانى ، واشمب الطيب . والموقع الاستراتيجى . تفلت من قبضة الغرب . كانت له مستعمرة ذلولا ، ما يقرب من مائة عام . رفض الغرب تمويل السد رفضا صريحا . كانوا يقصدون توجيه ضربة قاصمة للحكومة الوطنية . اما ان تلقى صفقة السلاح : وتخضع لامريكا واسرائيل . واما ان تصيور لشعبها على انها عاجزة عن بناء السد العالى .

رفض تمويل السد . كانت له نتيجة ايجابية . بدأت مصر تبحث عن مواردها الذاتية لتمويله . اصل تاريخى هام من اصول التنمية الحقيقية . يمنع ثمرات التنمية من ان يقطنها الاجانب . ويشير العزة فى بنيتها : بينون بلادهم ، ويقهرون النخف ، بأيديهم . لا بيدي الخواجات .

مرت فترة من التريص . والهدوء ، والقلق . نصم الحكومة على شراء الاسلحة من اى مكان . قبول بحماس شعبى بالغ . أصبحت صورة انولايات المتحدة ، وانجلترا تمينة فى نظر الجماهير . هذان البلدان الممثلان للاستعمار الجديد والقديم . هما العائقان الرئيسيان لاستقلال مصر ، وتقديمها الاقتصادى .

* * *

— آلو .

— هيلسو !

— من ؟

— انا عبد المجيد . الاتعرف من انا ؟

— اهلا يا عبد !

— عبد « آيه » . ترق . اتينا بك الى لندن ، ونملكك الدكتوراة .
ومازلت تقول عبد !

ضحك حسن ضحكه العاليه الشهيرة . تعود عليها رب البيت وريته .
قالت له ربة البيت ، انها تثير البهجة في البيت . فوعدها ان يجعل بيتها
بهيجا « على طول » ! واستطرد المتحدث بصوت آمر :
— نعال الى منزلى بسرعة .

المتكلم زميل من كلية التجارة بجامعة القاهرة . يمدد الدكتوراة في
الإحصاء عن السكان . لا سكان إنجلترا ! ولكن عن القوى العاملة في مصر .
موسوعة متنقلة من المعارف . معلوماته اكبر من حجمه . وأطول من
قامته القصيرة . وعيه الإجتماعى ناضج . سعد حسن به . وجد فيه نموذجاً
جيداً ، رد اليه انفقة . بان هناك نماذج طيبة في بلده .

سارع حسن الى منزل عبد المجيد * وجد عده صيقاً آخر : مصطفى
بهجت رجل مخلص ببلده ولدراسته . فلاح - متدين ، متواضع . يضحك
ويقطب في اللحظة نفسها ! يبدو ان احدانا شخصبة جعلته لا يستمتع بالبهجة
المشتقة من اسمه . الدهجة بعقبها عبوس . غير انه كان قادراً باستمرار على
اطلاق قنشات تبهج الحاضرين .

بإدر حسن عبد المجيد بقوله :

— ما عى المسائل الهامة ، التى دعوتنى من أجلها ؟

ورد عبد المجيد :

— الا تعرف ؟

— ما الحكاية ؟

— اليوم ٢٦ يوليو . عبد الناصر سيخطب في الاسكندرية . ولما كنت

« فقران » ليس عندك راديو قوى — ولا ندرى الى متى ستظل « فقران » —
قلنا نعطف عليك . وتسمع الخطبة معنا .

— حرام عليك . يكتبنى فقر واحد . لا « فقران » !

ضبط عبد المجيد الموجة التي يمكنها سماع اذاعة القاهرة . وجاء
موعده الخطاب . كان صوت الزعيم قويا جهوريا . بدوى كالرعد :

« ايها المواطنين »

« ارف ايكم النبأ التالي » :

« تؤم الشركة البحرية لتفال السويس . شركة مساهمة مصرية ! » .

انفجر الجمهور هتافا وتصفيقا وسباحا . قص عبد الناصر قصة
المراع مع الولايات المتحدة وانجترا وانبتك اندولى ، فيما يتعلق بتمويل
السد . وقصة التسليح . وتصميم الدولتين على أن تظل بلادنا تابعة لهما ،
ومستغلة . لكننا سنحقق استقلالنا الحقيقى و « حنبى السد » .

رقص حسن طربا . وطبل له عبد المجد ، الذى يجيد الضرب على
« الوحدة » ، فى المناقشات السياسية . اما مصطفى . فقد اصفر لونه
وصمت . وخاطبه حسن :

— ما بالك يا مصطفى . هل الاعمال المعظيمة يشحب لها وجهك ؟

زم مصطفى عينيه ، وهز راسه ، وهى عادته عندما يكون جادا وقال ؟
— انا سعيد بهذه الخطوات الوطنية . لكننى خائف على بلادى . ان
امريكا وانجترا ، وفرنسا ، بلاد لاخلاق لها . ومن الممكن ان تحاول احتلال
مصر مرة اخرى .

ورد عبد المجيد :

— عنك مصدران لتسلح : اما ان يسلم الغرب مصر . ويمول سدها .

وأما إن تفعل ذلك الجبهة الاشتراكية . نيس هناك حلول وسط ، أو دبلوماسية .

وقال مصطنى :

— لكن تأييد قناة السويس بهذه الصورة ، ووصفه بأنه لطمة لانجلترا وفرنسا ، وبطبيعة الحال لأمريكا . عملية خاطئة . لن يتركوها تمر دون عقاب .

وأجاب حسن :

— انجلترا وفرنسا أصبحتا دولتين من الدرجة الثانية .

وقال عبد المجيد . وما زال يقوم بدور ضابط الايقاع . في المناقشة :

— كلامك صحيح « يابو على » . لكن لا احد يستطيع ان يتنبأ بأمر السياسة الدولية . ونظوراتها . ولا يمكن للمتنبيء ان يصل الى نتائج دقيقة .

— المتنبي الشاعر ، أو المتنبي الاحصائي ؟

ضحكوا . خفت حدة المناقشة . ونكلم حسن :

— أيا كان الموقف الدولي ، الذى اعتقد أنه موات . فإن شعب مصر مصمم على بناء سدده ومحصر على قهر التخلف ، وبدء النهضة . وعازم على اسرداد مرافقه وموارده وثرواته ، التى نهبها الخواجات . وفرط فيها حكام مصر .

بدأ ضابط الايقاع يضبط الحوار ، وينقله نقطة للامام :

— آآن قضى الامر . أميت القناة . اشترى السلاح من الروس .

وبدأت المعركة ضد الغرب . ولا ريب اننا جميعا ننف خلف حكومتنا ، وندافع عن مصالح بلادنا .

وسكت عبد المجيد ليسنجع أفكاره ، بعد ان حك صلته ، ثم قال :

— دعنا نفكر ماذا يمكن أن نفعل هنا في إنجلترا . يجب أن ننسأل
بزملائنا المصريين ونطرح القضية للمناقشة .

واسهم مصطفى :

— ما يمكن أن نفعله : هو أن نقوم بحركات سلبية ، لتغيير الرأى
العام الانجليزى . بصفة عامة : والطلاب بصفة خاصة . بقضية محمر .
وذلك عن طريق المحاضرات والمناظرات فى الجامعة . والقيام بمسيرات فى
الشوارع .

وفى الصباح التالى ثلاثتهم بكلية الاقتصاد . وانصلوا بالمصريين فيها .
وحدد اليوم التالى للقاء .



للعناوين المسمورة . تصدر الصحف الانجليزية . تهاجم محمر وعبد
الناصر :

« الدبلى تلجراف » : ناصر يفنصب قنل السويس .

« الدبلى مبل » : عصابة الضباط يخطفون قناتنا .

« الدبلى هراد » : سرقة دولية .

« الدبلى ميرور » : ناصر ينددى بريطاننا العظمى ، وفرنسا

وهكذا ، انتقل السعار من جريدة الى اخرى . حتى « التيمز » . وعى
الجريدة المتنبدة الومور ، خرجت عن وقارها . وصدرت لأول مرة فى تاريخها
بعناوين عريضة : ندد بعدوان عبد الناصر : « هذا الرجل لابد من عقابه » .
ولم يشذ عن هذه الحملة الضارية . الا جريدتان : جريدة حزب العمال .
صدرت بعنوان كبير محايد . « ناصر يؤمم شركة قنل السويس ، ويمول
السد العالى من ايرادها » . وجريدة الحزب الشيوعى : « الدبلى ووركر » .

تفرد من بين الصحف جميعا بمنابون صديقة : « مصر نسترد قناتها . وتحقق استقلالها الإقتصادي » .

حكومة المحافظين ، تنابها الهستريا . الحكومة التي « تحافظ » على بقايا الامبراطورية البريطانية . ننخيل ان بريطانيا مازالت عظمى . ايدن هو الذي يرأس الوزارة . بقدر ما كان وزير خارجية ناجحا ، كان رئيس وزارة خائبا . كانت سفعة تأميم قناة السويس قوية مهينة . اخذت الانجليز والفرنسيين والامريكين على غرة . وكان وقمها على ايدن ماحقا . جعلت رئيس الوزارة الانجليزى الباراد . متوترا عصيبا .

في هذا الجو المشحون جاء عبد المجيد الى الكلية مبكرا ، ليلتقى مع حسن :

— جئتك اليوم لامر عاجل . اتصل بي بعض ازملء الانجليز والافارقة والاسيويين . وقالوا انهم سينظمون لقاء عن أزمة القناة في كلية الاقتصاد . يحضره طلاب الجامعة جميعا . سينحدث فيه استاذ من الكلية ، ينتمى الى حزب العمال . وطالب هذى . وانت .

— انا ؟ !

— نعم . .

— انت تعلم اننى امضيت في انجلترا بضعة اشهر فقط . ولغنى الانجليزية لا ترقى الى لغة الخطابة السياسية .

— المهم في الخطابة السياسية . هو صدق الخطيب . وایمانه بقضيه . والحرارة التي تشع من عباراته * .

— لكن الحرارة ، والایمان . والصدق ، تتطلب تعبيرا عنها مقنعا وقويا . وخاصة نحن في جامعة انجليزية .

— دع عنك هذا الاتجاه « النخبوى » !

— يا ولد !

- دعنا نناقش معا النقاط التي سقتناؤها .
- لماذا لا تقوم انت بهذه المهمة . وانت هنا منذ سنين . وتحدث الانجليزية بطلاقة .
- هب ان لغتي جيدة ، وهي كذلك ! لكنى لست خطيبا سياسيا وجماهيريا منك .
- لماذا لا يقوم بهذا العمل مصيلح الصراف . فهو يتحدث الانجليزية بلهجة اكسفورد !
- لا تهزل من فضلك ! ... واود ان اتول لك . اننى لم أخترك . اختارك الزملاء الانجليز والامارتة . حماسك المشهود . والضحجة التى نشرها فى مناشاتك ، لفتت الانتظار اليك .
- المسألة ان حماسه وضجة فقط !
- لا . انى امزح .. لا تخف . عندما نقف امام الجماهير سينطلق لسانك .
- ابصر عبد المجيد بالمجموعة المخلطة ، التى طلبت ان يشترك حسن فى اللقاء تقرب منها . لفت نظره ، قائلا ، صوت خفيض :
- « هس » انهم يقتربون . ولا تتردد .
- وبادهم عبد المجيد :
- حسن سيشارك فى الاجتماع !
- كان امامه يوم واحد ، ليعد الخطبة . ويراجعها . قال لعبد المجيد :
- توافنى فى منزلى فى المساء . لتراجع معى ما اكتب . وتبرى ما اذا كانت لفضك الانجليزية . التى نثبه بها ، قوية ومفيدة !

القاعة انسيحة نغص بالطلاب من كل لون . جاوا كالسيل من كلياتهم المختلفة . المقاعد نهتلى بهم . يقفون في الطرقات والردهات التي تحيط بالناحة . تحدث الاساذ البريطانى اولا . هاجم حكومة المحافظين . ايد مصر . في منطق استاذى هادى . وجاء الهندى . وثار حماس المستمعين . لم يستطع حسن ان يفهم الا نصف خطابه . لهجته الهندية تجعل الانجليزية قريبة من « انهندي » لغة الاكترية في الهند !

وقف حسن . وسمره النيل تسرى في وجهه . اخرج الورقة من جيبه لكنه لم يقرأ منها . انطلق يحكى قصة قناة السويس : حفرها الشعب المصرى باظافره ، وسياط القهر ندى ظهره . السخرة التي فرضها الفرنسيون والخبو عليه ، تنهش آدميته . هاجم العمال الموتى من القهر والجوع والسخرة . بنيت بها شواطىء القناة . طبق ديلسيس ، والشركة الفرنسية : التي حصلت على امتياز القناة . مبادئ الحرية والاخاء والمساواة . الحرية في نسخر عمال مصر . والاخاء بين ديلسيس والخبو اسماعيل وسعيد . والمساواة بينهم في استغلال الشعب المصرى .

اقترض الخديو من اوربا قروضا فادحة الربا . ليشترى نصف اسهم شركة القناة . وينقذها من الافلاس . انفقت على القناة لحفرها . وعنى بلوك وابطرة اوربا في حفلات افتتاح القناة ابناذخة . بيعت هذه الاسهم لى الانجليز بثمن بخس . تسببت الديون في خراب مصر وافلاسها .

القناة اذن ، حفرها الشعب المصرى على ارضه . تسببت في افتقار الاقتصاد المصرى . وفرض السيطرة المائية عليه . وعن طريقها احتلت مصر بواسطة الجيش الانجليزى . اصبحت شريان الامبراطورية البريطانية . نك تلك قصة القناة . ارايم حينما يسترد المصريون مواردهم ، ليستخدموها في لقضاء على التخلف ، بريمهم ايدن بانهم يخطرون القناة الانجليزية الفرنسية .

ضجت القاعة تصفيقا وهتافا . ذكره ذلك بالايام الخوالى ، في كلية

الحقوق بالاسكندرية . حينما كان ينظم المناظرات ضد الاستعمار الانجليزي .
والاقتناع . وملك اوسية .

التقى بعبد المجيد بعد المحاضرة . دهش لانه نسي وقاره . جرى نحوه
وقبله . هذه عادة شرقية مستهجنة لديه . وهي مسخرية في انجلترا .
الرجال هنا لا يقبلون بعضهم بعضا . لكنهم يقبلون النساء ! وجاءت المجموعة
المختلطة . عانقه الامارقة بحرارة . سلم عليه الهنود بحماسة . قبله
الباكستانيون . شد الانجيز على يده ! لم يسأل عن مستوى النحو
والصرف الانجليزي . المهم ان الرسالة الوطنية ، وصلت لجمهور المستمعين
عبروا عنها ، بهتافهم الراءد : « يسقط ايدين » .

وسأل حسن عبد المجيد :

— أين الزملاء المصريون ؟

— لا ادري .

ثم استدرك .

— هؤلاء هم .

وأشار الى عبد الحى ومصطفى .

— والباقي ؟

— رأيت زميلين من كلية الطب . وعلى حسن من الآداب . ولكنهم

انصرفوا . اطمن فقد أعجبوا بخطابك .

— انا لا اسأل عن اعجابهم . انا اتساءل عن الزملاء الذين لم

يحضروا . انهم لا شك يعمنون بالمحاضرة . اعلنت عنها المجموعة الاجنبية

المنظمة لها ، فى كل مكان فى الجامعة .

معركة القناة محتدمة . عناوين الصحف تزداد استفزازا . تتضخم حروفها . ويحمر لونها . ننذر باراتة دماء الشعب الفقير ، مغتصب القناة ! الحكومتان البريطانية والفرنسية تفصحان عن هدفهما بقزو مصر : يجب تأديب البرابرة . الذين انتهكوا القانون الدولي . كيف يستردون قناتهم التي اقتطعها الاستعمار من جسدكم ؟ القناة التي حوت أرباحها الى لندن وباريس . مميزات من الجنيحات الاسرائيلية ، والفرنكات الفرنسية .

تدخلت الامم المتحدة . وبدأت المفاوضات بين الغاصب والمغصوب . انفاصب يزمجر . ويهدد بغصب جديد . فرضت الدولتان شروطا للتفاوض : يابى قرار التأميم . وتعود ملكية القناة الى الانجليز والفرنسيين . تبقى الانتاقية التي منحت الوثنيين امتياز القناة نافذة حتى ١٩٦٨ . وهو تاريخ انتهاء العقد . بعد ذلك تبدأ المفاوضات مع الدولتين : لتنظيم مستقبل الممر الدولي . ومعنى ذلك . بغض النظر عن موضوع سيادة مصر على اراضيها ، ان تحتفظ مصر بالتدخل والقرار . ولا تمسها من قريب ، أو من بعيد .

واعلنت مصر شروطها : لا رجعة في استرداد الشعب المصرى لقناته السلبية . تعطى مصر التعهدات الدولية ، بضمان حرية الملاحة في القناة لجميع الدول . تدفع مصر تمويضات معقولة لحملة الاسهم .

وعرض المعتدلون من الانجليز والفرنسيين رأيا هادئا مؤاداه : انه اذا نسك المصريون بتأميم القناة . فان عليهم ان يدفعوا لانجلترا وفرنسا قيمة رأسمال القناة . يضاف اليها الارباح التي كان يمكن للقناة ان تحققها حتى نهاية العقد ، وبهذا فالمعتدلون لا يريدون الحرب والعنف . يريدون فحسب ، ابتزاز الدول الفقيرة في يسر وسلام !

المفاوضات تدور . شوارع لندن تمور . الشباب الانجليزى ، وشباب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية : يموج في شوارعها . يهتف بسقوط حكومة ايدين . حمل لافتات مكتوب عليها : كف يدك عن مصر يا ايدين . . القناة لمصر .

كفى نهبا للمستعمرات .. لم تعد بريطانيا عظمى . قرصنة القرن الثامن عشر يمدون من جديد

الاجتماعات : والندوات ، تعتمد في الكليات الجامعية . دور حزب العمال : والحزب الشيوعي ، وتغابات العمال . والجماعات المنقفة والمستفيرة ، انقلبت الى خلايا نحل . تطن باسمرار . تلسع كلماتها وصحنها حكومة المحافظين .

انخرط حسن في هذه الاجتماعات والمسيرات . ذكرته بظواهرات الطلبة والعمال في النصف الثاني من الاربعينات . هناك كان الرصاص يثر . ودماء الشباب تسيل . يهرقها الجيش الانجازي ، والبوليس والجيش الملكي . الهدف واحد في الحالتين : الجاهير مهاجم الاستعمار . وانهب لموارد الدول المتخلفة . والشباب واحد : الطلاب والعمال . الفارق انه كان في مصر رصاص ودماء وخيانة . بينما في لندن ، مسيرات حرة . تهنف وتحمل شعاراتها . ضد الحكومة . يحرسها البوليس الانجليزى غير المسلح !

دهش حسن لهذا التناقض . هؤلاء القوم يجرمون في حق الشعوب . يحصدونهم بالرصاص لو طالبوا بحرية بلادهم . ثم يمنحون الناس حرية القول ، وانجبع . والهجوم على الحكومة في بلادهم . على ان هناك ظاهرة ملفته : العمال الانجليز ، والطلاب ، وبعض الاحزاب والجموعات المنقفة . يساندون مصر !

كيف يهاجم العمال الانجليز الاستعمار ؟ لقد افاء عليهم بخيراته . جاءهم بالغذاء رخيصا من المستعمرات . لعنهم يدركون انهم كانوا يتنقون الفئات من عمالية النهب الاستعماري . هم على وعى بأن الرباح الاكبر من الاستعمار هم الراسماليون . وانهم مازالوا مستغلين . الغذاء الرخيص ، مقرون بانخفاض الاجور . الامر الذي يخفض من نفقات ائصناعة . ويعظم من ارباح الراسماليين . عملية الاستغلال تنصب على الطبقة العاملة الانجليزية . وعلى

شعوب المستعمرات معا . هناك تعاطف بينهم . ألم تر ان العمال الانجليز ، لا يعاتون على منازلهم « الملونون يمتنعون » ؟

ايوجد تعاطف بين الطبقات انعاملة في كل دول العالم ؟ اميكن ان يتعاطف الفقراء المتقدمون مع اغتراء المنخلفين ؟ ألم يتعاطف حسن ، حينما كان ممسكا بمفاتيح المخازن . في وسية الخواجة اليوناني ، مع الفلاح محمد محمود . وسرق نه « جوالا » من الاذرة . لينقذه وبنانه من الجوع ؟ لابد ان يكون هؤلاء العمال صادقين في تأييدهم لمصر ، ومعارضتهم لحكومتهم . وكذا الشأن بالنسبة للجماعات المثقفة والاحزاب اليسارية الاخرى .

هذا هو موقف الجماعات الانجليزية : التي لم تهذا منذ امم « ناصر » القنافة . موقف جديد . ليس الانجليز كلهم اشرارا او استعماريين ، كما ظن حسن . هناك قطاع كبير مستنير ، يساند مصر . فما بال المصريين الدارسين في لندن ؟ اين عم ؟ ان الاجتماع انذى بذل عدد المجيد ومصطفى جهدا ، في الدعوة له ام يحضره الالسة مصريون . وهم اكثر من مائة . كيف يتقاعسون؟ البست هذه قضية مصر ؟ اندفعت الى ذهنه الاسماء القريبة منه . « مصيلح الصراف » امره معروف . لم يكن في وقت من الاوقات مشاركا بلده في تضاراه الاجتماعية والتنمية والوطنية . لكن « ضياء فرج » ماذا دهاه ؟ انه يحظى بسمعة طيبة بن زملائه . صانقه حسن ، لما رآه مهذبا مجتهدا ، لا يفضب احدا ، ويصاق الجميع . ما باله ، تشتعل معركة القنافة والسد ، ولا يمسهم في حبل شملتها مع زملائه . انقطع عن الكلية والمكتبة تماما ، منذ برزت مشكلة القنافة !

وياح لعبد المجيد بهوميه :

— اين ضياء فرج ؟

— دعك منه .

— كيف ؟

— انه خائف من الاشتراك معنا في طرده الانجليز ولا يكمل الدكتوراه .
وعندما اتم الدكتوراه اخذ الطائرة راسا الى الخليج حيث الذهب
الاسود
وبقى هناك . لم يفد منه وطنه فتبلا . .

* * *

« مستر بيفان » الزعيم الممالى الانجليزى . يدعو الجماهير الانجليزية
انى اجتماع عام . يعقد فى ميدان « ترافالجار » . يهيب بالقوى العاملة
والمستفيرة ، ان تشق شوارع لندن . فى مسيرات احتجاج على حكومة
المحافظين . يجب منعها من ارتكاب حماقة ضد مصر .

وفى اليوم الموعد ، تجمعت الجماهير فى طوابير طويلة عريضة .
تحمل اعلامها ولافتاتها . تخرق شوارع لندن ، وتتجه نحو ميدان « ترافالجار »
مظاهرة الشباب الجامعى تور حماسا . وتتحق الوانا . خايط من الشبب
الاسود ، والاسمر ، والاصفر ، والابيض . . والوردي ! باقة انسانية
عطرة . لا يستطيع اصحاب البيوت الانجليزية العنصريين ان يروا جمالها ،
او يستروحوا شذاها . وهذه جحافل الممال ، فى حطها « وامرولاتها »
الدكنا ، تطرزها الزيوت والشحوم . ويسبل عليها العرق ، الذى يصنع
الخير للناس . وهؤلاء هم « الموظفون » ، ذوو الياقات البيضاء ، فى حطهم
السوداء الاتيقة . يحملون فى اعتداد ، شعاراتهم الهاتفة ، بتنحية ايدين ،
والمؤيدة لمصر .

انقلبت شوارع لندن الى روافد . توج بلجج من البشر . تصب من
انواها حيا ضد ايدين . وتنفث صدورها عطرا ، وهى تدافع عن حق
مصر فى القناة . كانت الغدران البشرية تنساب الى ميدان ترافالجار ، تصب
فيه ، وكأنه محيط لجى .

وجاء بيفان . اعطى قاعدة شمال نلسون . استقبلته اللجة الشرية
بموجة راعدة من الهتاف والتصفيق . وخطب . خطب بلغة انجليزية قوية .
م ١١ — الوارثون

لها جرس عرسى ، ولحن مصرى ! طرب فنانا ، ونشئت اعطافه . لم يسمع من قبل خطيبا يمثل هذا السحر . كمناته الإنجليزية ، تتحول الى انفسام مصرية : القنأة لمصر . ليستقط ايدن . لنذهب حكومة المحافظين الى الجحيم . انقذوا شرف بريطانيا ، الذى يلوته الاستعماريون .

انفعلت الجماهير . كما لم تنفعل بخطيب ، فى هذا المدان . من قبل . وانفق على ان تعود المجموعات باعلامها ولافتاتها ، مارة بالشوارع ، انى جاءت منها . وذلك لمواصلة حث الراى العام الانجليزى ضد ايدن . واخذ حسن ، الذى كان يسهم فى قيادة كتيبة الاقتصاد ، يعد مجموعته للعودة . كان يتقدمها ، حاملا لافتة تقول :

« يستقط ايدن . قنأة السويس لمصر . حنبئى السد ! » .

اخذ يتحرك بفريقه . لمح على بضعة امتار منه قنأة شقراء . كانت تنظم مجموعتها للعودة . رآها من ظهرها . فتيات لندن ، كثير منهن هيفوات شقراوات . وافته خاطرة غريبة ، فى هذا الجو الحماسى . يوم مصر وقنانها . عهد باللائنة الى زميله « وليم » . اندفع الى حيث توجد القنأة الشقراء هي ! معبودته المتمنعة عليه : برندا .

جلال اليوم . عظمة المناسبة . سعادته الكبرى ، بيوم اغر من ايام بلده . اصف الى كل ذلك لمسة . زادت اليوم جلالا ، وعظمة ، وسعادة : برندا ، الفتاة الانجليزية المستنيرة ، تسهم معذا فى يوم مصر ! الجبت هذه المعانى لسانه لكن للحظة قصيرة . انقذته هي :

— هالو .

— هالو . كيف حالك ؟

— انا على ما برام . اشكرك .

— ما الذى جاء بك انى هذا ؟

— الذى جاء بك !

— لكننى مصرى .

— الا ترى هذه الآلاف المؤلفة لكم مصرى من بينهم ؟ حينما تنور قضايا الشعوب المستغلة المقهورة . وحينما تكون تلك القضايا عادلة . فانها تثير وجدانات المستترين فى كل مكان ، مهما كانت جنسيتهم .
— صدقت .

لم يشأ حسن أن يقول لها . كم من المصريين والمصريات ، اشتركوا فى هذا اليوم . كانوا ستة . اولئك الذين كانوا ينجحون فى كنية الاقتصاد ، بنذ بدء الحملة على حكومة ايدن . انضم اليهم اليوم سابع من جامعة كامبردج ، وهو مصطفى العبادى .

اقترح عليها ، ان تنضم مجموعته الى مجموعتها ، فى رحلة العودة . وافقت . تقديما معا يحملان لافتتها . امسك هو بطرف منها . وامسكت الفتاة اشقراء بالطرف الآخر . تبعتهما المجموعتان . كان شعار مجموعتها ينادى : « كنوا ايديكم عن القناة . يسقط الاستعمار . ايدن يجب ان يذهب » . بعد ان تفرق الجميع سالها :

— هل انت عائدة الى منزلك ؟

— طبعاً .

— هل تركب الاوتوبيس معا ؟

— سيكون ذلك لطيفا .

صعدا الى الطابق الثانى فى الاوتوبيس . جلسا فى المقدمة . كان سمعدا . تناسى العلاقة بمعناها المعروف بين الرجل والمرأة . انيوم تتحول عاطفته نحوها ، الى غرام عقلى ووجدانى . انها تسهم معه فى معركة بلاده . دار بينهما حديث . تناول احداث اليوم ومشكلة القناة . والسد العالى . تطع الاوتوبيس المسافة ، التى تأخذ عادة ساعة ، فى دقيقة ! غادرا الاوتوبيس . عرض عليها ان يوصلها الى منزلها . فرحت !

مضى يوم . وى الصباح الباكر من اليوم التالي : دق جرس التليفون . .
اسرع بالرد :

— ألسو .

— صباح الخير . هذه برندا .

— لا أصدق .

— لا . صدق !

— اذن هو صباح اجمل من الخير .

— لا تكن « شقيا » . ليس لدى وقت .

واستطردت :

— نقابة العمال . فى الشركة التى اعمل بها . سنتنظم لقاء عن مشكلة
قناة السويس . سوف يتحدث فيه رئيس النقابة . طلب منى ان ادعو
مصريا للحديث . سانتظرك عند محطة الاوتوبيس . التى نزلت عندها .
عندما التقينا اول مرة . نسمى محطة « السيتى » الساعة الواحدة تماما .
الى اللقاء .

فى الموعد المحدد وجدها تنتظره . اتجها الى مكان الاجتماع . جمع
كبير من البنين والبنات . المنطقة استراتيجية . تضم معظم الصحف الكبرى:
« شارع غليت » . خطب رئيس النقابة . بالطريقة الانجليزية المثلثة .
استمع الحاضرون فى هدوء غريب . نكن فى استيعاب اكثر غرابة . تجلى
فى تصفيق طويل فى نهاية الخطاب . كان من الواضح ان الخطيب مثقف
تقدمى . ابرز بالتاريخ والتحليل ان القناة مصرية . وانه ليس لبريطانيا الا
حق التعمويض . ويجب على الشعب البريطانى ان يسقط ايدي . وان يمنعه
من جريمة الاعتداء على مصر . وهى جريمة سوف تشين بريطانيا .

وتبعه حسن . لغة انجليزية اقل نقاوة ، واشد حرارة . صوت اكثر
قوة واندفاعا . اوضح حسن الصورة البربرية الحقيقية لنشأة القناة . كيف

انسكب في القناة عرق المصريين ودمائهم . كيف غرقت فيها موارد المصريين وثروتهم ، قبل ان تفرقتها مياه البحرين الابيض والاحمر . ضجت القاعة بالتصفيق . أندفع من وسط القاعة احد الحاضرين . يهدد حسن بالنبور . صاح في وجهه :

« انتم الاجانب ... الملونون ! تاتون الى بلادنا ، وتهاجموننا ؟ ارجع الى بلدك ! » :

طار الشرر من عيني حسن . هب للرد عليه . صديقته كانت قد نهته الى مثل ذلك الهجوم : اوصته الا يعبأ به . فهو ياتى من بعض المحافظين . الذين مازالوا يتباكون على الامبراطورية . لا تلق اليهم بالا . انكثرة معنا . ونفذ نصيحتها . وكسبا يوما آخر من ايام مصر .



اشتركت برندا في يوم قناة السويس ، بدفعة ذاتية . انسانة مسنيرة . تتعاطف مع الشعوب الفقيرة . ومع الطبقات المستغلة ، في كل مكان . لم تكن تعلم ، انها ستلتقى بحسن . وهو ايضا ، لم يخطر بباله ان يلقاها مرة اخرى . لكنه سعد لاسهامها في معركة بلاده . ابتهج لدفاعها ، والجماهير الانجليزية : عن عدالة حق مصر في القناة .

اصبحت الرابطة بينهما ، ذات بعد اجتماعى وانسانى . كان لها ، وللجمهور الذى تجمع في ميدان ترافالجار ، فضل عليه . اثبتوا ان الجماعات المسنيرة ، والطبقة العاملة : هي بطبيعة تكوينها الفكرى والاجماعى ، تتعاطف مع الشعوب الفقيرة والمستعمرة .

طلبها في التلفزيون :

- تى . يو . دى ٧٧٥٨ .
— هذا ليس صوتها . ربما تكون امها . لا تخف نحن فى انجلترا !
— هل استطيع التحدث الى « مس كرف » من فضلك ؟
— نعم . لحظة ، اذا سمحت .
— هبلو . هذه برندا .
— كيف حالك ؟ حسن يتحدث .
— اوه . كيف حالك ؟
— شكرا على اجتماع الامس . انت سديقة عظيمة لمصر .
— عفوا . كنت سأفعل ذلك . حتى لو كان الامر متعلقا بفينام !
— اعرف ذلك . لكن له عندى مذاقا خاصا . لاننى مصرى .
— اوافتك الآن . فانت فى قلب معركة بلادك . وقد ناقش هذه الفكرة
فيما بعد .
سكت برهة . كان مترددا :
— هل اقترح شيئا ؟
— اقترح . نحن فى بلد حر !
— هل ستفرضين ؟
— انت لم تقبل شيئا . قل ، ولا تبائى .
— كيف ستتمضين عطلة آخر الاسبوع ؟
— العادة ، اننى اقضى يوم الاحد كنه مع واندى . واعد نفسى للعمل
فى الاسبوع التالى .
— ويوم السبت ؟
— التقتى فيه احيانا ، ببعض صديقاتى .
— هل استطيع ان اقترح شيئا ، فيما يتعلق بالسبت القادم . ؟

— تفضل .

— هل تودين الذهاب الى السينما ؟

— سيكون ذلك جميلا .

— اترك لك اختيار الفيلم ، والسينما . ولتلق عند محطة الاوتوبيس الشهيرة !

جلس الى جوارها في السينما « مؤدبا » ! كان يخشى ان تبدو منه حركة ، تفسد هذه الرابطة . انه يرتضيها ، حتى لو اقتصرت على الوجودان والعقل . الفيلم لشارلى شابلن « الاندفاع الى الذهب » ! كان مشوقا ومثرا . يمرض فيه شارلى في سخرية لاذعة . بالجشعين ، وطلاب الثروة . جعل منهم نماذج ممسوخة ومضحكة .

قاعة السينما ملأى بالشباب من الجنسين . لا يلجأ الشباب هناك للقاعات الخلفية ، ليسرق قبلة او لسة . لكنهم يجلسون في وسط القاعة . يقسمون المحبون ما يشاءون من قبل . وتضطجع الرؤوس على الاكتاف . وتسيل الشعور الذهبية وانعبرية : فوق الصدور .

صاحبنا يجلس الى جانب فتاته « كالآلف » . في وضع انتباه ! وكأنه مازال في الجيش . كان حريصا ، حرصا بالغا . على الا يفقدها هذه المرة . شاركته معركة بلاده . اذنبت معه في فكره الانساني . تناهى عن الشعوب الفقيرة في كل مكان . تعادى الاستعمار ، والراسمالية ، القاهرين لشعوب . لم تعد تقتصر على غزو قلبه . اوغلت في عقله ووجدانه . اذا ضاعت منه ، ضاع العقل والقلب والوجدان .

في السبت التالي ، اقترح عليها ان يتناولوا العشاء معا . وان تختار هي ايضا ، المطعم الذي تفضله . ذهبا الى مطعم قريب من ميدان بيكاديللى . بوابة المطعم ، بوابة امبراطورية . السجاجيد العجيبة الحمراء . « النجفات »

التاريخية الاسطورية . الخدم المناقون . يرتدون ملابس القرون الوسطى . في تصور الانتفاعيين . تقدمت برندا . تتخطر في خطوات ملكية واثقة . القاج الذهبى يعلو رأسها . رفعته اى اعلى . بان جدها العاجى . اضاف عنصرا جماليا : كانت تخفيه ذؤابات شعرها .

فاجأت برندا فتانا بمفاجأة . رقصت لها مشاعره . وضعت ذراعها في ذراعه . وهما يدخلان المطعم ! كونا معا زوجا منسقا . القامة السهرية . اشعر الذهبى الحرير ، يقابله الشعر الاسود المجمع . البشرة « السكسونية » البيضاء ، المطعمة بالورد ، تنلأتى مع سمرة النيل ، والبشرة الخمرية . تقابل لونى مثير . ابن اصحاب البيوت العنصريين . ليروا هذه اللوحة الانسانية الجمالية . اغلب الظن ، انهم كانوا سيقطعون عن التفرقة العنصرية ، التى غرسها الاستعمار فيهم : « الملونون ممنوعون »

طافت براسه فكرة ساذجة . يريد ان يجرب التعالى ! الا يتعالى اصحاب البيوت والمحافظون على « الملونين » . لماذا لا يبادنهم التعالى ، ويتذوقون طعمه . نوع من الانتقام من هؤلاء القوم . كان يدرك انه انتقام طفولى . لا بأس من ممارسته ولو مرة واحدة . جمال برندا رفيع بطبيعته . قوامها « ارسقراطى » . فهى ليست في حاجة للتعالى . رفعهايته الى السماء . تعلقت برندا بذراعه . انحنى لهما « المتروذوتيل » ، وانحنى السفرجية . كانوا يرفنون في الحلل المطرزة بانذهب والسندس . قذف لهم بمعطفه « وكوفينه » . بدا تعاليه طبيعيا ولو انه كان مصطنعا ! لحسن الحظ لم تلحظ صديقتة ذلك . قد لا تهضم هذه المحاولة المتخلفة . فطن بعد دقبة من التعالى ، الى ما فيه من نفاة . اطلع عنه . لا يريد ان ينضم الى زمرة انتاميين . اسهم في اقلاعه عن التعالى . ان « الجارسون » كان انسانا رقيقا . قادهما الى مكان استراتيجى ، على حافة النافورة : في ادب جم .

كانت النافورة ملتقى الطبيعة وانفن . تنبثق المياه من صخورها ،

وكانها ينباع نتفجر من اعالي الجبال . ينائر القطر فوقها رذاذا ينمش
الوجوه . لوحة فنية تمتع البصر ، والسمع ، والنفوس . انسابت من
جوانبها موسيقى . توحى اليك بأنها صادرة من عوالم وردية . الاعجاز الفني
في اللوحة ، يخاطب عناصر الاحساس بالجمال في الانسان . توليفة من درر
الماء ، وانوان الطيف ، وانغام الموسيقى ، تأخذ بلبك . لأول مرة ، يرى
الموسيقى درات تنثر ، واطيانا تتراقص . يسممها بعينيه . وكان عهده
بها ان يسممها بأذنه . كيف استطاع الفنان : ان يحول قطرات الندى ،
والوان الشروق ، الى شكل للبيانو . تتلاعب اصابعه . عندما يأتي دوره ،
في القطعة الموسيقية المعزوفة ! وهكذا « الهارب » ، « والفيولين » .
« وانفلوت » . الماء ينساب اسلاكاً فضية . تعلو وتهبط . ترافق الاطيان .
والانغام ، كلما علت الطبقة الموسيقية او انخفضت . ثم يهطل الماء . ويبرق
الطيف ، كلما صخبت الموسيقى وازعدت . وبغدو الماء رقة تسيل - ويصبح
الطيف حلماً ، عندما تنساب الالحان رقيقة حالة !

استبقت حسن ، بعد استغراقه في هذا الجمال . وجد فانفته ترمقه
بمبنيين لم يستطع فنان النافورة ان يتلد لونهما . قال لها :

— انت رائعة .

— شكرا . كيف ؟

— ما هذا الاختيار الموفق لهذا المكان الجميل . لا عجب فانت فنانة .

— فنانة محسب ؟

— لدى كلمة اخرى . لا أستطيع قولها .

— عهدتك شجاعا .

— الا في الحديث مع النساء .

— هل تحدث النساء جميعا ؟

فطن الى ان قدمه اوشكت ان تنزل : مسح قوله :

— أقصد إلا في الحديث معك .

— لماذا ؟

— صدمتني مرتين . ولا أقوى على صدمة ثالثة . تحملت الصدمة الأولى والثانية . كأننا نسمان اعجابى بجمالك نحسب . الآن أصبح الاعجاب بفكرك وعقك . وبالانسان الرابض في وجدانك . لا اريد ان افقدك . فأنفقد وجدانى وعقلى .

داعبته مداعبة ذكية :

— معنى الآن اذا ضيقتنى ، فسوف لا يضيع قلبك ؟

— آه . هذه « قنشة » .

— انك لم تجبنى على سؤالى الاول : هل اختارى للمكان يدل على اننى فنانة نحسب ؟

— انه يدل على امر آخر اكثر حسما .

— ما هو ؟

— اختيار المكان يدل على انك فنانة ... و ... وعاشقة !

صعد الورد انى خديها . ورد الحياء والحب ، انذى يغطى لونه كل الالوان ! سكنته ولم تجب . ثم انبعث من عينيها شعاع . كان فيه المعنى ، الذى طالما تمناه .

مضت السهرة الرومانسية . بين انغام النافورة . المقطرة كالشهود ، والوان الطيف المغموسة بالامانى . كان الطعام فخما لذيذا . ضاعت نكهته ، وسط جو شاعرى ، اكثر فخامة وطعامية .

فى طريق العودة ، ركبا الاوتوبيس : فى مقعدهما المفضل . لم تنس مرندا ان تكافئه مكافأة حلوة . وضعت رأسها على كتفه ! اقتربت منه بدرجة اكبر . انسابت اسلاك الذهب على صدره . غريب امر هذا الفتى . مازال

وجلا ، مترددا . لم يبادلها هذه المبادرة الطوية . لم يسند رأسه على
رأسها . وكان ذلك أمنية عمره . وعندما غادرا الاوتوبيس ، وضمت
ذراعها في ذراعه . كان يشعر ان الدنيا كلها معلقة بذراعه !

حينما ودعها عند باب منزلها ، قدمت له هدية منمشة . كانت خطوة
على الطريق . قبلته ولكن في جيبه ! سعد بهذه القبلة المتواضعة .
كالطفل ، يبهجه ان يتبته الكبار في اى موضع !

* * *

قوى الغدر البربرية : الانجليزية والفرنسية ، تضرب بورسميد
بقتالها . نتقم اساطيلها مناه مصر . تنزل جنودها في بورسميد ،
وبورفؤاد . تماما كما ضربت انجلترا المدينة ، ودخلت القناة ، للقضاء على
الحركة الوطنية ، التى قام بها الشعب المصرى بقيادة احمد عرابى .

غزت انجلترا مصر ، حينئذ وحدها . وغزاها الفرنسيون وحدهم في
الحملة الفرنسية . قاوم الشعب المصرى المعتدى مقاومة باسلة . لم يجعل
الغازى يهدا للحظة واحدة . كما دحر شعب مصر الانجيز في حملة فريزر
عام ١٨٠٧ - الآن تهجم الدولتان البربريتان على مصر معا . تريدان اغتصاب
قناتها من جديد . الشعب يقاوم المعتدين مقاومة شرسة . يبعث الرعب في
قلوب الغازين . يفر سفنهم وطائراتهم . يفتك بمن ينزل من جنودهم .
المصريون يقدمون لذشعوب مثلا للنضال ، ضد الاستعمار والاعتصاب .

قوى الاستعمار الباغية ، نستشعر ضعنها . تحيك مؤامرة . تنحط
بشرف الدولتين . اتفقنا مع العدو الصهيونى على مشاركتها الاعتداء . وكانت
فضحة كبرى لانجلترا وفرنسا ، امام العالم ، وامام شعبيهما . لم تنقذهما

اسرائيل من مهانة الهزيمة . المقاومة الصلبة لشعب المصرى ، دحرت
الاعتداء الثلاثى . الروس يرسلون انذارا الى كل من نجتروا وفرنسا :
ستضرب لندن وباريس بالصواريخ ، اذا لم يتوقف الاعتداء . الراى العام
الانجليزى وفرنسى والعالمى : تظاهر ضد العدوان . الولايات المتحدة
تؤيد العدوان اولاً ، ثم تتراجع .

فشل الاعتداء . انتصر الشعب المصرى . انسحبت قوى العدوان
الثلاثية من الاراضى المصرية . جلال العار ايدن وجى موليه . سقطت
حكوماتها . احتفظ الشعب المصرى بقنانه . بدأ يبنى السد العالى . توفقت
الروابط الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية
وبين مصر . أسهمت روسيا فى بناء السد . وفى عملية التصنيع فى مصر .
مضت عمابة التنمية الاقتصادية قدماً .



تروا ان يحتفلا معا بانتصار مصر : فى معركة قناة السويس . اقترح
عليها ان يقوموا برحلة فى التاريخ والجغرافيا والحب !

استقلا زورقا أنيقا من مرسى « وستمنستر » ، المجاور للبرلمان .
انساب بهما الزورق على صفحة نهر « النيل » . شتان بين التيمز والنيل .
حينما تركب النيل ، يحسك الشعر على اجنحته . تفرد لك الاطيار . يتاود
امالك النخيل . تغسل وجهك الوان الاصيل . لكنك حينما تركب التيمز
تشعر بدنيا اخرى : دنيا الصناعة ، والسفن البخارية ، والورش . ستدرك
على الفور انك وسط حضارة صناعية . وليست حضارة زراعية .

لم يكن حسن على استعداد ، فى هذا انوقت ، لكى يفاضل بين
الحضارات . كان فى ملكوت آخر ، ملكوت الحب . فاننته تجلس بجواره .
انشمس مضيفا . شعرها الذهبى يثبت ان للشمس فى لندن سنى ! الشقراء

الانجليزية أنت بلاشمر ، والجلال ، والدفء ، من النيل ، وسكتبها في التميز .
لم يكن يدري ، اهمابيريان على صفحة انبل ، أم على صفحة التميز ، أم
على صفحة الكوثر !

جاءته موسيقاها :

— اتحب ان اذكر لك تاريخ البرلمان ؟ مبناه هناك .

— احب !

سعدت بالكلمة . لم تعلق عليها . مضت تقول :

— المبنى الحالي للبرلمان ، انشئء عام ١٨٦٠ . المبنى السابق احترق
عام ١٨٣٤ . ودمرت قاعة المناقشات بقنابل هتلر في ١٩٤١ ، في الحرب
العالمية الثانية . وافتتحت عام ١٩٥٠ .

وهذا البرج العالى الذى تراه هو « بيج بن » وهو الجرس الموجود
في برج ساعة البرلمان . صنع عام ١٨٥٨ . ويعرف شعبيا بـ (ب - ب) .
ويبلغ وزنه ١٣٦ طنا من الحديد .

توقفت برندا . ثم بدا انها تخشى ضياع معلم أساسى من معالم النهر .
اسرعت تشير اليه قبل أن يختفى :

— العمود المرتفع هناك ، والتمثال من فوقه ، هو عمود نلسون . وضع
وسط ميدان ترافالجار . وهو اسم المعركة التى هزم فيها نلسون نابليون .
ووطد سيادة الامبراطورية البريطانية .

نسى حسن ان هذا اليوم يوم قلبه . قفزت عبارة الى لسانه :

— هذا بطل من أبطال الامبراطورية . مهدد لاتجلترا استعمار

المعلم .

انسابت من عينيها نظرة عناب : هذا وما . اننى انفق معك في موضوع الاستعمار . لماذا تقمحه في دنيانا اليوم ؟ على انها بدأت تعرف صديقتها تماما . افكاره الاجتماعية والوطنية ، تقمحه عليه دنياه مهما كانت دنياه سعيدة أو بائسة . لكنها ودت ان تكون حاسمة معه . لا لانها ترغب في التهرب من مناقشة تلك القضايا الاساسية . ولكن لان هذا يومها . ومن حقها ان تعربه . ولتقضايا ايام طوال . قالت له :

— ان فيلسون يمثل لبريطانيا ، ما يمثل رمسيس وتحتمس بالنسبة لمصر . ألم يحقق هذان البطلان انتصارات كبيرة لمصر ؟ هزما الهكسوس ، والفرس ، والفيثيين ، والجنوبيين .
افحمته . انها ملمة بتاريخ بلاده .

— من اجل عينيك اوافق .

ابتسمت بسمتها الخجلي . وسألتها :

— ما هذا المبنى المجاور للبرلمان ؟

— هذا « وستمنستر ابي » « كاندراية » ، انشأها سبرت ، ملك السكسون الشرقيين في اوائل القرن السابع . توج في هذا المبنى كل الملوك الانجليز (عدا ادوارد الخامس) ودفن كثير منهم فيه .

بهت حسن لهذه المعرفة التاريخية : التي تلم بها . خاصة التواريخ والاسماء . وقال لها :

— امرشدة سياحية انت ؟

— هذه معلومات اولية ! حسبك دارسا لتاريخ الفراعنة ؟

— نيس لدرجة حفظ الاسماء والتواريخ بالتفصيل . سأذاكر تاريخ الفراعنة ، حتى اشرحه لك عندما نتأين الى مصر !

ابتسمت . اخذت الملاحظة ، وكأنها نضبة مسلمة ! فرح . اجتاز القارب في هذه اللحظة برج لندن الشهير . كان حسن قد زاره في جولة

سياحية . تذكر على الفور ايشع أدوات التعذيب . كان الملوك والقسس والكهنة ، يستخدمونها ضد الاحرار ، والعاملين في حقول الملك ، والكنيسة الشاسعة . قالت له :

— هذا هو برج لندن . قلعة بنى برجها الابيض نحو عام ١٠٧٨ .
استمر قرونا طويلة مقرا للملوك ، وسجنا رئيسيا للدولة . يستخدم الآن
ثكنة للمساكر ، ومخزنا للسلاح ، ومتحفا . ومن المسجونين الذين اعدموا
فيه ، توماس مور .

وسالها :

— توماس مور ، الاثنراكي المعروف ، احد الاثنراكيين الخيانيين ؟

— نعم .

— هل اعدم لانكاره الاثنراكية . ام لتحرية الدينية التي ناضل من
اجلها . ام لمعارضته زواج الملك ؟ ...

— لا ادري .. انهم يركزون على القصة الدينية . ولا يذكرون شيئا عن
الاثنراكية . ربما اعدم لهذه الاسباب جميعا .

واستمرت برندا :

— وهذه هي كاتدرائية سانت بول : اكبر كنيسة برومستاندينية في
انجلترا . من ملامحها الداخلية ، المتحف الهامس ! ولوحة تذكارية لولنجتون .
قائد كبير آخر . وكذلك قبرا ولنجتون ونلمسون .

وانفتحت اليه قائلة :

هل تهملك الفنون ، ام انك تعنى فقط بالتاريخ ؟

— بدأت اعنى بالفنون ، لانك تدرسينها .

ابتسمت وقالت :

— الفن جهل في ذاته ، درسته انا ام لم ادرسه .

— انما الفن يجمله أن تهويه وتدرسيه !

— ما فيش فايذة . أنت شقى ! .. وماديت تحب الفن — بغض النظر عن سبب حبك له — فالمبنى الواقع هناك هو مسرح «عروس البحر» . مسرح صغير ، بنى للناس العاديين . أقيم على موقع مسرح « الجلوب » . الذى أنتج عليه شكسبير مسرحياته . واعتمد على اسهامات مالية من الجمهور . منشئه هو الممثل الشهير ، والمخرج « برنارد ميلز » . جمع الاموال لبنائه ، من المارة فى الشوارع . كان يبيع قوالب من الورق ، تشبه الطوب . ثمن الواحدة منها خمسة وعشرون بنسا .

لم يشعرا ، الا والقارب يتهادى ، ليرسو فى جرينتش . اخذت برندا تعد نفسها لاختتام ارشادها السياحى . حسن ييادرها :
— هذه جرينتش !

قفز الى الشاطيء . لم تتأبط ذراعه هذه المرة . تأبط كل منهما خصر الآخر ! تخطرا على الحشيش الاخضر ، فى الحديقة الفيحاء . خطواتهما توشوش العشب . تهسس له ، بأن حبا جديدا يبلا الكون ، قو ولد اليوم . واستطرد حسن :

— على اليمين : مستشفى جرينتش . بناه الملك تشارلز الثانى . وكانت هذه المستشفى تستقبل البحارة المشهورين ، وأصبحت كلية للاسطول الملكى . وأقيم المرصد الملكى هنا فى عام ١٦٧٥ . وصار مصدرا للتوقيت البريطانى . وكذلك مصدرا لضبط الوقت فى الدنيا كلها .. حيث تعلن ساعة بيج بن ، بدقاتها المشهورة ، وقت جرينتش للعالم كله . وقد نقل المرصد الى « هيرستمنس » . ولكن بقى خط الصفر . خط جرينتش ، كما هو لم يتغير . وهذه هى علامة الخط .

ادهشتها معرفته . سألته :

— كيف عرفت كل هذه المعلومات ؟

— هذه أسرار !

قادها الى خط جرينتش . جلسا عليه . خط جرينش الذى يقسم الكرة الارضية الى خطوط الطول ، شرق الخط وغربه . وضعت رأسها على صدره . اراد أن يتحسس الذهب بأصابعه ، ولو مرة واحدة فى حياته ! تخلل شعرها بأصابعه . اكمل اللوحة الخالدة : لوحة الحب . أسند رأسه على رأسها . غابا لحظة عن الكون . أفاقا . أرسلت عيناها الى عينيه رسالة . رحب بها ، وحذب عليها ، بكل ما يحسه من وجد . . . وقبلها قبلة طويلة . خيل اليه انهافاقت خط جرينتش طولاً ! قبلة كونية . كانت ثمرة ياتمة للتاريخ والجغرافيا والحب !

* * *

— ١٣ —

انتهت معركة قناة السويس . وبدأت معركته مع نفسه . كان حلمه ، طوال حياته أن يشتغل بالقضايا العامة . وأن يقتحم المجال السياسى . فمجتمع الوسية ، لا يمكن تغييره ، الا بتنظيم سياسى ، يضم الجماهير الواعية بحقوقها .

كيف يمكنه العمل مع الجماهير ، وزوجته اجنبية ؟ انها حتى انجليزية . مصر عانت من الاستعمار . الانجليز هدروا دماء شبابنا . ونزفوا موارد اقتصادنا . وهو يريد أن يسهم مع الجماهير فى معركة التحرر من الاستعمار والاستغلال . كيف يتزوج من انجليزية ؟

لكن ، ألم تر الجماهير الانجليزية ، تتظاهر ضد حكومة المحافظين . تهدف بسقوط ايدن . وتساند مصر فى حقها فى القناة ؟ ألم تر الى برندا . تسهم فى المسيرات ، والاجتماعات ؟ وتحمل اللافتات للدفاع عن مصر . كيف م ١٢ — الوارثون

يمكن اذن ان تصم الانجليز جيها بالاستعمار . وهناك قوى انجليزية تساند الشعوب . ثم تر الى الطبقة العاملة تستضيفك في بيوتها . بعد ان لفظك المحافظون المنصريون .

ربما تستطيع انت ان تفرق بين مجموعة من الانجليز ، ومجموعة اخرى . ولكن الشعب المصرى يساوى بينهم جميعا . الجندى الانجليزى عندما يطلق النيران على المصريين ، لا نستطيع القول بأنه عمالى او محافظ .

تناثر وجدانه ، كما لم يتناثر من قبل : واحسرتاه ! حتى في الحب ، يتقلع تائبى . وتتمزق نفسى . في النضال الاجتماعى ، صارت قوى الجهل والجوع والتهم . لكن كيف اناضل ضد قوى العاطفة ؟ كيف يمكن ان يوصف الصراع هنا ، بأنه هزيمة او انتصار ؟ في ميدان القلب ، من القاهر ، ومن المقهور ؟ . اذا انتصرت على قلبى ، فمن يكون المنتصر ومن المهزوم ؟ واذا انتصر القلب ، على من ينتصر ؟

انت شخص غريب ، غريب . هل تقنحم المسائل العامة ، وقضايا انحدر كباتك ؟ ثم تتولى هذه الامور ، مصير عاطفتك . وقلبك ؟ . ليس هذا من طبيعة الامور . ماذا تعنى ؟ هل تلقى بآمالك وبممتلكك في اليم . لكى تنعم بزواج فانتك ؟ ان اطراح هذا النضال العام ، يعنى الموت الزؤام . . اذن ، ضح بعاطفتك : وبجبك . كيف بربرى ، يعيش المرء بلا قلب ؟ . ماذا يتبقى له ؟ كيف يحقق طموحاته بقلب كسير ؟ غشه الضياع . وادلهمت به الازمة .

ماذا يصنع ؟ ذهب الى عبد المجيد . ربما يجد لديه بعض الفرج . دق بابه في ساعة غير متوقعة . لقيه عبد المجيد بوجه باس . كان حسن متجهما فطن عبد المجيد الى ان صديقه متأزم . بادره بابتسامته الصديقة :

— ماذا دهالك يا ابا على ؟

— داهية ، ليس لى بها عهد .

- أنت يا أبا على تدهم الداهيات .
- يبدو أنني أدهم الآن نفسي .
- لماذا حفظك الله !
- لا تلجأ لاسنوبك الساخر ، فانا في غمة .
- « نيه يا بنى » الله لا يعبك ! يا بنى . نحن نحسدك . وكنا نتمنى أن نكون في مكانك . لقد نزلت بك غمما . وانصبت عليك حمما . وقد فرجت أنت الغمم . وسلطت الحمم على المصائب الاجتاعية ، فقهرتها .
- كان عبد المجيد يتيه بلغته العربية . كما كان يتيه بلغته الإنجليزية . وكانت الإزمة تعصف بحسن . لكن البسمة المشرقة في وجه صديقه . ولغته العربية « الأبدية » ؛ امرعتا بالبسمة الى شفنيه . كان يستريح لجالسة عبد المجيد . ويتنعمش لحديثه . ومضى عبد المجيد مباحيا بذكائه :
- أنا أقول لك ماذا أصابك ؟
- محلل نفسائى حضرتك ؟
- لا . محلل احصائى . . « سوف يا سيدي » . أنت تحب !
- لم يجبه حسن بجدية ؛ يتطلبها الموقف . قال له :
- خرب عقلك . أنت يا بنى « طلعت لى بنين » !
- أنا اللى « طلعت لك » . والانت « طلعت لى » !
- خشى حسن أن يتخذ صديقه من الموضوع فكاهة . قال له على انفور في صوت عميق :
- نعم أنا أحب .
- الفناة التى رايتها معك . في يوم القناة ؛ بهيدان ترافالجار ؟
- نعم .
- لك حق . انى اعذرك !

ولم يتردد حسن :

— ماذا ترى في انزواج من اجنبية ؟

بهت عبد المجيد . ثلاثت ابتسامته . اكتمر وجهه :

— لا اعتقد انك ترتكب هذا الخطأ الكبير .

— خطأ ، وكبير ؟

— نعم ... نحن قوم لنا تقاليدنا ، وعاداتنا ، وديننا . ولا تتسق

الاجنبيات مع كل هذا .

— أنت متدين . وتعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم ، قد تزوج بماريا

القبطية . اما التقاليد والعادات ، فأنت تعلم كذلك ، ان معظمها يرتبط

بالتخلف . وقليل منها يجعل الانسان حقا . كالصدق والامانة والوفاء . وهذه

اخلاق توجد في الغرب ، اكثر مما توجد في الشرق . واقامتنا في انجلترا ،

اثبتت لنا هذه الحقبة .

عدد عبد المجيد خصالا اخرى :

— والنجدة والمروءة ، والتعاطف بين افراد الاسرة ، والكرم .

— أنت آخر من يتحدث عن الكرم ! بقى لنا سنة معك . ولم تدعنا الى

الطعام المصرى الجميل . رغم ان زوجتك ترافقك . فانرك حكاية الكرم هذه !

ضحك عبد المجيد قائلا :

— الله يفضحك !

— اما النجدة والمروءة ، فهذه مسائل توجد لدى شعراء الجاهلية !

وهى مسائل فردية . وتسود في المجتمعات المنخلفة .

سكت حسن برهة ثم واصل :

— دعنى اتول لك ان هذه الخصال « الجميلة » ، احدثت عقدة عندى .

عندما كنت صغيرا . ضاعت ارضنا . وكان من اسباب ضياعها ان والدى

كان ذا نجدة ومروءة . ضمن كثيرا من الدائنين . لم يسددوا ديونهم . اضطر الضامن الشهم أن يسدد تلك الديون . تحملت أرضنا الغرم . ونزعت ملكيتها .

— الرابطة الاسرية مفككة هنا . قوية في بلدنا .

— أية روابط اسرية ؟ الاولاد هنا ينعمون برعاية وحب واضحين . وعندما ينتهى الولد من تعليمه . ويصبح قادرا على الكسب . فانه يستقل بنفسه ، وبصفة خاصة عندما يتزوج . هل يعجبك ان يظل الولد ، وفي وجهه شنب غليظ . عالة على أبيه . غير قادر على الخلق والاستقلالية ؟

وتدخل عبد المجيد في يأس :

— حتى هذه المسائل ، لا نريد أن نتفاخر بها ؟

— كيف نتفاخر بقيم متخلفة ؟ وكيف ندعى صفات حسنة ، ليست وقفا علينا ؟

برقت عينا عبد المجيد . . مال برأسه الى أسفل قليلا . تسائل :

— أتريد أن تنتصر في الحوار . حتى وانت جريح القلب ؟

سكت لحظة ، ثم واصل :

— على أية حال ، انا رجل صعيدي . ولن نثني عن رأبي . واني انصحك كصديق ان تطلع عن فكرة الزواج بأجنبية . وبصفة خاصة أنت تريد ان تشتغل بالعمل السياسى . وليس من المقبول ان نجابه الجماهير ، وزوجتك اجنبية .

كان عبد المجيد « صعيديا » في هذا الرد . حسن ضيق الخناق عليه في المناقشة . وهو صعيدي لا يقبل الهزيمة . ويضرب عشوائيا لينتقم . الحق انه لمس النقطة الضعيفة . لم يستطع حسن حلها بالحدوث الى نفسه . جاء الى عبد المجيد كصديق . ليعينه عليها . فاذا به ينكأ جراحه . وسأله حسن :

— احقا يا عبد المجيد ، ان ذلك سيكون عقبة امامى فى العمل
السياسى ؟
— لا جدال .

نلمظ عبد المجيد . بانث فى عيذيه نشوة الانتصار . وخاصة . عندما
احس النغمة الضعيفة التى سألها بها صديقه .
ترك عبد المجيد ، كما دخل عليه . كسيفا مكلوما .

* * *

فى صبيحة اليوم التالى بحث عن عبد الحى . لعله يجد لديه ، ما يرد اليه
تثبه . وكانه يعرض مشكلة قلبه على استفتاء عام ! رآه فى « كافتيريا »
الكلية . أقبل عبد الحى عليه . شعر أن حسن لا يمشب : ويضحك ،
ويناتش كالمعهد به :

— مالك « يابو على » ؟

— اجلس يا عبد الحى . كنت ابحت عنك .

— خيرا .

— ليته كذلك .

— هل قامت القيامة ؟ انتصرنا فى معركة قناة السويس . وكنت
فارسا من فرسان المعركة . فماذا يحزنك ؟ وانت تشبع الحياة والمرح انا
ذهبت .

— مشكلة خاصة . اود ان اسر بها انيك : هل من الممكن ان يتزوج
المرء باجنبيهة ؟

— طبعا ! انا شخصا ، نو وجدت فتاة اورية مناسبة ، لن اتردد .

— سؤال آخر : هل لا تكون عقبة اذا ما اشتغلت بالعمل
السياسى ؟

— اية عقبة ؟ .. ليس هناك اى اعتبار ، يمكن ان يتدخل فى حرية اختيار الانسان لزوجته . هناك كثير من الشخصيات الكبيرة يعملون فى السياسة ، ومتزوجون من اجنبيات خذ بعض الامثلة : د . عبد المنعم القيسونى . د حسين خلاف ، وزيران فى عهد عبد اناصر . أنت تعرف الزعماء الامارقة ، ورؤساء الجمهوريات . كثير منهم زوجاتهم اجنبيات : سنجور فى السنغال مثلا . كبار الابداء . طه حسين ، ويحيى حقى ، وغيرهم . بعض اعضاء الثورة ، زوجاتهم بنات لسيدات اجنبيات . وقد يصبحن حكامنا !

ثم سكت عبد الحى لحظة ، وقال :

— ماذا دهاك يا ابا على . حسبناك رشيد الراى ؟

— لكن الانجليز يحتلون ارضنا . ويهرقون دماء شبابنا . والشعب لا يغير الزواج من بناتهم ؟

— الشعب سمح . ولكن المصنعين لوطنية ، هم الذين يتظاهرون بهذه الوطنية المساذجة .. ثم ايس الانجليز بالانهم الكثيرة . هم الذين نظاهروا ضد حكومتهم ونادوا بسقوطها . وانتصروا لمصر ؟

سكت عبد الحى . زم شفتيه . عجب انفه . الامر الذى يفعل ، حينها لا يعجبه راى محدثه :

— يا عم حسن . انت رجل مكافح . لا تفكر تفكيرا سطحيا .

تراخت اعصاب حسن . قال لعبد الحى :

— لكن عبد المجيد نه راى مخالف .

— عبد المجيد صميدى . لا يعرف شيئا !

— سأقول له ذلك !

— أنت وهو لا تهمانى . انتم قوم متخلفون . اذهب يا عم الى بلدك .

وتزوج من المتخففات من أملاك . فنحيل حياتك الى سلسلة من التخلف .
فلا تصلح للسياسة ، ولا لغيرها .

هجوم عبد الحى ، هجوم محبب . وخاصة في هذا الموضوع
بالذات ! تهلل لهذا الهجوم . ود لو يسترسل عبد الحى ، بعدوانيته
المشهورة ، في هذه المسألة بعينها . كان عبد الحى كريما . اذ واصل
الهجوم :

— أنت احسن لك أن تزوج من خضرة . او أم الخير ، او ست
ابوها ! وستجد اباهما يطلب منك مهرا كذا . . لابنته المصماء . ويطالب
بوزنها ذهب . وهى تافهة لا تساوى « وزن ودنها نخالة » ! ثم الشبكة
وغيرها من الشروط المعوقة . وتنفخ كل ذلك ، ولا تراها !

انطلق صاروخ من عمق ذاكرته . امر هذه الذاكرة عجب ! لم تكن ضئيلة
عليه بأية معلومة من معلومات الماضى . . بل كانت دائما سبابة مسفونة . يبدو
أن ذاكرته تسعفه بصور الشقاء فحسب ! وبصفة خاصة اذا كان الشقاء معوقا
قتالا . يصير على تنفيذ الحاضر . لكن اذا كانت الصورة الشقية ، منقذة
له من عذاباته ، فانها تمنع ! تفوص في أعماق نفسه . وتتردد في ان تطنو . .
عبارة عبد الحى قسرتها على أن تبرز من مكبتها !

* * *

انقرية الحالة . الحالة بالنتدم ، منذ سبعة آلاف سنة ، ومازال
حالة . الاسرة العتيبة . أسرة حسن . تجتمع في منزلها — المنزل الذى
اجتمعت فيه من قبل ، منذ عشرين عاما . كان اجتماعهم الاول بهيجا حزينا .
الام وبناتها سعاد وهند وثريا وابنها فيصل ، براعم بين الخامسة

والمشاركة . اجتمعن مع الابن الاكبر حسن . المناسبة تفرح ونؤسى .
احتفلوا بتفوق حسن في الشهادة الابتدائية . احتفلوا في الوقت نفسه
بضياع أرضهم ، وبطرده من مدرسة الزقازيق الثانوية ، أهجهم عن دفع
المصروفات . المأساة تبلغ ذروتها . دخل الاب السجين لان الاسرة اكلت
الاذرة المحجوز عليها . انتهزوا الفرصة لاحتفلوا بتنصيب حسن ربا
للأسرة ، وعائلاتها ، وهو في الثانية عشرة !

الاجتماع الآن لمناسبة بهيجة ، ولو ان البهجة في هذه الاسرة ليست
خالصة . ارتحل الاب للقاء ربه . بعد ان فرح بحصول ابنه على
الليسانس . لكنه قام بالرحلة مبكرا . لعله برم بسجن الدنيا . وبسجون
دولة الموسية . اثر ان ينعم بالحرية الابدية في ملكوت السماء .

اجتمعت الام بابنائها وبناتها ، لتزويج حسن . هذا الفنى منهمك في
العلم . ونسى انه يقترب من الثلاثين . نحدث فيصل :

— نريد أن نزوجك يا « متر » .

— « ايدى على كتفك » .

— عندي عروسة « لقطلة » .

— من هي ؟

— بنت عمك ، انشيخ نقى الدين .

— هل رايتها ؟ اهي حلوة ؟

— جبيلة جدا . تربيتها دينية . هم اقاربنا . قوم محافظون . وهي

متقدمة لامتحان التوجيهية هذا العام .

— « وبس » !؟

ضحك فيصل ، لانه اخى العنصر الرئيسى في مؤهلات الفتاة . ثم

قال ميتسما :

— وأبها ، تملك مائة فدان . يعنى نصيبها خمسون فداناً .. باحلو .
— هذا هو الكلام . ما كان لك أن تؤخر هذا « المؤهل » الهام !
كان فيحصل يعلم ان أخاه يزهد في الأرض والمال والغنى . لكنه
تحمس :

— طبعا ، هذا عنصر أساسى .. الى متى سنظل فقراء ؟
أثار قوله مشاعر الأسرة كلها ، وبصفة خاصة والدته . كانت الأرض
مصدر سعادتها وشقتها ، شهدت دورة العز ، حينما كان جد حسن .
يملك مائة فدان ، وعندما ورث زوجها عشرين فداناً بعد وفاة أبيه .
وانشرح قلبها ، حينما ضاعت الأرض .

وعا هي خمسون فداناً تغازلهم من وراء الامق . شهد دس بريق
انسعادة في عيني أمه . وأشعة الأمل في عيون أخوانه . أليست هذه هي
الأسرة التى كدح من أجلها صبيا ويانما ؟ لماذا لا يسهم في إسماعها ، وهر
في شرح الشباب . وقال لأخيه :

— يا لله ، شد حيلك .

وفاجأه فيحصل :

— عيا نزورهم .

— هكذا على الفور .

— خير البر عاجله .

ذهب ثلاثتهم : حسن ، وفيصل . وحكيم — أخ نلشيخ تقى الدين —
لزيارته بالزقازيق . فتحت الباب لهم فتاة مغرطة الجسد ، صغيرة الرأس .
وما أن رأتهم حتى غرت مذعورة . لا تحية ، ولا سلام ، ولا كلام .. جرت
الفتاة ، دون أن تعلم من هؤلاء . ولو أن من الزائرين عمها الشقيق ! لم
يكن هذا الوعد قد أعن عن بغيته . جاء الشيخ . رحب بهم . قادهم الى
غرفة الجنوس .

تمنى حسن من أعماق قلبه ، الا تكون هذه هي الفتاة المرجوة ! كان جسدها الوفير ورأسها الصغير ، غير مشجعين . نكوصها السريع الراكض عند رؤيتهم ، دليل على الاخلاق الفاضلة ، لدى فيصل وحليم . ولكنه لم يكن دليلا كافيا لدى حسن !

كان باب الغرفة مفتوحا . مرت الفتاة من بعيد في الصلاة . استنصر الشيخ الحريص على انفضيئة . حرجا . قام وقفل باب الحجرة ! يبدو انه نخاليل ان فكرة ازواج : هي التي جمعت هذا الثلاثي . وعلى ذلك ، فالفتاة محرمة على من يفكر في خطوبتها !

حسن يوافق فيصل وحليم على الخطوبة . اشترط ان يرى الفتاة ، وتجنس معه . وعدها بذلك . حسن وفيصل من اقارب الشيخ . المفروض ان تانى امراته وبينه لتدبتهما . لم تحضرا . اخذ حليم . الشيخ الى خارج الغرفة . فهم حسن ما يريد حليم : ان تانى الفتاة . وتسلم على حسن . فهو قريباها ، ويريد خطبتها . غابا عدة دقائق . استفتح حسن ان المفاوضات معقدة ، وتحتاج مراحل صعبة ! دخلا الحجرة . الجواب على وجهيهما . المفاوضات فشلت . عليه ان يخطب الفتاة التي سيعيش معها حياته كلها ، وينجب منها مناضلين لتحرير هذا البلاد . عليه ان يخطبها غيبا ، دون ان يراها .

تبلبل في مقعدده . هداه فيصل . بضغط اصابعه على ذراعه . حركة نعتى : اصعب . رجاه حليم وفيصل ان يتحدثا في الموضوع . قال لهما :

— نتحدث في موضوع اجعله ، ولم اره .

وقال فيصل :

— ستراها . انهد انا وحليم بذلك .

— طيب .

بدأ فيصل يتحدث . العادة أن أبا العريس . أو أخاه ، أو عمه ، هو الذى يذطلبه العروس من ولى أمرها .

خاطب فيصل الشيخ ، وكلاهما ازهرى :

— يا فضيلة الشيخ . حضرنا فى مهمة يباركها الله .

— أهلا يا فضيلة الشيخ ! وأهلا بكم جميعا .

— نحن أقارب . فلنتحدث ، دون مقدمات .

— تفضل .

— « احنا طالبين التقرب منك » !

ورد الشيخ على الفور :

— فى مين ؟!

أوشك حسن أن يطلق ضحكة من ضحكائه العالية . كانت تطماستفسد الموضوع برمته . حول حسن الضحكة الى كحة ! ذكرى طافت بمخيلته . عند سماعه كلمة « فى مين » . كان لحسن وهو طالب فى الحقوق ، صديق هو ابراهيم غباشى كان مغرما بقصة خطوبة البنت الفلاحة . هكذا يصورها : يذهب وفد من عائلة العريس الى والد العروس . يقول كبير الوفد :

— باشيخ ابو غلان .

— ويرد عليه والد العروس :

— اى نعم .

— احنا طالبين التقرب منك .

— فى مين ؟!

ويضى ابراهيم غباشى فى رسم صورته : والد العروس يجلس على

الحميرة . امامه موقد النار . يأخذ من الموقد عصا من حطب القطن .
بخطط بها في تراب الموقد بعض الوقت ، وكأنه يفكر . ثم يقول لهم :

— في مين ؟!

ويطلق غباشى :

— « في أم الهم . . في أم تويق . . في المصيبة اللى جوه ، هو فيه
غيرها ؟ »

كانت هذه قصة تستثير ضحكهما . . وهذا ما حدث بين الشيوخين
الازهريين . لم يكن لوالد العروس ، غير بنتين : احدهما تزوجت ، وبقيت
بنت واحدة .

رد فيصل على الشيخ :

— في الأنسة « نفيدة » !

ورد الشيخ على الفور ، وكان يعرف سمعة حسن وكناهه .

— أنه ليشرفنا أن ترتبط « بالدكتور » حسن بهذا الرباط المقدس .

« هالله . . هالله » ، وبقينا دكاتره !

فرح حسن بهذا التشريف وتطير . فرح ، لان صهره المقبل ، يرفعه الى
مصاف الدكاتره ، وهو مازال معيدا . وتطير ، خشية ان يحسب انه دكتور
حقيقة ، ويطلب مهرا وشبكة يتناسبان والمؤهل !

وبدا فيصل على الفور في الكلام في الشبكة والمهر — دارت مناقشات
عصبية . طالعت وتمعدت . تخيل حسن انه في سوق للسلع : او للمواشى .
تعتمد فيه المساومة . كنم الالم في نفسه . الشيخ يطالب بببلغ كبير للشبكة
والمهر . على ان يدنمعا معا . بذل فيصل جهدا في الحوار . حلیم كان
محابدا . أنه يفضل هذا العريس . لكن لا يريد أن يبخص ابنة شقيقته
هتھا .

وقال الشيخ بعزة :

— أبتى من « اسرة » ! اخنها دفع فيها مهر وشبكة قيمان . لا اقبل
ان تتخفص تيمتها عن قيمة اخنها .

نفذت كلية « اسرة » داخل حسن كالسهم . النائب العام يقصر
وظائف النيابة على « الاسر » . وحرم حسن منها . حتى يصلح
ابن انصراف تحدث عن الاسر ! وهذا هو الشيخ تقى الدين قريبيه
يتحدث عن الاسر . اصابه تقزز . منطلق الامور انه لا يصلح لبنات
« الاسر » . كما لم يصلح لوظائف « الاسر » . لكن الرجل قبله زوجا
لابنته . وموضوع « الاسر » اثر بمناسبة المهر والشبكة فحسب . الاسر بما
تعلو وتهبط حسب مكانها في السلم الاجتماعى . او حسب فدادينها . بنات
هذه الاسرة يساوين خمسمائة جنيه ، وتلك بناتها الف . . وهكذا !

وانت حسن ، فى هذه اللحظة روح السخرية :

— يا فضيلة الشيخ . انت وانا من اسرة ايضا — بل من اسرة
واحدة .

— قصدت ان اسرة والدتها اسرة عريقة . اسرة باشوات .
سهم آخر ، شرح وجدانه . قصته مع انخوات والباشوات
مهرونة . لكنه استمر فى اسلوبه الساخر :

— هل تنسب ابنت الى ابيها واسرته ، ام الى امها واسرتها ؟

بلع الشيخ ريقه . كان السؤال مفاجئا . اجاب :

— الى اسرة ابيها طبعاً .

— اذن اتفقنا .

— انا لا اريد ان اكسر بخاطر البنت . ولا يجوز ان تكون اقل من
اخيها .

المبلغ الذى يطلبه مرتفع ، لا يستطيع جمعه . لكن فيصل وحليم الحسا

عليه أن يوافق . وسوف يدبر المبلغ . . هذه عروسة « لقطه » . لا تدعها
تفلت من يدك وتحت هذا الالاح وافق .

* * *

عملية جمع المهر والشبكة ، كان فيها جمال ، بقدر ما فيها من
معاناة . تجلى جمالها في ذلك الحنان . الذي أحاطته به قلوب ذهبية .
حنان اخواته . واخيه ، وامه . جاءت هند :

— هذا يا اخى « كردانى » خذ لىسهم فى مهر عروسك .

قال لها :

— أنت يا هند فى حاجة اليه . زوجك عاطل . لا أمل يرجى منه .
وأنت التى نكدحين فى قطعة الارض التى تملكونها . أولئك مازانوا
صغارا . يحتاجون لكل مليم لىديك .

— هذا « الكردان » . وما املك . بل وحياتى كلها ، أنت مصدرها .
كذت أخانا ، وأبانا ، وعائلنا . هذا بعض جميلك نرده اليك .
— استغفر الله . لا نقولى هذا الكلام .

وأصرت هند أن يأخذ حسن عقدها انذهبى ، حتى « لا بكسر
بخطرها » . وبانت سعاد . مدت يدها بلقافة لآخيها :

— هذا حلقى . لا املك غيره . هو كل ما استطع تقديبه
اعذرنى .

— مستحيل يا سعاد ان آخذه . زوجك فقير وعنتك اطفال كئار .
اواجب على أن اعاونك .

دمعت عينها ، وتهدج صوتها :

— اترفض اسهامى فى محرك ، وقد ربينا . بعد ضباع الارض !

— انا لا ارفض . انت يا سعاد كبيرة اخواتى . كنت تذهبين بى على الحمارة الى مدرسة كفر صقر ، ثم تعودين بها وانت فى السادسة . فانت جميلك فى عنقى .

— لقد ائسرت لى حليا فى عرسى ، وحياة المرحوم والدك ، لا تكسفى .

انصاع حسن لرجائها بباق مدرارة . ودخلت ثريا بحماسة واندفاع . دست فى يده اسورتين ذهبيتين :

— هذا ، يا شقيقى شىء بسيط . هدية منى فى فرحك .

كان لا يمكن محاوره ثريا . فهى ستكسب اى حوار معه . وليس من المعقول ان يرفض هديتها ويقبل معاونة اختها .

وجاء دور فيصل . كان حديث التخرج . عين مدرسا فى المدارس الابتدائية منذ سنة واحدة . جاء بمدخراته جميعا . وقدمها لآخيه .

— حتى انت يا فيصل ؟

— انا الرجل . وقوام على البنات .

— مرتبك صغير ، وتحناج لمدخراتك للزواج .

— مهمتنا الآن تزويجك انت ، وهذه ضريبة مسفيرة ، لا تعوض العناء الذى تحملته من اجلنا ، ومن اجل تعليمى .

— دعك من هذا الكلام بربك .

— لا تجعلنى اشعر باننى اقل بذلا من اثينات .

— وشاء فيصل ان يخفف . فقال باسما :

— ومع ذلك ، « فكله يتعوض » . والخمسون غداننا قادمة !

— المشايخ يسيل لعابهم على الارض .

— والناس جميعا .

- هناك قيم أخرى ، أجمل من النروة .
— دعك من هذا الخبال ، والمنايات ، الفقر طحننا . ونود ان
نعيش .
— حتى الدارسين للاديان ، تهاؤ عيونهم وقلوبهم المادة .
— يا أخى ، المعانى الأخرى موجودة — انها المادة هى الركيزة !
— طيب يا عم فيصسل .

كانت الام ترقب هذا العطاء الانسانى ، يقوم به فصل والبنات .
يبدلون من اقواتهم وطيهم فرحين ، وهم يسهمون فى تزويج اخيهم . لم
تقدم الام شيئا لابنتها غير حنانها . ليس لديها شئ ، آخر تقدمه . اكتفى
بشعاع الحب ، يلعب فى مآقيها ، ومآقى اخنه الصغيرة سهام ، ذات الانى
عشر ربيعا .

باع حسن فدانا من الفدانين اللذين اشتراهما وهو عمكرى فى
انجيش . وباع انطى ، وضم مدخراته ، ومدخرات فيصسل . المبلغ مازال
ينقص عن قيمة المهر والشبكة خمسين جنيها .

* * *

ذهب حسن للقاء الشيخ تقى الدين :

- سلام الله عليكم .
— عليكم السلام ورحمته وبركاته .
بدا حسن حديثه بمقدمة :
— فضيلتك تعلم ان الانسان الريانى الفاضل لا يقاس بالمال !
ارتعش حاجبا الشيخ الكثيفان الاشيبان . نقلص جفناه . مقدمة
توحى بشئ . رد ردا مقتضبا :
— نعم .

— وأن الزواج علاقة قدسية . تحكمها مقاييس مثالي ، ليس المال أهمها !

انتسعت حديثنا الشيخ . انفرج ما بين شفطيه . لكنه لم يملك الا ان قال :

— نعم .

راى حسن فى عينيه تساؤلا حائرا : ماذا يريد هذا الشاب ؟ ايريد ان يعطينى درسا فى الدين ؟ وهو يعلم اننى احمل العالمية . ام يريد امرا آخر ؟ دلف الى الموضوع .

— اتيت ببقية المهر وانشبكة .

سكت برهة .. ثم استمر .

— .. لكن المبلغ يفتقه خمسون جنيها .

طمس الحرق نجاة وجه الشيخ . حبات كبيرة نساقت من ذقنه الحليقة على جبهته . برقت عيناه الفائرتان . اغبر لونهما الاخضر ، كقطعة مذعورة . لم يجب على الفور . على الرغم من ثقافته الازهرية : كان ثقيل اللسان . تخرج الالفاظ من فمه ، بطيئة متعثرة . استرد جائسه . قال بصوت فيه حدة :

— ليس هذا ما اتفقنا عليه .

— فضيلتك ، تصرف اننى تخرجت منذ سنتين . جنسك بكل مداخلاتى ، ومدخرات اخرى . وبعثت فدانا من ارضى . كما جنسك بحلى اخواتى .

لم يعبأ الرجل بهذه المعاتى :

— اتفقنا على مبلغ محدد . يجب ان تنفذ الاتفاق .

— كيف ، ولم يبق لادى شىء ؟

— ابنتى غالية عندى . ويجب ان تضحى لتثبت انها غالية عندك .

- اتقصد ان اتومها بالمال . ؟
— اجل .
— انا لا اوافق على هذا التقويم — فهناك معان اغلى من المال .
— جرى العرف على ان تدفع مهور وشيكات كبيرة لبنات الاسر .
— الاسر مرة اخرى ؟ لا اخال الاسر « الاستفراطة » الشرعية ،
ينقص من ثرائها خمسون جنبها . هذا مبلغ ضئيل .
— اذا كان ضئيلا ، عليك ان تدفعه .
سكت هنيئة ، ثم أردف :
— ... ان حرمى لن تقبل ان آخذ المهر منك ناقصا قرشا واحدا .
— حرمك ؟ اين قوامه الرجال على النساء باسم الشيخ ؟
تلعثم الشيخ . ولكنه مضى ، وكان الوخزة لم توجهه :
— هذه شريكى ، ولا بد من احترام رايها .
كالتت الثروة ثروة المراهة . والشيخ تقى الدين يشبه « الخولى » لديها .
تفهم موقفه . ساله مرة اخرى :
— هل تنقص الخمسون جنبها من قيمة ابننكم ؟
— نعم .
— يا فضيلة الشيخ . هذا الكلام ليس من الكتاب والسنة في شيء .
— كيف ذلك ؟
— الرسول صلى الله عليه وسلم ، انخفض بالمهور الى خمسة وعشرين
قرشا !
— هذا خاص بالفقراء .
— جرحته كلمة « انفقراء » كان يعتبر نفسه واحدا منهم . والتعريض
بهم تعريض به .

— الفقراء أحباب الله ، يا مولانا .

— أحباب الله في الآخرة !

— صدقت . لو كانوا أحبابه في الدنيا ، ما تركوا للقبوس يطحنهم . وما ترككم أنتم ملاك الأرض ورأس المال تسفكون عرقهم ، وتستولون كدحهم :

— الله ؟ ماذا جرى يا دكتور ؟ . . . انعطيني درسا اجتماعيا ، كما حاولت أن تعطيني درسا دينيا ؟

— انا لا اعطيك شيئا . ولا آخذ منك .

انفض حسن من مجلسه واقفا :

— سلام عايك .

حاول الشيخ أن يستبقه لتناول طعام العشاء . رفض :

— العشاء قد يكون مكلفا . اقترح عليك أن تخضم ثمن الوجبة من الخمسين جنيا .

هذه الومضة من حياته الماضية ، التي نكشها عبد الحى ، كانت القول الفصل في زواجه ببرندا . اقتحمت رأسه خاطرة :

أه تسهم برندا ، مع آلاف المتظاهرين والمتظاهرات الانجائز . معنا في معركة قناة السويس ؟ أين كانت المصريات الدارسات في لندن ؟ المصريات المحصنات . لم يظهرن في حركة الجماهير الانجليزية . التي امتدت اسابيع قبل الاعتداء على بور سعيد . لو اه . من أى شىء هن محصنات ؟ من العمل الوطنى ؟ من انتقدم ؟ من المسار الحضارى ؟

سوف اتزوج برندا . ناضات من أجل مصر في بادها . وستناضل من أجلها حينما تأتى إليها . المخاوف التي تخشاها سانجة . الشعب في مصر صادق الفطرة . يتواصل مع اولئك الذين يعتبرون قطعة منه ، ومن أماتيه ، ومن نضاله .

السنة الاخيرة ، التي امضاها حسن في انجلترا ، سنة راضية مرضية .
انصر وطنه في معركة القناة . وانتصر هو في معركة القلب . عندها ينبض
القلب نبضا هادئا بالحب ، فان النفس تصفو . والاداء يسخو . ثم ينعم بمثل
هذه الهناءة من قبل . هنائه هنا سخية مزدوجة . كان عهده بالسعادة
انها مفردة ! فهي اما فردية ، لا تشيع الوتدة الاجتماعية في وجدانه . واما
جباعية لا تفازل القلب وتغممه .

غامر في بطون الكتب يشرب عصارتها التي سيسكبها في رسالته .
كتب رسالته بالانجليزية ، وبعض فصولها بالعربية . اراد اعدادها لتكون
جاهزة للمناقشة في مصر .

في هذا الجو الثرى كاديرنكب حماقه . يريد ان يمك بناصية السعادة ،
لكي لا تفلت منه . يريد مصدر هذه السعادة . يريد ان يبقى المصدر بجانبه .
قاما برحلة الى اوربا ، في طريق عودته الى مصر . زارا فيها بلجيكا .
وهولندا ، والمانيا ، وسويسرا ، واطاليا . كانت رحلة الى انغدوس .
بحيرات سويسرا الزرقاء الرائعة ، تنتصب حولها جبال خضراء . تتعمم
تمهما بثوج بيضاء . يغازل سناها العيون ، عندها تشرق الشمس . وتمطى
للارض جللا تحتاجه ، حينما تريد ان ننصل بالسماء !

جرعات السعادة اكبر مما يمكنه ان يسوعب . الآن ، السعادة
المطاة ، تذكرت انها كانت دائها معه ضئيلة . كأنها فطنت انها منحته قدرا
كبيرا . وهو امر طبيعى . يتسق مع المجمع الذى كان يعيش فيه . اما ، وهو
عائد الى مصر ، فمن المنطقى ان تعود الى عاداتها القديمة ! وفي رحلته في اوربا ،
مازالت السعادة رحيمة به . تود ان نبيح له فترة انتقالية . حتى لا يفاجئه
الشتاء دفعة واحدة !

قامت في صدره . رغبة مفاجئة : لابد ان ينزوح برندا في هذه الرحلة !
رغبة عكست كل بذور التخلف ، التي زرعها مجتمعه فيه . تجمعت فيها

المخاوف وانطلق وانعماوات التي قاساها . وعلى الرغم من عدم معقوليتها . كانت رغبة منطقية ! لم ينعم في حياته ، بمثل هذه السعادة . من حقه ان يعرض عليها بنواجذه . اذا طارت منه . طارت منه الحياة . حاولت اقتناعه بكل السبل :

— لا داعى للخوف ، ولا للقلق ، انا احبك . وسأتى الى مصر . لانزوجك هناك .

— ان خوفي عنك شديد . وانا لا اطيق مفارقتك .

— ربطنا حب كبير . وهو رابطة لا انفصام لها .

— اريد ان امسك بيدى ضمانا .

— الحب اكبر ضمان . وثيقة الزواج التي تقترحها . لا تقوم مقام

الذهب .

— ارجو ان تعذرني . نشأت نشأة شقية . عصفت بى نازلات .

سلبت الطمانينة منى . ولا اشعر بالامان ، كما تشعرين .

— انت تعرف ، ان لى ابا واما ، واخا . من المعقول ان استشيرهم .

ويحضرون زواجى .

— انت بلغت الواحدة والعشرين . اصبحت سيدة نفسك .

— بلوغ الرشد ، والاستقلال . لا يلقى الرابطة الانسانية بين البنات

والديهاسا .

— لك حق . ماذا اصنع ؟ انا مضطرب ، خائف ، مبهتس .

سكنت برندا لحظة . عكست نظراتها الحلوة معنيين : نريد ان نرضيه ،

فهى تحبه . وهى كذلك . وجلة من هذا التسرع الفجائى . اثار موضوعا

آخر :

— ايامى سنتان للحصول على بكالوريوس الفنون الجميلة . لقد كنت

مصدر الهامى فى الحصول على النانوية ، المستوى العالى . وفى دراستى
العليا للفنون .

— دراسة الفنون لا تمنعنا من عقد القران . واهلك يسعدون نسعادتك .
انا قلق ، واخشى أن يعوق القلق انمام رسالة الدكتوراة .

جزعت برندا . رضيت باقتراحه . لكنه اجرم فى حق نفسه وفى حقها .
جرما تأسى له كثيرا . عندها رضيت باقتراحه ، كانت عينها معكرتين .
عكستارضا مقهورا ، ونفسا كليمة .

اتصل حسن بالقطنليات المصرية فى المانيا وسويسرا واطاليا ، وكانت
النتيجة : السبت والاحد لا يعملون . الجمعة يصلون . الخمس يجتمعون
مع السفر . بقية ايام الاسبوع ، يعملون الى منتصف النهار . ينس . تسبب
سلوكه فى غزل غامة قاتمة . غطت رحلة الحب .

حاولت أن تطمننه مرة اخرى :

— الحب اكثر قداسة من وثيقة الزواج ! سنأال شهادتى . واحضر
مع والدى . واتزوج بك . ولن تغلت من يدى !

ضحك حسن ضحكة « انجليزية » هادئة . وهو صاحب الضحكة
الفضية ، التى يبلارنيها الآفاق . رجع الى نفسه : هيك تزوجتها . وحملت
وثيقة الزواج فى يدك . ثملم تحضر الى مصر . هل سترغمها ؟ لا ارغام فى
الزواج ، او الحب . صدقت برندا : الحب هو الذى سياتى بها الى مصر .
ودعها فى محطة روما . كان وداعا حزينا . ركبت انقطار . كان قطعة
من قلبه تدور مع عجلاته . كان وجهها مريدا . الزرقة انسماوية فى
عينها تحولت الى زرقة ارضية ! اختفى الورد من وجنتها . وشفتيها .
خيل اليه ان الذهب فى شعرها . تحول الى فضة ! كان القطار مرتفعا .
نوافذه عالية . حاول الوصول الى شفتيها ، عندما مسفر القطار ، وبدأ يتحرك .
الوصول اليها شاق . لمسها لمسة خفيفة . ثم تشبع نهمه لقبلة وداع طويلة .

نشام . هذه القبلة ، التي ما كادت تلمس شفيها ، تم عن علانة مبادعة .
بعد انجلترا عن مصر .

استقل السفينة الإيطالية الرشيقة من نابولي الى الاسكندرية . لم
تكن هناك غجربة ايطالية . لم يبحث عنها ، ولا عن غيرها . لم تكن السفينة
بجعة بيضاء . ولا البحر الابيض « بحيرة للبحر » !

استقبله اهله واصدقاؤه في الاسكندرية . استقبل الفانحين .
الفانحين في معركة العلم . من الطبيعي ان يمتدوا بأنه حصل على الدكتوراة .
لم يشأ ان يقلل من مرحتهم . كلها شهور ويناقش رسالته في الجامعة .
والدكتور من مصر ، كالدكتور من لندن « بتاع علم » ! كما يقول نجيب
الريحاني .

لكن استقبال الاسكندرية ، والاستقبال الكرنفالي في القرية ، من رجال
القرية ونسائها ، وصباياها ، وصباياها ، حركا فيه حب الناس ، الذي
يطوبه بين جوانحه . هذه امه وأخواته يستقبلنه بدمع مدرار . فاندموع في
بلادنا تهطل في الفرح ، كما تهطل في الحزن ! وهؤلاء هم فلاحو الوسية
اليونانية ، يقبلونه ، ويحبون اليه ذكرى عطرة . أمر واحد شاب فرحته .
لم يشهد والده المهرجان . ارتحل للقاء ربه .

* * *

قاعة المحاضرات الفسيحة بالجامعة ، تمج بالاسانذة والطلاب ،
وباصدقاء حسن من لفات الشعبية ، والمتنفة . المنفذة المخصصة للاستاذ
المحاضر ، يجلس عليها ثلاثة من الاسانذة الجهابذة — هم لجنة مناقشة
رسالة للدكتوراة — الحداد من بينهم . نسخة من الرسالة في يد كل منهم .

أمامهم باقة من الزهر ، عطرت هذا الجو العلى ، أنذى لبس من الضرورى ان يكون دانا عطرا !

وقف حسن على منصة جانبية . تلى ملخصا لرسالته . أثار اكف الجمهور . بدأت المناقشة سعيرا . لأصطراع بين مدارس فكرية متعارضة . كهنوت العلم البرجوازى يصرون على الإنكار القديمة . صال حسن وجمال . كان الجمهور معه . انسحب اعضاء اللجنة للمداولة . حضروا ثانية . نطق رئيس اللجنة بالحكم :

« يمنح الطائب حسن خالد درجة الدكتوراة فى الاقتصاد . بمرتبة « الشرف » .

انفجرت القاعة بالنصفيق . احدثت كلمة « الشرف » طفيئا فى أذنه ، كطينين الذباب . وأحدث النصفيق رنيئا حلوا ! عرض عليه زملاؤه ان يكرموه . اعتذر لانه متعب . قاده الطنين والرنين الى شاطئ انيل . هام على الشاطئ الخالد وحده .

كان الحصول على الدكتوراة ، نهاية ملحمة من البساء . بأساء لا عهد له بمثها ، على تواتر البساء عذبه طوأل حياته . بأساء شككته فى الانسان . الانسان الذى عاش فى داخله . واذى عاش يحلم به . ويهفو لان يسهم فى تحرره . تخايلت امامه معاناة السننين الماضيتين .

كان قد عاد الى وطنه ، بعد أن طال الحنين ، واعرضت الامانى . وطنه ينتصر على المستعمرين فى معركة القنأة . بينى السد العالى ، لبينى التنية . يسترد الفلاحون ارضهم من الاقطاعيين . خلقها الله لهم . ينبتون منها الخير . دون عملهم تبقى الارض يببا . ام تخلق الارض للاغنياء ، ذوى الايدى الناعمة ، التى لا تعمل . الايدى المترفة لا تزرع الارض . بل تزرع القهر والاستغلال . الزارعون للارض ، ذوو الايدى الخشنة ، هم الذين ينتجون من الارض سبع سنابل .

المعركة الوطنية الاجتماعية ماضية في طريقها . ليس الاستعمار ان نقتحم قواه العسكرية بلادنا ، كما فعلوا في بورسعيد . الاستثمار الحقيقي هو هدف هذه القوى البربرية . اغتصاب قناة السويس . واغتصاب ايرادها الضخم ، الذي استظبوه بلايين وبلايين . شركة قناة السويس تعتبر مثالا للشركات الاجنبية الاخرى . تعيث في اقتصادنا فسادا . تنهب خيراتنا . تنقلها ارباحا وسلما الى بلادها . لنسهم في رخائها وتضيقها . وتترك لنا اتخلف والركود .

الحكومة نسمر تلك الشركات . التمصر لا يحل مشكلة الاستقلال . الراسماليون المحليون حلفاء طبيعون لتلك الشركات . يباشرون ايضا عملية الاستقلال . الا ان القوى الوطنية قادرة عليهم . حينما يسترد الشعب ممتلكاتهم . ليس لديهم جيوش يستخدمونها ضده .

انعشته هذه الخطوات . الحكومة والمجتمع بيدان عملية التحرر . يفتنان الى الاسباب الحقيقية للتخلف في مصر . موضوع رسالته ، « القوى المعوقة للتقدم في مصر » . تركز على الاستثمار ، والاقتطاع والراسمالية . يريد لرسالته ان تكون اساسا علميا لهذه الحركة السياسية . اعترته رعدة لذذة . جهوده العلمية تسهم في معركة بلاده ضد التخلف .

ذعب للقاء الاستاذ ، الذي عين مشرفا على رسالته . شاب وسيم . اشتهر بين زملائه بالخلق القويم . ينعتونه بأنه عالم مبرز في الاقتصاد . درس في انجلترا . حصل على الدكتوراه من جامعة لندن . استبشر حسن بهذه الصفات . لديه الرجل لقا ، باتسا مهذبا ، وساله :
سماذا فعل الله بك ؟

ـ خيرا . جمعت مادة الرسالة كلها . وكتبت معظم فصولها بالانجليزية ، وبعضها بالعربية ، وقرأ الفصول الانجليزية بعض الاساتذة الانجليز .

- عظيم .

سكت الاستاذ برهة يفكر . ثم قال :

- وما هو موضوع رسالتك ؟!

كان ذلك السؤال « دشا باردا » : كيف لا يعلم استاذ ، عين بقرار من مجلس الكلية ، بموضوع رسالة دكتوراه يشرف عليها ؟ لهه آخر من يعظم ! واجاب حسن بحماسة .

- موضوعها : القوى المعوقة لتقدم الاقتصادى فى مصر .

- ما هى القوى المعيقة ؟ انها كثيرة .

- ركزت على عائلتين رئيسيين : الاستعمار والاستثمارات

الاجنبية ، والاقطاع والراسمالية المحلية .

شحب وجه الاستاذ شحوبا شديدا . ذعر حسن . رأى فى وجه الرجل صورة الاساتذة الانجليز - روبنز وبراون ومارتن - ثم برزت امامه صورة آرثر لويس . كانت سورته فى وجه الاستاذ المصرى اشد سوادا من صورة الاستاذ « الكاريبى » الاصلية ! وبعد هنيهة ، اجهد الاستاذ نفسه ليقول :

- من الذى وافق على تسجيلك لهذا الموضوع ؟

- الاستاذ الذى سبقك ؟

- من هو ؟

- الدكتور محسن مخلوف .

- كيف يقبل هذا الموضوع ؟

كان الاستاذ قد ترابط جاشه : واخذ يتكلم باستاذية ، وبشجاعة اكبر :

- هذا الموضوع ، لا يصلح لرسالة الدكتوراه !

نذكر الاساتذة الانجليز . هؤلاء رفضوا الاشراف على الرسالة ،
وكنهم قبلوها عليا . رفضوها لانها نهاجم الاستعمار والراسمالية . وهم
لا يقبلون هجوما على بريطانيا : « ام الاستعمار » ، وموطن الراسمالية
الاول . كانت الصدمة مروعة نفتانا . نتاجه الفكرى . الذى
سعد به . اراد له أن يضرب فى جذور التخلف فى بلده . كسح علمى ،
تساقط فيه ذهنه ، وجفت ماقيه ، خمس سنوات طوال .

تمالك نفسه . قال بصوت خائر . هدنه الصدمة :

— لكن يا استاذى . (لم يكن الرجل استاذه فى يوم من الايام !) .
هذا العمل حصيله خمسة اعوام من الكد والسهر : وافق عليه الاستاذ
المصرى السابق عليك . هذا الاستاذ علمنى وعامك !

كان قد حصل بعد الليسانس ، عنى دبلومين عاليين فى مصر .
وسجل رسالته للدكتوراه فى جامعة القاهرة : ووافق الاستاذ عليها .
وكانه كان يتوقع المصاعب التى جابهته مع الاساتذة الانجليز .. واستمر
فى الحديث :

— .. وعلى ضوء الموافقة جمعت المادة اللازمة لهذا الموضوع ،
سنة فى مصر ، وثلاث سنوات فى انجلترا ، وقرا معظم فصول الرسالة
معى اساتذة انجليز ، واتفقوا على الموضوع وقدموا لى نصائحهم .

— ومن هم هؤلاء الاساتذة الانجليز ؟

— الدكتورة فىرا آنستى ، والاستاذ موريس دوب .

وما ان سمع اسم « دوب » حتى امتنع لونه مرة اخرى ، وقال :

— كيف اتصت بموريس دوب ؟

— اليس استاذ الاقتصاد فى جامعة كامبردج ؟ قرأت كتبه ، وجدت
فيها علما يثرى موضوعى .

ورد الاستاذ ردا غير متوقع :

— من أجل هذا قلت لك ان الرسالة لا تصلح !

ادرك حسن هوية الشخص الذى يخاطبه . كان امامه طريقان : ان ينفجر فى وجهه ، او يصابره . وكان حياته سلسلة من الصبر والمصابرة . الطريق الاول يرضيه رضاء لحظيا . هذا الرجل يمسك بمستقبله ، ومن ثم عيشه . تماما كالخواجة اليونانى فى الوسبة ، والفائب العام فى وظائف النيابة .

انصرت ، للأسف ، قوى التعمقل ! خاطب الرجل خطابا رقيقا :

— أنت عالم يا دكتور . وقبل أن تحكم على الموضوع ، أرجو لو تقرأه بعقل العالم . هكذا فعل الاساتذة الغرباء . وأنا اتقبل حكك ، مهما كان .

لم يكن لديه خبار ، فى ان يقبل حكم الاستاذ ، او لا يقبله . الاستاذ هنا دكتور علمى . قوله هو القول الفصل . لاراد لتضائه ! يبدو ان النغمة الرقيقة ، والتركيز على « علمية » الاستاذ ، جعلته يتقبل الاقتراح :

— ابن الفصول انتى كتبتها ؟

— بالانجليزية ، ام بالعربية ؟

— الفصول المصرية .

سلبه الفصول العربية . شكره ، وانصرف .

* * *

مضت اربعة شهور كاملة . حاول خلالها ان يتصل بالاستاذ فى الكلية ، وتليفونيا فى منزله . الاستاذ يماطل : « لم اقرأ بعدد » . « مشغول » سأنصل بك عند انتهاء القراءة . أخيرا التقيا فى مكتبه .

كان في عجلة . قلب الرسالة بأصابعه ثقيليا سريعا . فكرته حركة أصابعه بحسين الباشكاتب في وسية الخواجة اليوناني ، في أول يوم أنتحق فيه بالوسية . كان الباشكاتب بمسك بدفتر كتابة الاتغار في الحقل . يقلب صفحاته بطريقة زرية تماثل نقلاب الاستاذ في رسالته . الباشكاتب يقذف بالدفتر في وجهه قائلا : اذهب واكتب الاتغار في الحقل . تايما كمالقى الاستاذ بالرسالة . كان الاستاذ مهذبا انقاهها على منضدة المكتب بطريقة جارحة ! قال الاستاذ في عجاجة :

— لدى موعد آخر . كما قلت لك ، ان الرسالة لا تصلح ! يجب ان تكتب من جديد . تجبعت في حلق حسن غصة . فاقنت كل الفصص التي نطقت بحقه ، ابان حياته المساوية . تكاد الغصة تزرق روحه . تخالبت له فكرة : يطق الغصة في شكل بصقة . تغطى وجه هذا المخلوق ، وينتد ناسه من هلاك محقق . وبينما كانت الفكرة تراوده ، قطعها ، نسوء الحظ ، صوت الاستاذ :

— .. وبصفة خاصة ، يجب ان تحذف حذفا ، الفصول الخاصة بالاستعمار ، وبالاتطاع وبالرأسمالية !

لكن حذف هذه الفصول . هو حذف للرسالة برمتها . الغريب ان هذه العبارة خفت عنه ! هذا هو مريب الفرس . الغصة تنزل الى مكان فسيح في صدره . انسحت في حلقه مكانا للتنفس . أجل موضوع البصقة ، نفذت صريرت مادتها الاولية !

وقف الاستاذ قائلا :

— انصحك ان تستعين برسالتى وكتابى .

خرج الاستاذ من الغرفة . نطق بجيلة تصد بها المصالحة :

— وستجد في الكتابين صفحات متصلة بموضوعك . يمكن نقلها

نساءى !

واقفل الباب خلفه ، ناركا حسن « ينعى من بناه » .

أعذا هو العلم في بلدنا ؟ صدق نجيب الريحاني . كان الريحاني يقصد بعبارته الجارحة ، وبالصوت المهين الذي صاحبها : أن الدولة لا تمنى بالمعلم أو الأستاذ ، ولا تكفل له حياة كريمة . أغلب الظن ، أنه لم يرد في ذهنه ان المهانة تأتي من جانب المشتغلين بالعلم انفسهم .

ما الذي ارضع الرجل هذا الحب للاقطاع ؟ ما الذي زرع في عروقه هذا الغرام بالرأسمالية ؟ ان كلمة « الاستعمار » لا تثير مشاعره . على العكس ، هو ينافح عن الاستعمار بضراوة اكبر من ابنائه . الاساتذة الانجليز ، استمعوا على الاقل لوجهة نظره . اللورد روبنز — وهو من اساطين الفكر الرأسمالي — استمع اليه ، وذكر له مراجع تعاونه على فهم نظرية الاستعمار . اذا كان الأستاذ الحداد ، لم يقرأ شيئا عن الاستعمار ، ألم ير الرصاص يحمّد زملاءه بن الشباب ، الذين تظاهروا ضد الاستعمار ، وهتفوا باستقلال مصر ؟ قطعا أنه لم يره ، ولم يسمع أريزه . أمثاله يقعون في الجحور ، أبان الحركات الوطنية . ألم يقرأ ، وأو في جريدة ومية ، أن بلدنا مزرعة كبرى ، ننتج القطن وغيره من الخضرات . تصدر الى انجلترا رخيصة . ويحرم منها الشعب الذي انتجها . ألم يسمع عن الاستعمار يجدد نفسه بغزو بورسعيد ، واغتصاب القناة وايرادانها مرة أخرى ؟

المذهل ، أن هذا الشخص ، لبس غنيا ، أو رأسماليا ! من أين جاءه هذا الغرام بالرأسمالية ؟ اتولد الرأسمالية مع الطفل يوم مولده ؟ هل صيحة الطفل ، يوم نزوله الى هذه الدنيا ، صيحة خوف أم تخويف ؟ يخاف الطفل من النظام الرأسمالي ، ومن غابته التي يفترس فيها القوى الضعيف ؟ أم ان صيحة الطفل تخويف ؟ تعلن أن الاطفال القادمين لن يسمحوا بنظام تستغل فيه قنة من الاطفال اطفال العالم جميعا . ألم ان

الصيحة ، صيحة « طرزانية » ، ينضم الطفل فيها الى ملوك الغلبة ؟ من
أى لون كانت صيحة الاسناذ ، حين ولدته امه ؟

وعاودت فتانا اللوثة القديمة : عندما أعتقل في عام ١٩٤٩ ، ورأى
هوان الانسان في السرايب السفلية ، وشاهد زميليه سالم وعونى ،
يشوه التعذيب جسميهما ، خرج من المعتقل بنفسخ الروح . تمثل له
الانسان حيوانا بربريا ، ضاربا كان أو مضروبا .

بربرية الضارب ، انهاش اللحم الانسانى ، كانت واضحة . كان
الوحش فيه هو الذى يفك بالضحية . بدائية المضروب تمثأت امامه في
أدبية شائهة ، مفتوة العينين ، مجزورة الرقبة ، مطحونة العظام .

غادر المعتقل ، وذهب يستذكر دروسه . امتحان اليسانس قريب .
وجد الكتب القانونية تشرع للجوع . وتفقه للظلم . تحرس ملكية ملاك
الوسية . تقدر استفلالهم للعاملن في وسايهم . التعليم اذن ، في هذا
المجتمع ، لا خير فيه . انتابته لوثة . قذف بالكتب . قرر الايقراها ، والا يكمل
دراسته ، لولا ان انقذه صديقه اسماعيل زعزوع .

هذه هى اللوثة تعود اليه . مرارتها اشد . القهر باتى هذه المرة
من القائمين على العلم . أخذته العزيمة الى تساؤله القديم : هل لابد
لاسبابه في تحرير شعب مصر من اقوى المستظلة القاهرة ، أن يصبح
دكتورا ؟ الاجابة واضحة . الدكتوراه لا اهمية لها في المعركة . التعليم
الذى كان حلم يومه وغده . اصبح كابوسا . اليس الاستاذ الدكتور الحداد
على قمة التعليم في بلده ؟

أنب نفسه تأنيا شديدا : كيف بترك هذا الرجل يفات من يديه .
الصدمة أحدثت عنده شللا . فتح الباب . انطلق خف الاستاذ . اراد
للحاق به . رغب في تصفية حسابه معه ، على مرأى من طلاب الجامعة ،

وأستاذتها ، وفراشيها . لسوء حظه . ولحسن حظ الأستاذ ، كان قد غادر الكلية .

عاد الى مكتب الأستاذ . كان قد ترك الرسالة فيه : حملها بين يديه ، كطفل عزيز عليه . أنفق خمس سنوات لتربيته ، والحدب عليه . ولده في إنجلترا . جاء به مرحاً لوطنه ، ليسهم في ائارة طريقته الى التنمية . وند طفله الحبيب بين يديه . العلم والسهر والكد : الذى أنفق فيه ، يذهب هباءً . ماذا يصنع بوليدته ؟ ابن يذهب به ؟ اغتيل في محراب العلم البرجوازي . ابن يدفنه ؟ ايقطعه ؟ انه جزء منه . كيف يقطع ذاته ؟

لم يذرف على وليده دمة واحدة . كانت مآقيه جديدة . تفتق ذهنه المكوم عن فكرة . وجد لوليدته مضجعا لبنا . وضعه في صندوق «الزبالة» . كان الصندوق امام غرفة الأستاذ . لعل « الزباين » يقرأونه . فيسهم في زيادة وعيهم ، وفي هذه الحالة يمكن للوليد ان يبلغ رسالته . « الزبالون » من الجماهير . وهو كتب الرسالة لتنوير الجماهير بمستفليهم ، وبالقوى الخارجية والداخلية انى تعوتهم عن التقدم . لهذا سيكونون اكثر حنوا على الوليد . قد يتزعزع في اوساطهم . ويسرى من تلك الاوساط الى النهر الجماهيري العريض . هنالك يكون الوليد قد وجد بيئة صالحة .

ذهب الى الشقة التى استأجرها مع صديق له . لم ينم . طفق يفكر في مصيره ومصير وليده . مصيره مشوش . لم يعد للدكتوراه بريقا . ليست سلاحا للنضال من اجل الانسان في مصر . اثرها قد يكون عكسيا . ربما تولد في الانسان شعورا « نخويا » ، يعزله عن الجماهير . فيصبح مغتربا منها . يتطلع الى مزابا ليست متاحة لها . لكن الرسالة الوليدة تمهه . نتاج فكرى يصعد به . يتمنى لو نما بين الناس ، وادى دورا في المعركة ضد التخلف . الكرى لم يداعب جفونه . أحس بصحوة عقلية : ما الذى دهك لتضع الرسالة في صندوق الزبالة ؟

في الصباح الباكر ذهب الى الكلية . فتح صندوق القمامة . لا شيء فيه . . اسف بعض الشيء . تخلص من الاسف . الزبالون لديهم قدرة على الانتقاء . يمتنون الزبالة تصنيفا علميا . بقايا المأكولات . يذف بها الشباعي ، مختلطة في فوضى . الزبالون الجوعى يفصلون بنود هذه البقايا بندا بندا . يريدون أن ينموا باكلات مرتبه « محترمة » ! ثم يحلون ببقايا الفاكهة ، أو بقشورها .

يمزلون ايضا الاوراق القذرة من النظيفة ، والمقطعة من الصحيحة . لكن يبيعوها للحلات : تلفت فيها السلع التي تباع للناس . لامراء في ان الرسالة الانيقة المكتوبة بالالة الكائبة ، التي تضم ستائة صفحة . سوف تتى معاملة خاصة . انهم سيقرونها . جوعهم ليس جوعا جوفيا فحسب ، ولكنه جوع عقلى كذلك .



عزل نفسه عن العالم . قبع في البيت لا يفادره . كان زميله في المسكن ، من ابناء « الذوات » السابقين . الدنيا لديه امرأة « وبطة » وسيارة . رأى حسن مغبرالوجه . سارع لنجدته . نكن حسن طلب منه أن يتركه . خرج من البيت ولم يعد .

حينما تتراكم المصائب على المرء ، فانها تنزل عليه ركابا كالجبال ، وتساقط عليه كسفا من السماء . لم نكتب له برندا منذ مدة . ماذا جرى ؟ حتى أنت يا برندا نكم اتوق لكلمة منك تواسيني . اين عينك السماويتان ، تخفدان اشجانى ؟ بسماكت انشيفية ، كان يمكن ان تشفينى . كانت خطابات صديقته ، اذا ما انسابت في مواعيدها . يبيض معها الليل . واذا انحسرت ، يسود معها النهار . ملهمة العقل ، ومنعشة القلب ، ليست معه تشد من ازره ، وتجل له الحياة .

المعاناة التي تعصف به هذه المرة عاتية . كانت معاناته من الجوع ، وهو تلميذ في المدرسة اثنانوية . معسولة . كان يتعامل معها ، بسرقة الخبز ، او بقاياها من مطعم المدرسة . لكن كيف يسرق العلم . واله العلم يقول له : « رسالتك لا تصلح » . كيف يسرق الحب . وآلهته بعيدة . تختفى في سموات لنسدن .

وبينما كان يجتر معاناته ، دق جرس الباب . ذهب ليفتح الباب . فوجيء بصديقة تأتي لزيارته لأول مرة .

— أهلا يا نواعم .

— أهلا بك .

تأدها الى الصالة . يوجد فيها ثلاثة كراسى خشبية . تمثل قاعة الجلوس . سألتها .

— كيف عرفت العنوان ؟

— هذه أسرار ، يا دكتور !

— شرفت .

— وهكذا تنسأنا ، ولا تزورنا ؟ عودتنا . وعودت اصديقاتك

ومعارفك على التواصل . ماذا جرى لك ؟

— امور كثيرة . لاداعي للخوض فيها .

كانت نواعم من اسرة فقيرة . حديثة العهد بانزواج . قطعمة من

الجمال البلدي الفاتر : الارداق اثنتان . الجسد الشرقي المملج .

السيقان الملقوفة ، كاتباع السكر . مقياس الجمال والاثونة عند المصريين .

كان حسن حديث التخرج في السادسة والعشرين ، عندما رآها ، خابا

لم يقرب النساء . صراعه الاجتماعي المرير . واستغراقه في دراسته ،

حالا دون أن يقتحم ميدان النساء . اشتهاها . ومالت اليه . لكنه تأبى

العلاقة معها . كانت متزوجة . لا يريد الاعتداء على حق احد .

لكنها الآن مطلقة . لم يعد لاحد حق عليها . ها هي تاتى اليك طائفة . لكننى احب براندا . لا اريد ان اشوه هذا الحب . اصبح لبراندا حق على . لكنك لم تتزوجها بعد . ولو ، العهد في القلب ، وهو عليه ضنين .

وجدت نواعم الا غائدة في الكلام . قامت ، وشمرت عن ساعديها وساقيها . تجلى مافيهما من انوثة واغراء . نظفت البيت . ورتبته . كانت في غدوها ورواحها ، يغدو معها الجنس ويروح . خسر نحيل . ارداف تقال . تراعى حينما تمشى . تصعد ، وتدور حينما تنثنى .

كان حسن مكسورا . مشروخ القلب والعقل . كيف ينعم بالجنس دون غفل وقاب ؟ منظر نواعم زاد من تمزقه . غادر الصالة ليذهب الى السرير . كان جسده منحللا ، انحلال روحه . اراد ان يوغر على نواعم الجهد المشكور ، والعرض المثير ! قتل لها :

— سألذهب الى السرير ، لاننى متعب .

وردت عليه :

— هل تريدنى ان ارحل ؟

— لا انت تؤنسبنى . لكننى منهوك . ارجو ان تسمحى لى بانتمدد

على السرير .

— تفضل .

بعد ان انتهت من مهمتها ، جاءت اليه . جلست على كرسى بعيدا عنه . دار بينهما حديث عادى . تلملت على الكرسى . جاءت لتجلس بجواره على السرير . كانت ودودة . لو جاءت في وقت مختلف ، لكان له معها شأن آخر . لكنها جاءت ، والخدمة تمور في داخله . لا يستطيع ان يستجيب لما في عينها . ولا لما يخلج به جسدها . تلتف معها بالقول . سألها عن احوالها . حالها ليست احسن من حاله . حينما بدأت تهرض

عذبه امورها ، اختفت . في الحال ، انظرة الناعسة . فرت الغريزة والجنس من الجسد الفائر !

عادت اليه بعد يومين . جاءت نابضة بالحياة . فواحة بالانوثة والموودة . فاجذته بسلة ملاهى باللحم . والخضار . والفاكهة . والسمن ، والبصل . ستمد له « غدوة » لاحظت في المرة السابقة الاشيء يؤكل .

أخذت تعد الطعام . ذهب حسن الى سريره . الازمة مازالت تجرش كيانه . كان يمكن ان فلسف صدمته مع الاسناد . اصيحت التماذج من هذا النوع مألوفة لديه . لكن تزامن هذه اللطمة . مع لظمة انقطاع رسائل الحبيبة ، او هن من مقاومته .

فكر في نواعم ، وهى في المطبخ . تجهد نفسها لارضائه . تهرض عذبه ابونتها . تدخل في وحدته القاتلة ، عنصرها جماليا ! كيف برضاها ل جسده انتزع منه أغنى ما فيه : العقل والقلب . كيف يستمتع ويمتع . وهو مسلوب من أسلحة الحب وانجنس نواعم ، نموذج جمالى . ينسق ومزاجه الانشقاقى .

وبرندا ؟ هل يمكن ان يكون لدى الكسير المكوم وفاء ؟ اجنث عقله وقلبه . ينبوعا الجمال والوفاء في الانسان . كيف يمكن ان يستمسك بالقيم العليا ل انوات التمسك بها خربت .

اهلت الانثى الخيرة . تحمل الطعام الشهى . كانت طباحة ماهرة . نعم معها بوجبة لذيدة لم يذقتها منذ عهد طويل . انتعشت اعضاء جسده . نواعم ، ترتدى قميص البيت « الخفيف » يبرز ما كان الفستان يخفيه .

وبعد ان انتهيا من الوجبة . قدمت له « الحلو » . اكل انحلو بنهم شديد . شاركته فيه بنهم اشد . كان انحلو خليعا غنيا : « الجلى » ، الموز الافريقى الكبير ، التفاح ، القشدة ! « الجلى » مستوع من الفراولة . غرس

فيه بلعنته . تذوقه ، سكره خفيف « على الريحه » . غاص عبقا . قد يكون السكر مترسبا في القاع . وجده « سكر مطبوط » . لم يبلغ مذاق « السكر الزيادة » . كان غياب العقل والقلب ، قد استل جانبا كبيرا مما في الحلو من مسكر !

الانزعال في الببت ، ليس سلاحا من اسلحة هذا المكامح . عانى ضربات قاصمات في حياته من قبل . لماذا يعتبر هذه الضربة الاخيرة . اتسى الضربات جميعا ؟ الا انه لم يتوقمها ؟ . الا انه جاء الى بلده بقلب مفتوح . يود ان يسهم في كفاحه ضد التخلف ، ثم يصدف في اعز ما أنتج فكره . وتقرحت من اجله عيناه ؟ ما هذا التناقض في مجتمعه ؟ ايمكن ان يناضل الشعب الاستعمار على مدى التاريخ . ويقانله في معركة مازالت ساخنة في القناة . وينزع الارض من الاقطاعيين . ويعطيها للفلاحين . ثم يأتي اسفاد بنافح عن الاستعمار والاقطاع . ويتنكر لمشاعر الناس في بلاده ؟

مهما كان الامر ، فقد وصل الى حل : الدكتوراة لم تعد تهمه . « الدكتوراة » لن يحرروا مصر . ستحررها جماهير واعية . وحتى اذا الحت عليه الدكتوراة لاتمامها ، لانه بذل فيها جهودا مضنية ، فليس من العسر ان يعيد كتابتها . ستأخذ منه سنة اخرى . ليس للسنين لديه حساب . ضاعت سنين عندما طرد من المدرسة الثانوية . لا بأس ان تضيع سنين اخرى ، من اجل الدكتوراة .

تعود دائما ان يستشير زملاءه في قضاياهم . قفز الى ذهنه عبد المجيد . انه الآن مدرس بكلية التجارة . لقيه عبد المجيد بابتسامته الشهيرة ، وبشوق واضح . سألته :

- متى عدت يا ابا على ، وماذا فعل الله بك ؟
- فعل الله بي خيرا . وفعل البعض بي شرا .
- الى متى سيظل الشر يلاحقك ؟

- الى ان نقضى عليه .
- هل هو الحب مرة اخرى ؟
- انت رائق دائما .
- اليس هذا اسلوبك ؟
- لكننا عدنا الى مصر . وانفنجيس هو القاعدة .
- الم ينصوك في لندن ؟
- بلى .
- هذا ما انت فالح فيه « البلا » !
- روى له حسن . ما حدث مع الاستاذ . الذى عين للاشراف على
الرسالة . استاء عبد المجيد :
- كيف ذلك ؟ انيس له ضمير ؟ وماذا فعلت ؟
- جئت اليك يا عبد المعين ! هذا الشخص يكره كرامة شديدة ،
ان تذكر امامه كلمات : الشعب - الفلاحون - العمال - الفقراء
يزعجه كثيرا ان تمس الراسمالية من بعيد او قريب . يفزعه ان تهاجم
الاستعمار . هل هو غنى ؟
- حك عبد المجيد صلغته . هم بالكلام . تردد ، ثم تكلم :
- الم تلاحظ ان اسم الرجل : سيد الحداد .
- اجلس .
- انت شاطر فقط في اجل وبلى ؟ ! . . . ابوه حداد فعلا . مهمته ان
يطرق انفوس والمحارث التى يستخدمها الفلاحون في الحقول . ثم نزع الى
الدينة . وفتح ورشة حدادة . يطرق فيها صفائح القمامة ، وسنابك الخيل !

— لكن الحدادة عمل يدوى شريف . وعنه في طرق الفنون والمحارث
عمل منتج .

— اتريد ان تتفلسف ، ام تريد ان ازودك بمعلومات عن هذا الرجل ؟
— اذن فهو ليس رأسماليا ، ولا أرستقراطيا . لماذا هذا الحب
للرأسمالية ؟ وهذا الكره للجماهير الشعبية . ؟
— هذه هي قصة أبيه . أما قصته هو : فهو متزوج من بنت أحد
الباشوات !

— من هو ؟

— لا . هذه معلومات نادرة . نمنها كبير . انها لانك « أبو على » .
سامنحها لك مجانا . هو سهر مرزوق باشا اليمهنورى .
— لكن هذا الرجل كان « بوستجيا » .

— لا يهم كثيرا ان يكون الشخص بوستجيا : أو جزمجيا . من الممكن
ان يرقوا الى مدارج الباشوية : اذا تطلبت مصلحة النظام ذلك .
— الدكتور اذن : انضم الى الطبقة المستغلة . وتحرر من حرفة
الحدادة . نسى ان الرجل الذى رباه ، وعلمه ، جاء من الفلاحين .
— بدأت الآن نستخلص المعانى التى تسعدك ، بعد ان امددتك
بالمعلومات .

— انت ينبوع للمعلومات والاحصاءات .

تبدي الشعاع الذكى ، الذى ينساب من عينى عبد المجيد : وخاصة
حينها يضرب الى الحوار جديدا :

— وفي اعتقادى ان هناك سببا آخر قويا : لرفضه لرسالتك . لقد
درس للدكتوراة في لندن . قدم رسالته للجنة المناقشة . رفضتها . اعادتها
اليه ليكتبها من جديد .

— تماما . كما صنع معنى . لكن لماذا فعل ذلك ؟ اهي عملية انتقام ؟
لكننى لم اسبب له ضررا .

تمطى عبد المجيد في كرسية الخشبى . الذى يشبه الكراسى فى انتهاوى
البلدى ، فقد كان مدرسا مستجدا بالكلية . واجاب متمعضا من الكرسى :

— يجب ان تدرس علم النفس . الانسان مخلوق غريب . قد يكون
ذلك انتقاما منك . ينتقم منك لنفسه ، ولو لم تسيء اليه . لماذا برفضون
رسالته فى لندن ، ولا ترفض رسالتك انت كذلك ؟ اضطروه ان يدرس سنة
اخرى كاملة ، ليعيد كتابة رسالته . ان نفسية بعض الناس معقدة . نفع
سما زعانا . واؤكد لك انه سعيد ، اذ يتحكم فيك كما تحكموا فيه من قبل .
— هل يمكن ان تكون نفسية استاذ يعلم الاجيال مريضة لهذه الدرجة ؟!

— لم لا . وما الاستاذ ؟ انه نتاج بيئة معينة ، تنعكس عليه كل
موبقاتها .

— النفوس لا تنضح بمثل هذا القذى ، الا فى المجتمع الفردى الذى
يفترس فيه الانسان اخاه الانسان . اليس فرويد ، ومبرسنه فى التحليل
الفنسى ، من اشرس المدارس ابرازا لفردية الانسان ؟ وبهذا تعتبر اصلا
فلسفيا من اصول انتظام الراسمالى .

— انت انتهازى ! تفيد من تحليلى لنهاجم النظام الراسمالى . وانا
الآن احلل لك مصيبتك فحسب !

هذا التحليل ، الذى امله به عبد المجيد ، خفف جانبا من ازمته . لم
يشأ ان يتناول الجانب الآخر — جانب انطب . كان عبد المجيد فى لندن .
معارضاً للزواج من برندا . لا يريد ان يشكوها اليه . سوف يذكره بوجهة
نظره . وهو صعبدى سيثار منه ، لانه لم يستمع لكلامه !

اسهم عبد المجيد ونواعم فى تفتيت الازمة ، كل حسب قدراته ! تيقن
حسن ان الاتمان مهما كان صلبا ، فهو فى حاجة الى الجماعة . ودون

الجماعة مصيره التفتيح والهلاك . تكشف حسن مرة أخرى ، أن سيد الحداد ، نمط التقى به من قبل . « انكور » الذى كان أبوه ينفخ النار به ؛ شوه أصابع الاب . شرر النار غشى بصره . واحرق جلده . لكن النار لم تظهر ضمير الابن ووجدانه . لم نجعله ينتصر للحدادين والفلاحين والعمال . انار انتى شوت وجه الاب ويديه ؛ شوهت عقل الابن . ومسخت تطلعاته . احرقت الانسان فيه . لا يهمه ان نستغل الجواهر الذين نشأ أبوه بينهم .

أخذ حسن يتخفف من الصدمة العلمية . لكن مضى شهران طويلان دون خطاب من صديقه . كانت تكتب كل اسبوع . معركته مع الاستاذ معركة مباشرة . يراه ، ويعانى من سخائه . لكن موضوع الحب ليس في متناول يده . هى بعيدة كأنها في كوكب آخر . جراح القلب لا يدخل علاجها في اختصاصه . الكفاح ضد النزالات الاجتماعية امر سهل . الموضوع الذى يمكن للمقل أن يسهم فيه ؛ يمكن حله . اما الحب فله طرفان — لا يمكن لطرف واحد أن يقضى فيه .



انصاع حسن لرأى الدكتور الدكتاتور ! افترض ان الجامعة ومسبة علمية ، كما كانت عندما كان طالبا في كنية الحقوق . كانت الوسية العلمية ، حينئذ ، فيها عميد مترف ، مفاهم نهاما مع حرس الوسية السرى . وفيها فراشون ، يرتص أحدهم فرحا بنصف قرش ، اعطته الدولة له علاوة ! يضاف الى المائة وخمسين قرشا . مرتبه الشهرى . المرتب الذى يعول به خمسة عشر فردا !

الدكتور الحداد ؛ اضاف الى الوسية العلمية بعدا جديدا : فاشية العلم ! يسيطر على المجال العلمى سيطرة كاملة . يملك قسم الاقتصاد بالكلية وكانه ملكية خاصة . يتصرف فيه ، وفي الرعايا ، انذين يتعلمون

به ، كما يتصرف في أملاكه ، ورميقه . تماما كالخواجة الاقطاعى صاحب الوسية . بل ان الخواجة كان رغيفا بكلابه وخيوله . يطعمها الحمام . والسكر . لكن سوء حظ الاستاذ انه لم يكن في وسيله حيوانات . كانوا كلهم بشرا !

على ان ابشع ما في ملكية هذا الرجل فاشينه . هذه هى الصفة التى يضيفها الى ملامح الوسية . لا معقب على حكمه ، ولا راد لقضائه . كان حسن يعتقد ان العلم لاينمو الا في جو من الحرية والديمقراطية . كيف يمكن للباحث العلمى ان يفكر وينتج . ويعطى قلعاً من تريحته نسهم في تقدم مجتمعه ، وبشترك في خلق مجتمع أفضل . كيف يمكنه ذلك ، والقهر يسحقه . وسيف الدكتور العلمى مسلط على عنقه ؟ وتساءل : هل هذه الفاشية العلمية ، تراث جامعى ، ام انها ظاهرة جديدة ؟ هل هذا التدهور العلمى الذى يلحظه ، اثر من آثار ذلك القهر ؟ لقد شاهد من قبل اسانذة احرارا وديمقراطيين في جامعة الاسكندرية . وشهد اسانذة انجليزا احرارا في انجلترا . بعضهم رفض الاشراف على رسالته . ولكنهم حاوروه في ديمقراطية .

انصاع حسن الى رأى الدكتور . وبدأ يعيد كتابة الرسالة . قدم له خطة جديدة . مضى الى ابعد من هذا . اختار عنوانا للرسالة لا يثيره : « دور رؤوس الاموال الاجنبية في الدول المتخلفة - مع دراسة خاصة بمصر » ! كان اختيارا ذكيا .

لم يرد لجهوده ان تذهب هباء . تنفق ذهنه عن هذا الحل « السعيد » : يمكننى ان اكتب انكارى بأسلوب آخر ، وتحت عناوين اخرى ! فما هو الاستثمار ، على اية حال ؟ شركات اجنبية ، تعمل في الدول المتخلفة . نختار هى النشاط ، بحكم قدرتها الاقتصادية والسياسية . تستغل المواد الاولية في تلك البلاد . تصدرها الى بلادها . تغذى المستهلكين هناك بسلع زهيدة الثمن . تمد الصناعة بمواد اولية رخيصة ، تؤدى ائى ازدهارها . تستنزف

موارد المستعمرة ، وتمتدق من تخلفها . تصدر للدول الفقيرة سلعا مصنوعة غالية . ترهق المسهلين الفقراء . نوئد صناعانهم . تغيير عنوان الرسالة اذن ، لا ينال من الموضوع . الذى أريد أن اوصنه للناس .

الاقطاع ، او الملكية الكبيرة للارض ، والراسمالية المحلية ، حايفان لتلك الشركات . يمكن أن توجد صياغة لهما ، لا تهيج هذا الاستاذ ، انذى يفكرنى بالتيران الاسبانية ، تهيجها اترابة الحمراء ! النى يحملها مصارعو الثيران !

كتب خطة الرسالة ، طبقالهذا المنهج . فرح بها الاستاذ . بلع الطعم . لم يقرأ فى عناوينها كلمات : « الاستعمار ، والاقطاع ، والراسمالية » !

على الرغم من سعادة حسن بهذا الحل ، الا ان اتلاعب فى الصياغات العملية يقلل من جوائها . شعر بان أى قيد على العلم يشوه جوهره ، ويسخ نتائجها . ومع ذلك حاول . كانت محاولة شاقة . عانى خلالها عناء بالغا . عناء يقتحم اغنى ما لديه : عقله ، واشرف ما يملكه : وجدانه .

افلح فى ان يبقى على عقله . ان يتمزق . نجح فى الصياغة الجديدة الى حد ما : الموارد الاقتصادية النى تمتلكها الطبقة الراسمالية . وانتبذ الذى تعرض له . وحرمان الاقتصاد المتخلف من اسخدامها فى تصنيعه . وضع هذه المسائل تحت بند : « موارد الاقتصاد القومى . ومدخراته الضائعة » !

كان عليه ، ان يصيغ العلم صياغة دبلوماسية ! تعيس ذلك العلم ، اذ يخضع للمساومات ! كان الاستاذ قد اشار عليه ان يفرد من الكتاب الذى وضعه فى اتجارة الخارجية . الرجل فردى . يعشق ذاته . يعتبر ان مؤلفه هذا ، لا يعادله مرجع لا فى مصر ولا خارجها . والحق انه مفيد . لكنه كتب لطلاب السنة الثانية ، فى مرحلة الليسانس . وليس مرجعا لدراسة الدكتوراه . يعرض للتجارة فى الفكر الراسمالى فحسب . تنطبق نظرياته

— اذا انطبقت على الاطلاق — بين الدول الصناعية المتقدمة . ولا قيمة لها في العلاقة بين الاقتصاد المتقدم والمتخلف .

قل ان يرضى غرور الاستاذ . العاشقون لذواتهم ، يمكن استفلالهم ، والضدك على ذقونهم بسهولة ! كلمة تقال اطراء لهم ، او جملة تقتبس من كتبهم ، تفرحهم ، وتنفع في اوداجهم . لا بأس من استخدام هذا السلاح . كان عليه ان يستخدم اسنحة كثيرة ، شديدة النوع ، للتعامل مع الانماط البشرية في مجتمع الوسية . تقبل الاستاذ هذا الاسلوب . كان سعيدا به . قال عنه : هكذا المعلم !

على ان حسن لم يستطيع ان يسيطر تماما على هذا الاسلوب . اظهر كيف خربت الاستثمارات الاجنبية البلاد المتخلفة . وكيف عمقت تخلفها وافلست مصر بسببها ، واعذدى على سيادتها . كان التحليل قويا ، مدعما بالارقام . تلمل الاستاذ وهو يقرأ . لحسن الحظ ، لم يرفض هذه الفصول . وهكذا قاست الرسالة مخاضا طويلا منهاكا .

* * *

أعدت له مضجعا قهريا . كانت تسكن دنا شمبيا . تفوح منه نكهة مصر . حاراته ضيقة ، متربة احيانا ، زلقة احيانا اخرى . مباتيه شابة . تنخر فيها الرطوبة والبلى . ظلمة تخترق سجفها في رفق اشسعة القمر . مستوى اجتماعى : يرين على شعب طال صبره . وطال استعداده لمركة التحرر . كان الجو كله ، بروائحه ، وظلمنه وقمره ، ومستواه : مثيرا : مثيرا للشعر حينما يرى القمر ، ومثيرا للاسى ، والامل ، حين يفكر في المستوى الاجتماعى .

كانت نواعم تسكن أعلى البيت ، في « السطوح » . ومع ذلك ، لم تكن من « الجماعة اللى غوى » . مع انها فوتهم ! اتفقت معه على ان يأتى في وقت ، يكون الحى الشعبى قد هجع الى اوكاره . السطوح محاطة بسور مرتفع . له باب خاص : تركته له مفتوحا . حتى لا يقرعه ، ويهتك الصمت . مر من الباب كالنسيمة . اغلقه خلفه . في الركن البعيد من « السطوح » شهد مضجعا ، يتللا في ضوء القمر . استقبلته مضطجعة . تمودت ان تستقبله بالوقوف . والاحترام . لكنها نرحب به الآن بطريقة أكثر احتراما ! كانت مستلقية على الفراش ، كما استلقت من قبلها امها حواء . تتدثر بغلالة ، مغزولة من شعاعات القمر . لاول مرة يرى ثوبا قمريا . تلبسه انثى بشرية ! حينما يمتزج لجين القمر بلجين الجسد الانثوى : تمتزج السماء بالارض . ويصعد البشر الى السماء . وتهبط الملائكة الى الارض !

هذا الملاك المتدثر بفضة القمر : كان بشريا صارخا . لم يات من الفردوس ، كما أنت حواء . لم تخصف على جسدها ورقما . المشهد لاول وهلة ، مذعل . هو ذواقة الفنون الجميلة . لكنه لم ير في متاحف الفن التى زارها ، على عرض اوربلكلها : لوحة بهذه الروعة . ولا تبنالا بهذا التكوين . ولا مزجا للالوان بمثل هذه القدرة . كيف يمكن لفتاة تكاد تكون امية ، ان تحظى بهذا الخيال ، وبهذه الموهبة الفنية المعجزة ؟ !

كان كلما اقترب منها ، يتسربل بشعاعات القمر ، دون ان يدرى ! وقف يتأهبا . تركته . ارادت لعنيه ان تغزوا جسدها ، قبل ان يغزوها . تحركت لتدارى بساتها — في حياء ! — ما كشف عنه القمر . لاحظت انه يرتدى هو ايضا حلة قمرية . كانت حلة عنبرية ! امتزج العنبر بالفضة . انارت الشعاعات الحانية له دربه . دربه الودود المضياف . جدرانته فرشت بالطنانيس والحشايا . وضمخت بالمسك . جلس خلال الحشايا ، ليشق طريقه الى الخلود .

نهضت نواعم ، يغسل جسدها نور القمر . تود أن تتخيه . تعلم انه
قضى عمره جائعا . تعرف حياته الشاقة . كانت خيرة فنانة . دعته الى
دنياها : ودنيا الناس كلها . استجاب كسير العقل والقلب : استجابة آلية .
ظلت تثلبر معه . بدأت ارادته تشترك ، وأصابه ننفص وتندغدغ .

أصرت على أن نظل مرتدية قميص القمر . احضرت الطعام . اكل اكلا
لما . ذهب الى الحمام . خرج منه كما دخله ! استلقى على الحشايا . جاءت
بالراديو . كان القمر بدرا . الاذاعة المصرية تتعاون مع العشاق في الليالى
القمرية ! تهيب لهم جوا شاعريا . أم كلثوم تغنى : « هلت ليالى القمر » !
وعلى الصوت الذهبى ، واشعة القمر الفضية ، والورد المتجر من نهديها ،
عاش الليل كله . ومثل للشمس « نعال بعد سنة » ! سلم نفسه لها ، نصنع
به ما تريد . وجد نفسه في أيد فنانة أمينة !



ذهب الى بيته . نام كالابل ، حتى انتصف النهار . هل يمكن فصل
الجسد عن القلب ؟ يحب فتاة بكل جوارحه . ويميل الى أخرى بجسده !
أن حبه لبرندا ، لم تقل منه هذه المنعة ، التي يشيب لها الولدان . التذكريات
تضغط عليه . القلب يرف . يحوم حول حبه . لا يبقى له بديلا . الخطابات
منقطعة . مازال يكتب كل يوم . زميله على حسن : يدرس الدكتوراه في
الادب بلندن . جاء في اجازة الى مصر . حدثه عن ازمته . تطوع على بحمل
رسالة اليها ، وأن ينقل لها صورة حية عن حاله :

— أنا واثق انها ستكتب ، قد يكون لديها اعداء لا نعرفها .

تعلق بزميله على ، كانه يتعلق بقشة تنخبط بين الامواج . كتب
الخطاب بقطرات من قلبه . قال لها : انه مصمم على العهد الذى قطعه .
وانه ما كان يدري ان نوعها العالى من بنى الانسان ، يمكن ان يكون ناسى

القلب الى درجة القتل . وان رسالته تمعر . كيف يواجه آلهة العلم الفاشية .
ينلب . حطم ، وعقل بمعثر ؟

سافر على . ذهب لزيارتها . سلمها خطابه . قص عليها ما رأى
وسمع .

جاء خطاب من على . احيا فيه الامل الميت قال له :

— لقد تأثرت كثيرا بالصورة التي نقلتها اليها . واسفت غاية الاسف
على تقصيرها . وستكتب لك حالا . وبعد اسبوع من خطاب على ، جاء
خطابها . ساعى البريد ، الذي ارهته يوميا بسؤاله ، عرف خطها . جاءه
بالخطاب بنفسه . قبل ان يفتحه نفحه جذبا .

« اعز اعزائى حسن »

وجف قلبه « اعز اعزائى حسن » ؟ ! هذه عبارة ، تصور درجة ادنى
من العلاقة . كانت دائها تخاطبه « حبيبي حسن » . هؤلاء الناس صرخاء .
لا يجاملون ، ولا يكذبون . القطيعة اذن حقيقية ومقصودة . حدث تحول في
شعورها نحوه . هوى من « حبيب » الى « اعز عزيز » . وسينتهى الى
« عزيز » فحسب ، ككل الاعزاء .

اظلمت الدنيا . لكنه استطاع بصعوبة ان يقرأ الخطاب :

انا آسفة اذ انقطع عن الكتابة كل هذه المدة . كنت في حال بائسة ،
لا تزل عن حالك . عندما عدت الى القاهرة ، هبت على رياح هوج . والدى ،
اذا تعلم شعوره ضد عبد الناصر . فهو محافظ ، يمتد ان عبد الناصر
يفترس أموال الانجليز . وبصادر ملكياتهم ، ويؤمها . وانت تعرف كراهية
المحافظين للتأميم . فهم اصل الرأسمالية في انجلترا . ويقول ان عبد الناصر
والمصريين من خلفه ، يكرهون الاجانب . ويطردونهم من مصر ، ويهاملونهم
،وحشية .

وقد اشتركت الجرائد المحافظة هنا في تشويه سمعة مصر ، وعبد الناصر . لدى الرأي العام الانجليزى .

ومن ناحية اخرى ، ابوى ، تقدم بهما العبر . وانا وحيدتهما . ولا يودان أن يفترقا عنى . هذا شعور انسانى ، لا يستطيع اغفاله . وصديقتانى ، لم يتحمسن لسفرى لمصر . وزواجى منك . فهم يحبوننى واحبهم . ودراسة الفنون التى تعتبر انت ملهمها ، عزيزة على . وامامى للانتهاء منها سنتان . خفت عليها من اصرارك المفاجىء على الزواج .

لقد احببتك حبا ، سيظل فى قلبى حتى اموت . وسوف اذكر دائما بفخار وشرف ، اننى كنت حبيبة انسان عظيم .

ان قلبى يقطر دما ، ونفسى تتمزق شعاعا : اذ اقول لك هذه الكلمات : انت انسان مناضل . وستكون استاذا فى الجامعة . وستجد من بنات يادك من يلبق بك ، وبفمسك ، العالمة : وقلبك الكبير . ستقف معك لتحقيق طموحاتك كلها . وبصفة خاصة ، طموحك للاسهام فى خلق مجتمع افضل فى بلادك . ارجو ان تمنى بنفسك من اجلنا . اننى ادعو لك ، وانتمنى الاتنسائى . . المخلصة برندا .

لم تتجاه الفترة الاخيرة بعد ، قراها والدموع فى مآقيه . لم بر حروفها جيدا . لكن انذى امسك بعينيه مباشرة هو توقعها . كانت توقع باسمها . ثم تطرزه بتقبلات ترسمها هكذا : x x x x x x . واحضان تعبير عنها فى دوائر : ٥٥٥٥٥٥ . كان كل خطاب يزداد فيه عدد القبلات والاحضان عن سابقه . هذا الخطاب لا قبل فيه ، ولا احضان . كان اختفاء هذه الرموز كافيا لنسخته الفاجعة .

كان ينظر الى الفاجعات الاجتماعية ، التى حاقت به . طوال حياته . وكنها مباراة رياضية . تلكه الفاجعة . يترنح الى الارض . لكنهما لا م ١٥ !الوارثون

نصرعه . لم تكن الضربة قاضية . يستوعب عناءها كله . ويسرى عذابها مع المسائل الذى يجرى فى عروقه . ولكن : ما ان يذهب اثر اللكمة : حتى يتف على قدميه . يصطرع مع المجتمع من جديد .

لكن فاجعته فى الحب ، يتبدى عجزه انعام امامها . فى ميدان العقل ، وفى ميدان النزال الاجتماعى ، لديه اسلحة . نكنه فى مجال القلب . منزوع السلاح . انه لا يدري اين تربض قوى العاطفة ، ليواجهها . فى اى مكان تختبئ : فى القلب . فى العقل . فى الروح . فى الاعصاب . . فى الكون ؟ !

حينها تباطات رسائل محبوبته ، وحيما توقفت . تشبث باعذار ، وآمال . كانت واهنة . غير انها عاونته على ان يعيرش بنصف قلب . اسهم نصف قلبه فى ان ينحمل جاهلية الدكتور العلمى . اعاد كتابة جزء من الرسالة بنصف عقل . وجاء خطابها اخيرا . كان ينتظره . ليعيد له النصف الآخر من قلبه . ويكمل له عقله . فاذا به يسحق القلب والعقل جميعا .

لم تكن اللطمة العانية ، متصورا اثرها : على خيانة العهد . او غدر حبيبة بحبيبها . القصص فى هذا المجال كثيرة . يعانى منها المحبون فى كل زمان ومكان . لكنها صدمت فتانا فى اعلى مخلوق لديه . كسان حتى الآن يتمسقه . هو الانسان . برندا جسمت له الانسان ، الذى تخيله ، ويتشوق لوجوده . ليست التبعثية فى جمالها الجسدى . لكن كانت فيها كائنات . اسكن الله وجدانها ، ومضة الحب للبشرية . واودعه عاطفة . تربطها بالانسان ، الذى يعانى من القهر والاستغلال . ايا كان لونه وجنسه ودينه .

هل هذا القلب ، تبلغ به القسوة ، فيطمئن قلبا يحبه . ويشاركه حبه للانسانية ؟ لقد كتب لها بصرحة لا تقبل تاويلا . انها اذا هجرته ، فستهمز فكرة الانسان فى وجدانه . وهى بذلك تحقق اغنى فكرة . تجعله يستمسك بالحياة . . اذا انعدمت ثقته فى تحرير الانسان ، لم يعد لبقائه فى الدنيا معنى .

واقفه الازمة بين السماء والارض . اصبح لا وزن له . جاءت نواعم .
حاولت انتشاره من حالته دون جدوى . لا الليالى القمرية ، ولا الثوب
القمرى ، عاونتها في ان يستجيب لدعائها . عندها وجدته عازفا عن الحديث
اليها . اقترحت ان تمد له الطعام . رفض * انسحبت من البيت طمينة .
سلاحاها الرئيسيان مغلولان : الجنس والطعام .

وجاء النجدى ، زميل السكنى . وجده في السرير :

— مالك يا بنى ؟

— لا شيء .

— نفس الاجابة ، التى هربت منك من اجلها .

—

— الم تلك خطابات ؟

كان النجدى . على علم بمسألة الخطابات . اسهم في احضار بعضها .

— جاء خطاب .

— طيب يا اخى . لماذا لا تقرح به « وتهيص » ؟

— ليه ما جاء .

— لماذا ؟

كانت في النجدى رجولة وشهامة . فطن الى النغمة الحزينة
المستضمنة . تعاطف معه .

— احك لى . بيننا عيش وملح ، وقربى : وماوى .

ناوله الخطاب تاللا :

— هذا خطابها . خذها واقراه .

— لا يا عم : اولاً ، فيه أسرار حبك . ثانياً . مكتوب بالانجليزية .

— انت تعرف الانجليزية .

— أعرف « الإنجليزي البادى » ! انما هذه اللغة بين المثمنين ، أمثالكم .
لم أرفع اليها .

— لا تهزل .

— أنا أجد . دعنا نطلع عن النظار في كل شيء : نظهار بالفنى .
وبالاستقرائية وبالعلم . أصبحنا شعبا . ليس لديه غير المظاهر التافهة .
لا يستند على اصول قوية ، ينطلق منها الى حضارة أعلى .

— يا ولد ! هل هذا كلام يقوله احد أبناء الاسر الاستقرائية ؟

— موضوع « الاسر » الاستقرائية ، موضوع مظهرى . قال به
آباؤنا وأجدادنا . كانوا جهلة كما تعلم . ورثوا هذا الميراث التافه . هذا
الرجل من أسرة . وهذا ليس من أسرة . تركه لنا المستعمرون والحكام :
من الانراك والانجليز .

لم يكن عهد حسن بالنجدى انه عميق الفكر . الفه لا حديث له غير
النساء والنكت . أيقظت هذه المعانى حسن . جعلته يرهف السمع . وأرتفع
صوت النجدى :

— خذ اقرا الخطاب . وترجمه .

ترجم حسن الخطاب له . استمع له النجدى . أصفى جيدا للأسباب
التي ذكرتها في خطابها ، ومنعتها من الكتابة ، وتمنعها من مواصلة الحب .
والحضور لمصر للزواج . كان النجدى قد عركته الحياة : عمل في مزرعة
والدد ، واشتغل بالتجارة ، والسياحة : والفنادق وغيرها . أحس بعمق
أزمة صديقه . وجد ان علاجها بالتخفيف المبالغ فيه لا يجدى . أخذ يترب
منها اقترب المعلم : رويدا — رويدا . . بدأ بأمر . يدل على براعة كبيرة .
بدأ بالخطاب . تحسس طريقه الى سطره . قال :

— الفتاة تحبك حبا قويا !

واكمل حسن :

— حبا قويا ، لدرجة القتل !

— لا . حباليس فيه قتل على الاطلاق .

رضى حسن رضاء باطنيا ، بهذا البدء الجميل . وتال في سره : توالك
الله ياتجدى . انجدى بربك !

استجاب النجدي لضراعة صديقه المرئية ، غير المسموعة .

— لا اود ان اطيل عليك

قاطعه حسن :

— لا .. اطسل !

— الحمد لله : اصبح حديثى مرغوبا فيه . . .

وواصل القول :

— عبارات الحب المباشرة واضحة . اعترفت لك بانها لم تحب . ولن
نحب انسانا يمثل هذه الدرجة من الحب .

ثم تسال الى الاسباب التى ذكرتها ، لعدم الكتابة . والصعوبات التى
جابهتها بعد رحيله :

— لناخذ هذه الاسباب التى مجتمك واحدا بعد الآخر : نقول لك انها

وحيدة امها وابيها ، وانهما بخشيان عليها من هذا البلد البعيد . وهى سفيرة
السن لا تجربة لها .

ورجع النجدي الى تخففه فقال :

— . . . وانت عجوز !

قاطعه حسن :

— اختشى يا وند !

ضحك النجدي ، وابتمس حسن ، ومضى الاول :

— البست خشيتهما عليها منطية ومعقولة ؟ هذا البلاد البعيد هو
مصر — مصر التي حاربتم في معركة القناة ، وافشلت اعتداءهم ..
سكت النجدي لحظة . ثم استأنف :

— لا تقل لى ان الجماهير الانجليزية : تطاهرت ضد حكومتها ، وانتصرت
لمصر . كان هؤلاء هم الطلبة والعمال ، والمثقفون ، والشيوخوعيون . انما
انحدث عن ابيها المحافظ . يكره عبد الناصر . الرجل الذى يحطم صور
الامبراطورية ، ويخطف القناة ، والشركات الانجليزية والاجنبية .

نقول لك ، ان الجرائد تدعى كراهية عبد الناصر — الذى هو مصر فى
نظرهم — للاجانب . يضطهدهم . وبصادر اموالهم : ويطردهم من البلاد .
بريك تذل انك فى مكانه . الم تكن تشعر بنفس شعوره : وتبرر سلوك
برندا ، وتردها فى ان تتزوجك ؟

سكت حسن . انجدي لم يدعه . رفع صوته :

— انا اسالك . لابد ان تجيب .

— ماذا اتول ؟ كلامك معقول . لكن الحب .

— الحب علاقة بين بشر . وليس بين ملائكة ، او بين طرفين : احدهما
انسان والاخرى ملاك . كما يقولون فى قصائد الشعر ، والقصص الرومانسى .

وجد النجدي بلماحيته : ان حسن بدأ يستمع . ويتفتح بما يسمع .
انتبه الفرصة وادلى كاملا بدلوه .

— قل لى يا حسن : هل تطمنن انت نفسك — وانت كما يقال عنك .
متقف ثورى — الى مستقبلك وحررتك . ومستقبل بلدك ، وحرره الحقيقى ؟

تردد حسن . لم يجب . اكتفى النجدي بترده . وانطلق :

— فى بك بمسك فرد واحد بمصريه . وتلاعب فى اصابعه الخيوط .
التي تمسك برقاب الملايين . يحركها كيفما شاء . لا احد يضمن الا تنتطح
الخيوط . وتهوى الملايين الى الهاوية .

كان النجدى متعلما تعليما متوسطا * لكن ثقافته السياسية . وتجاربه في ميدان السياسة والتجارة والزراعة اكسبته نظرة تحليلية عميقة ؛ لشئون المجتمع . دخل معارك سياسية في انتخابات المجالس النيابية على المستوى المحلى والوطني . كما فعل ذلك ابوه وجده .

وعلى الرغم من ان حسن لم يوافق صراحة ، الا ان النجدى استنتج رضاه انضمنى على تحليله . وخاصة فهو يبرر سلوك برندا . وعاد النجدى للحديث .

— هى كذلك لا تريد ان تترك والديها ، وصديقاتها ؛ أليس هذا معنى انسانيًا ، يهز أى انسان ؟

— وانما ؟

كانت اجابة النجدى غير متوقعة :

— انها لم تتركك ! ولم تتخل عنك ؛ كما تقول .

قفز حسن من السرير ، وامسك بالوجدى .

— بريك اين قرأت هذا الكلام ؟

— انت الذى ترجمته لى ! . . . دعنى انهى أولا من الاسباب التى

هىء لك ، انها ترفضك من اجلها .

— تفضل .

الآن انت مؤدب معى !

— اعذرنى . لم اكن اعلم انك بهذا العمق . ايكون هذا لانه ميدانك

المفضل ؟ ! ضحكا : ضحكة عالية من جانب النجدى ، وخفيضة من جانب حسن ؛ على غير عادته . انما كانت اول ضحكة منذ جاء الخطاب .

— تقول انها تريد ان تكمل دراسة الفنون الجبيلة . السميت انت ملهمها ؟

— أجل .

— اجل ؟ اذن لماذا تتعجل حضورها با تيس ؟ !

ضحكة اخرى . ومع كل ضحكة يتناثر جزء من الازمة . سسمد النجدى ، اذ وجده يضحك . أوغل في اظهار قدرانه :

— وتقول لى يا دكتور ، انك تجيد الانجليزية . فانتك نقطة هلمة جدا . انها تقول لك فى خطابها ، خد بالك من نفسك . « من أجلنا » . لم تقل من أجلى ومن أجلك . نقول « من أجلنا » يا استاذ الاقتصاد !

شهق حسن ، شهقة فرح ودهشة . هذا التخريج لا يصدر الا من انسان متمكن ، وقال له :

— يخرب عقلك ، يا ولد . يا نجدى ! من اين لك كل هذه الدقة . والعمق ، والتخيل .

— ارايت ؟ المسألة ليست مسألة شهادات ودكتوراهات !

ضمت الحياة على هذه الوتيرة سنتين ، حتى نال الدكتوراة . انقطع عن الكتابة اليها . لكن تشجيع النجدى ، دفعه لان يكتب خطابا اخرًا . اقترح عليها ان تحضر فى صيف العام القادم . لنهى الاجازة فى مصر . ولنرى بعينها كل شىء . وتقرر ما يحلو لهما .

* * *

قضى الاسبوع التالى لحصوله على الدكتوراة فى خدر لذيد . آثر ان يكون وحيدا . ساعده على ذلك ان انجدى كان كثير الاسفار . وان نواعم عادت الى زوجها . اصبحت حراما عليه . امضى راحة كسولة . كان فى حاجة اليها ، بعد المجهود المضى ، الذى بذله سنوات طوالا .

كان ممتددا ، مع شطحاته فى سريره . جرس الباب يدق دقا متواصلا . رنين قوى ، فيه نرفزة واصرار . فتح الباب . كان الطارق الحاج احمد

ابراهيم - قريبه . زميله في مدرسة كفر مستر الابتدائية . الذى رهن طربوشه نظير ما يمين ليقيم له نجلا « ورورا » ! وهو ايضا رفيقه في مدرسة الزقازيق الثانوية ، الذى تعلم منه سرقة بقايا الخبز من مطعم المدرسة . لكى يتبلغوا بها في الاططار والعشاء . كان حسن يزوره في عزبته دائما . ويتطرحان ذكريات العبا . ويطلقان ضحكات تفرح على الترفة ، عندما يتخطران على شاطئها .

كان به وفاء فريد . لم ينقطع عن زيارته في أزمته . وفي انطلاقة . وكان رشيقا فارعا ، حلو الملامح . عيناه هذه المرة ذمغ بمعنى بهج . وكان حاد الذكاء يعلم قصة الحب كلها ، من اولها لآخرها . وراى فرحة حسن عندما يأتى خطاب منها . وبأساءه عندما تنقطع خطاباتها . بادره الحاج احمد قائلا :

— ايه ده . انت نائم في عز النهار . « أه الرواقه دي » ؟

دخل الحاج احمد . ورجاه حسن ، أن يأتى الى غرفة النوم فهو متمب . الفرحة تكاد تنطق على لسان الحاج احمد . لكنه كان قديرا في السيطرة على لسانه . انها الفرحة تشرق في وجهه . ويحاول أن يخفيها . فهو تاجر عصامى . بنى نفسه ، من ولد صغير سبى لتاجر غلال في الارياف ، الى تاجر كبير للقطن . وعزبة وحدائق واعناب ! كان وهو يتعامل مع الناس ، يفرح بالصفحة ، ولكن يظهر على وجهه عدم رضائه بها . وهو الآن يباشر هذا الفن على حسن . تكن هناك قارقا . فحسن قربه ومصديق عزيز عليه . وهذه ليست صفقة تجارية .

قال الحاج احمد لحسن :

— اعطنى خمسين جنبها .

— خمسين جنبها ؟ من أين باحاج ؟ لست صاحب عزبة مثلك .

— انت حر . لدى موضوع . قيمته في نفرك ، الوف الجنيهات .

- انت تعلم الحال . تل عشرة جنيهات .
— طيب . من اجل خاطرک ، ولانى احبک . هات عشرة جنيهات .
— ليس معى الآن .
— طلع من تحت ابلاطة !
— تل لى اولاً : لماذا ؟
— لا يا حلو . ان نم تدفع العشرة جنيهات ، سائر معها ثانية الى
خمسین .
— خذ العشرة ، والامر لله .
— طلب آخر . تعزمنى على العشاء ، فى كازينو الحمام .
— من اجل امر لا اعرفه . هل عينونى مدرسا فى جامعة اسبوت ؟
— مدرس ايه ، واستاذ ايه .
وضع الحاج احمد يده فى جيب تفتطانه الداخلى . كان يلبس ملابس
بلدية فاخرة اتيقة . واخرج خطابا .
ضرب قلبه جدار صدره . يريد ان يقفز خارجه . ترقرت دمه فى
محجريد . ستارة نؤلؤبة شفينة ، تعرف من خلالها على خط الحبيبة . راي
طابع البريد يحمل صورة ملكة بلدها . الحاج احمد بهوى المرح . كان فى
عذا اليوم ساديا . لوح بالخطاب بيننا وبسارا . لوح عنق حسن ، وازاغ
بصره . حاول حسن ان يخطفه منه . جرى وراءه فى الشقة ، دون جدوى .
قال له اخيرا :
— قبل يدى اولاً .
— حاضر .
وقبل يده . واتبعها براسه وخذته . واخيرا اعطاه الخطاب . تردد فى
نتحه . سآه الحاج احمد :

— لماذا لا تفتحه ؟

— ليس لدى الشجاعة . قد يكون خطابا ساعقا كالذى سبقه .

— أنت تعلم ، أن يدى هذه ، لا تننى البك الا بالخير وانفرج !

— واذا صدمنى الخطاب ؟

— يظهر أن تفكيرك ليس هو تفكير « الدكتور حسن » . هل يعقل

أن تكتب لك خطابا بعد سنة ، ليصدمك ؟ افتح الخطاب ، وأنا المسئول .

فتح الخطاب . وقرأ : « حبيبى حسن » : قفز من سريره . أخذ الحاج

أحمد بالاحضان . قلبه فى « شغفيه » ! وقال له الحاج أحمد :

— انله الله .. أنت فاكرنى برزدا !

— الرسول الذى حمل خطابها . حبيب انى قلبى .

لم يقرأ حسن الخطاب . لكنه نظر الى ذيله : الى نوقيعها . وجسده

محاطا بالقبلات وعلامتها : × × × × × × . وبالذوائر التى تمثل الاحضان :

oooooooooo كان بالخطاب قبة سابعة ، وحنن مسابح ! كانت قبلاتها واحضانها

فى الخطابات السابقة سقا !

أخذ هدنة ، حتى يتماسك قلبه . تركه الحاج أحمد يقرأ وحده . وذمعب

انى غرفة اخرى لينام . وقرأ : حبيبى « يا اعز حبيب » .

« قضيت السنة الماضية فى حرب سجبال مع نفسى . ووالدى :

وصديقتى ، وبلدى . كانت معركتى مع نفسى أسهل المعارك . تفسير ذلك

واضح ، فأنا أحبك . وقد تغلبت كذلك ، دون صعوبة : على موضوع

صديقتى ، وبلدى . صديقتى واعبات . أدركن شعورى ، فباركننى .

أما بلدى ، فبلاد الله هى بلادى . هى البلاد التى أستطيع أن أشارك

الانسان فيها معاناته وامتياته . ولم تعد دراسة الفنون عقدة . خبر

سيهرحك فهو من صنع يدك : حصلت على بكثوريوس الفنون الجميلة فى

الرسم والتصوير . وبقيت العقبة الكبرى : تركى نوالدى . انا وحببتهما .
وقد ضعنا فى السن ، ويحتاجان الى . ارد لهما جيلهما ، اذ ربيانى صغيرة .
اصطرت فى هذا المجال ، لا معهما ولكن مع نفسى . تعذبت ، تمزقت بين
عاطفتين : حبى لك ، والعاطفة الانسانية التى يكنها المرء لوالديه . احسا
بى وبعذابتى . كان نوالدى فضل على وعليك قامت بدور الملاك . ثابترت
لاقتناع والدى . اخذ الاقتناع سنة كاملة . اصبحا سعيدين بالفكرة . اصررت
على ان ابتي معهما . نضرا الى ان اكتب لك ، واؤكد العهد الذى كان فى
وجدانى دانيها . اقترحت عليها فكرتك : ان احضر الى مصر ، ويحضرا
معى . نرى مصر واعلها . والظروف التى ساعيش فيها .

وهانذا اكتب اليك . واعتذر عن الآلام التى سببتنا لك . ولعلك تصفح
عنى . فلك قلب نبيل . فاغفر لانسانة تحبك . عاطفتى لم تتخل عنك فى اى
لحظة ، حتى فى قلب الازمة . اقرا خطابى . اذى اعتبرته كارثة . تجد ان
كل سطر من سطورى ، ينطق بحبى ووفائى .

* * *

جاءت برزدا الى مصر . رافقها ابواها . السفينة الإيطالية . البجعة
البيضاء التى اتته ابنى انجلترا . تحمل ساكنة القلب . ذهب لثقائها .
اصطحب معه سديقه الحميم عبد الرحمن سليم .

عبد الرحمن انسان . يعبر بصدق عن الصردى الاصيل . الصعيدى
بكل عبلى العظيم ! شهامة تقتل . رجولة تهيج . حلو الحديث ، فكها ،
قفاشا . ضحك معه حسن ضحكا يكفى لاضحاك الدنيا . ربطت هذه
اصفات بينهما برياط لا تنفصم عراه . كانت ضحكاتها استنفازية .
حسدتها عليها الاصدقاء ، وغير الاصدقاء . تسألوا :

— كيف يمكن ان تضحكا هذا الضحك . وسط المشكلات التى نعيشها ؟

— ما هي الموضوعات التي تضحكها ؟
— اضحكونا معكم .

اقترح عبد الرحمن ، الا ينتظروا نزولها عنى الرصيف . راي ان يستقلا زورقا بخاريا . ليلقاها حسن في عرض البحر !

كان حسن ند ذكر نه ان السفينة التي تحملها . هي التي حملته الى انجلترا . وانه شبهها بالجمعة البيضاء ، والبحر الابيض . ببحيرة البجع . كان عبد الرحمن قد راي الباليه . لم يكن اقتراحه خالصا . الاصل فيه ان يعطى انطبعا قويا لبرندا : حسن يركب البحر من اجلها . لكنه لم ينس روح الفكاهة . قال له عبد الرحمن :

— الى جانب هذا الهدف . فنحن نريد ان نكمل الصورة .
— كيف ؟

— « بحيرة البجع » فيها جمعة ذكر اسود : شيطان .. وانت تمثله .
بينما برندا تمثل الجمعة البيضاء !
— طيب يا عبد انرحن . « طول بالك » .

رجعا بالقرب ، بعد ان لوحا لها . شعرها الذهبي ، تبرز جماله شمس مصر . وتشعل ما فيه من سنى . سماء مصر تعكس فيروزها في عينيها . سماء لندن الدكناء ، لم تسبر ما في اغوارها من صفاء .

اخططت الاحضان . بالقبلات : بالدموع . استحدثت حسن سنة جديدة . قلبها في شفتها ! على مرأى من المستقبين ، والمستقبلات . وما ان لمح الناس الرجل الاسمر الجرى ، والفادة الشقراء ، حتى حمى وطيس القبل على الشفاة !

انزلهم في فندق اتيق على شاطئ البحر . امضوا بفسحة ايام في الاسكندرية . ينعمون بالسباحة في الضحى ، وبالسباحة عصرًا ، ويلقون

من الترفيه مساء ، وبالاكالات المصرية الشهية . افطارا ، وغداء ، وعشاء .
ارتحلوا للقاهرة . برندا تعلم انه يسكن في شقة من غرفتين : مع اخته
سهام . اقترحت ان ندم معهما في الشقة . وان تستاجر لوالديها غرفة في
فندق معقول في هزيوبوليس . وقال لها :

— الشقة متواضعة ، فراشها غير وثير ، في الدور الارضى .
— ولو !

— الانامة فيها قاسية خشنة ، لا تجازى .
— رحلتى انى مصر نوع من المجازفة . دعنى استمتع بالمخاطرة .
صادف هذا الاقتراح هوى في نفسه . الحق انه يريد ان يريها واقعه ،
وحقيقته . لا يريد زينا مفنملا للحقيقة . طالما نهدف التزييف علاقات زوجية
كثيرة . قال لها :

— هذا كلام طيب .

نابت فانتة انجلترا في غرفة باهتة الطلاء ، على سرير قديم . اناها
كرسى خشبى دون حشايا . شارك حسن اخته غرفتها . سألها في الصباح :

— هل نمت جيدا ؟

— نعم كان نوما مريحا !

— تقولين « مريحا » ؟

— نعم .

— واطنك حلبت احلاما سعيدة ؟

— طبعا !

— هنيئا لك .

أعدت سهام طبق الفول ، والطعمية . وكرمتها بطبق من البيض
المقلي . اكلت برندا بشغف .

— هل اكلت الفول من قبل ؟

— لا .

— كيف تجدينه ؟

— لذيق !

وسألته :

— ما هذه الكرات الخضراء ؟

— هذه هي الطعمية .

— مم تصنع ؟

— من الفول المجروش .

— كأنكم تأكلون الفول صحيفا ، ومجروشا .

— نعم ، ومطحونا كذلك !

نذوقت الطعمية . وقالت على الفور :

— حلوة !

— الاله بجلي لك عيشتك .

الإشارة تغمر برندا . بلاد جديدة . ناس مختلفون . طعام مختلف .
حركة الناس في الشوارع . العربات تجرها الحمير والبشر . الحناطير
تركض بها الخيل . الأزياء المتنوعة : البددي والفلاحي ، والمديني ،
والصميدى ، والغربي . الباعة الجائلون : أصواتهم المنغمة ، تنادى على
بضائعهم .

لإجدال ، ان برندا كانت تعرف ، أن هذا الفول هو غذاء الحيوانات .
كما قالت له الفجيرة الإيطالية ، في حوارها معه ، على ظهر السفينة . على

ان برندا لم تكن تعرف ان الفول يصبح معه الشعب المصرى ، وبمسمى .
وانها اذا كذب الله لها العرش فى مصر ، سيصاحبها فى العشى والابكار !
رتب حسن لوالديها ، ولها : رحلات سياحة متنوعة ، راوا خلالها
عظمة مصر التاريخية ، ونوعها الحضارى .

كان قد اعطى برندا صورة للشعب ، ومستواه الاجتماعى . ولكن
اراد ان ترى وتحس وتسمع ، حتى تكون الصورة نابضة . ود ان تتلقى
بوجدانها مع الواقع ، ليزداد تطهرا ! رغب كذلك ان يرى مشاعرها نحو
الجماعير البائسة ، وغير البائسة . اراد ايضا ان يريها صورة مصر كما
هى : دون الوان . وان تتعرف تماما على المجتمع ، الذى قد تختاره للعيش
فيه . صارحها بان مرتبه خمسة عشر جنبا الى الآن . وسصبح اربعين جنبا ،
عندما يعين مدرسا ، وسيبقى فى هذه الشقة الى ان يتم تعيينه . ثم ينتقل
الى اخرى اكثر اتساعا .

صحبها الى القرية . تربة بالغة التخلف . استاجر لها تاكسى . خوفا
من الرحلة القاتنة فى المطار او الانوبيس .

استقبلها نساء القرية ورجالها : فى مهرجان يهز القلوب . النساء
يقبلنها وهى تقبلهن . مشهد انسانى ، مذهل ومثير : بنت « التميز » ،
تعانق بنات الذبل . الانجليزية اثى جاءت من مجتمع ، هو قمة التقدم ،
تقبل فلاحات ، ملابسهن رثة ، حافيات ، شاحات . كانت سعيدة بقبلاتهن .
انهمرت دموعها متأثرا باللقاء . لاحظ حسن دموعها ، وتأثرها ، ففرح . برندا
تجتاز هذا الاختبار الانسانى بنجاح كبير .

دخات برندا الى البيت المبنى من الطوب الطينى . كان ، على تواضعه ،
احسن درجة من اكواخ الفلاحين . اراها الاكواخ ، وهو فى الطريق الى
منزله . الشيء الوحيد الذى اولاه عناية خاصة ، هو نظافة البيت من
البراغيث والناموس . هذه مسألة لا يستطيع اى انسان (غير الفلاحين !)

ان يتحملها . هي لم تر البراغيث من قبل . افلح في حملته ضد هذين العدوين .
غير ان برغونا لعينا ، استطاع ان ينتقل اليها من ملابس الفلاحات اللاني
عائقها . اخفى في ملابسها . لم نستطع مواد التنظيف ان تصل اليه .

وفي الصباح ظهر اثره على جسدها : متع كبيرة حمراء . ومع ذلك
قالت :

— لقد نمت جيدا !

اصطحبتها الزفة الريفية لنزهة في الحدول على الحمير والجمال .
خرجت البلد لوداعها حينما غادرت القرية . مشهد انساني منعش . لم
يجرؤ حسن على دعوة والديها الى القرية . المنزل بالغ التواضع . اثراغث
ستزعجها . المحافظون لا يغفرون للبراغيث فرصاتها ! سينفرون من هذا
المستوى المتردى للريف . استشار برندا في عدم دعوتهم . وافقته . وكفى
الله المؤمنين القتال !

هكذا امضت برندا وابواها اجازتهم في مصر . رضى الابوان . هيا
لهم حسن جوا مريحا ، في فنادق انيقة . اما برندا المكافحة ، فقد انقطعت
بمصر انفعالا حارا . وجدوا ان المسربين كرام ودودون . لا ياكون الاجانب !
عبد الناصر لا يضطهدهم ؛ ولا يطردهم من البلاد . برندا تعشقت الشعب
المصري ، وخاصة شعب القرية . اكبرت امانة حسن ، وشجاعته . ابرز
لها الحقيقة كاملة .

حدد يوم الرحيل . عندهما ذهبوا لحجز اماكنهم في السفينة ، اطلقت
برندا مفاجأة . قالت لوالديها :

— دادى — مامى : انا سابقى في مصر !

فوجيء ، وانداهها ، واجابها ابوها :

— اتفقنا ان نعود الى انجلترا معا . ثم تقرر ان ما تشائين هناك .

م ١٦ — الوارثون

— لقد قررت . لست عائدة الى انجلترا .
تجيب وجه ابوها . لم قتل شيئا . تولت امها الكلام :
— هذا شأنها وحدها . هي بلغت الواحدة والعشرين . ونحن لا نبغى
الاسم لها . وهي وحدها التي تحسها . وعلينا ان نباركها .
انفرج وجه الوالد ، بأبتسامة غير محافظة . قائلا :
— مادامت هذه رغبتك . وسعادتك في البقاء هنا ، انا موافق .
تهانينا .

انهالت برندا على ابويها تقبيلا واحضانا :

— شكرا مامى — شكرا دادى . اننا شفوكان . وانا احبكما .
بتى على الرجل يومان . احب حسن ان يحضر الوالدان زفاند
ابنتهما . سافروا الى الاسكندرية . نزلوا في الفندق الاثنيق « بوريفاج » على
شاطيء البحر . اصطحبهم الى الشهر العتارى . عقد الزواج . في المساء
قدم لهم مفاجأة : الماذون الشيخ : جاء بعقد الزواج دينيا ، بعد ان وثق
مدنيا . الاب سعيد ، اذ يمسك بيد حسن ، والماذون يضع يده على يديهما .
وكلته ابنته لعقد قرانها . الماذون يرتل الخطبة الدينية المعروفة . بوجه
الخطاب الى « مستر كف » واد برندا :

— قل : زوجتك ابنتى برندا ، موكتى .

قائلا بلكنة انجليزية طريفة . وقال الماذون لحسن :

— قل : قبلت زواجها لنفسى .

كرر حسن قوله . انطلقت الزغاريد من نساء اسرة صديقة . هي
اسرة ابراهيم وحامد دويدار ، اخوة زميله محمد دويدار ، الذى يدرس
الدكتوراة في انجلترا . كانت حفة بسيطة ، رائحة . حضرتها والدته .
واخوته وبعض اصدقائه . كان والده قد عجل للقاء ربه . لم يشهد افراح
العودة من انجلترا ، ولا الحصول على الدكتوراة . ولا زواج ابنه البكر .

تذكر حسن تقليدا شرعا : اعطى برندا خمسة وعشرين قرشاً !
وسأته :

— ما هذا ؟

— هذا هو مهرك !

— بس ؟

وضحك الجميع . وسالت برندا :

— ماذا تقصد ؟

شرح لها قصة المهر والشبكة في مصر . وان النبي صلى الله عليه وسلم : كان من الفقراء . وكان باراً بهم ، وزعيماً شجاعاً ، جاء من الجاهل . فخفض قيمة المهر الى خمسة وعشرين قرشاً . فرحت برندا بهذه الفكرة . احتفلت بالخمسة والعشرين قرشاً حتى الآن ! قال لها حسن :

— ان المهر الكبير ، والشبكة المغالى فيها في مصر : اذا نقصا خمسون جنيهاً . مثلاً ، فاهل العروس ينقضون الزواج .
— لا افهم .

— احسنت اذ لم تفهمي !

حول الحديث . ليس من مصلحته ان يشرح لها تجربته السابقة في الخطوبة . قد نطاب منه مهراً وشبكة . وهو لم يقدم لها غير خاتم ذهبي ، هو خطوبتها وشبكتها ومهرها !

احتل وعروسه جناحاً ، يلقي بالعرسان . احتل والداهما حجرة منه . واهل واخوانه حجرة اخرى . رافقاً ابويها في انيوس التالي الى الميناء . ركبا السفينة . ذرفت عيناهما قطرات من الدمع . احس حسن ان قطرة منها كانت حبا ووداعاً لوالديهما ، وقطرتين حبا له !

السيد الدكتور حسن خالد

المدرس بجامعة أسـوط

تحية طيبة وبعد ،

يسرنى ان ابلغ سيادكم ، انه وقع الاختيار عليكم ، للاسهام في الدراسات التى يقوم بها مكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية . وتوجيهه انباحثين ، فى هذه الفترة التاريخية التى نجتازها بلادنا ، وتحرر فيها من الاستعمار ، وتبنى اقتصادا وطنيا مستقلا ، اشتراكيا .

مع فائق احترامى

وزير رئاسة الجمهورية

عبد المجيد فريد

« يا ستار يا رب » لماذا يختارونه لهذه المهمة ؟ الانه مكافح ، وكان جنديا ؟ أم لانه يثير موضوع التنمية الاشتراكية فى محاضراته ؟ ليكون ذلك ، لانه يحدد الاسباب الرئيسية للتخلف ، بالاستعمار . والراسمالية ، والاتطاع ؟ هل قرأوا رسالته ؟

التطير انذى الم به ، لاول وهلة ، يتقشع . حل محله شعور رضى . انه يستدعى الاسهام فى بناء اقتصاد «متحرر من الاستعمار . اقتصاد وطنى مستقل ، اشتراكى » . هذا حلم عمره ، يدعى لتحقيقه .

أخذ يدرك آلاء الدكتوراة عليه . ويرضى عن الجهود المضنية التى سكبها فيها .

للدكتوراة آلاء اخرى : أرسلت اليه استمارة سفر . ركب بها القطار الجرى من اسويط الى القاهرة ، بادرجة الاولى . الممتازة ، والمكيفة !

قفز من الدرجة الثالثة في وثبة واحدة ، ثلاث درجات علا ! المفروض أن يفرح . طالما ملأت الدرجة الثالثة خياشيمه بالتراب ، ودخان القطار . وطالما طقطقت عظامه على المقاعد الخشبية . جسده يتراخى . في العربة الفاخرة ، التي جعلها التكليف «ربيعا دائما » ! على أن نفسه كانت قلقة . شعر بأنه ينتزع من وسطه . ويقتلع من جذوره . اذا كانت رئاسة الجمهورية هي التي قفزت به الى الدرجة الاولى الممتازة ، لماذا لا تقفز بالناس العاديين معه ! لما هذه التفرقة ؟ الناس هم الذين ينتجون ، ويدفعون الضرائب ، للانفاق على القطارات . وعلى الدرجة الاولى الممتازة ، التي يركبها ناس اكثرهم لا ينتجون . هل يراد به أن ينتزع من الجمهور الذي نشأ في أحضانه ؟ وأن يضم الى النصفوة الممتازة ؟

انقطار يهرق . الانكار تنخبط في راسه . أمل يداعبه . في أن تسهم بحوثه في تحرير شعبه . صور شعبية منهكة ، يراها من نافذة الصالون الفخم . وصل الى القاهرة . في اليوم التالي ، ذهب الى الوزارة المركزية بصر الجديدة . توجد فيها مكاتب رئاسة الجمهورية .

دخل على وزير الرئاسة . قدمه السكرتير للوزير . منضدة مكتب ملكية . مزركشة حواشيتها بالذهب . كرسي الوزير ككرسي العرش . قام الوزير ، في جلال مهذب . حباه . اجلسه على كرسي قريب منه . بدأ الوزير يعرفه بالجالسين معه : صبرى بك . سلام بك . صلاح بك . شريف بك .

سأل نفسه : ألم تلغ الثورة الانقلاب ؟ اليس هؤلاء القادة هم ان الذين يحملون الى الناس مبادئ الثورة ، وقراراتها ؟ ما بانهم بصرون على العلاقات الاجتماعية القديمة ، التي تعبر عنها هذه الانقلاب ؟ كيف تغير الثورة تلك العلاقات ولم يتغير المناهون بها ؟

كان الرجل رقيقا . رغم المظهر المنرف في مكتبه وملابسه :

— شرفت يا دكتور .

— شكراً سيادة الوزير .

— انت تعلم ، ان البذ مقبلة على ثورة كبرى اجتماعية . واقتصادية .
وسياسية . وقد انتقينا من اسانذة الجامعة ، وغيرهم من المفكرين : نخبة
للاسهام بفكرهم في هذه الثورة . واخترناك للاشتراك في الدراسات
الاقتصادية . نحن مقدمون على فترة . سيماد فيها بناء اقتصاد متحرر من
التبعية والاستعمار . اقتصاد لجهاهر مصر . وليس لحفنة من المستغلين .
اقتصاد اشتراكي . نذهب مواردنا لبناء الصناعات والزراعى . وتحقيق
الاستهلاك الضرورى ، لرفع معيشة الملايين في مصر .

« انه » قالها بينه وبين نفسه . هذا الرجل يقول الشيء نفسه .
الذى تاله في رسالته . والذى يود أن يفنى عمره في تحقيقه . هذا كلام واع .
هل يدرك كل كلمة قالها ، ادراكا عميقا وفكريا ؟ هل هو منغل بالمشكلة
الاجتماعية للاكثرية الكبرى من بنى وطنه ؟ تمنى من اعمائه الا تكون هذه
خطبا : او شعارات تتردد . خاصة انها لا تنسق وهذا المظهر الفخم . ورد
على الوزير :

— هذا شرف كبير ، اعتربه .

كان الوزير . والمجموعة المحيطة به ضباطا : عتداء ومقدمين .
يلبسون ملابس مدنية فاخرة انيقة . فيهم اعزاز ملحوظ . تذكر عندما كان
حائوشا في الجيش . الآن يجلس مع ضباط كبار . بل ضباط ثوار . فضل
آخر للدكتوراة عليه .

خاطبه الوزير :

— تفذل . سأسحبك الى مكتب البحوث الاقتصادية .

رافقه الى المكتب . قدم له الزملاء العاملين فيه . وقال له :

— ستكون لك مهمتان : القيام بالبحوث الهامة . والاشراف على هذه

المجموعة .

— يسعدنى ذلك .

— أى استفسارات . يمكنك ان تستعين بهدير مكتبى . او تنصل بى مباشرة . الى اللقاء .

كانت الفترة الى قضاها . فى مكتب الدراسات الاقتصادية ، برياسة الجمهورية ، فترة خصيبة . كذب فيها ما كان يود ان يقوله فى رسالته .
حلل الاسنعمار والاطعاء والرسمية ، التى رفضها الاسانذة الانجليز .
وكشطها الدكتور الحداد . اضاف اليها دراسات عن النظم الاشرائية العلمية ، وغير العلمية . والتطبيقات الاشرائية المختلفة . فى اوربا ، وآسيا والصن : وامريكا اللانيزة . وافريقيا . ودرامات اخرى عن الاقتصاد المصرى . وقطاعانه جميعا . كانت دراسات سبقت التأميم . وعاصرته ، وتابعته .

كان مكتب الرئيس لبحوث الاقتصادية نبعما عليا . انسابت منه زوافد فكرية . اسهمت فى التجربة الاشرائية فى مصر . وازارت لها اطريق . وحاولت ان نجد لها نظيرا .

كانت عملية تنظيم التجربة المصرية الاشرائية عملية شعبة . جاءه وزير الرياسة قائلا :

— البحوث التى يقوم بها المكتب حازت رضاء الرئيس . لكن المهم . ليس تحليل التجارب الاشرائية فى العالم ، فنحن لنا ظروفنا الخاصة . المطلوب تحليل طريقنا الى الاشرائية . هذا ما نود القيادة ان نتجه اليه جهود اباحثين .

كتابات حسن عن الاشرائية العلمية ، وتطبيقاتها . مساة ممكنة . وقد تكن سهلة . اما بناء نظرية ، لاشتراكيننا فعيل صعب . انهم يطلقون عليها « الاشرائية العربية » ، واحيانا « الاشرائية الاسلامية » . وبصل التناقض فيها الى القول بانها تؤمن بالراسمالية الوطنية !

كان في مكتب البحوث ، باحث ناضج . سنا ، وعلمنا ، هو محمد عبيد .
درس الاقتصاد والاحصاء في أمريكا . نال الماجستير . ثم يكمل الدكتوراه .
استعداده الذكائى كان يفوق كثيرا من حاملى الدكتوراه . يضاف الى ذلك
نظرة عميقة في السياسة . نشأت بينه وبين حسن صداقة .

أراد حسن ان يستشير محمد عبيد في موضوع التكليف الجديد :

— الوزير ، يطلب منا نظريا « للاشتراكية العربية » .
رد محمد :

— نحن في خدمة القيادة .

— وفي خدمة العلم ، والحقيقة ، والشعب .

— وهل هناك تعارض بين القيادة ، وهذه المسائل ؟

— اسمع « يا أبو حميد » اريد مناقشة موضوعية .

— تفضل .

— هناك صعوبات كثيرة ، تواجه القيام بهذا العمل .

— ليس هناك صععب عليك . ومع ذلك ما هى الصعوبات ؟

— أولا . هذا المصطلح « الاشتراكية العربية » . هل الاشتراكية بدلة

نتسع وتضيق ، وتقتصر ، حسب الشخص . أو البلد الذى يلبسها ؟

— لكل بلد ظروف خاصة . قد يختلف التطبيق الاشتراكى بين بلد

وأخر .

— هذا صحيح . لكن للنظام الاشتراكى ملامح رئيسية . يجب ان

تتوافر . بغيرها لا يكون نظاما اشتراكيا . وليس من المقبول ، مثلا ، ان

نقول « الاشتراكية العربية » « والاشتراكية الهندية » « والاشتراكية

الجاپونية » ... وهكذا . وبذلك يكون هناك منشا اشتراكية في العالم ،

بتدر ما فيه من دول * هذا تمزيق للاشتراكية . يسعد به الراسماليون ،
واعداء النظام الاشتراكي .

— ماذا نقترح . بحيث لا نكون التجربة الاشتراكية في مصر ، نسخة
بالكربون من الاشتراكيات الاخرى ؟

— الاشتراكية لها اساس لا تختلف حسب الدول . لانها نظام عامي .
له قواعد معروفة . ولكن الذي يختلف هو التدرج في التطبيق ، لارساء هذه
الاسس . لذلك يمكن تسمية تجربتنا الاشتراكية . « بالتطبيق العربي
للاشتراكية » ، او « تجربة الاشتراكية في مصر » .

— لماذا لا تقترح هذه التسمية على انتياده ؟

— سنأفعل .

انتقل حسن الى موضوع من ادق الموضوعات ، واكثرها حساسية :

— ما رايك في مسألة الدين . وعلاقته بالتنظيم الاشتراكي ؟

— لا يا عم . ليس لي رأى . انا رجل مبتدىء في الاشتراكية . وانت

راسخ القدم فيها .

— اتريد للحوار ان يكون من جانب واحد . كيف يسمى اذن حوارا ؟

— سوف اسمهم فيما اعرف . هذه مسألة لا تدخل في نطاق معرفتى .

كان محمد عبيد من مثقفي الطبقة المتوسطة . تعزم برجوازي في مصر .

تأصل له في الولايات المتحدة . لديه استعداد للتطور النطاق . لكنه كان

متحفظا وحرصا . اراد حسن ان بجر رجله :

— الاقتصاد علم . والاجتماع علم ،لهما توائنهما العلمية .

— نعم .

— والاديان تربط الانسان باثمه برابطة روحية توحيدية . وتأمره بالمعدل

ومعاملة الناس باتساية واخاء .

— هذا صحيح .

— الكتب المقدسة تركت ، عن قصد . العلوم الطبيعية . والعلوم الإنسانية . ومنها القواعد التى تنظم المجتمع اقتصاديا واجتماعيا . هذه يصل اليها الانسان بعقله . وهو اثن شئ خلقه الله له . واعتبر الانسان لهذا افضل المخلوقات .

— معقول .

— لهذا ترك التنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للانسان . ينظفه بعقله حسب تطور المجتمع . ونعمده . هذا التنظيم خاضع . بالضرورة . لمصلحة الاغلبية من البشر « مصلحة الكافة » بالتعبير الشرعى .

وتدخل محمد عبيد :

— اكمل انا . حتى لا اكون مستمعا مقط .

— تفضل .

— ولما كانت الاشتراكية تطورا عليا . وصل اليه الانسان بعقله الذى صنعه الله . وهى تطفى استغلال الانسان المالك للارض ورأس المال للكثرة الإنسانية ، لتى تعمل . والمحرومة من هذه الملكية . اذن الاشتراكية هى النظام الافضل لمجتمع الانسانى .

— هناك حديث شريف يؤيدك : « اناس سواسية كأسنان المشط » .

— الله يفتح عليك . يا شيخ حسن .

— على ان « فضيلتك ! » نسيت امرا هاما . التنظيم الاشتراكى للاقتصاد ، يضع ناتج الصناعة وناتج الارض فى يد الناس جميعا . يستخدمون جزيا منه لاشباع حاجاتهم الاساسية . ويضعون الباقى فى التنمية . وتركه فى يد القلة الرأسمالية جعلها تبتدده فى ترفياتها .

تفكر عبيد قارلا . حك رأسه الحليق . ثم قدم لحسن احصائية ، ذات دلالة . فقد كان احصائيا ممتازا :

— وتأبيدا لقولك فيها بتعلق بهمة الاديان . وان العلم والعقل الانسانى

ومصلحة الجماهير ، أو الكائنة : هي الفيصل في تنظيم المجتمع البشرى ، اليك هذه الاحصائية :

يوجد في القرآن نحو ستة آلاف آية . منها نحو أربعين آية فحسب للمعاملات بين الناس ، والباقي كله لتنظيم علاقة النوحيد بين الانسان وخالقه . والمباديات . والنواب . والمعاقب ، والفضائل والردائل وما شاكلها .

— هكذا يكون الاستخدام المستنير للاحصاءات ! من التواعد القليلة في القرآن ، التي تنطلق بالحياة الاقتصادية : الزكاة ، وتحليل البيع . وتحريم الربا . والواقع ان تحريم الربا يدعم الاشتراكية في تحريم استغلال الانسان للانسان . ويهدم اصلا من اصول النظام الرأسمالى في التجارة ، والاستثمار ، والبنوك . وهو الاتراض بفائدة . انذى يقوم عليه النظام الرأسمالى كله .

ابتسم محمد ، عن اسنان غير برجوازية ! وقال :

— على الارقام . وعليك التحليل .

— وازت كذلك محلل !

واحب حسن ان يطعن محمد . على انها اكبر حرصا على جوهر الدين من ادعيائه فقال له :

— خذ هذا الحديث : ذهب قوم الى انبنى صلى الله عليه وسلم . يسألونه امرا من امور الزراعة . رد عليهم ردا واضحا صريحا . قصد به نبى البشرية ان يكون دستوراً للتنظيم الاجتماعى : « انتم اعرف بامور دنياكم »

انتعش محمد لهذا الحديث وقال :

— والنقطة التالية ؟

— انهم يدخلون في تحائف قوى الشعب العامل قوة ، لا يمكن ان تكون عاملة ولا شعبية . ما اسموه « بالرأسمالية الوطنية » .

— الحق ان هذه العبارة القت بي في غيبوبة .

— هذا المبدأ فيه تناقضان كبيران : الرأسمالية .. والوطنية . كيف يمكن أن تعتبر قوة عاملة أولئك الذين يملكون رأس المال والارض بكميات كبيرة . هاتان هما الوسيطان لاستغلال الجماهير العاملة . واخذ فائض عملها في شكل ارباح . الرأسمالية هي النظام المناقض تماما للاشتراكية : من المستحيل ان يندمج النظامان المتعارضان في مجتمع واحد — والا كان مجتمعا « سكلنصا » !

— التناقض هنا واضح . لكن الامر الذى يكف الضباب في رأسى ، هو لفظ « الوطنية » .

— الرأسمالية الوطنية . تنطبق على اندثار الثورة ، والرأسمالية المستغلة تنطبق على خصومها .

— لكن هذا معيار شخصى . قد يكون خطيرا على مستقبل النظام . فمن يعتبره الحاكم اليوم رأسماليا مستغلا ، لانه خصم ، قد ينظر اليه حاكم آخر كحليف « وطنى » ، وغير مستغل . وقد يقلب الرأسماليون «الوطنيون» خصوما للنظام الاشتراكى . فهم يريدون تراكم ارباحهم ، وتضخم ثروتهم . وليس هذا طريق الثورة الاشتراكية . فلا منص من الصدام .

أعجب حسن بتحليل عبيد . اراد ان يضيف :

— كذلك وجود هذه الطبقة ، يدمر الروح المعنوية للعمال والفلاحين ، والمتقنين . تراكم الثروة في يدها ، يجعلها قوة اقتصادية وسياسية خطيرة داخل النظام . القوى الاقتصادية تسيطر تاريخيا على السلطة ، وعلى مصائر الشعوب . النمط الاستهلاكى لهذه الطبقة باذخ . يستنزف الجماهير يضمف ثقتهم في نظام يقول بالاشتراكية بينما تتوده البرجوازية .

وعقب محمد :

— بالله يا عم . لديك مادة جيدة للكتابة .

أعد حسن الدراسة عن « التطبيق العربى للاشتراكية » متضمنة تلك المعانى . اعطاها لوزير الرياسة . حولها للرئيس . استدعى الوزير حسن الى مكتبه . خاطبه فى تودة شديدة . حدجه بنظرة نفاذة . توجس حسن ، قال بطريقته المتخففة :

— على اى جزء من الدراسة ، تقع هذه النظرة ؟

تحدث الوزير :

— الدراسة جيدة . الرئيس راض عنها . ولكن هناك ملاحظتين :
الاولى اين العنصر الدينى ؟

— هل هذه الملاحظة ابدائها الرئيس ؟

— نعم . الرئيس يتفق معك فى ان الدين اراد الله به الا يتدخل فى التنظيم الاقتصادى للخلق . فالنظام الاقتصادى يخضع لتطور العقل الانسانى ، ومصالحة الكافة ، ويجب ان يكون نظاما يليق بالانسان ، الذى كرمه الله ، واعتبره اشرف مخلوقاته .

— عظيم . الرئيس يؤيد وجهة نظرى .

— ومع ذلك ، فمهر يرى الاديان مسألة اساسية بالنسبة للمجتمع المصرى . وانت تعلم ان الراسماليين ، وحلفاءهم من المتحدثين بالاديان ، وخصوصا الاشتراكية فى كل مكان . يرمونها بالاحاد . وذلك خدمة لمصلحتهم ، واعطاء لمسة مقدسة من الاديان — كذبا وبهنانا — لتبرير استغلالهم وجشعهم . يماونهم فى ذلك انتشار الامية ، والوعر المتخلف فى البلاد الفقيرة . لهذا ترى القيادة ان تفوت على الرجعيين غرضهم ، وان ينص على الدين كدعاية من دعائم النظام .

— اتفق مع الرئيس تماما فى هذا التفسير . لكن الصعوبة ، هى كيف نتقم على نظام اقتصادى علمى نصا روحيا ؟

— هذا هو دورك .

— سأحاول .

استاذن حسن في الانصراف . فاستبقاه الوزير قائلا :

— مازال الحوار سجاليا يا دكتور ... للملاحظة الثانية : اين مكان
الراسمالية الوطنية في النظام ؟

تلمس حسن . ثم قال :

— أهذه ملاحظة القند كذلك ؟

تردد الوزير ، واجاب :

— لا . هذه ملاحظتي انا .

الحمد لله . أنت مددور عليك ! نشجع حسن للرد :

— احساسى يقول : ان الرئيس لم يبد هذه الملاحظة عن قصد .
فالراسمالية والاشتراكية نظامان متعارضان . وسيظل التناقض بينهما
قائما ، الى ان يفترس أحدهما الآخر . والمفروض طبقا للمنهج التاريخى
العلمى ، ان المناقضات داخل الراسمالية ، ستقوض دعائمها . وتحل محلها
الاشتراكية . لكن هذا يتطلب ظروفًا موضوعية ناضجة . تتطور فيها وسائل
الانتاج . وتسيطر القوة العاملة على هذه الوسائل . وهذا يتطلب وعيًا
قويا . ووقتًا لنضوج هذا الوعى . وحينما تغيب هذه الشروط . فان
الراسمالية « وطنية » كانت أم غير وطنية ، سوف تفنك بالاشتراكية الوليدة .
لا سيما ، وانت تعلم ، انه حتى القطاع العام . يديره برجوازيون .

اعزى وجه الوزير شحوب عارض . لكنه تمكن من وجهه . فاسترد
لونه الطبيعى :

— لكن الراسمالية لوطنية بدأ أعلن من مبادئ ثورتنا .

— أكبر الظن انه وضع « تكتيكيا » .

— تقصد انه ليس اصلا من اصول اشتراكيةنا . ولكنه وسيلة تكتيكية
مؤقتة ، نحقق غرضا انتقاليا .

— تماما .

— اشكر . اصف الفترة الخاصة بالدين : واعدلى البحث .

اضاف الفترة الدينية . سعدكثيرا بالدراسة . وبقبولها من الامة
امر الرئيس بنن توزع على اعضاء التنظيم الطلابي . نتج عن هذه الورقة
كسبان كبيران : ان « الاشتراكية العربية » . اصبح يطلق عليها « التطبيق
العربي للاشتراكية » . وان الراسمالية « الوطنية » لم تذكر من بين قوى
الشعب العامل . على ان هذه العبارة الاخيرة بقيت موجودة في خطاب
القادة ، وفي التنظيمات السياسية .

خاض حسن معارك كثيرة لترسيخ هذين المبدأين . منها المعركة التي
شنها على فريق « الاشتراكية العربية » في مجلس محافظة القاهرة . كان
هو عضوا منتخبا في المجلس ، وكان هناك اعضاء معينون . قام اسناد
جامي « لامح » ، يعلم الناس « اصول الاشتراكية العربية » . كان
« لاما » بكل ادوات « التلميح » المتعارف عليها و مصر : استاذ في الجامعة .
محدث لبق . عالم . لكن « حداثته » كانت اكثر من علمه . سليلت اللسان ،
اتخذ من السياسة « تجارة » رابحة ، كما فعل في العلم . له علاقات
فاخرة بكل القوى المضادة لتحرر الشعوب . علاقته بالامريكيين قوية ،
وبشركانهم . لديه عقود وتبكيلات معها . يدير مكاتب استثمارية لها .
له علاقات مجزية كذلك « بسلاطين » البترول .

هذا الرجل نصب نفسه استاذا . يعلم اعضاء مجلس المحافظة
الاشتراكية . قال كلاما قهينا . مسح النظام . لم يجعله راسماليا فحسب .
قلبه الى مخلوق سائه . كانت الاستاذية وشخصيته واتصالاته ، تدخلت
عليه صفاتة وعدوانية ، وتعاليا واضحا .

لا مفر من ان يتسدى لهذا الرجل . انه لا شك ليس عضوا في التنظيم
الطلبي ، والا لقرأ دراسته . اراد حسن بالرد عليه : ان يشذب هذا
التعالى البرجوازي : وأن يقسم اجنحة هذا الوكيل للمؤسسات الراسمالية

والرجعية . بين أن الاشتراكية نظام علمي . لا يمكن أن توضع عليه ماركة مسجلة . هذه اشتراكية صنعت في مصر . وتلك صنعت في أمريكا ! ومن الغريب أن هذا الاستاذ اختير وزيرا . ثم نائب لرئيس الوزراء في عهد النورة الاشتراكية . ثم رئيسا للوزراء ، في عهد الخليفة !



« شقة العازب » . لم تعد نصلح بعد الزواج . زوجته جاءت من وسط نظيف متحضر . هي حقا قبلت أن تسكن معه . قوى أكبر منها أغرتها على القبول . طاقة فكرية وإنسانية كبيرة : لماذا « تنرف » ، وشعب بأسره يغوص في التخلف ؟ حب شفيف يجعل هذه الحياة الجافة ، مع من تحب ، لينة رضية . هذه المعاني جعلت من هذا العرش الأرضي ، مكانا أشبه بالفردوس . لكن من خصائص الفردوس أن يكون نظيفا . وهي تملك نظافته الداخلية . أما النظافة الخارجية فتخرج عن اختصاصها .

كان لاحدى غرف الشقة « فردة » تطل على حوش قديم . كانا يجلسان فيها لتناول « شاي بعد الظهر » ! فجأة وقع المقدور : كومة من « الزبالة » ، انصببت على راسيهما . لسوء الحظ : حظيت برندا بنصيب أكبر . كم تمنى لو سقطت كلها عليه . فهو معناد على هذا « التقليد » الجميل ! برندا رأت الزبالة في الشارع ، وأمام البيوت ، والشقق . ربما تكون قد غضت الطرف عنها . لكن أن يتدف بها فوق شعرها الذهبى . وثيابها الاتيقة ، وهي سعيدة بشرب « شاي العصر » ، وتذخيل أنها في إنجلترا ، فذلك أمر كان وقعه سيئا عليها للغاية . لم تتمالك نفسها . انفجرت صارخة بصوت بحته المبالغته القسرة . أهذه هي مصر الجديدة ؟ أهذه هي الطبقة المتوسطة ؟ والمتوسطة العليا ؟

انسحبت برندا الى الداخل . انفجرت في بكاء ، أدر مدامها . عكر لون عينيها السماويتين بلون كالتراب . بذل جهدا في التخفيف عنها . كان

قد بحث عن شقة في منطقة أخرى في دنس الحى . استأجرها . اثر ان يسكن الادوار العليا . حتى لا تندب لعنة الطبقة المتوسطة « العليا » على راسيها مرة أخرى . قال لها :

— سننتقل خلال يومين .

احتضفته شاكرا . اراحت راسها على كتفها . هدأت نفسها .

وفى اليوم التالي . ذهب الى محلات « الموبيليا » . بدأ بغرفة النوم . لها اولوية ! لا يستطيع ان يؤثث الشقة كلها دفعة واحدة . الاربعون جنيتها التى تخصم منها الدفعة والتأمين والمعاش . لا تكفى . وفى اليوم الذى يليه . نركا الشقة التى كانت الطبقة المتوسطة تتخذ منها « مزبلة » .

جزع حسن من العجامة . لا لان منظرها مقزز . ولا لانها تعيث فيها الجراثيم ورائحتها كريهة . ولكن لانها كشفت المستوى المعيشى المنردى لهذه الفئة العريضة التى تمثل وسط المجتمع . العجامة التى ملقى فى الصباح معها بقايا الفول ، وبقع الطعمية على الورق . واعواد الفجل الذابلة . وكان هذا شأنها فى المساء . وقبابة الظهر كذلك فقيرة . لم تظهر فيها آثار للعظام ، ودعك من الحديث عن اللحم .

الفرحة بالشقة الجديدة ، وبغرفة النوم اللينة ، غطت على موضوع « الزبالة » وعلى مضامينها . الشقة الجديدة نقطة حضارية . اربعة غرف واسعة . صالة كبيرة . شرفات وبلكونات من ثلاث جهات : الشمال والجنوب والغرب . تطل على فضاء فسح — فناء المدرسة الانجليزية . حيث تركض الخيل . الفرسان الصغار من التلاميذ . الذين جاؤوا من الطبقات انعليا . يركبون الخيل . ويمدون لفروسية . ميراث الطبقات الرجوازية من عصور الاقطاع . لابد ان هؤلاء الفرسان وذويهم يقذفون بالزبالة على رؤوس الناس ! الشقة الجديدة من الناحية الغربية . تقدم لوحة تاريخية :

رومانسية : احرامات الجيزة الثلاث . تطل عليهما من وراء الجيزة والقاهرة ! منظر اخاذ . حينما يحمر قرص الشمس خلف الاهرامات ، ويتزركش الافق بقمامات شفقية ملونة ، تقدم لهما الطبيعة الحسنون . والتاريخ التليد ، لحظات شاعرية . نساتبا فيها كأس الحب مترعة .

عمات برندا مدرسة بالمدرسة الانجليزية . ارادت ان تسهم معه في شراء الاثاث . رحب بعملها . لانه يعتقد ان المرأة العاملة . انسانة خلاقه . العمل بصقل الانسان . وبيض عقله . ويجعل منه مخلوقا منتجا . يسهم في تقدم مجتمعه . بدلا من ثقافة الملبغ ، والسرير ، الذي تتميز بها ربوات الصون . والرايات في الخدور . عملها . ودخلها كذلك سيرنعان من مستوى معيشتها .

هو نفسه . بدأ يعمل في كل الاجتهادات . ما ان عمل في رياسة الجمهورية حتى انهالت عليه اعمال اضافية ! رجاء الوزراء ، وعمداء الكليات ان يعاونهم في مجالاتهم ! كليات الاقتصاد ، والحقوق . والخدمة الاجتماعية . والآداب بجامعة القاهرة . وعين شمس ، وكلية الشرطة ، ومعهد الدراسات العربية العليا . ومعهد التخطيط القومي . نسدعيه للاسهام في محاضراتها ! رحب بكل ذلك ، ولم يرفضه . محاضراته في جامعة اسويط يلقيها في يومين . الخمسة ايام الاخرى : يخصصها للقاهرة . كان يريد ان ينشر افكاره في كل مكان . كان كذلك يريد ان يفرش شقته . مازالت غرفها خاوية . عدا غرفة النوم .

هذه الاعمال المرهقة : ذكرته بأمر قاسى منه كثيرا في وسية الخواجة اليونانى . حينما ذهب الى كلية الاقتصاد ، ليقبض اجره عن المحاضرات . فوجى ، بانهم يعطونه جنيا في المحاضرة ! ذكره الجنيه بمرتبه في وسية الخواجة . ومع ذلك فقد كان هناك فارق بين جنيه الوسية ، وجنيه كلية الاقتصاد . كان الاخير تنقسه عشرة قروش دمفة — فيصبح تسعين قرشا . وكانت الرحلة اليه شاقة : ركب المترو او الاوتوبيس من محر الجديدة الى ميدان المحطة (رمسيس) . ومنها اوتوبيس آخر الى الجامعة . يتشعلق

كما يتشعل الركاب . بل كان عبؤه اكبر . يحبل شنطة ثقيلة ، فيها الكتب والمحاضرات . كان ذلك يكلفه عشرين قرشا . اجرة المواصلات . يصبح الباقي سبعين قرشا اجر استاذ بلتي حصيله عقله . ليكون جيلا جامعا جديدا .

لذلك كان وصف « اسناذ الشنطة » الذي اطلق على اسانذة الجامعة في لك الوقت . كان واقميا ، شديد الواقعية .

بهذا الدخل الاضافي ، والاصلى ، ومرتب برندا . اشترى — على حلقات — باقى الاثاث . واخذت برندا تضع لمسات جمالية للشقة ، مستخدمة فيها الرفيع . وهبت الريح عليهما رخاء .

* * *

الرحلة الاسبوعية الى اسيوط ، ممتعة . اثنع محمد عبيد ، بأن يذهب معه لتدريس الاحصاء في جامعة اسيوط .

القطار المجرى فخيم . صالون الدرجة الاولى . المكيف . يغرى بالاستعلاء . لمح في وجه عبيد ، وفي جلسته تعالبا . خاطبه قائلا :

— اظن انت ، اول مرة : تركب مثل هذا القطار .

— طبعا ، البركة فيك .

— اراك مستمتعا ، مستعلبا .

— دعنا ننعم بالاء الجامعة ، والرياسة .

سكت محمد عبيد لحظة ، ثم اردف :

— الذى يشغلنى ، كيف يمكن لبلد شيوعى ، ان ينج قطارا بمثل

ملك الفخامة ؟

— شغلنك الفخامة . ولم تشغلنك التكنولوجيا . والفن الصناعى الذى

وضع فيه .

- دائما تنحرف بنا عن متاع الحياة الدنيا !
- الصناعة المنقنة ، هي التي تستهويني .
- الامر لله . سأنحرم نفسي من المتعة . وأنعم معك بالصناعة !
- ألم يخطر ببالك يا ابا عبيد . ان المجر بلد شبه متخلف .
- ألم يخطر ببالك يا ابا على . انها كانت محطة بواسطة السلط
العثمانية ، تماما كما كانت مصر .
- لماذا ينهضون . وتختلف ؟
- هذا سؤال صعب . كل ما أستطيع قوله ، انهم ركزوا على الصناعة
وتخصصوا في انتاج القطارات ، ومعدات السكك الحديدية . فوصلوا الى
هذه الدرجة .
- الامر يتطلب نظرة اعمق . البلد كان متخلفا ، ونشوء هذه الصناعات
المتقدمة الثقيلة ، وتفوقها على انجلترا ، التي قامت فيها الصناعة منذ نحو
مائتى سنة ، امر جدير بالتفكير .
- انت يا عم ، متخصص ، وأنا مبتدىء .
- لا تضع هذا « الاكلميه » دائما ، تهرب .
- انا « مش تدك » .
- لكنك خطير . اعتمد ان للنظام الانتاجى ، وللنظام الاقتصادي
الاجتماعى دخلا في هذا الموضوع .
- هذه لمبتدئك .
- اعطاء وزن للصناعة الاناجية الثقيلة في نظام التخطيط . يعتبر
سببا من اسباب التقدم .
- لكن هذا سبب فنى . يتعلق بتخطيط الموارد .
- من الصعب فصل السبب الفنى ، عن الاعتبارات الاجتماعية

والغربة . فإدام الشعب يتلك ، ويسيطر على وسائل الإنتاج . جماعيا .
أذن نتائج العمل ، يستخدم منه جزء في الاستهلات الضرورى للناس قاطبة ،
وجزء بخصم للصناعة الثقيلة . فيسارع معدل التنمية . الانفاق الترقى
للفلة المسيطرة في المجتمع الراسالى . يضيع الموارد . وهى توضع في
الانماج الثقيل ، في الاقتصاد الاشتراكى .

- الحق ، أنك تشيرنى ، وتجر رجلى . اعتقد أن النظام الاشتراكى
للمجر ، وغيرها من دول البلقان ، شبه المخنفة . يثير موضوعا آخر
بمسلا بالفكرة العنصرية .

- الله يخرب عقلك . فكرتنى .

- لا . انتظر ، ياحلو ، لما أقول فكرتنى .

- تفضل .

- الانجليز والامريكيون ، أو الانجلوسكسونيون . والالمان الآريون ،
بهولون بأن القدرة على القيام بالمشروعات . والاهلية العلمية في الصناعة ،
محصورة على الجنس الابيض ! وعلى ذلك فسكان افريقيا . وآسيا . وأمريكا
اللاتينية مختلفون . لانهم اجناس ملونة . تجربة لبلدان ندحض هذا الكلام .
انت تعرف أن المجر . والبلغار قبائل جاءت من آسيا الوسطى . وبسلاد
المسؤول .

- اليابانيون مثال آخر . السبب الاكبر في تقدمهم أن بلادهم هى
الوحيدة التى نجحت من الاستعمار .

الحديث مفر . القطار يسرى في بسر . ثم يشعر . الا والقطار يقف
في مراغة . ترك حسن زميله . ينعم بالمقعد الاماخر ، والتكيف المنعش .
جذب بصره بمنظر الناس على الرصيف . كانوا لا يركبون القطار . هذا المجرى
المكيف ، مذاكره مرتفعة الثمن . لا يقدر عليها هؤلاء الحفاة . لابسو الجلابيب
الزرقاء الكالحة . انهم ينتظرون « القشاش » . قطار الشعب . هل فرض
على هذا الشعب أن يكون دائما شعبا من الدرجة الثالثة ؟

استغرق حسن في هذا المنظر وحده . ترك محمد عبيد ينام في العسل .
هذه الوجوه العظمية . الايدى المعروقة . الارجل المشققة ، ليست غريبة
عليه . شهدها منذ عشرين عاما في محطة القاهرة ، حين طارده الخواجة .
وطرده من وسيته . تطوع في الجيش . استقبلته محطة « باب الحديد » .
بممال الفراخيل . ضاقت بهم وسايا الاقاليم . نزحوا الى القاهرة . عاصمه
الموسية الكبرى . هؤلاء هم زملاؤهم . مازالوا يحملون العيش المصنوع من
الاذرة الحمراء . في قفف . واجولة ممزقة . امن الممكن ان يظل البؤس يفعل
افاعيله بهم ، بعد ربع قرن من الزمان ؟

انقذه القطار السريع الفاخر من المنظر ، الذي بدأ بمرح وجدانه .
ليس لدى هذا القطار وركابه وقت ، يفقدونه في النائم في المشكلة الاجتماعية .

أخذ القطار يطوى الارض . تجلجل عجلانه على القضبان . اخنرق
مركز مراغة في نحو ساعة ونصف — مائة وخمسون كيلو متر — تراءت له
مسور،ك الوسايا الشاسعة . قبل الاصلاح الزراعى : معظمها لاسرة واحدة .
منها شيخ للازعر ، وابن له وزيرا للداخلية . ما العلاقة بين المستغلين للاديان
والمستغلين للسلطة ؟ الفريقان يحميان النظام الاقطاعى الرأسمالى . يكفلان
له الامن . بعض المشايخ والتساوسة والاحبار ، يستخدمون الاديان
لاستغلال الناس . يحاولون ان يلبسوا الاستغلال رداء مقدسا . ابنساء
المشايخ ، الوزراء ، عن طريق العساكر والقهر . يحمون النظام . المنادون
بالعدالة في نظريهم ، مخربون ملحدون هدامون .

وصل القطار الى المحطة التالية . راي عمال التراحيل ، مرة اخرى .
منظر محمد عبيد النائم في العسل يستقره . لا بد ان يستيقظ ليشركه المشهد
المهم :

— محمد ، محمد .

تطوع وفرك عينيه ، ثم قال :

— ماذا ؟

- استيقظ لتري المنظر . .
- فتح محمد عبيد عينيه . اشار حسن ، يده الى المجموعات البشرية .
الى يغص بها الرصيف :
- اى منظر ؟ هؤلاء ناس .
- ناس ؟ هذا البشر المصوص . حامل الخبز الاحمر . الا يثيرك ؟
- الا تستطيع أن تخفف قليلا . فتريح وتسنريح ؟
- كيف . يا محمد . والانسان حولي ، لا يشبه الانسان ؟
- هل اخترتنى لارافقتك الى اسيوط . لانهث في عناءك ؟
- انك لا تعرف طعم الخبز . المصنوعة من الذرة الحمراء . لهذا
لم يمس المنظر وجدانك .
- يبدو أن هذا قدرى معك . لابد ان ندلف الى البؤس . حتى ونحن
في هذه العربية المجرية المترفة .
- بلغ محمد عبيد ريقه . « ودعك » عينيه بردة اخرى ، وقال :
- كنت أحلم احلاما وردية ، لأول مرة في حياتي .
- كيف تحلم احلاما وردية ، والدقيقة كلها أشواك .
- « من نفسى » يا أخى !
- فى الفترة التى نمت فيها فانك ظاهرة طريفه .
- عمال التراحيل فى المحطة السابقة ؟
- ليس هذا فحسب . لكن التطار مرق كالسهم فى اقطاعية مراغة
استغرق المروق ساعة ونصف .
- ماذا تعنى ؟
- هذا طول الاقطاعية التى كان يملكها المتحدثون باسم الاديان .
والمسكون بنامسية السنطة والامن .

— يبدو انك تخصصت في هذا اللون من الظواهر . انا لا أستطيع
مجاراك .

— هذه الظاهرة تكشف الذين يستخدمون الادبان لاستغلال الشعوب ؛
شيخ للازهر . وابنه وزير للداخلية يملكان آلاف الافدنة .

ايقتلت هذه الملاحظة محمد . وحينما يستيقظ نشط ذاكرته .

— المستغلون للادبان وللشعوب . وحلفاء الاستعمار ، الامطة عليهم ،
متعددة عبر التاريخ . نذكر موضوع الشيخ خلف . مفتى الديار المصرية
مع شركة الكوكاكولا الامريكية . دعا احمد حسين في حملته على انشركات
الاجنبية الى مقاطعة الكوكاكولا والبيسى كولا . وغيرها . لجأ هو ايضا
الى الدين . قال ان هذه المشروبات ، يدخل في صناعتها كبد الخنزير !

وفي اليوم التالي لم تبع هذه الشركات زجاجة واحدة . اوشكت على
الانفلاس . راس المال الاجنبى حليف لراس المال المحلى ، وللكهنوت الدينى .
في اليوم التالي صدرت فتوى من الشيخ خلف :

— القائلون بان الكوكاكولا . والبيسى كولا . وشبيهاتها مصنوعة من
كبد الخنزير . كذابون اشرون . هذه مشروبات حلال زلال ! ثم جاء بآية
من القرآن الشريف : « يسألونك ماذا احل لهم ، قل احل لهم الطيبات »
كان ابنه رئيسا لمجلس ادارة شركة منها :

— يابو حميد . ياواعر .

— لملك ترضى عنا .

— ليس رضاء ، لكنه اعجاب .

— نحن تلامذتك .

— لن تفيد من ذلك .

* * *

كان حسن ومحمد عبدي في طريقتهما الى مكتب البحوث . سمعا تصفقا

وهناك . توجهنا الى مصدره . حشد كبير . بخطب فيه المرشحون للجنة
الانحد الاشتراكي بوحدرة رئاسة الجمهورية .

قال محمد عبيد :

— لماذا لا نتقدم لهذه الانتخابات ؟

— هذه التنظيمات ، لا تقنعنى .

— أنت تسهم مع الثورة في بناء اقتصاد اشتراكي . لماذا لا نسهم

في الجانب السياسي ؟ امت لا تستطيع ان تعيش بعيدا عن الجماهير .

المرشحون وخطبهم . التصفيق والهتاف . حب العمل مع الجماهير .
اغراءت محمد عبيد . جعلته يدلى بدلوه . خطب . انفعل الناس . خاض
المعركة ... نجح وانتصر فيها . رغم انه من اسيوط . ويعمل باحثا بعيدا
عن الجماهير . وفي وحدة صعبة . انهزم فيها وكلاء وزارات !

ثم تقدم لانتخابات أمين الانحد بمصر الجديدة . دائرة شاسعة .
ثمانون وحدة أساسية : مصانع . مدارس . مستشفيات ، مصالح حكومية .
انتخب أمينا . أصبح جزءا من النظام السياسي . لم يعد نشاطه مقصورا
على الجانب الاقتصادي .

مصر الجديدة . الدائرة التي يسكنها الزعيم . يتول فيها أكبر عدد
من الناس لا « لعبد الناصر » في استفتاءات انتخاب رئيس الجمهورية !
نجمع فيها قوى عديدة . مضادة للثورة : عدد كبير من الراسماليين .
والاقطاعيين ، والتجار ، الذين أمتت ممتلكاتهم . فيها طوائف دينية . ناقمة
على الثورة . ومجموعة كبيرة من المنتقنين ، الذين لا يرتضون الحكم
الديكتاتورى العسكرى ، حتى ولو قام باصلاحات اجتماعية . هم يعيشون
الديمقراطية بغض النظر عن مضمون الحكم الاقتصادى الاجتماعى .

وكان هناك محام ، نتجمع حوله هذه القوى . يهزم في انتخابات مجلس

الامة ، شخصا يدعى حمادة شاهين منسوب للنظام .

جاءه الوزير عبد المجيد فريد . قال له :

— الرئيس يرى أن نتقدم لانتخابات مجلس الأمة . في مصر الجديدة
وأجاب :

— أنا غير معروف في مصر الجديدة . لم اتول الأمانة العامة للاتحاد .
الآن منذ أسبوعين .

— لا يهم . أنت من جامعة أسيوط . وفزت في انتخابات رئاسة
الجمهورية . ونجحت في مصر الجديدة كلها . فأصبحت أمينا .

— إذا كان لابد لي أن أتقدم للانتخابات . فدائرة بلدى كفر صقر أولى .
والناس هناك يعرفوننى .

— أنت مختار لمصر الجديدة بالذات ، لحكمة سنعرفها فيما بعد .

كانت أمه عشرة أيام محسوب : للقيام بدعايته الانتخابية . مسألة
شاقة . نهانون وحدة أساسية . دائرة شاسعة تضم منشية البكرى ،
ومدينة نصر ، ومصر الجديدة حتى المطار . المرشحان الآخران : زكريا
خسيس المحامى ، وحلادة شاهين يقدمان في الدائرة منذ ثلاثين عاما . خبرة
بالانتخابات . لديهما منيزات أحدهما يسيطر على القطاع الخاص .
والثانى : رئيس مجلس إدارة شركة كبيرة في القطاع العام . الأموال .
والانصار : والعربيات . تحت أيديهما . هو لا يملك إلا عمله . مسيقوم
باتصاله بالناس مشيا على الأقدام . ليس لديه سيارة . مازال يركب
الآوتوبيس . أو بعبارة « ادق » من « منشعبطى » الآوتوبيس . لقد كان
جنديا في المشاة ، حتى في نجيش . لم يكن جنديا راجيا !

بدأت المهمة الشاقة . زار المصانع . والمدارس ، والمستشفيات ،
والمصالح . كانت أسلحته : تاريخه . ومبادئه .

كان أروع استقبال له في المصانع . والورش . تحدث اليهم بلغة العامل
الى رفاقه العمال . ألم يكن عاملا في مزرعة الخواجة ؟ كشف عن عناءاتهم :

واقار امانيتهم . ذعب الى المدارس . تحدث الى المدرسين بلغة المدرس الزميل . اليس مدرسا في جامعة اسيوط . وفعل نفس الشيء مع العاملين في المصالح الحكومية . أسف . اذ لم يستطع ان يذهب للجيش : ليقول لاخوانه العساكر : انه عسكرى مثلهم .

أبرز هذا المعنى في لقاء انتخابى . نظمه الوطنى الكبير فتحى رضوان . كان مشرفا على الانتخابات في شرق القاهرة . قدم المرشحون انفسهم للجمهور .

قال يقدم نفسه : انه تتجمع فيه قوى الشعب العامل ، التى تمثلها ثورة يوليو . فهو من العمال ، والفلاحين ، والجنود ، والمتقنين جميعا . طبقة واحدة لم يسعده حظه بالانتماء اليها ، هى اراسمالية الوطنية !

هذه جولانه بالنهار . اما جولانه المسائية . فكانت لا تقل اثاره . جعل من مصر الجديدة ، ومطاهيها ، وشوارعها . شيئا اشبه بالحى اللاتينى في باريس . عندما كان خطباء الثورة الفرنسية يثيرون حماس الناس . يقف على الكراسى والمناضد ، والارصفة يخطب . ويشعل وعى الجماهير . اصبحت شوارع وميادين هارون الرشيد . والنزهة ، والاهرام ، ونورماندى ، وعثمان بن عفان . وروكى ، ساحات للخطابة .

لم يكن التنظيم الذى يعنى بحملته الانتخابية جيدا . بعض المنطوعين من زملائه اشتركوا في المهمة . المنطوع يشكر على جهده . بغض النظر عن النتيجة . مجموع أصواته نقل خمسين صوتا عن حمادة شاهين . اعيد الانتخاب بين حمادة وخيس . اعطوا لحمادة اصوات عساكر الجيش : رغم انه عسكرى . فال عددا كبيرا من الاصوات في فترة قصيرة . كانت كافية لفوزه . لولا اصوات العساكر ، وسوء التنظيم .

احدث اعطاء اصوات العساكر لزملائه لشاهين ، في نفسه الما . كان هذا من « شلة » سمير شريف ، احد المتربين من الرئيس .

بذل حسن مجهودا شاقا في المعركة الانتخابية . احدثت الهزيمة لـ
صدمة . « الشللية » هي العنصر الفعال . قرر ان يتخفف . اتفق مع
« اركان حربه ! » في المعركة . على ان يفادروا مصر الجديدة . الى مكان
مجهول . ليستريحوا من وعناء المعركة . اقترح ابراهيم العشماوى
« المحامى » ان يذهبوا الى منطقة القنأة في فايد . له « قلة » على القنأة .
على الماء مباشرة . القنأة تتلاشى في بحيرة التمساح . رقعة فسيحة من الماء
الهادىء الرقراق . اشعة الشمس حاتية . يزيد النسيم العذب من حنوها .
خلعوا لباسهم . ولباس الانتخابات . تركوا اجسادهم المنهوكة تدلكها
الشمس والماء والهواء . جاعوا بسك طازج . سعد لنوه من القنأة . اكوا
بشمية . نسوا الانتخابات .

بعد يومين من الاستلقاء على الشاطىء . بدات الوسواس تنخر في
الهدوء . قال حسن لزملائه :

— نحن نشكر ابراهيم « خليلنا » . لكنكم تدركون ان قوى النظام
الظاهرة والمستترة ، انبها وجنبا . يبحثون عنا الآن في كل مكان .
وقال ابراهيم :

— ومالم بنا ؟ خذلونا في الانتخابات . اخذوا اصواتنا ، واعطوها
لحملة شاعين .

— انا احس انهم سيطلبون منى ان اعاون شاهين ، في معركته ضد
خميس . والا سيفترسه ، كما فعل من قبل .
ورد عرب ، احد الاصدقاء . الذى اسهم معه في المعركة الانتخابية :
— دعه يفترسه .

— انتم تعلمون عقلية بعض المشرفين على هذا النظام . وهم لا يرجحون
اباهم . ونحن لانملك اسلحة غير ثقافتنا . وهى سلاح غير فعال . في الدنيا
التي نعيش فيها . انا اقترح ان نعود اليوم . فقد نعمنا بفترة استجمام
جديدة في فيلا ابراهيم الانيقة .

وافتقوا . شدوا الرحال الى القاهرة . المخابرات والمباحث ، القوى الخفية ، تتسلح بأدوات للمعرفة والتحري ، لا تنفوق عليها الا قدرة الله على علم الغيب . هذه القوى بحثت عنهم في كل مَآن . في القاهرة ، واسيوط . والشرقية . لا اثر لهم . اذن هذه القوى الرهبة ، احيانا لا تعلم . كانوا في مكان مفتوح للسماء والارض والماء . لم يكونوا في جحور .

الدنيا قلبت رأسا على عقب . سمير شريف . انصل بنائب الوزير في رئاسة الجمهورية . سألته عن حسن . التوتر بلغ اقصاه بينهما . قال سمير لنائب الوزير « اذا لم تكن نستطيع معرفة ابن حسن . فالاجدر بنا ان نصفى تواتنا ، ونذهب لمنزلنا » .

وعندما وصل حسن الى منزله ، وجد مظاهرة كبيرة : وزير الرئاسة . نائب الوزير . مدير وسكرتير ، وسعاة مكتب الوزير و'لائب . بادره نائب الوزير :

— اين كنت ؟

— في مسايد .

— لقد قلبت عليك الرئاسة البلد .

— البلد كلهما ؟

— لا وقت للهزل . اذهب مباشرة الآن الى سمير شريف . فقد جند اجهزة الدولة كلها للبحث عنك .

— انا متعب . سأذهب اليه غدا . الوقت متأخر الآن .

— لا بد ان تذهب فوراً . لا اريد ان اتول لك اكثر من ذلك . انهم يملكون ان يفعلوا اى شئ . انت استاذ ، وعامل ، ومكافح . الريح عاتية . لا تجعلها تعصف بك .

ذهب حسن في سيارة نائب الوزير الى سمير شريف . اعتذر النائب بأنه لن يصحبه : « الانسب ان تذهب وحدك » .

استقبله سمير شريف عند باب مكتبه بالاخذان ! وقله .

— اندرى لماذا اتبلك ؟

— لاني ثورى . وانت كذلك !

— لا . لاني نجت في مصر الجديدة !

— لكنى سقطت في الانتخابات .

— زلت عددا كبيرا من الاصوات . في دائرة صعبة . وفي فترة وجيزة .

ودون اتفاق هذا انتصار بقدره الرئيس ، والثوريون من حوله

— لكن الثوريين تذلوأ عنى . وتركونى في النضال وحدى .

— من قال هذا ؟

— قال لى البعض : اعطيتهم اصوات العساكر لشاهين . بينما انا

زميلهم : والجدير باصواتهم .

— ليس لك شأن بهذه الامور . انت نجت في مصر الجديدة . هذا

هو كلام القائد ، وهذا يكفيك .

— رضا القائد يفخر به المرء .

— القائد كذلك ؛ له تعليمات اخرى .

— انا على استعداد لتنفيذها .

— تقول التعليمات : ان تعاون حمادة شاهين . انت تعلم انه ينتسب

الى الثورة .

— لا علم لى بشيء . اذا كان ينتسب لى الثورة ، لماذا رشحتومنى

ضده ؟

نظر سمير شريف اليه بعينه البارقتين . ثم قال :

— حمادة شاهين كذلك ، عضو في التنظيم العلوى .

— أهو عضو ؟

انتقل سمير شريف من مقعده . ذهب الى منضدة مكتبه . ليحضر
مصحفا وليقسم عليه :

— وحياء هذا المدحرف لشريف ، ان شاهين عضو بالتنظيم . وان
الرئيس قال لي ، ان ابلغك بمعاونته في معركة الاعادة بينه وبين خميس .
اضطرب حسن لهذا السلوك . هذا الرجل ، يسمى اكابر الدولة للاتائه .
وهو يعين الوزراء ، ورؤساء المؤسسات ، وقادة الاجهزة الكبرى ، ويمسك
بقوى المخبرات ، والمباحث العامة ، والخاصة : السفلية والعلوية . هذا
الرجل يقسم بالمصحف : ان القيادة تدعوه لمعاونة شاهين ! تأثر كثيرا ،
وقال :

— لا داعى لان نقسم سيادتك . انا اصدقك . انت رسول القائد
الكبير لنا . فلست في حاجة للقسام على المصحف . وما انذا رهن اشارتك .
ما هو لون المساعدة التي تريد تقديمها لشاهين ؟ هل انزل بثقلى كله خلفه ؟
اي هل اؤيده تأييدا كانيا لانجاحه : اى اعطيه مجهودا وسطا ؟

دهش حسن كثيرا : اذ كان الجواب :

— اعطه فقط جرعة تبيد متوسطة ، كانية لانجاحه !

— لك هذا . وشكرا على استقبالك ، وعلى قبلك التي اسعدتني
. كثيرا .

— « وانت لسه شفت حاجة . ده فيه تبل اشد ! » .

با سائر يارب ! ودعه : وانصرف . لا بدرى ان كانت القبلة قد اسعدته
حقا . على الرغم من ان سمير شريف : كان وسيما ، وردى الخدود ،
منسباب الشارب ، الا ان ملمس قبلته كان شائكا . والله وحده يعلم مدى
لمسها الخفى .

انغمر في موكب حمادة شاهين : يدعو له الناخبين . ويخطب في

تجمعاته . كانت العبارة التي يرددها . ولتى يبرر بها تأييده لخصم الامس :
« انكم اخترتموني ، لانى كنت احمل علم الاشتراكية خفاتا . الهدف ان نظل
رايات الاشتراكية مرفوعة ، ممتشقة . انا اقدم اليوم لكم من يحمل الراية .
وسيان حملتها انا ، او حملها رفيق ! »

كان يثق بقائد الثورة ثقة كبرى . ولو أنه لم يجلس اليه جلسة خاصة
« راسا لرأس » ، كما يقول الفرنسيون . اعضاء مجلس الثورة ، رئيس
الوزراء ، وزير الرياسة ، يحملون اليه انكاره . لهذا عندما كان يدعو لشاهين ،
لم يكن متصنعا . كان يعتقد ان هذا الرجل ثورى ، مادام الرئيس يرشحه .
الحق ان هذه القناعة لم تكن راسخة في وجدانه . فالمظاهر التي تنطخ على
شاهين : لفلة الانيقة ، السيارة الفارحة . العمارات الشاهقة ، رئيس
مجلس ادارة لشركة كبرى ، تعمل في عشرات الملايين من الجنيهات ، القطاع
العام الذى يبرح فيه . كل هذا كان يشككه في انه ثورى او اشتراكى . لكن
الايمان الثام بالزعيم غلب على قناعاته .

اكتسح شاهين منافسه خميس . اول مرة يفوز عليه . رضيت الرياسة
بناجحه ورضيت عن حسن . وبرضاها ، نرضى كل درجات القيادة .



عظمت . يكتسبها من المعركة الانتخابية . بينت له ان الشعب ،
بكادحيه ومنتقيه ، يستجيب للمبادئ الثورية . من الممكن ان يتكلم ليتحرر
من الاستغلال . الناس ينفون حوّل الانسان شفيف الوجدان . الذى يضرب
على اوتار معاناتهم . ويعزف على نغمة الحق ، والخير ، والجمال . الحق في
ان يملك الناس جيما واردهم . ولا تفتصبها القلة الشرهة . والخير في
انقسام الدخل القومى تسمية عادلة : لا تسمه ضيزى . والجمال الذى
يرتفع بالمجتمع الى مستوى ينعدم فيه القبح والاستغلال .

اكتسب تجربة الفوضى في مكونات الناس . زارعهم في الورش .
والمعامل . والمصانع . وحجر الدراسة . وعذاب المرضى . احسن نبضهم .
اصبح جزءاً من نضجه . بان له ان احلال نظام عادل محل نظام ظالم . لا يتم
الا بالجهامير . التي تحتشد للتحرر من ظالمها .

تعلم ان الناس ليسوا كلهم فاسدين . ومرتبين . ومرتزة . تجمع
حوله نفر من المنقنين ، والعمال ، والطوائف الشعبية ؛ دون ان يعرفهم .
التقوا حوله . لم يكلفوه مليماً . فهو ليس لديه ملائم كثيرة . كانوا يأتون
من كل فج ، من احياء القاهرة البعيدة ، ومن تربته ، والثرى المجاورة لها .

اصابته رعشة هزت كيانه . رأى في موكبه الانتخابى ، زميلين له في
وسية الخواجة اليونانى : محمد محود الفلاح . ومحمد خطاب الخفير !
اخذهما بالاحضان . كان يحضن نضالا عمره ثلاثون عاماً :

— لماذا تحضران ، وتعبان . وقد تقدم العمر ؟

وسمع صوت محمد محمود :

— ان لك فى عنقى جيلاً ، سيظل معلقاً به الى انلقى ربي .

— استغفر الله — يا عم محمد — ما صنعت شيئاً .

— انذكر شوال الاذرة ، الذى « سرقته » لنا من مخزن الخواجة فى

جنىح الليل ! اطعمنى ، واحبانى ، وبناتى .

— الاذرة كانت من حقك . نهب الخواجة عرّةك ، فرددته اليك .

— لكنهم يمتبرونها سرقة . ولو ضبطننا كان محيرنا السجن معاً

— ربنا سترها هن مازلت فى وسية الخواجة اليونانى ؟

— هجرتها ، بعد ان اشتدنا الجوع ، وازدادت تسوء الخواجة

وقد حيدت الله على تركها .

— أين ذهبت ؟

كنت محظوظا . انتقلت الى نفتيش الامر محمد على . المجاور لارض الخواجة .

— هل تستجير بالامير بن الخواجة ؟ !

— ربنا كان يحبنا . فانا انتقلت من عزبة الخواجة . واستاجرت فدانيين من نفتيش الامير . وبعد سنة واحدة ، نفذ جمال عبد الناصر الاصلاح الزراعى . وكنت محظوظا اذ اصبح الفدانان ملك لى .

— وكيف حالك يا عم محمد ، بعد الاصلاح الزراعى ؟

— الحال عال العال . الفرق كبير ، مين أن نزرع بالمزارعة . او بالاجار المرتفع عند الخواجة او الامير ، وأن تكون الارض ملكنا . لم يكن يبقى لنا شيء كما تعلم . كان الخواجة ينهبنا بالقانون وبالسرقة . واثت تذكر أنك رحمت ضحيتنا . كنت تود ان تحافظ على محصولاتنا ، وتجري لنا حسابات امينة ، فطردك الخواجة .

— يبدو أنك سعيد يا عم محمد .

— طبعا . الارض ملكى — فدائان — محصولهما يدخل دارى . وتطنها ينفق على عيالى . لم تعد المسنة « فاضية » ، كما كنت تراها . ولم يعد هناك كلاب تاكل « الحمام » ، ونموت نحن من الجوع . وهنتف محمد محمود هتافا ، كان قد ابتكره صديق « وكل لثائب العام ! » : « عاش مدرس الاشتراكية » . وردد الناس الهتاف .

قال حسن لمحمد محمود :

— مازال هناك كلاب تاكل الحمام يا عم محمد ؟

— على الاقل ، اخفنت الكلاب ، او عدد كبير منها ، من الريف .

— احسبك الآن تاكل لحمة وخضار ، بدلا من العيش الاذرة والمخلل .

— طبعا الاكل تحسن ، ولكنه مازال متواضعا : ناكل لحمة مرة كل

سبوعين ، كل ثلاثة : كل شهر . لكن « العيش » موجود وخير الله عال .
نظر محمد محمود الى حسن بعينه الصغيرتين ، اللتين احاطهما
الزمن والوسية . بهالة سوداء . وقال :

— « الاشيا معدن » . يدوب الفدانين يكتونا لحمة في الشهر مرة .
كنا لا نذوقها الا في المواسم !

اعطى الرجل : الذى لم يظهر اثر اللحمة الشذرية على جسده العظمى ،
صورة معقولة لفلاح الاصلاح الزراعى . قارنها حسن بدراسة قام بها عن
الفلاحين . وجدها قريبة . يظهر ان الفلاحين يعرفون ما يعرفه « المشتغلون
بالعلم » !

كان محمد خطاب ينمر للحديث . الرجل الذى كان توبا . عريض
الفكن : اسود الشعر ، في الوسية اليونانية ، غضنه الزمن . وسكب على
راسه ولحيته لونا كالحليب . مازالت عيناه بريقان حيوية وذكاء . عيل
سبره ، طالت المناقشة مع محمد محمود . وهو يتوق للكلام مع حسن .
التفت اليه وقال له :

— وانت يا عم محمد خطاب . ماذا فعل الله بك ؟

— خيرا ، « ياسيدنا الافندى » .

كانت كلمة « سيدنا الافندى » ، او « أفندينا » . هي لغة الخطاب
بينه وبين حسن لما كان ينام معه في جرن الوسية :

— عل مازلت في وسية الخواجة . خفيرا للجرن . تحرس الخيرات ،
وتقال منها نصيبك ؟ !

ضحك الرجل ، ضحكه الرزينة القديمة . لكن الضحكة الآن جعلتها
الايام ! لم يعد الضحكة القوية ، التى كانت تنفرج عن اسنان وضروس
كضروس النور .

— انت لسة فاكـر — يا أفندينا — زمان العز امضى !

— هل تركت الوسية ؟

— للاسف فلم اتركها .

— هل استولى عليها الاصلاح الزراعى ؟

كم كان حسن يود . ان يكون الاصلاح الزراعى ، قد اخذ ارض الخواجة . وردها الى الفلاحين اصحابها الحقيقيين . وانهى سنين طويلة من القهر والاستغلال .

لكن محمد خطاب اخبره :

— لسوء الحظ . باع الخواجة ارضه ، قبل تنفيذ الاصلاح الزراعى . بهده . ولم يكن حذلى سعيدا . كمحمد محمود . انت تعلم . اننى تنقلت بين وسايا الخواجات ، والباشوات ، والملك ، قبل حضورى الى وسية الخواجة اليونانى . كتبت برمت بالترحال . فاردت ان استقر فى وسية الخواجة .

وتدخل حسن مازحا :

— لتظل متصلا بخيرات الجرن ، وانت خفيه . وتنعم بها ؟

لم يحدث التدخل الاثر الفكاهى ، الذى قصد اليه حسن . بل مسرت من الرجل امة من اعماق صدره . ومضى يقول :

— ... واعقب ذلك ان باع الخواجة الارض لبعض المصريين الاثرياء . قطعا تتراوح مساحتها بين مائة فدان ، وخمسين فدانا .

— اذن انت تحرس الخيرات فى وسايا اصغر .

— الملك المحبريون المتوسطون هؤلاء . لا خير يرجى من ورائهم . يشرفون بانفسهم على ارضهم . ليس لديهم احران كبيرة ، ولا خيرات . ولا خفراء . بعضهم يحرس ارضه وجرنه بنفسه . البركة فى عبد الناصر . تضى على الانتطاع ، وقضى علينا . وزال المجد !

— وماذا تفعل اذن . وقد كانت وظيفة الخفير ، تمثل بالنسبة لك الحياة والمكانة الاجتماعية المميزة . وتخولك الانصال بالخيرات .

— هذا قضاء الله . أنا لأن فلاح عادى . استأجر واولادى . ثلاثة
الهدنة من أحد الملاك المصريين ؛ ندفع ايجارها . وما يتبقى بعد الايجار ،
لا يكاد يكتفى لاكلنا وعيشنا .

— أنا آسف يا عم محمد . هل عدت الى الخبز الذرة ؛ وراحت ايام
الخبز الطرى المصنوع من القمح . الذى كان يؤخذ من جرن الخواجة ليلا .
— ماذا اصنع وهذا مصرى ؟

وأحب حسن ان يهزل معه ؛ ويذكره « بفلسفته » فى الايام الخوالى ؛
— اذن اصبحت من « العبيد » يا عم محمد . الا تذكر أنك فى حديثنا .
كانت تطلق على الفلاحين . الذين يرضون بالخبز الاذرد والمخلل . «العبيد» ؟
لم تخف العبارة عنه ، بل تكأت جراحه وسمع حسن صرير اسنانه .
كان صريرا عجوزا ضاعت منه رنة الشيايب . كان الرجل وعرا لم تستطع
السنون ؛ ولا ضباغ الوسايا ؛ ومجد الخفراء القديم . أن ينال من شخصيته .
وبدا لحسن ان كلمة « العبيد » ؛ التى يريد ان يخلعها عليه الآن قد آلمته .
كان حسن يقصد المزاح . الرجل العنيد يرد لحسن الوخزة ؛ بذكاء وادب ؛
— « اليوم اللى بفوت ما يجيش احسن منه » . لهفى على الايام
الغابرة الجميلة ، والخيرات المكومة فى الاجران . رحم الله ايام اخبز
المصنوع من القمح ؛ « والفطير المشلتت » !

وكزت الفكرى حسن . كان صبيا ، نقى النفس ، يخاف من الحرام .
حرم الله السرقة فجبب الا يقترفها . « احرر » الموسية ؛ الباشكاتب .
والباشخولى . الخفراء . اغروه بالسرقة . قالوا له ؛ الباشكاتب القديم
كون من السرقة ، خمسة عشر فدانا . اراد محمداً خطاب الخفير ان يفحمه ؛
ويجعله ؛ ولا خيار له . ارسل زكية من القمح الى اسرته . طحنتها .

وصنعت منها فطيرا مثلتنا . اكل منه وهو لا يدري . تسائل عن مصدر القمح . اخبروه عن منحة محمد خطاب ، التي اخذها من جرن الخواجة ليلا

ما زال الرجل واعرا سألته :

— اما زلت . يا دكتور — « بلاش افندينا بتى » — تعتبر ان اخذ قمح الخواجة سرقة ؟

تردد حسن في الاجابة . ثم قال :

— الحق يا عم محمد ، انك لم تكن مسارقا !

— الله اكبر . عاش نائب مصر الجديدة . عاش مدرس الاشتراكية .

ثم قال محمد خطاب راضيا ، متخذا صفة الاب في خطابه لحسن :

— ألم اقل لك يا بنى ، انك كنت صغيرا ولا تدرك الحرام من الحلال .

— دعنى ابين لك يا عم محمد : الجزء الحلال من الجزء الحرام .

— ليس هناك اى جزء حرام !

— « طول بالك » .

— تفضل .

— الجزء الحلال ، ان الخواجة اغتصب الارض الوطنية . وانه يعنصر عرق الفلاحين . ويكون منه ثروة . والقانون الذى وضعه ، ملك الوسية وحاكموها . يحى سرقة الارض ، واستلاب عمل الشعب . وهذا يشبه اعمال العصابات . ما الفرق بين ان تنهب عمصابة اموال الناس في وضح النهار . وتستخدم الاسلحة ، في سطوها . وعمصابة اخرى تنهب الارض ، ونتاج العمل . وتحرسها القوانين التى وضعتها واسلحة المساكين ؟

اذن استرداك لئمال من الخواجة لبس سرقة . فهو مال مغتصب اسهمت فيه انت واولادك بجهدك .

— الله يفتح عليك .

وتفكر الرجل الاثيب ، العريض الفكين مليا ، ثم قال :
— هل كان يجب ان تحصل على الدكتوراة ، لتصل الى هذه النتيجة ؟
لقد وصلت اليها وانا امي !

— هانذا اعترف ... لكن

وقاطعه محمد خطاب قائلا :

— ليس هناك لكن . انا اعرف ما نود قوله : تريد ان نقول اننى كنت
اسرق محصولات الخواجة . واسترد حتى منه . لكننى اسرق حقوق
الفلاحين ، وناجح كدحهم .

— الله ينور عليك .

— يا استاذنا — فقد أصبحت استاذنا وكنت في الوسبة افندينا ! — انا
سلطنى ، وانا خفير ، وامسك بندقية ، نفذتها في حدود ما أستطيع . وفي
دائرة اختصاصى . انا لست صاحب نظرية انسانية واجتماعية مثلك .
ليس لدى معايير او مكنيل ، لانصل بين اموال الخواجة ونصيب الفلاحين .
الفلاحون سابتون عن حقوقهم . راضون بمصيرهم . ولست زعيما فلاحيا ،
لا تودهم للتحرر . الساحة مفتوحة امامهم ، لاسترداد ناتج عملهم لست انا
مسئولا عنهم .

كان الحديث شهيا . الذكريات تترى عليه وتسعده . كان الموكب
قد اوغل في شوارع مصر الجديدة . فوجىء حسن بانسانة لم يتوقع ان
تسبم في موكبها : امه :

— كيف يا امه تتحبين مشقة السفر ، ثم تسيرين في الموكب ؟

— لمن غيرك اتعب ، وافرح ، واهتف ؟

— السنن يا امه .

— لا تخف ان عظامى قوية !

— لا يا امي . سأطلب من اخي فيصل ان يصحبك الى البيت ؟

— أتريد أن نحرمنى من هذه السعادة . وقد تقدم العمر !

— قال لها فى صوت خشنه القاتر :

— بارك الله فىك يا اماء .

هتفت امه تحيه :

— عاش مدرس الاشتراكية !

ردد الهتاف المشتركون فى الموكب . وتأثروا بهتافها كثيرا . وتساطا
من السيدة العجوز دمعات صاقيات من ماتيتها . وسألته فى انفعال :

— « اشتراكية يعنى ايه يا بنى ؟ »

— سأشرح لك عندما نعود الى المنزل .



لم تستطع برندا ان تسهم فى الانتخابات . ولكنها لم تقنع بأن تكون مجرد
زوجا لرجل يشارك فى الحياة العامة . أرادت ان تتوم بدور فيها . بطريقتها
الخاصة . بالفن الجميل . الذى استطع ان تبدع فيه .

وضعت فيها فى خدمة الثورة . أقامت معرضا للوحاتها . رسمت
لوحات للسد العالى ، وللتننيع ، وللإصلاح الزراعى ، وللعنوان الثلاثى .
ومعركة قنّاذ السويس ، بلندن وبورسعيد . وضعت المجتمع المصرى السابق
على النورة فى لوحات دامية : هياكل بشرية عظيمة . تفتش الطرقات .
وقفت مرة عند مشهد من هذا النوع : وهما خارجان من دار للسينا .
نسمرت فى مكانها : كانت اللوحة البائسة ، لثلاثة أطفال . كونوا شكلا
هندسيا ، يزرى بالانسان ، وينظمه الاجتماعية جميعا .

أفتتح وزير الثقافة المعرض . زاره فنانون من كل مكان . وكذلك
الجماهير . هذه هى « الأجنبية » ، الذى كان حسن يشفق من زواجها .
خوفا على مستقبله السياسى .

سعدت برندا بالاستقبال الحافل لمعرضها . بوساطة وزير الثقافة ،
وفنانى محر وجيهورها . هذا لا يحدث فى انحلترا ، فيما يتعلق بالفنانين
المبتدئين . شجعنا ذلك على أن تخلد حركة التحرير فى مصر فى لوحة منحونة
كبيرة . المجهود الفننى هذه المرة ، نحت . عمل كبير ، أطلقت عليه « يقظة
مصر » . ينحت على حائطكبير طوله عشرة أمتار ، وارتفاعه ثلاثة ، يعلق
فى صالة كبيرة بالمدرسة .

كان الناظر متحمسا . عاونها فى شراء المواد اللازمة . بذلت برندا
وزملاؤها من مدرسى الفنون ومدرساتها ، جهدا خارقا . استمر عامين
طويلين . صورت مصر ، فى وسط اللوحة « رجلا ! » على خلاف المألوف .
الفنان مختار صورها فى شكل امرأة ريفية . فى تمثاله الشهير « نهضة
مصر » . خرجت برندا على هذا الاتجاه . رأت أن مصر القوية . يجب أن
يمثلها رجل !

والرجل هنا من يمثه : العمال — الفلاحون — الموظفون — المثقفون ؟
حقا أن الاغلبية هم العمال والفلاحون . الا أن الذى يمثل مصر ، يجب أن
يجمع ملامح كل العاملين فى مصر . نحتت مصر ، رجلا ، قوى العضلات ،
حلو الملامح ، سارمها . مرفوع الهامة . رافعا ذراعيه . ليمسك بالشمس
فوق رأسه . قيد حديدى فى معصبيه . القيد يحطمه فلاح على يمين «محر» .
بفأسه . تساعده فلاحه . رشيقة شامخة . نبتق سنابل القمح ، ولوز
القتلن الناصع ، من بين قدميها . ويحطم القيد من اليسار عامل صناعى
مطرقتة . تسهم معه زوجته وولده الذى يحمل كتبه بيد ، ويشير بالأخرى
الى « مصر » . تحيط بالعامل مصانع ، ومدائن ، وسد عال ، يتدفق منه
الماء والكهرباء .

انتمت برندا العمل . لكن فاجأها وزوجها ، حادثات . ذهب حسن
بعدها ليعمل فى الامم المتحدة . رانفته ، ومعها « رقيق » و « شيرين » ،
النى أنضمت للأسرة أخيرا . تركت اللوحة قطعا جاهزة للت تركيب . أوصلت

الناظر بها . المطلوب فقط نعليقها . وعدها الناظر بان يتولى ذلك . خلال وجودها في الخارج . ظلت تكتب خطابات بنظيفة ومستترة للناظر . ولزيملائها في المدرسة . سأل عن اللوحة ، لم نلق خطابا واحدا .

جاءت في اجازة لمصر — بعد سنتين سوجدت قطع اللوحة مبعثرة في فناء المدرسة تعلوها الرمال والتراب . وتطاها أقدام التلاميذ ، والمدرسين والمدرسات . فجمعت برندا في وليدها . وضعت فيه عصارة جهدها وابداعها . الناظر القديم احيل للمعاش ، الناظر الجديد لا يهوى الفن ! ذهبت اليه ضارعة ان ينقذ منا تدوسه الاقدام . عمل انساني ، عضلى وذهنى ، يصور مصر التي نتحرر . وعدها . لم يكن وعد الحر !

انقضت الاجازة . رجعا الى عملها . كتبت للناظر . وغيره ، دون جدوى . عادت في اجازة اخرى . بعد سنة . لم تجد القطع مبعثرة في فناء المدرسة . توقعت ان نجدها معلقة . ذهبت الى المعرض ، وصالة الرسم ، والى كل مكان . لم تجد شيئا . الناظر لا يدرى . مدرسو الرسم ومدرساته لا يعرفون . حزنت برندا . حزنا شديدا . ثم لجأت الى الاحلام ! لعل اجد هواة الفن الجليل وجدها ، واخذها . وعلتها في مكان ما ، لينعم بها ، وينعم بها معه الذين يسعدهم الفن . « اذا كان الامر كذلك ، فمجهودى ليس ضائعا ! »

* * *

لجنة الاتحاد الاشتراكي بمصر الجديدة ، مكونة تكوينا عجيبا . عددها عشرون عضوا : سبعة منهم لواءات ، وعامل واحد . رغم ان القانون يعطى ٥٠% من عدد الاعضاء للعمال . الباقى مهندسون ، ومحامون ، وصحفيون ، ومدرسون . واعتبروا كلهم عمالا . جزع حسن ، لا من التركيبية الغربية ، فهذه مالوفة في كل مكان ، ولكنه جزع لامر آخر :

في جلسة من جلسات اللجنة . خاطب اللواء أبو المعطا ، زميله
اللواء فؤاد كالأتي :

— انا اتفق معك يا باشا .

فريد عليه :

— اشكر سعادتك .

واذا باللواء عثمان اغا يختلف معهما في الرأي ، ليقول :

— انا لا اتفق مع البشوات : أبو المعطا ، وفؤاد . فرائي كذا

ويتدخل اللواء نصار ، ليمطى رأيا توفيقيا :

— الخلافه الذى ثار بين البشوات هو خلاف ظاهرى ! . . .

مجمعت المناقشة حسن . أثر . على غير عادته ، الا يتحدى لهذا
الموضوع مباشرة . هؤلاء سبمة لواءات ، يمكن أن يهزموا دولة بالجيوش
الجرارة التى يتقودونها ، او التى كانوا يتقودونها ! الحق ، أنه لم يكن
يخشى اللواءات . لكن مقرزا الم به . اللجنة التى تبث الفكر الاشتراكى .
في دائرة من اهم دوائر القاهرة — دائرة الرئيس نفسه — يديرها البشوات .
وجد حلا وقتيا ممتذا . قال لزميله عرب . لذى عاونه في الانتخابات :

— تفضل ايها « الفريق عرب باشا » ! راراس الجلسة . فانا متعب .

وانسحب من القاعة . كان صديقه عرب اذا عيا وصحفا . لكن
النظم يعتبره « عاملا » . وكان وكيلًا للامين .

* * *

كيف يمكن لهذه اللجنة أن تبث الثقافة الاشتراكية بين الناس ؟ أقرر
ان يضطلع هو بالمهمة . نظم موسما ثقافيا . دعا اليه محاضرين من
الاشتراكيين : علميين وغير علميين . اجتذب الموسم عددا غفيرا من جماهير
مصر الجديدة .

وفي ليلة من الليالي . بينما الجماهير مسدفة في الاستماع الى محاضر جليل ، اذا بهتاف وضجيج خارج اسوار المدينة . التي كانت نلتى فيها المحاضرة . توقف المحاضر عن الحديث . اتنح شخص يدعى حسين الاجتماع قال لحسن :

— حمادة بك شاهين حضر !

— « طيب وايه يعنى » .

— « ايه يعنى ازاي » ؟

— قل له بتفضل يدخل بهدوء . ومن معا . يجلسون في المقاعد الخلفية . حتى لا يشوشوا على المحاضرة . وعلى نسامعين .

ارتفع صوت حسين ، وازداد وقاحة :

— كيف نقول هذا الكلام ؟ وهذا حمادة بك . وليس شخصية عادية .

— الثورة الفت الانقلاب .

— هذه سفاسف !

لم يستطع حسن الصبر . صرخ في وجهه :

— انت تسمى قرار الثورة سفاسف ؟

ارتعش ذنب « حمادة بك » . ولى مسرعاً . يبلغ سيده ما قاله له .

راى حسن حمادة شاهين ، يتسلل الى عمد خلتي ، ويلحق به

تابعوه . مكتوا بضع دقائق ، يستمعون الى المحاضرة . لم يعوها . ثم انصرفوا .

اهذا شاهين ، الذى اتسم سمر شريف على المصحف . بأنه نورى ،

ومن الجهاز الطليمى وان الرئيس بوصى بانتخابه !

نسى حسن هذه الحادثة . لكن شاهين لم ينسها . لم يكن الامر

مقصوراً على الناحية الشخصية : ينكر عليه لقب بك . لا تتوقف المحاضرات

عند حضوره . لا يخلو له مكان في الصدارة . لم يهب الناس واقفين لاستقباله . هذا كلام يؤلم . لكن الاثم الحقيقي ، هو أن حسن يضرب بمعاوله لدهم مجده . مصر الجديدة التي يتبوء عرشها . ترشك أن تضيق . وينهاوى صرح المجد .

بدأ شاهين ، يلجأ الى وسائل غريبة . اعوانه يمزقون الاعلانات ، عن محاضرات الموسم الثقافي . يدعون اندسارهم لمقاملتها . يبعثون بحواربيهم الى المحاضرات للتشويش على المحاضرين . شاهين مخفف تماما . ناكز لكل هذا . أركان حربه حسين هو الذى يقود العمليات .

* * *

لكن مصر الجديدة ، دائرة على انساءها ضيقة . يريد للتثقيف الاشتراكي ، أن ينتشر بين الشباب على نطاق اكبر . وخطرت له فكرة : السيد الاستاذ الدكتور رئيس جامعة القاهرة . تحية طيبة وبعد :

تعلمون سيادتكم ان الفكر الانساني ، يتكشف النظريات العلمية ، التي تنظم المجتمعات البشرية . قبل تطبيق تلك النظريات بزمان طويل . هذه التاعدة يحدث عكسها تماما في مصر . اتخذت الحكومة خطوات نحو التقدم بالمجتمع المصري ، وبنائه بناء اشتراكي .. فأصبحت ملكية الشعب لوسائل الانتاج تشمل معظم القطاع الصناعى والتجارى . والقطاع الزراعى ينقى من الانتطاع . يحدث هذا والعلوم الانسانية عندنا . وبصفة خاصة ، الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، متخلفة .

لا يليق مثلا ، أن يركز الاساتذة ، فحسب ، على الفكر التقليدى الراسمالي . او على المدرسة الحديثة التي تستهدف انقاذ النظام الراسمالي من البطالة والانهيار . يبدو أنهم لا يعلمون ان هناك فكرا يغفل أكثر من نصف العالم . فكرا اشتراكيا ، أتمام دولا ، وحقق نقدها ، وحرر شعوبا . يجب على العلم والفكر ، أن يستبقنا للاحقا التطبيق على الاقل . وينيرا

السبيل امامه . ويسهما في بناء مجتمع جديد . خال من الاستغلال . ان التطبيق لذى لا يتوده فكر واع ، ومنهج علمى ، قد ينخبط به الطريق .
انى ااترح عليك : ان تعقد مؤتمرا . يضم اسانذة الجامعات ، لتغيير مناهج الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسبسية .

مع موفور احترامى

المخلص

د . حسن خالد

المدرس بجامعة اسويط

والمندب بمكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية

تحرر فنانا من امر هذه الراسمالية : الاسانذة يصرون على تدريسها دون غيرها . التطلع اليها يبرق في عيون الناس . لا تهذب المعانى الطوة ، كالعلم ، والدين ، والانسانية ، منها ، لدى عشائتها . لا شك ان الاسانذة يعلمون ان الراسمالية ، تعنى ان طبقة ، تنعم ، وتترف ، وتحكم ، وملايين من الشعوب تجوع ، وتتعرى . وتعرض . يعلمون ان الراسماليين يمتصون دماء الملايين . ليس من الضرورى ان يكون الامتصاص ، عن طريق غرس الايناب مباشرة في العروق . العبرة بالنتيجة . هم يستغلون عمل الملايين . يستنزفونه . يحرمونهم من استخدام ما ينتجون في الحصول على غذاء صحى .

مدير الجامعة — الذى يكتب اليه — عالم كبير كلاسيكى . العلم هالة يحبط بها نفسه . يعطيه مركزا اجتماعيا . يضاسف الى ثروته الموروثة والمكتسبة . حتى الثروة الموروثة بثروة جديدة ، ماى له من كتبه . الكتب ذات السوق المحتركة . سوق الطلاب : الذين لا يستطيعون مناقشة سعر الكتاب ، الذى يفرضه الاستاذ والناشر .

على ان الرجل كان جليلا — بمقاييس الجلال المألوفة في المجتمعات

المختلفة . كانت له مع حسن عسة . كان اسناذه في جامعة الاسكندرية .
عميده في كلية الحقوق . جرت بينها حوارات ، واصطدامات . نظم حسن
مناظرة في كلية الحقوق ، في الاربعينات . والدمراع مستعر ضد الملك
والانجليز . وصف فيها كلية الحقوق بانها مؤسسة لتشريع الجوع ، ونفقيه
البؤس . والمنظر لمجتمع « الوسية » . كان العميد يكره كراهية شديدة ،
هذا اللفظ ، لدرجة أنه في حوار مع حسن ، في مكتبه الفاخر ، قال له في
صراحة :

— انبا اخى عندى وسية !

غضب العميد الى جانب هذه الفضية الطلبة ، غضة حرفية : كيف
يجرؤ « امباشى » ان يهاجم الكلية التى يتعمد عليها ؟ !

دارت هذه الخواطر في راس حسن ، حينما فكر في الكتابة الى مدير
الجامعة . كان يدرك انه اذا وقع الخطاب « كمدرس بجامعة اسيوط »
فحسب ، سوف لا تكون له قيمة كبيرة . لذلك نجده يضيف بدهاء الخبر
عبارة « المنذب بمكتب الرئيس للبحوث الاقتصادية » ! كانت هذه العبارة
هى التول الفصل . هو يعلم نفسية اسناذه . ونفسيات الاساتذة . بعضهم
لا شك ذو كبرياء . لكن كبرياء رئيس الجامعة مشروطة : الولاء للنظام ،
حتى ولو كان ظاهريا ، امر لا مناص منه ، لارتقاء المناصب العلا . النظام
ينادى بالاشتراكية ، يجب ان ينادى بها .

هذا « الولد » المدرس بجامعة اسيوط ، متى أصبح مدرسا ؟ الى
قصة معه . هل مازال يذكرها ؟ كان حسن قد اعتزل بحجة معرفته لبعض
الاخوان الهاربين . نبالعلمه ان العميد « العالم » ، قد تعاون في هذا الامر
مع القوى السفلية لمجتمع الوسية . على أنه لم يكن يحمل له أية مرارة .

احدثت عبارة العمل في رئاسة الجمهورية ، الناثير الذى اريد لها ان
تحدثه . بعد اسبوع واحد ، جاءه خطاب من راس جامعة القاهرة .

بدموعه الى مؤتمر يعقد في الجامعة . يحضره الوزراء الاقتصاديون ، ومديرو الجامعات . وعمداء كليات الاقتصاد والحقوق والتجارة . ورؤساء أقسام الاقتصاد فيها . عندما وجد نفسه بين هؤلاء الفطاحل ، شعر بفخر طفولي ! مدرس بين جهابذة . على ان مرحته كانت ومضة مالبثت ان خبت : دعى مدرس بين « العمالقة » : لانه يعمل في رئاسة الجمهورية !

قدم مدير الجامعة المهمة المندى بقوله : « نجتمع اليوم لنعيد النظر في مناهج الدراسات الاقتصادية : كي يسهم العلم في بناء « اشتراكيتنا » ، ونحت كلمة « اشتراكيتنا » ، قال — وتبعه بعض الاساتذة — كلاما هلاميا . وجاء دور حسن في الحديث :

— « نورة ٢٣ يوليو . تسبق الفكر والعلم في الجامعات . ومع ذلك فنحن لا نحتاج لنورة يوليو : لنقول لنا درسوا الاشتراكية . جامعات باريس ولندن وأكسفورد وكامبردج ، والجامعات الامريكية : هارفارد ، وستانفورد . وحتى شيكاغو ندرس الماركسية . فيها اساتذة متخصصون في الاشتراكية العلمية . ومعاهد واقسام خاصة بها . تشرحها شرحا امينا . وتنفدها نقدا امينا كذلك . هذا في البلاد المتقدمة التي نافع عن الرأسمالية والاستعمار . كيف لعمري نتخاذل عن تدريس الاشتراكية في جامعاتنا ؟

التقط حسن أنفاسه . تفرس الوجوه . وجدها صلدة . استطرده :

— الادهي من ذلك ، ونحن في عام ١٩٦٥ — وقد مضى على الثورة نحو ثلاثة عشر عاما — مازلنا ندرس الاقتصاد الرأسمالي وحده . انا لا ادعو الى اسبعاد النظام الرأسمالي من المناهج . تدريسه ضرورة علمية وتاريخية ، اذا اردنا ان نفهم الاشتراكية العلمية . ولكن اقول قولاً بديها : كيف يمكن ان يستدعى اقتصادي منا . ليعطى رأيا في السياسة الاقتصادية ، في بلد يبنى الاشتراكية وهو لا يعلم عن الاشتراكية كثيرا ؟

سكت حسن لحظة ، خالطهم بعدها :

— هل تسمحون لى بمزيد من المصارحة ؟ كيف يمكن لاستاذ جامعى يحترم عقله ، وعلمه ، أن يقتصر دوره على نصف المعرفة الانسانية ، ونصف الفكر الانسانى ؟ الاشتراكية العلمية تغطى دولا تقرب من نصف الدنيا ، ونستشرى فى النصف الآخر . الى منقبيه . وعمله . واجزائه . كيف لعمري ندرس لطلابنا نصف الفكر الانسانى — اى الراسمالية فحسب ؟ فكر لا يصلح لقيادة تنيبتنا . ووضع فقط للاقتصاد الصناعى المتقدم . اننا اذ نفعل ذلك — وأرجو أن يعذرنى اسانذنى — نكون انصاف اسانذة ، نخرج انصاف طالبة !

أيدى بعض الاسانذة . وقال احدهم : انهم بدرسون الاشتراكية العلمية فى كل جمعيات اوربا وفى الهند . على انه كان هناك استاذ « لامع » فى الاقتصاد السياسى . « لمعانه » فيه كثير من « القهولة » . عالم تقليدى : كتب كثيرة ، لا تضيف جديدا . تنقل من الكتب الاجنبية ، مقتبسات تباع للطلبة . اعترض الاستاذ « اللامع » على تدريس الاشتراكية ، فى بلد من المفروض انه يطبقها . الاستاذ ذكى بالمعايير المصرية . القى محاضرة معروفة فى بعض اوساط الاتحاد الاشتراكى ، الذى كان عضوا فى قوته . تميز الاستاذ بخاصية فريدة : جعل من النفاق علما ! تحدث حديثا ضبابيا عن « اشتراكيتنا » . كان ينتمى الى مجموعة كمال الدين حسين . فزع حسن لهذا المعنى . مر على فكرة « الشلل » مرورا سريعا : حمادة شاهين ، وشلة سمير شريف . العالم « اللامع » ، يؤكد ظاهرة « الشللية » . هل تحكم مصر بالشلل . سكت — فالظاهرة تتطلب السكوت !

فوجىء فى اليوم الدالى . بأن هذا الاستاذ يعين وزيرا للتخطيط القومى !

* * *

استغفره العمل السياسى . وانعشه . يقضى فيه ساعات طويلة . لم يستشعر فيه تعباً ولا نصبا . على لعكس : العمل يده بحويية دافقة .

لكن العمل ليس سيئاً بما كانه . جزء كبير منه مخصص لاكل العيش . وفرش
الشقة .

الغريب . ان زوجته لا تشكو ! تنتظره الى ساعة متأخرة من الليل :
بسمة خجلى . احضان داغلة . شفاة يرششف منها رحيق الورد . الا تشكو
هذه الانسانة . ولر مرة واحدة ؟ العمل اخذه منها ، ومن ابنه تماما .
ما تراد ، جسداً مكدوداً . يستلقى الى جوارها . في الصباح تحضر له
الشاي في السرير . حتى هذه العادة معكوسة في حالته . في انجلترا ،
الامر الواحد الهام ، الذى يقوم به الزوج ، هو ان يستيقظ قبل الزوجة في
الصباح . يعد فنجاناً من الشاي . يقدمه لزوجته في السرير . هذه هي
انعمة الوحيدة للزوجة . اخذت شكل العرف في المجتمع الانجليزي . فيها
تقدير من الزوج لزوجته . فيها كذلك لمسة من مساات المشاركة والحب .
هذه العادة توقفت في حالتها .

على الرغم من خيبة امليها . في هذه الامنية المتواضعة ، فانها لم
تغضب . بررت موقفه : مرهق في عمله . من العدل ان "تطلع في الفراش" .
وان يندم له الشاي ، وهو مضطجع على السرير .

قال لها :

— انا آسف ، يابرندا ، فالعمل اخذنى منك تماما .
— لا تتأسف على عمل كبير . تؤديه لجماهير مصر .
— لكن العمل اخذ وقتى كله .
— ائسى اتحمل ذلك ، في سبيل الرسالة . التى تضطلع بها . انسا
سعيدة بهذا العمل . كم وددت لو أسهم معك فيه .
— اتقبلن ان يكون هذا العمل ، على حساب الحب ، والحياة الزوجية
الهنئية ؟

— انه ش نظرى . يضيف الى هناءتى ! الا ترائى سعيدة لدرج الفاس

على أن يضيّقوا من إطار السعادة . فهي عندهم حياة منزلية . واولاد ، وممارسة للحب . لا يدركون السعادة الكبرى التي نغمز المرء عند القيام بعمل انساني . الانسان يطرب اذ تسعد البشرية من حوله — كبرت الانسانية لتشمل العالم . ام ضاقت لتشمل وطننا أو حتى حيا . كمحصر الجديدة .

— يا بنت يا شقية !

— غير اننى ، لكى اكون امينة معك تماما . اود ان الذا نظر لك لشيء واحد . هذا الشيء ليس انا . لكنه رفيق . منى سنداغب « رفيقا » ونحبه . ونلهو معه ، اذا لم تفعل هذه الايام ؟
ملاحظة غاصت عميقا في قلبه .
— لك حق . سافعل ذلك .

* * *

استدعاه وزير الرياسة . استخدم الوزير اللبنة الحمراء ! الموضوع على باب غرفته . الباب لا يفتح ، ما بقيت الاشارة الخطرة مضيئة . جلسا معا على اريكة ساندسية . بدأ الوزير الكلام :
— اود ان ابلفك ، بأن السيد الرئيس راض تماما عن جهودك .
— شكرا . هذا ما اعتر به .
— نحن مقدمون على مرحلة حاسمة من مراحل الثورة . الرئيس يحدد تكوين جهاز طليمى سرى ، يحى الثورة .
— وهل تتطلب الثورة حماية ؟
— نعم . انت تعلم ان خصومه ثورتنا . منتشرين في الداخل والخارج .
المعركة معهم طويلة .

- لكن لماذا السرية ، والثورة بيدها الحكم والجيش : والبوليس ؟ . .
— ليس هذا كافيا . نريد تنظيما طليعيا . مؤمنا بالثورة ، وباهدائها .
وبالنظام الاشتراكي . ينافح عنه في السر والعلن . يهب للدفاع عنه ، اذا
ما فكرت القوى المضادة في الانقضاض عليه .
— اذن ستكون الحماية فكرية عناندية ، وليست عسكرية .
— نعم . تكوين الكادر الذي يمثل الثورة ويحميها ، هو المشكلة التي
تواجهنا الآن .

— وما المطلوب مني ؟

- اخترتك ضمن مجموعة العشرة ، الذين يكونون خليتي في التنظيم
الطليعي . هذا هو المستوى الذي يلي مباشرة مجموعة على صبرى ، التي
اعتبر انا عضوا فيها . بعد ذلك الرئيس في القمة . مطلوب منك ان تكون
مجموعتك من عشرة . ننتقيهم انت . من الرجال الوطنيين ، المؤمنين بالثورة
الاشتراكية . ولدينا اجتماع يوم السبت بمنزل مدير مكتبى .

دخل شقة مدير المكتب . وجدها ايوانا فسيحا . بها صالة تبلغ ثلاثة
اضعاف مساحة شقته ! تدرج بك الرياش ، خطوة خطوة . هذا « انتريه »
من القطيفة الملساء الفاخرة . يسلمك الى صالون : اراكه ملكية . يتدلى
الكرسيستال من السقف . يصنع خديك ! تنفخس قدمك في سجاجيد عجمية .
نود من رخاوتها . الا تخلع قدميك منها . لم يفلت من صورة بينه : حجره
شاذرة . انتريه عادى . يستخدم صالون وانتريه ، وغرفة معيشة !

من اين لمدير المكتب هذه الرياش ؟ بعض اللذائس والتحف ، لا يقتنيها
غير الملوك والامراء والباشوات . كيف تمكن المدير من اقتنائها ؟ هل « ناله
من الحب جانب » ! ؟ اكن الرجل بسيط . موظف ادارى صغير بالرياسة .
مدرج حس عين مدير 'المكتب الوزير . لا بأس . النظام الطبقي ، هذه هي
هويته . يتسلل بعض الافراد من الطبقة الوسيطة ، او الدنيا ، او حتى
من الشعبية ، الى الطبقة العليا ، وتنمو الامتيازات والتطلعات .

جلسوا على الارائك الوثيرة . قدم الوزير اعضاء خليته :
- الفريق رجب العطار - رئيس مجلس ادارة المؤسسة العامة
للكيمياء والادوية .

- الفريق عبد النبي عبد ربه عبد الله - رئيس مجلس ادارة الهيئة
العامة لمصانع الادوات المنزلية .

- الفريق حشاد الجمال - رئيس مجلس ادارة شركة مصر للطيران .

- اللواء بخيت النجار - رئيس مصانع الحديد والصلب .

- طبعا تعرفون الاخ عليوة - مدير مكتبى .

- الاخ وجيه - العامل بشركة الغزل والنسيج بطوان .

التفت حسن الى العامل ، وصفق . العامل يلبس «كرافتة سولكا » .
نماها كالكرافتة التى يلبسها وزير الرياسة ، ووزير العمل ! حلة فاخرة .
قبض حريرى هفهاف . اتراشق فى « كرافتته » دبابيس من ذهب .
و « لولى » . شعره كثيف مشط تمشيظا محكما . نسقته الاعمون والعطور .
حذاؤه من النوع اللامع . تنعكس عليه نريات « عليوة » القوية ، فيغشى
عينيك سفاه الاسود . كادت تغلت من حسن كلمة شعبية ، تستخدم فى حالات
الذعر الشديد : « بالهوى ! » . لكن الله سار . كان الذعر اقوى من
لسانه ، فكتمها .

ثم اكمل الوزير : العقيد فلان - الناجر فلان - وكيل الوزارة اعلان -
الدكتور حسن .

هذه هى المجموعة التى ستسهم فى اقامة الاشتراكية فى مصر . ستنتمى
وعى الناس السياسى واقتصادى . ستقود الفلاحين والعمال ، والملايين
و بلادنا للدفاع عن الاشتراكية . ضد خصومها . ستضع هذه المجموعة ،
ومثلاتها ، الموارد الاقتصادية ، ووسائل الانتاج فى ايدى الشعب . وتفضى
على استغلال الانسان للانسان .

ازمنه تركيبة المجموعة . أزمة من نوع جديد . هل انعكس هذه المجموعة شكل الاشتراكية . وموضوعها عندنا ؟ اذن كان الناس الذين يصرون على أن « اشتراكيينا » ، أو « اشتراكيينا العربية » . مختلفة تماما عن الاشتراكيات الأخرى ، كانوا بعمدى النظر ! هل يمكن أن يقود الاشتراكية خصومها ؟ هذه فئات برجوازية . وصلت الى الطبقة المتوسطة العليا . وتتطلع باستمرار الى الملا . بينها وبين البرجوازية الكبيرة ، شعرة . سوف نتجاوزها في زمن قصير . اهذه خطة القيادة ، وتصورها للاشتراكية . وبناتها . وحياتها ؟ كانت نقتة بالقيادة قوية . لم ينسرب لها وعن . لكن هذه المجموعة زعزعت عقيدته . ومع ذلك فقد طرد هذه الخواطر ، قائلا :

القيادة سليمة . على الرغم من أن الشكل . لا يبشر بهضمون طيب . لكنك تشغل بالعلم . ومن وسائله « التجريب » . ابنسم لافراد المجموعة . كان ودودا . أخذ يحبيهم واحدا واحدا . نحادث اليهم ، عدا العامل ! انكر منظره انكارا شديدا . حاول أن يقتر نفسه على محادثته . تبأت عليه نفسه ذلك . هذا النمط من العمال اخطر على ثورة الجماهير من خطر الفرقاء والالوية ! هؤلاء . طبقة برجوازية وسطى وعليا . من الممكن للفوار وللجماهير . أن يضموا انظارهم وأيديهم عليهم . وقد يكون لدى رجال الحكم الحاليين ، ما يبرر وجودهم . الجيش هو الذى قهر النظام القديم ، وهؤلاء قادة الجيش . من الطبيعى أن يتبواوا تلك المكانة . وان كان وجودهم فى قلب تنظيم طلبى اشتراكى . يثير تناقضا رئيسيا مع الاشتراكية . لكن قد يبرر ذلك ان هذه هى « اشتراكيينا » !

أما أن ينهسخ العامل . ويفوق « البرجوازيين » فى ترغهم . فهذا خطر على الحركة العاملة . فهو منسوب الى العمال . فى مكان القيادة منهم . قد يصبح مددرا لتخريب القوة العاملة . لكنك تحكم هنا على الشكل . لماذا لا ننظر لتعرف على افكاره ؟ ومع أنه كان واثقا ، بأن مظهر

هذا العامل يشي بضمونه . الا انه قال لنفسه : تسامحت بالانسية للفرقاء .
والالوية . وانت تعلم الاتطاع العسكري . الذى كُن سائدا في الجيش .
لماذا لا تعطى للعامل فرصته . تحدث اليه . وعرفه العامل بنفسه :

— انا اعمل في مصنع الغزل والنسيج بحلوان !

تأمله حسن . ثم يجد على وجهه . « هبوة » من الامل . لم يلحظ
في يديه خشونة من الاتوال . او شحوما وزبيوتا من ماكينات النسيج .
تسال له :

— اهلا وسهلا . ناسعيد بالعرف عليك !

تحسس العامل رباط رقبته « السلوكا » . الذى يسنع في باريس
فحسب . وضع ساقا على ساق . وقال :

— الواقع ...

نطق القاف سميكة . والعين فيها تقعهه ! كما كان يفعل بعض
المسهمين في التنظيم السياسى . وكما يفعل احيانا بعض « المنتقبن » . حينها
يبدؤون حديثهم . والحق . ان معظمهم كان بعيدا عن « الواقع » البانس
المتخلف . الذى مبعشه الجاهير في مصر .

— ... الواقع . ان الثورة حقتت للعامل آمالا كبارا .

— اى نعم .

— انا عضو مجلس ادارة الشركة . اجلس جنبنا لجنب مع رئيس
مجلس الإدارة ، ومع المهندسين والمحاسبين وغيرهم .

— جبيل .

— وانا عضو مجلس الشعب . انتخبيت عن العمال بدائرة حلوان .
وانت تعلم انه اصبح لنا . ٥٪ من مقاعد البرلمان .

- مبروك .

ولما وجد حسن صاغيا حريصا على أن يسمع المزيد ، تبسط قنالا .
وهو يهمن ضاغطا بيده على ساق حسن :

- وأعطوني بصفتي ممثلا للعمال ، سيارة أنيقة ، وشقة فاخرة ،
تطل على النيل العظيم .

- ماشاء الله ، ماشاء الله .

تحدث لحسن تماما ما توقعه : مضمون العامل أردأ من « شكله » .
وبدا الوزير الاجتماع . اعطى للمجتمعين فكرة عن التنظيم واعدافه ووسائله .
ثم عن هيكله ونظام وسير العمل فيه . وكان من بين الواجبات :

- أن يرصد الاعضاء ما يقوله الناس . ويبلغوه الى المجموعة ، في
اول اجتماع لها .

* * *

انفض الاجتماع الاول على هذا المنوال . وعقد الاجتماع الثاني في منزل
الفريق مدير مصانع الادوات المنزلية . كان يعمل في المصانع ، مديون ،
وعسكريون .

الفيلا تحيط بها روضة غناء . بدور حولها سور مرتفع . العساكر
والمديون يطلبونه وبجملونه . « الفيلا » تتكون من دورين ، يضاف اليهما
الآن دور ثالث . الرمل والاسمنت والجير ، والخشب والحديد : تحمله
اللوريات العسكرية . جيش من العساكر منهمكون في النعير . رياضات
الفيلا تزرى باناث مدير مكتب الوزير .

وما ان تكامل اعضاء المجموعة ، حتى صلصل جرس الباب صليلا
قويا . لم يكن الفريق قد عرف بعد . اصوات الاجراس المفردة كالطير .
مازال جرسه ناقوسا عسكريا ! فتح الخادم المزركش الثياب ، الباب . برز

شاوبش ، يقول بصوته الاجش : اين معالى الباشا ؟

اى معالى ؟واى باشا ؟ ذهب الباشا الفريق الى البساط . كان الشاوبش يلهث . وكأنه حط عن كاهله حملا ثقيلًا . بعد ان استرد انفاسه . قال بصوت عسكرى عال :

— التلاجات . والبوناجازات . والغسالات الجديدة ، موجودة فى اللورى تحت يا أفندم . وهذه هى الخلطات . حاول الفريق ان يهمس اليه ، لكى يخفض من صوته . لم يفهم الشاوبش . واصل حديثه :

— اين التلاجات القديمة . والبوناجازات . لكى نأخذوا ؟

أخذ الفريق : الشاوبش من ذراعه . خرج من باب الفيلا . ليتحدث اليه . لكن رسالة الشاوبش قد وصلت . كانت واضحة . لوريات المصانع . جاءت بالتلاجات والغسالات ، والاقران الجديدة ، لوضعها فى فيلا الباشا . وأخذ الادوات القديمة وارجاعها الى المخازن ، لتحسب كهنة !

وافته ذكرى بعيدة . عندما كان باشجاويش فى مدرسة ضباط الصف فى الجيش ، قص عليه عسكرى ، قصة المخازن : التموين الطازج ، كالفخار واللحم ، والجاف كالنول والارز والمدس ، كانت تحملها اللوريات الى منزل صول التعمين ، ويوزباشى المخازن . وقائد المدرسة ، واركان حربه . وكذلك الملابس ، والبطاطين ، والملاءات . هل مازالت فلسفة الوسية كما هى ؟ أم اصابتها تطور مع تقدم التكنولوجيا ؟

الرسالة ، وصلت لوزير الرياسة . مائة فى المائة . صوب حسن اليه نظرة يتفحص وجهه . كان وجهه جامدا . جاء الخادم بالحلوى . قال الفريق :

— هذه الحلوى ، والالآت ، والادوات التى صنعتها — آلات التسخين والطهو والتبريد — كلها صناعة مصرية خالصة !

بدأ الاجتماع . أفنتحه الوزير : بأخبار القيادة ، وقراراتها في الداخل والخارج . طلب احد الاعضاء الكلمة :

— اقترح ان نناقش النكت التي يطلقها الشعب !

ضحك حسن . كان يهوى النكت . استغرقت النكت الجلسة كلها . نكت لطيفة مبررد . تتم عن ذكاء وعمق . للشعب يسخر من الزعماء . حتى الذين يعجب بهم ! ما بالك بالساسة ، الذين يزديهم . هذه نماذج :

راى حسن الحنفى : عضو مجلس قيادة الثورة حلما مؤداه : انه كان لابسا ملابس بيضاء في بيضاء . ويمشى في مزارع خضراء في خضراء ، لا نهاية لها . ورد عليه مفسر الاحلام : « تبقى نور الله في برسيه » !

ذهب الملك سعود ، وحسين ملك الاردن ، وعبد الناصر الى الآخرة . عمل لهم استقبال خاص . جلس الله على العرش . نادى جبريل الزعماء : الملك سعود حامى الحرمين ، ينفصل . دخل الملك سعود . وقف الله لحيه والترحيب به : اهلا وسهلا . نفضل . اجلس على اليمين . ثم نودى على الملك حسين : سليل الاسرة الهاشمية . حفيد الرسول . حياه الله واقفا . ثم قال له : اجلس على اليسار . ثم نودى على عبد الناصر : سلم الله عليه وهو جالس ، همس له جبريل :

هذا عبد الناصر ، بطل مصر ، وزعيم القومية العربية : لماذا لا تذف وتحييه ؟

— انا اعرفه ، اتريد ان اتف ليجلس مكانى ! ؟

وكانت هناك نكتة مبررة ، ننقد في فن رفيع شعبي ، امنيات الطبقة الحاكمة وعلى رأسها مجلس قيادة الثورة . لكنها للاسف : تقال ولا تكتب .

لا من ناحية الحياء العام فحسب ، ولكن من الناحية الجمالية كذلك !

عقدت المجموعة لقاء في منزل العامل في منزل الروضة ، على مرمى من قصر الامير محيد على ، ولى المعهد السابق للملكة المصرية . وعلى شاطئ النيل الخالد ، يسكن « العامل » شقة لوكس . كنا في اغسطس . السد العالي لم يكنهل بناؤه بعد . الماء يطفح بالفرين . لجج الموج تضرب الشاطئين . وتندافع في النهر العميق . جلال النهر . وامواجه . تتأخذ بالانباب . عصفت الظهرد برأسه . هذا الرجل يقارل عنه « عامل » . الا يدري ان ملايين العمال من زملائه يسكنون للجحور . وانكهوف لا ريب انه يدري . يخرج من هذه البينة . ومازال اهله فيها . ليست العبدة ان يعرف المرء . او لا يعرف . لكن العبدة بأن يحس . كثير من الناس يعرفون . وما يسمى « بالمتقنين » هم أكثر الناس معرفة وعلما . ما قيمة معرفتهم اذا لم يحسوا بالأم البشرية ، واذا لم يعوا مشكلة الانسان ، ويضيقوا له طريق التحرر ؟

لم يظهر على وجه العامل ، الذي ربي الذرف له « لغدا » تحت ذقنه ، اى معنى من تلك المعانى . وصوله لهذا الوضع . هو في ذاته . استبعاد لاي شعور بمعاناة طبقته . هل تعتبر ترقية هذا العامل . خطأ فكريا لا جفل من هذا المعنى . حاول طرده . انه خنجر يطمع نضاله ، وآماله . تسائل : ما الحكمة في ان تفسخ نورة تنادى بالاشتراكية . فريفا ، او طبقة . هي بالنعريف صاحبة الاشتراكية المفيدة منها . والحامية لها . لم يصل في هذه المرحلة الى جواب .

الشقة تموج بالابهة والعز . ابتكر « العامل » طريفة جديدة للحفاوة بالمجموعة . انه « كريم » . اليس شمبيا لا ! لم يكتف بالحلوى الوانا واشكالا ، تقدم للمجموعة . أعد لهم وليمة عشاء : خروف . ديك رومى . حمام اكل هذا لعشرة ! نفقات الوليمة ، تكفى ابويه واخونه . الذين تركهم

في الاكواخ ، لشهور عدة . بارك الله في ممثل الطبقة العاملة !

هكذا مضت الاجتماعات من منزل لمنزل . زاروا الفلل والشقق الا شقة حسن ، ومسكن الوزير ! لم يجد حسن مبررا لامتناع الوزير عن دعوتهم الى منزله . ايكون منزله متواضعا لا هذا يعتبر دعاية له : قائد من الصف الثاني ، من خلفاء الرئيس ، يسكن شقة بسيطة . انكون فخامة مسكنه بالغة . ويريد ان يخفيها . اذا جاء دوره يعمد الاجتماع في قصر العروبة . اما شقة حسن ، فنصفها ذوو . الانتريه : في غرفة الجلوس بسيط متواضع . كنية تكفي لثلاثة ، واربع كراسي . سبعة فقط يمدنهم الجلوس - اين يجلس الثلاثة الآخرون ؟ ليس هناك نجف . البساط احدى . وليس اعجيبا ! ولما جاء دوره لدعوة الاجتماع الى منزله ، لم ينيس بكلمة . تلاتت عيناه بعيني الوزير . كان هذا ذكيا . فهم على الفور . من اين علم : بان شقته خاوية . يبدو انهم يعلمون ، ما تبدى الاعين ، وما تخذى الصدور .

الصورة التي رآها في منزل العامل . الصور التي لمسها في منازل الفرقاء والاولوية . زعزعت ثقته بعض الشيء . لكنه مالبث ان استردها . ان احدا لم يحد من انطلاقاته . لالوزير ولا رئيس الوزراء ولا الرئيس . ماذا يريد اكثر من ذلك ؟ حريته مطلقة في ان يبحث . ويكتب . يزور الوحدات ، ويحاضر العاملين .

ضعف من نشاطه الفكري . وازن الصورة ، التي رآها في مجموعة الوزير ، بتكوين مختلف اجموعته . كان تكوين المجموعة سميا . معظم اصدقاته ، ومعارفه ، من المثقفين البرجوازيين . هؤلاء لا يملحون في تنظيم طليمي اشتراكي . كانوا امانا ، وطنيين ، رجال . لكن بناء الاشتراكية يتطلب مواصفات ، تضاف الى الامانة والوطنية والرجولة . كون مجموعته من ستة . لم يكونوا كلهم اشتراكيين - كان منهم اشتراكي علمي واحد ، وآخر يقول بالضبط ما يسمعه من قادة الثورة . ولا شيء اخر . ضم حسن

عاملا يعرفه من مصانع حلوان . المكان الذى جاء منه عامل « السلوكا » .
اصبح فى النجفة ثلاثة اشركيون . لىبقى كانوا مثقفين مسننين . عاطفين
على الاشتراكية فحسب . ترك حسن الاربعة اماكن الخالية فى مجموعته
ليلاها بعمال واعين ... حينما يتاح له ذلك .

على ان هذه المجموعة على قلة عددها ، احدثت انرا فى التنظيم
الطليمى . كان اول شىء تقترحه ، ان مهمة التنظيم الطليمى هى تجميع
الجاهير . وتنقيتها ، وتوعيتها بالفكر الاشتراكى . وليست مهمته ان يبحث
النكت . ويعرض للشاعرات . اقترحت كذلك ان تقدم المجموعات خططا
للتثقيف الاشتراكى ، ووسائله العملية ؛ فى المصنع ، والمزرعة ، والشارع ،
والمسجد ، والمدرسة ، والجامعة .

* * *

الزفة قادمة ! هذه المرة زاد المنضمون اليها . وارفعت حناجرهم .
يهتفون : عاش حمادة بك شاهين . بحبا نائب مصر الجديدة . اهلا اهلا
بالفدائى . مرحب مرحب بالمجاهد الكبير . تهما كما كان الشأن ، فى
الاحزاب القديمة الملقاة . الم يكن مكرم عبيد ، سكرتير عام الوفد ، يلعب
بالمجاهد الكبير ؟

حمادة شاهين يتقدم الزفة . يرافقه تابعه المخلص حسين العتريس .
حسين يبز شاهين فى ملابسه وجليه ، رغم انه من اتباعه . قصر القامة .
تراكم على جسده لحم وشحم وغير . مطهم : كعادته ، بالسلاسل ، والساعات
الذهبية . والسبحة الالوى . والعصا الابنوسية . وهو الذى يقود الهتاف .

الزفة تنعقد فى يوم المحاضرة بالذات ! وفى الساعة التى تلقى فيها .
المحاضر هذه الليلة : استاذ من جامعة القاهرة . يسكن بجوار الاهرامات !
جاء مصر الجديدة : متحملا كل هذا العناء ليجرك التاريخ . فى جدل مع
جماهيرها . فوجيء الرجل بالزفة تقاطعه . وتعلو حناجرها حنجرتة الهشة .

ظهر الامتعاض على وجهه . قرر الا يتم المحاضرة ، ويرحل . رجاء حسن
وزملاؤه ، دون طائل . وقبل ان يبئس ، حاول محاولة اخيرة :

— لماذا تبتئس ؟ هذا هو جدل التاريخ . الذى جنت تبسطه لجمهورنا .
جوبهت به عليا . وهذا اكثر فعالية من مجرد اطاره النظرى . هذه هى
القوى المضادة للثورة ، جاءت ترتطم بقوى الثورة مباشرة . هذا التناقض
يؤيدك فى محاضراتك . ويعطيك مادة حية يمكنك ان تنمثل بها فى المحاضرة .
فندكى وعى الجماهير . اقتنع الاسناد ، واكمل المحاضرة .

* * *

عاد حسن من عمله السياسى الى بيته فى الواحدة صباحا . بدأ يخلع
ملابسه . ويتخلص من حذائه ، ليحرر قدمين : اعتقلا نهارا كاملا ، ونصف
ليل . صليل التليفون يعكر الصمت . ويحدث ازعاجا فى بيته ، ان لها
ان تتخامل وتهجع :

— الو . من ؟

— « الحق » يا دكتور !

— خيرا ؟

— تعال بسرعة .

— اين اجىء ؟

— الى منزلى .

— هل يحترق منزلك ؟

— ليت الموضوع كذلك . الموضوع اخطر .

— لا بد ان مصر الجديدة . هى التى تحترق .

— لا . ان القطاع العام ، ملكية لشعب ، هو الذى يحترق .

تأفف . رد والانهك بفرى تدبيه . ويططق عظامه :

— وهل انا ، يا عثمان ، المسئول الوحيد عن اطفاء الحريق في التطاع
انصام ؟

— الموضوع خاص بصاحبك : شاهين وحسين .

— هل لا نستطيع ان نؤجل الموضوع للصباح ؟

— لن نجد له اثرا . اذا ما اشرفت الشمس . سيفونك نصف عمرك
السياسي ! اذا لم تسرع بالحضور . المسرحية تمثل الآن . وسيسدل
الستار بعد ساعة .

جرجر ساتيه . لم تكن لديه سيارة خاصة . كان يمشى ويتمرط في
الاوتوبيسات . والرخاء والرفاهة تستشري حوله في الرياسة . لم يكن
ركوب العربات الفارعة مقصورا على القيادات العليا . فهؤلاء يركبون في
كل زمان ومكان . لكن حتى الموظفين في المكاتب الدنيا . عربات الرياسة
تنقلهم وبنيتهم وبناتهم الى الرياسة والى المدارس والاسواق .

ذهب الى منزل عثمان سكرتير لجنة الاتحاد الاشتراكي ماشيا . كتب
عليه ان يظل من المشاة ! لحسن حظه كان عثمان يسكن في مصر الجديدة .
و « العزبة » الحى الشعبى . كيلو متران فقط . عليه ان يمشيها في وقت
البحر . منزله يوجد على حافة العزبة . يمكن منه ان يرى القصور والفلل ؛
التي يسكنها حمادة شاهين واسرته ، وتابعه حسين ، التي تقع على حافة
الحى الراقى .

استقبله عثمان متحمسا . قال له : .

— هل يجوز ان تستدعيني بعد منتصف الليل ؟

اجاب عثمان ، ينبض الانتعاش من عيبيه :

— هذه فرصة العمر . ستشكرنى عليها .

— « ايه الحكاية » ؟

— تعمل معي .

قاده الى النافذة . اشار بأصبعه :

— انظر . هذه اللواري هي لواري القطاع العام . رايت علامة القطاع العام عليها ، عندما نزلت ارقبها . واذا كنت تود ان تتأكد ، عندي بطارية قوية ، يمكن ان اريها لك .

قامطعه حسن :

— لالا . ضوء البطارية سيكشفنا .

— وما ضرنا ، اذا كشفنا ؟ نحن الذين نكتشف السرقة من القطاع العام بواسطة الذين يديرونه ، واتباعهم ؟

— حياك بسعدني . لكن يجب ان نستخدم العقل .

سكت حسن برهة . ثم سأل عثمان :

— لكنك لم تقل لي سبب وقوف هذه اللواري هنا .

— امعن النظر .

كان ضوء الثريات الكهربائية في الشارع خافتا . اللواري تقف في الظلال . لكن تمرا باهتا يرسل شعاعا ، يعاون على الرؤيا . قال عثمان :

— هذه اثواب . وبالات من الاتمشة . تاخذ طريقتها نارة لمنزل شاهين ، وتارة لمنزل حسين العتريس . واثت تعلم ان شاهين ، رئيس مجلس ادارة شركة كبرى لحلج الاقطان وغزلها ونسجها . يمكنك ان تحلل وتستنتج .

اجاب حسن اجابة حبيبت اهل عمان المذقد حماسة :

— هل كان من الضروري ان تستدعيني ، لاشهد هذه المحنة ؟

— الست تعمل في الحقل السياسي ؟ مهمتك على الاقل ان تعرف ما

يدور حولك .

- اتريد الجد ياعثمان . كم كنت اتمنى الا ارى هذا المشهد .
— السياسة تتطلب نفسا طويلا . والا تكون رومانسيين .
جرجر حسن ساذيه . لكن المشهد قد جعل النمل يدب فيها . صحبه
منمان في تاكسي الى منزله .
وفي الصباح الباكر ، كان عثمان يقرع باب شقة حسن . وكأنه يلاحته :
— صباح الخير ياغندم .
— اهلا يا عثمان . « انت اخذتني مقابلة ولا ايه » ؟
— لا بد ان نعطيك بعدا جديدا . وثيق الصلة بعملك السياسى . ليس
الموضوع كله نظريات ، ومبادئ ، ومثل ، ووعى .
— صدقت .
— لا تخف . اعلم انك مرهق . سوف لا اثقل عليك . انت تمشى دائما
الى مقر الاتحاد الاشتراكى . سأنحرف بك ...
قاطععه حسن مبتسما :
— حذار من الانحراف !
— لا . اطمئن سأنحرف بك عن الطريق . مسافة تستغرق
خمس دقائق . وسأريك شربنا .
— مازلت تصر ان ترينى .
— طبعا « ليس من رأى ، كمن سمع » .
انحرفا عن الطريق العام . اشار عثمان الى لافتة كبيرة علقت على
محل شاسع . كتب على اللافتة «شركة عتريس فوردي» ! برقت عيننا حسن ،
وكانه يعترف لعثمان بجميل :
— لك الله يا عثمان . انت تثقبنى .

— استغفر الله « يا دكتور » أنت استاذى .

— انا استاذ نظرى وانت استاذ عملى .

كان المحل مازال مقفلا . فالساعة مازالت الثامنة . وتساءل حسن :

— ما العلاقة بين عتريس وفورد ؟ الاسم مكتوب . وكان « فورد »

لقب العائلة أو اسم ابيه أو جده !

— فورد اعز عليه من ابيه وجده !

— كيف ؟

— استمعنا لك عن دور الشركات الاحتكارية الاجنبية ، التى تسميها

الشركات العابرة للقوميات . والننى تستند الى حلفائها المحليين ، لاحتكار

الاسواق . وتكوين الارباح من الجماهير المستهلكة والعاملة .

— الظاهرة عجيبة : الرجل مسلم . ويططق بسبخته « اللولى »

نهارا و ليلاً . ويعتز بان فورد جده . ويعلقها بالخط العريض على محله .

— الدين لا يهم هؤلاء . لقب فورد الآن اكثر تنديما من العتريس ؛ وأوفر

ربحا . واشرف اصلا .

سكت عثمان ليهدى، من حياسه : بعض الشيء . ثم قال :

— العتريس يحتكر بيع منتجات فورد : السيارات الفارهة المزرفة .

المعدات الزراعية وغيرها . ولو كان لديك وتت . لاريك وكالانه . ومكابه .

ومعارضه ، ومخازنه ، المنتشرة فى وسط المدينة ، وكثير من احيائها . انه

يعمل ويتجر فى كل شىء : المقاولات . ادوات البناء . الاناث . الاخشاب ؛

الاقمشة . ويستورد ويصدر منتجات غذائية كثيرة متنوعة

— تمامها كالشركات الاجنبية التى يتعاملون معها . تنجر فى كل شىء .

واندفع عثمان يسأل حسن :

— هل تريد ان تعرف امرا مثيرا ؟

— منذ ليلة الامس ، وانا لم افلت من الاثارة التي هيأتها لى : تفصل .
— اخوة شاهين شركاء لحسين .

على ان حسن شهق شهقة دهشة وفزع عندما قال له عثمان :

— اتريد ان اتحرى لك العلاقة بين حسين شاهين وسمير شريف ؟
قال له :

— لا . « اعمل معروف » !

— سيكون ذلك فى غاية السرية والحذر .

لا تستطيع . فالاجهزة نسترق خلجات النفوس . وارجو الا يكون
هديتنا قد سجل .

— كيف ؟

— الم تسمع عن السماعات والاجهزة الدقيقة التى تلتصق بالحوائط
من الخارج او الداخل ، ليسترقوا السمع . ويعرفوا ماذا يتول الناس
منهم .

— غدا ، سأفحص مبنى الاتحاد الاشتراكى ، لاكتشف ، اذا كانت
هناك اجهزة .



بعد بضعة ايام . جاء الى مكتب الاتحاد . احد العاملين فى الجمعيات
التعاونية بمصر الجديدة . وذهب مباشرة الى غرفة حسن :

— مساء الخير يا دكتور .

— مساء النور .

— اريد ان احدثك على انفراد .

كانت غرفة الامين غاصة باعضاء الاتحاد . وزوار المبنى . واصحاب
الشكاوى والحاجات . اخذه الى مكتب آخر خال . وتحدث الرجل :

— جئت لاسالك ، ما اذا كنت ترغب في قطع خاصة من اللحم . لدينا لحوم كثيرة بعضها ممتاز .

— الناس يتولون ان لحوم الجمعية . كلها عظام . وعروق . ودهون .
— هؤلاء هم الناس العاديون .

— وهل يتعامل مع الجمعية . ناس عاديون . وغير عاديين ؟
— اننا نقدم قطعا خاصة : الثبلو الصغير والضئى الاوزى
" والانتركوت " والكبد والكلاوى والقلوب . الى الخاصة .
— من تقصد ؟

— حياذة بك شاهين مثلا : وحسين المتريس ، واقاربهما . . وسمير
بك شريف .

— لم يرع حسن عند سماعه للاسماء الاولى . ولكن الاسم الاخير افزعته .
واجاب الرجل بهدوء :

— انا اشكرك على مشاعرك . لكننى لست من الخاصة . وبصراحة
اكثرت لست من اكلة هذه النقطع الخاصة : لانى لم اعود عليها . ولم اسمع
بها . لقد سعدت تريبا فتمط في سلم الاكل ، الى اللحمة بصفة عامة كصنف :
فاعذرنى . غانا لا اعرف مفرداتها !

— مفردات ممتازة . انا اقطعها لك .

— لا . وانا اشكرك .

اراد عامل الجمعية ان يعرض عليه اصنافا اخرى قال له :

— تاخذ لهم كذلك سفاديق الصابون الممتازة ، والشاى السيلانى .
والارز والسمن البىدى ، والجبن الفرنسى . والكاكاو الغانى .

— تؤول الكاكاو الغانى ؟ اتعرف اين تقع غانا ؟

— يا دكتور نحن متعلمون . حصلت على الابتدائية والاعدادية وانا

هلل في الجمعية . وماذمت مشكك في معلوماني ، وانا أعلم انك شعبي
بمواضع ، هل اسالك سؤالا :

— بكل سرور .

— أين يوجد أمخم سجاد في العالم ؟

— في ايران طبعا . السجاد العجى .

— هذا كان في المائى . اما الان فقد انتقلت غداية السجاد الى مذاقة

اخرى هل تعرفها ؟

— لا .

— ارايت ان الدكتوراة لم تنفعك ؟

— صدقت . الدكتوراة عرفتنى جانبا واحدا ، من جوانب المعرفة .

— أمخم سجاد الآن يصنع في الاتحاد السوفيتى !

— كان العامل لماحا . راي حسن بنفسه السجاد السوفيتى الفاخر .

— بنثر الفخامة في بيوت بعض اعضاء التنظيم الطلابى ، ومديرى المكاتب .

— كان حسن في حديث له مع الوزير عبد المجيد نريد قد أشار الى ما

بفعله شاهين وشلتة في مبنى الاتحاد . وتويعهم للحاضرات . قال له

الوزير :

— شاهين من شلة سمير شريف .

— هل هناك شلل في الثورة ؟

— ربما .

— لكن سمير مقرب من القيادة العليا .

— هذه هى المشكلة !

— لم تشجعه هذه الاجابة على ان يتمس تسمية حيازة شاهين مع القطاع

العام . وقصة « العتريس نوردي » ! مع القطاعين العام والخاص .

انزعته من مصر الجديدة انتزاعا . قالت له :

- أنت لم تبر بوعدك .

- أى وعد ؟

- ان نهرب من السياسة والعلم ، وشغل البيت . الى الطبيعة ، يو
في الاسبوع .

- الم نفعل ؟

- الاسبوع الماضى . لا . لن نفلت من يدى هذا الاسبوع .

اخارت زوجته الاسباعيلية . ذهبا وممها رفيق . الى شاطىء ،
القناة . وجدت برندا القناة فيحاء . تنبض سلايا . ورخاء ، لبنى الانسان
في كل مكان . تسالطت :

- اهذه هى القناة ، التى ارادوا ان يخضبوا مياهها الرائقة ، بدما ،
المصريين ؟

- هى بمعنىها . ارأيت هذا الجمال ، بريح العيين . وهذه الرمال
تبرق بذهب الشمس ؟

- لعن الله الاستعمار !

ما ان نطقت برندا بهذه العبارة ، حتى تذكرت على الفور : انها انت
به الى هنا لينسيا معا السياسة ، وليوم واحد . المياه رقراقة . والجو
بديع . الشمس تحنهم على ان ينخللوا من ملابسهم ، ويتركوا اجسادهم
لاشعة الشمس تدلكها . وليربت عليها الموج الحاتى .

ركبته هوايته . قبل برندا في المرء . انها زوجته ، فالقطة حلال .
ولا احد حولها . فلا خدش للحياء العام ، الذى تجرحه اللسة الجمالية
كالقبل ، ولا يخذشه انقيح المحيط به في كل مكان !

هذا هو رفيق . داعبته النكتة المصرية قبل ان يولد : ويرى ارض

النكت ! عندها كانت امه تحمله ، قال حسن لـحديقه اسماعيل زعزوع
زميله في كلية الحقوق :

— برندا حامل . لو جاء ولد . اريده ان يشبهني . لو جاءت انثى ،
اود ان تشبه امها .

رد اسماعيل . بخفة دمه المشهورة :

— راىى ، بننا كان ام ولدا ، ارجو ان يشبه والدته !

وجاء رفيق ، بكل اسف ، اقرب لى والدته . وتحققت نبوءة اسماعيل .
ميناه فيهما جمال واتساع . واللوان : اكتسبها من والدته . على ان حسن
لم يترك هذا الجمل طليقا . اكتسب عينى رفيق « عكرة » خفيفة ! كانت
أسمة ضرورية ، لتكسب العيون الزرقاء ، لون الرجال !

تجمع حول رفيق بنات من كل عمر . براعم لم تنفتح . واخرى تفتحت .
اصبح رفيق نبعما جميلا ، تنمو الازهار حوله . وتخلق فوته الاطيار . داعبه
ابوه يوما كاملا . سعد برفقته . وقف على امكانيات ابنه الطفل . ونعم
بهذه الامكانيات !

اعجبت برندا بالاسماعيلية اعجابا شديدا : قنادة السويس . بحيرة
النمساخ ، الحدائق الخضرة الداكنة الخضرة . الازهار الزاهية الالوان .
الشوارع النظيفة . الفلل الانيقة . سقوفها الحمراء تذكرها بفلل لندن .
والريف الانجليزى .

تركها حسن تجتر اعجابها . لم يشأ ان يجرها الى الحى الشعبى .
حى الثلاثين ، كما يسمونه في الاسماعيلية ، ويور سعيد ، والسويس .
كان يعلم ان الدلة « الارستقراطية » . اوربية كانت او تركية ، او
بحرية . لابد لها من خدم . وعبيد . وحفر . وكناسين . وزبالين . وحرفيين .
هؤلاء لا يمكنهم وليس من المرغوب فيه ان يسكنوا الفلل . حشرهم الانجليز ،
والفرنسيون ، كما حشرهم المصريون . في حى شعبى . لا يختلف في قذارته

وانسحاقته عن الاحياء الشعبية في القاهرة . وهو يمانل نهاما « العزبة » في مصر الجديدة . كان الشعب بفنائه السابقة ، ضرورة واجهت الشركة انبليجية . صاحبة الامنيان لصاحبة مصر الجديدة . الشركة التي استولت على الارض بمليمات . وباعتها بملايين الجنيهات . كان لابد لهذه الشركة التي تبنى هذه الصاحية لرائمة ، من خدم وحرفيين ، اسكنتهم العزبة . ورث العزبة النائب السياسي وقطب القطاع العام . حمادة شاهين . ومعه حسين العمريس — ممثل الراسمالية الوطنية — نفدق عليه تراخيص الاستيراد والتصدير . وتمنح له سلع القطاع العام وصفقانه ، حلالا وحراما .

بعد ان لفحته هذه الومضة . استبعدها راجيا : لا نلحى على الآن .
الذهار تقرب نهايته ، ونحن في طريقنا الى القاهرة ، عاصمة الآلام .

* * *

في مكتب البحوث . احس بأنه يفتقد شخصا . سأل احد الباحثين الشباب :

— أين محمد عبيد ؟

— ابتسم الباحث ابنسامة ، فيها سذاجة . بقدر ما فيها من خبث .

واجاب :

— في مكتبه . في غرفة خاصة .

قاده الباحث الصغير الى حجرة محمد عبيد :

— صباح الخير .

— اهلا يا دكتور .

— أين انت ؟ لم نرك لمدة طويلة .

— لدى بحوث كثيرة .

— الا استطيع معرفتها ؟

أخذ محمد عبد. مدير الموضوع في رأسه . ثم بدأ . وكأنه وصل الى
رأى :

- سأقول لك بصراحة ، بحكم الزمالة والعيش والملح ، لكن أرجو ان
تقطع لى عهدا بانك لن تقول لاحد .

- أعسك .

- لم تسألنى ، لماذا انتقلت الى غرفة خاصة ؟

- امر ليس بذى اهمية .

- انه مرتبط بها اعمل فيه . ان نائب الوزير يعد رسالة للدكتورة ،
وانا اعاونه فيها .

- تعاونه من حيث الاستشارة العلمية فحسب .

- أنت ، يابو على ، ذكى « تفهمها وهى طابرة » . انقطاعى عنك .

وعن دراسات المكتب . وقفلى فى هذه الغرفة ، ثم تقول : استشارة ! اننى
اكتب كل حرف فى الرسالة .

احب محمد عبيد ان يفكر كعادته ، قبل ان ينطق بعبارته ، ثم قال :

- يبدو ان استغراقك فى العمل السياسى ، فى الفترة الاخيرة ، جعلك

لا تعلم ماذا يصنع بعض الباحثين ؟

- ماذا يفعلون ؟

- يترجمون المراجع الاجنبية . وانقى ما يصلح للكتابة فى الرسالة .

لم يخطر ببال حسن ، ان العزبة الجديدة ، او الوسية المتطورة ،

يكن ان تنسحب على دنيا العلم ، بهذا الشكل . الوسية العلمية ، كما

كان يعرفها ، لها خصائصها التاريخية . علاقتها الاقتصادية والاجتماعية

تشبه وسية الخواجة الانقطاعى . هذا لون جديد من الاستغلال : باحثون

ومترجمون ، موظفون فى الدولة يجندون لكتابة رسالة دكتوراة . سوف

يحبلها انسان له سلطة . عزبة ذات طابع خاص .

لم يستطع حسن ان يبنع لسانه :

— هل تقبل ذلك ؟

— ماذا افعل ؟ هبه طلب منك هذا العمل . بماذا تجيب ؟

— لا اقبل .

— أنت يا عم ، اصبحت سياسيا مرموقا . استاذ جامعى ، يمكنك ان

ترفض . اما انا ، فانى اعترف بانى لا استطيع .

اراد حسن ان « يتبسط » مع محمد عبيد :

— لهذا يا ابا حميد ، ازداد اقتربك من نائب الوزير ، يدعوك الى

مكتبه . ويحضر اليك فى غرفتك . ويدعوك الى منزله .

— دعنا « ناكل عيش » ، يا ابا الحسن .

— بهذه الطريقة ؟

— اليس هذا النائب تطبا من اقطاب الحكومة ؟

فى اليوم التالى جاءه الباحث الصغير ، وعلى وجهه ابتسامة ، زاد

خبثها . قال :

— ألم تذهب لتهنئة الاستاذ محمد عبيد ؟

— على ماذا ؟

— على الترقية الى الدرجة الثالثة .

احترق حسن بين صداقته لعبيد ، وانتهازيته . على انه طالما اشتكى

من ظروف قاهرة ، عاقته عن الحصول على الدكتوراة ، وزملاؤه مدرسون

واساتذة فى الجامعة . ذهب اليه ، وهناك .

بعد شهرين جاء الباحث الصغير الى حسن بقصة طريفة :

تشتم محمد عبيد ان هناك درجة ثانية بجهاز التنظيم والادارة . فانقل

اليه من جهاز المحاسبات ، وهو الجهاز الموظف فيه . ورقى الى الدرجة

الثانية . وبعد شهرين آخرين ظهرت درجة اولى فى جهاز الاحصاء نقل اليه ، وحظى بالدرجة الاولى . وبعد ثلاثة اشهر ، عاد الى الجهاز المركزى للمحاسبات مرة اخرى . خلت فيه درجة مدير عام وقد صعد اليها ، كان نائب الوزير وراء كل هذا .

كان محمد عبيد واقميا . لم يكن فى اى وقت من الاوقات اشتراكيا بالمعنى الحقيقى . باحث ، استدعى للعمل بمكتب الرياسة للبحوث . والقيادة تريد بحوثا اشتراكية . لا بأس . لديه الاستعداد ليجرى بحوثا . لا غبار عليه . لكن هذا القفز على الدرجات والاجهزة ، دل على انه مخطط ذكى . قفز اربع درجات فى سنة واحدة .

تفهم حسن موقف عبيد . اصحاب النفوذ يستخدمونه ، وهو يستخدمهم ! كان كذلك يفهم اشتراكية الناس الذين يعمل معهم . ويعرف ان حسن يأخذ الاشتراكية مأخذ الجد . الاشتراكية لا تهمة كعقيدة . تهمة ، لان النظام يقول بها . يقف عند الخطوط التى يقول بها المتحدثون باسم النظام .

مازال حسن حريصا على زملائه ل محمد عبيد . فهو افضل من غيره . كانت فلسفته انه يريد ان يعيش . وقد وصل الى هذه الدرجات ، موظفون اقل منه كفاءة . لماذا لا يصل اليها بطرقه الخاصة ، وهى طرق علمية ؟

الامر الوحيد الذى تحفظ فيه حياله ، هو انه لم يختره فى مجموعته بالجهاز الطليمى . هذا التبرير الذى ساقه لسلوكه ، لا يمكن لضميره ان يتخطاه فى عمل وكل اليه . هو لا يصلح ان يكون رقيقا فى عمل ثورى اشتراكى . الا انه لم يخسر شيئا . عينه نائب الوزير فى مجموعته .

التقى به حسن ، فى حديث خفيف ، وقد تساوت الرؤوس :

— انت ، « يابو حميد » ، مخطط ماهر ، واقمى ، شديد الخطورة .

— نحن تلاميذك .

— المعب غيرما . لقد وجدت استاذنا آخر .

- نائب الوزير ؟ أنا استاذة ! كتبت له الرسالة .
- هل تعتقد انها مستقبل ؟
- بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف !
- الى هذه الدرجة ؟
- ارايت الى الاسانذة يهرعون الى مكبه . ليمططهم بحوثا بالاجر ! او يتقربون منه ، تطلعا الى مكاسب عليا .
- رايت .
- اذن ، مرتبة الشرف !
- معك حق .
- اراد حسن ان يغمز عبدي . لا لتقريعه . ولكن للمزاح معه :
- انما ، يا محمد ، اناسمعتك يوما ، تقول لنائب الوزير : انت استاذي .
- سوف اصدقك القول . انا الى اسلوبى الخاص .
- تفضل . لكن لا تقل اننى استاذك .
- ضحك محمد عبيد قائلا :
- لماذا تمرقل وسيلتى ؟ اسمع يا سيدى :
- الناس كلهم اسانذتى . وبصفة خاصة فى السلم الوظيفى ، والاجتماعى ، والطبقى ، حتى لا تفضب .
- الى ان تحقق اهدافك ؟
- اجل .
- هذا كلام صريح . . .
- « لطشسته » عبارة « الناس اسانذتى » نقلته نقلة طولها عشرون عاما .

محمد خطاب ، خفير الجرن في الوسية اليونانية . قال له في حوار من حواراتها : الناس كلهم اسيادى : انا اخدم الخواجة ، وامسك حسارة الباشكاتب حسين ، عندهما يركب . واتبل يد الشيخ سليم الباشخزلى . واتقرب الى الكلايين والخولة . والمقاولين . لاسل الى اغراضى . وغرضى الاول ان ابقى خفيرا ، حارسا للخيرات من القمح والبول والارز ، ولاأخذ نصيبى منها .

* * *

عاد محمد عبيد الى رحلة القطار المجرى الى اسيوط . واحب حسن ان يتمازح معه :

— اراك يا محمد « بك » قد انتفخت اوداجك اليوم . وكانت بالامس منكشمة !

اجاب بروح رياضية : لم يتوقعها حسن :

— طبعا . هل يمكن ان يكون اوداج الدرجة الرابعة . كأوداج المدير العام ؟ !

— اذا كانت درجة المدير العام ، تمنح للعقول الراجحة . فانى اؤيد سمعوك لها . رغم تخطبك لمنات الناس الذين يستحقونها .

— انا لا ادري ان كنت نهدحنى ام تدمنى ! ؟ انا اعرف طريقتك : « الطريقة الحسنية » ! انت لا تعلم اننى ظلمت . وفي مجتمع . الظلم فيه هو القاعدة . لابد ان نلجأ الى مهارتك الخاصة ، وهى مشروعة في الغابة التى نعيش فيها .

— الغابة ؟ حسبننى في نظام بينى العدل والاشتراكية .

— مرة اخرى ، انا لا اقدر عليك . واتركنى في حالى « لنأكل عشب » ، وسوف تجيب على سؤالك الايام .

— اياكل المدير العام « عيشا » . ام جانوه ؟

— والله لا اعرف . المدير الذى يكنى بمرتبه ، يأكل عيشا . الجاتوا
لغير المكتفين !

— من اى فريق انت. يا محمد ؟

— هذا الحد فقدمت الثقة بى !

— انا آسف . كنت احسب ان الحديث ، مازال خفيفا .

سكت حسن لحظة . ود ان بنهى الحديث نهاية سارة . قال لمحمد :

— هل ادلك على فرصة كبرى ؟

— اتوسل اليك .

— هناك نائب لرئيس الوزراء ، يعد رسالة للدكتورة . لماذا لا تتصل

به . لى تساوى وكيل وزارة .

قهقهها مما تبقهه عالية . وقال محمد عبيد :

— الرزق على الله !

وقف القطار فى محطة اسبوط ، بعد اربع ساعات من الحوار المتع

الفكه الجيد . كان فى مكانه وجده . حدينا ودودا . وما ان وسلا الى

الجامعة . حتى دارا فى الطاحونة ، التى يدوران فيها كل اسبوع : اربع

محاضرات ، يوم الودول ، وست محاضرات يوم الرحيل .



تقابلا فى المساء فى استراحة الاساتذة . كان حسن منخول العظام .

عظامه نطحن فى القاعرة . ثم دنخل فى اسبوط ! امضى اربع ساعات فى

المحاضرات ، وخمس ساعات فى رحلة القطار . استيقظ فى الرابعة :

ليأخذ « مجرى » السادسة . نام ليلة السفر بعد منتصف الليل ، نوما

متقطعا . شعر بحاجة الى النوم . اسرع الى غرفته ، وما ان اوشك ان

ينمى على السرير . حتى طرق محمد عبد الباب . دخل عليه :

- اسرع . اسرع .
— ماذا ؟
— لا وقت . سئفنت منك فرصة العمر !
جذبه من السرير . دلف به الى حجره . قال له اسمع .
استمع الى حوار مضحك مبك في وقت معا . كان الحوار بين مدرسين
هديثين من مدرسى الجامعة . دار في الصالة الى وضعت فيها منضدة
اللعلم . قال الاول لزميله :
— كنت نحدثنى عن شىء اسمه العزبة . او الوسية . وكنت نطلقه على
ما يدور في الجامعة . وكنت امضغ الطعام . لم ابدن كلامك بالضبط .
لا تؤاخذنى .
— كنت اشير الى الجامعة . التى اقترح نسميتها بالعزبة .
— استمر .
— فى اى سنة ندرس ؟
— فى السنة الرابعة ، واعطى مجموعة صغيرة (مكشون) .
— ومن ذا الذى يدرس محاضرات السنة الثالثة ؟
— الاستاذ . . .
— ومن يدرس للسنة الثانية ؟
— الاستاذ رئيس القسم .
— ومن يحاضر للسنة الاولى ؟
— عميد الكلية .
— هل فهمت ؟
— احسبني فهمت .
— كلمة " احسبني " تدل على انك لم تفهم الظاهرة تماما . كليدا

عزبة . وجامعنا وميلانها . عزب كبرى . اطلق عليها زميل لنا كلمة « الوسية » ، تعبيراً عن الانتفاعات الكبيرة . هذه العزبة مقسمة بين الملك الكبار : العميد . ورئيس القسم ، واسانذة المادة . العميد . رأس القبلة . فترك له سنة أولى . وما ادراك ما سنة أولى : ثلاثة آلاف تلميذ منظم . ومثلهم متنسب . سوق واسعة محتكرة لكتابه .

— لقد وجدت هذا الكتاب في ايدي طلاب الهندسة والزراعة والحقوق .
— الاقتصاد يدرس في كل تلك الكليات . بل ان هناك اتفاقية ، تشبه اتفاقية الكارنل بين الشركات الاحتكارية . اتفاقية بين اسانذة وعمداء الكليات في الجامعات المختلفة لتبادل المنافع . وبهذا تنسج اسواق الكتب . لنفطى آفاً اخرى من الطلاب . المحنكر هنا يفرض الثمن الذى يريده . والطلبة « الغلابة » يدفعونه . ويقطعونه من « لحم الحى » كما يقول المثل الشعبي .

وأجاب زميله :

— لست في حاجة لان تقول لى عن الانتفاعية التى تقطع لرئيس القسم ، وهى السنة الثانية . وطلابها اقل عدداً . ولكنها اكبر عدداً من السنة الثالثة ، التى تكون من نصيب استاذ آخر . هذا وضع منطقتى فى مجتمع طبقتى : الشراء بدرجة من القيمة الى الدرجات التالية فى السلم الاجتماعى .

همس محمد :

— ارايت ؟

— وسمعت ؟

لماذا لا تأخذ نصيبك من الوسية ؟

— هل اعاجم الوسية ، واحارب الاستغلال . ثم اخذ نصيبى منها ؟

— الناس جميعاً يفعلون ذلك .

تماما كما كان يحرضه «أحرار» وسية الخواجة اليونانى على المصرة ..
واجابه .

— انال ن افعل . والا اكون قد انتهيت كنفسان . واصبحت مستغلا
للطلبة الفراء . ما الفرق هنا بين استاذ الجامعة والراسملى ! انهم يفعلون
ذلك حتى فى جامعة الازهر .

— الذنب هنا اقم . يستخدمون لاستغلال الطلبة الفراء . اقدس
شىء وهو الدين .

— عندما نذكر كلمة « الدين » تقفز الى ذهنى . صور استخدام الحكام
والمشايخ له لاستغلال الشعوب . هذا يذكرنى بمحمد على . اتطع بعض
علماء الازهر اتطاعيات شاسعة . رشوة لهم ، لاستغلال الدين فى مابيده .
ضد القوى الوطنية . والزعماء الوطنيين ، امثال عمر مكرم . هذه صورة
من صور نشأة الاتطاع النينى !

فلسفة الوسية تضرد : حينما كان حسن يدرس فى احدى الكليات ،
اوضح له المعيدون من تلامذته . صورة للوسية العلمية . قالوا له : ان
بعض الاسانذة يستغلونهم استغلالا مباشرا . وبعبارة اخرى يشغلونهم
« مخرة ! » . وهى اعلى مراتب الاستغلال . يصحح المعدون أوراق
الامتحان بالالاف . يتقبض الاستاذ اجرة النصح كاهلة . لا يعطى المعيدون
شيئا . يوقع دوى على الاوراق كأنه صححها ! ويضلم الشيك . ويوقع
عليه كذلك !

لم يترك محمد عبيد هذا الحوار يمر . دون ان يفرد منه :

— هاهم زملاؤك . اساطين العلم فى الجامعة ، يتخذون منها عزة
كبرى . او على حد تعبيرك « وسية علمية » . احسبك الآن لا تلومنى
على ما فعلت .

— ان لا الومك . ولكنى أشيد بخطرترك !

* * *

مجموعته في التنظيف الطليعى . نجتمع في داره . عددهم ستة كما
المقاعد في غرفة جلوسه : لا بأس ان يعقد الاجتماع في شرفته . اعضاء
المجموعة . استدقواوه . يعرفونه قبل ان يكون لديه غرفة جلوس !

رحبت برندا بهم ، فهم يعرفونها . قدمت اليهم الشاي والجاتوه
ارفع مستوى المعيشة الى " الجاتوه " . ولكنه كان قطعة واحدة لكل .
كان فنجان الشاي الذى اعد للمضيف باللبن . وعندما راي سويلم . اعد
افراد المجموعة ، ان برندا تقسم الشاي باللبن لزوجها . وقف منجا :

— انا استاذن !

وسأله حسن دهشما :

— الى اين ؟

— الى منزلى .

— والاجتماع ؟

— لن احضره .

— يا رجل .

— كيف احضر اجتماعا لمجموعة في جهاز طليعى . يرؤسها رجل منرف

بشرب الشاي باللبن !

وضحك الجميع . كان بدءا فكها . لاجتماع صاحب . كان اللبن

سويلم . كان يعمل استاذا بكلية الحقوق . وكانا يدرسان فيها ما

ذهبا لزيارة استاذ صديق ، طلب اليهما شايا . قال حسن :

— اريد الشاي باللبن لو سمحت .

قامت قيامة سويلم . لم يجد حرجا في ان يقول لحسن :

— هل كنت تشرب لبنا في بلدكم ؟

وأجاب حسن :

— ولا شايًا !

— اذن ، كيف تطلب الشاي باللبن ؟ !

كان الاجتماع مخصصا لمناقشة « تقارير » الاعضاء عن القطاعات التي كلفوا بزيارتها . وكان اول المتحدثين فتحي . اشتراكي . عميق المعرفة بالخطيط الاقتصادي . في الاربعين من عمره .

— زرت شركة الحلج والغزل والنسيج . التي يرؤس مجلس ادارتها ، همادة شاهين . وزرت كذلك شركة الحديد والصلب . وما سأئوله ينطبق على الشركتين . ثم دلف فتحي الى الموضوع :

— رئيس مجلس الادارة — العمال — النقابة — الاتحاد الاشتراكي ولجانه — الترف — الكادحون . وقالوا لي ، وقتلت لهم — الاجور — الحوافز — الانتاج والرقابة !

نظر الاعضاء لبعضهم بعضا . لم يفهموا شيئا . شعر حسن بما في هيوتهم من تساؤلات . استأذن الحاضرين ، واصطدب فتحي خارج الغرفة . قال له :

— ما تقوله خلط . لا يفهم منه شيء .

ابتسم فتحي ، وكأنه راض عن نفسه :

— انت تعرف أسلوبى .

— أساوبك وانسخ ، حين تتحدث الى .

— نعم . فأنت حسن . اعرفك معرفتى لنفسى . اما اعضاء المجموعة ،

فلا اعرفهم .

كانت الرعدة تناب فنى . حينما يتحدث عن الاشتراكية والراسمالية .
أو السياسة بصفة عامة . كان يلجأ الى هذا الاسلوب الضبابى ، حتى
لا يؤخذ عليه كلامه . وكان له عذره ! وضع بعض اقاربه « وراء الشمس » .
كما يتوالون . اكذبه حسن :

— هذه المجموعة رجال موثوق بهم . اشتراكيين منلك ، والا ما كنت
صانقتهم . وضممتهم الى مجموعتى .
— جميل . سأنحدث .

حينما عاد فتحى للحديث . حذت عدة لسانه :

— زرت العمال . فى خطوط الانتاج . امام الانوال . والمغازل
ودواليب الخنج . منظرهم رنع . وغبار القطن يغطى اهدابهم . ووجوههم
روحهم المعنوية عالية . زملاؤهم فى الحديد والصلب . تحرق الامرار
اجسادهم . ويسود الدخان وجوههم . ومع ذلك فهم فرحون بصناعة تخذل
مصر لأول مرة . والفريقان يعتقدان ان المصانع ملكية للشعب ، فيبذلان
جهدا خارقا . وكفاية عالية . لئذى يسوؤهم فقط ، ان رئيس مجلس الإدارة .
وكبير المهندسين . ورجال الإدارة العليا . منعزلون عنهم ، فى أبراجهم
العاجية . لا يشاركونهم هذا الكدح لزيادة الانتاج .

ذهب فتحى ، الى الجناح الذى يحلته رئيس مجلس الإدارة للقائه .
عملية بالغة التعقيد . قبله على باب المبنى جندى يحمل مدفعا رشاشا
— يا ستار بارب — فتحى الذى يرعشه الكلام ، ماذا يفعل به الرصاص !
بعد ان نخطى هذا الخط الدفاعى الحميم ، كان عليه ان يجماز مواقع
كثيرة : الاستعلامات — لسكرتير الخاص — منسق الزيارات — مدير
المكتب .

المكاتب لنى مر علينا فنى . قبل مكتب المدير . مريحة . فيها مر
الانك الفاخر قدر كاف . لكن كانت بها مراوح تخفف حرارة الجو .

لا توجد في عنابر العمال المنتجين . لكن غرفة مدير مكتب رؤس مجلس الإدارة ، كانت شيئا آخر تماما :

التكييف الذى جعل الصيف شواء . الإبهة في كل شىء ، في الغرفة . الاناقة في ملابس المدير . نشحم واللحم . ينم عن النعمة . وعدم التحرك . قال لفتحي للمرة الرابعة . بعد أن اجاب على السؤال في المكاتب السابقة :

— ما هي المهمة التى نريد ان ترى الباشا فيها ؟

تعجل فتحنى . كان على حرصه . والرعب الذى يعيشه . متعجلا .
سائل :

— الباشا ؟ اى باشا ؟

اجابه المدير فى هدوء . وثقة .

— الباشا . رئيس مجلس الادارة .

عاد الرعب الى فتحنى . فواته الحرس مرة اخرى . قال المدير .
ما قاله لمن سبقته عن نوع مهنته . قال المدير له اخيرا :

— تفضل .

دخل فتحنى على رئيس مجلس الادارة . وقبل أن يشرح تطابعه للجماعة ، استدار الى حسن . وقال له :

الحمد لله ، لم تذهب انت للشركة . كان شاهين سيرعك . وكنت استمعت ،اذنك انه « باشا » ، وليس « بك » كما يلقبه اتباعه !

وجد فتحنى . « شاهين » رئيس الشركة . شيئا مستغرا . جسد نحيل . لا يكاد يظهر خلف المنضدة التى تمتد بعرض الغرفة . « غاطس » في مخفخة ، لم يلقها فتحنى . وقف « الباشا » للقاتله . ندف وثقة . خلف منضدته . كان التكييف باردا . واسنه الجراة فرجا رئيس مجلس الادارة :

- التكيف قوى جدا . أخشى ان اصاب بالبرد . جذت لتوى من
عنابر العمال . والحر فيها لامح . « وهبو » القطن يكتم الانفاس .
تجاهل شنهين هذه الملاحظة . على انه لم يتجاهل جزءا منها :
— هل رايت العمال ؟
— نعم وتحادثت معهم .
رد عليه الباشا في اسلوب فيه احتجاج وتعال :
— كيف تتصل بالعمال ؟ من اذنك بان يلتقى معهم ؟
— انا عضو بالاتحاد الاشتراكي بالمحافظة . ولى الحق في الالتقاء
بالعمال .
— لكن يجب ان تستاذننا قبل ان تدخل عنابر المصنع .
تبخرت الجراء المؤقتة الى ركبت فتحنى . فاء الى نفسه :
— انا آسف . حسبت ان « معاليك » ! على علم بمهمتنا .
التفت اليه « الباشا » بطريقة عسكرية :
— ماذا يمكن ان اقدم لك ؟
— وددت ان اسأل . ما هى العلاقة بين الادارة العليا والعمال .
ونقابهم ، وما هو دور لجنة الاتحاد الاشتراكي في المصنع ؟
— هذا موضوع كبير . العلاقة بيننا وبين العمال علاقة اخوة ! لا
مشكلات . طبعاً انت قرأت البحث الذى عمله « الجدع ده اللى اسمه
حسن » . امين الاتحاد بمصر الجديدة . هذا كلام نظرى . لا يتفق مع
الواقع .
اتشعر فتحنى من ورود اسم حسن . خشى ان يكون قد علم . بأنه
عضو في جماعته . لكن اطمأن : اسماء الاعضاء سرية . ثم تشجع ليقول :
— لكنك قائد اشتراكي ! نتولى قطاعا انتاجيا هاما . وانت كذلك

مضو هام في التنظيم السياسي . فكيف نقول انه بحث نظري ؟ وهو يهدف ان يصل بهذه العلاقات الى ان تتسق وملكية الشعب لوسائل الانتاج .

— انت كذلك تقول ، ملكية الشعب لوسائل الانتاج !

— هل تؤمن بسيادتك . بهذا الموضوع ؟

— بلى . اؤمن بالقطاع العام !

انت ايضا تعرف بلى . والله انت « انبلا » . خاملر جيل بذهن

لغنى . لحسن الحظ لم يسمعه « الباشا » ، وقال :

— القطاع العام هو ملكية الشعب .

واجاب رئيس مجلس الادارة . اجابة غريبة . ثم يدر نحى . ولم

يدر الجماعة معه . حين سمعتها ، ان كان الرجل عميها . يدرك حقا ما يقول .

او انها كانت رمبة من غير رام :

— التأميم والقطاع العام شيء ، و ملكية الشعب لوسائل الانتاج

شيء آخر .

تلعلم فحنى . نزلت الاجابة الى اغوارده . يبدو انه امتنع .

لم يشأ ان يقول له : انت نقول ان العمال اخوانك . لماذا لا

تזור المصانع التي ترونها ، وتشارك اخوتك الانتاج ؟ لماذا تعيش في هذا

البرج المترف ؟ اموال الدولة ، انتاج العمال . تنفق على هذه المكاتب

الباذخة . بينما العمال يصل « هبو » القطن الى صدورهم . فيسدرهم .

ما الفائدة ؟ هذا هو النمط البرجوازي . الباشوات الجدد . الذين يقودون

القطاع العام ، والمؤسسات السياسية . ربم يقودونها . ويقودون ، صر

الى الهاوية .

التقط العامل مجاهد خيط الحوار . فهو يعمل في شركة مماثلة ،

بمصر التجربة بنفسه . قال :

— صحيح انه توجد نماذج جيدة تقود بعض وحدات القطاع العام .

ولكنها قليلة . والصورة التي عرضها علينا فحنى نهائل تماما الصورة في

مصنعتا . رئيس مجلس الادارة ينزل في جناحه الفخيم المكيف ، يصدر
الوامر الى مصانع لا يراها ، والى عمال لا يعرفهم . طبقة مختلفة تماما
عن الطبقة المنجحة . يبيه بأبيه وجده . فهو ابن بائسا سابق .

وتعجب عبد العظيم :

— كيف يتود هؤلاء ببناء الاشتراكية ؟

واجاب مجاهد :

— هذه هي النقطة التي اود اثارها : رئيس مجلس الادارة ، فروى
بين التأميم والقطاع العام . وبين ملكية الشعب . اما انه قارىء متعمق .
يفهم المفرقة تماما . واما انه رجل عملي واع بنجاحه النظام . فالاشتراكية
كلمة تعال للجواهر لانارة حماسهم للنظام . ثم يدار القطاع العام الذي
تملكه الدولة بواسطة هذه الفئات الرجوازية ، التي تسيطر على جهازها
الانتاجي والسياسي . النتيجة دولة يدار بواسطة الراسماليين . بل ان
القطاع العام ، قد يدار وكأنه ملكية خاصة لإديره .

وتدخل فنحن :

— لكن الدولة اذا كانت ممثلة حقيقة للعمال والفلاحين ، وللكترة
الشعبية ، فمن الممكن ان تنسق ادارة الدولة للقطاعات الانتاجية والخدمية
مع ملكية الشعب لوسائل الانتاج .

ورد مجاهد ردا . ادعش حسن : حينما اختاره ليكون عضوا في مجموعته
كان يعلم انه عامل واع فقط . اما ان يكون عمقا هذا العمق ، فهذا ما لم
يتوقعه :

— عند توافر هذا الشرط ، أتفق معك . ولكن دعنا ننظر المثال الذي
ناقشته . قطاع عام ، تديره وتسيطر عليه طبقة برجوازية . منفصلة
تماما في سلوكها ومبادئها التطبيقية ونمط معيشتها ، وتفكيرها . عن العمال
والفلاحين . كيف يمكن ان يبنى هؤلاء الاشتراكية . المناقض قائم منذ
البداية . واذا استمر فلنظام يسير الى تصدع .

سكت مجاهد برهة . ثم قال :

— أتريدون أن تعرفوا أسراراً :

رد الجميع ايجاباً . استمر :

— والد رئيس مجلس ادارتنا . كان يملك قبل الثورة خمسمائة
معدان !

رنت كلمة « الخمسمائة فدان » في اعصاب حسن . تسللت الى
مسابر ذكريانه : تماماً كالخمسمائة فدان التي كان يملكها الخواجة
الدونائي . انذى عمل حسن كانبأ عنده .

واصل مجاهد :

— وبقدرة قادر ، وزعت الخمسمائة فدان ، قبل قرار الامسلاح
الزراعى مباشرة على الاولاد والبنات . كان نصيب رئيس مجلس ادارتنا
مائتى فدان !

وعقب سويلم :

— اعتقد ان الوسيلة الكبرى التي بديرها هؤلاء . ويسيطرون عليها .
اضخم وأخطر بكثير من تلك الوسايا التي تقوّم على الملكية الخاصة .

واشترك عبد العظيم :

— تدخلاتك القليلة يا عم سويلم . تضرب في الجذور . السحق ان
الملكية الخاصة للوسايا . هي مصدر لاستغلال الجاهل العاملة . لكن
البرجوازيين البيروقراطيين يتخذون من الملكية العامة وسية من نوع آخر .
فهم يسيطرون عليها . يتصرفون في ائناجها . يحرمون الشعب العامل من
ادارتها . يعزلونه عن نتائج عمله . ضحك على الذقون : الراسماليون يقودون
الناس الى الاشتراكية . انهم في الواقع بشرهون الاشتراكية ، ويفقدون
ثقة العاملين فيها .

ثم نقل عبد العظيم الحوار الى موضوع جديد، ولو انه متصل بالحدث السابق :

— موضوع ما يسمى « بالراسمالية الوطنية » ، يسهم في عملية التقويض للبناء الاشتراكي . لقد استبعد خصوم النظام القدامى فحسب . وحل محلهم باثوات جدد .
وعقب فتحنى :

— تعبّر الراسمالية « الوطنية » تعبّر طريف . فهو يضم الباثوات الجدد ، الذين يسيطرون على القطاع العام . وهؤلاء خليط : بعضهم من وريثة الاتطاع ، وأناء الباثوات الدامى . بعضهم ينطلع للباشوية المنطوية . لاسر الاتطاعية تجزأت الى وسايا اصغر ، انضمت الى الراسمالية الوطنية . الطفيليون ، المصدرون ، المستوردون ، المتاولون ، الاعيان ، وتجار المخدرات — اصبح كل اولئك شرائح فيها . انبثوا في التنظيمات السياسية : وفي البرلمان ، وقطاع الانتاج . ثم كلفوا ببناء مجتمع اشتراكي !
أراد حسن أن يخفف احتدام الحوار :

— ... ومن صورها ، الوكالات والاسماء، والالتساب الجديدة : المنريسي فورد — طاغلا بيجو — مجبور شيفروليه — عمر موتورز — مقارى كاديلك — وهكذا ...

وقد ظل عمر الخطاب ، أحد أعضاء المجموعة ، ساكنا . الى أن سمع لفظ عمر موتورز ! يبدو انه ايقظه . كان عمر الخطاب هو « زميل الخلد » لحسن ، أيام ان كان حسن باشجاويشا . حارسا لرئيس اركان حرب الجيش . كان هو الزميل الذى قهر الجهل بطريفة دولية ! حصل على الثغانة والتوجيهية وليسانس الآداب من جامعة لندن . وذلك من منازلهم ، او اكواهم بالقاهرة . وكان هذا الزميل هو الذى ابتكر كلمة « الخلد » ، ليطلقها على اكلة الفول (المحلى بالبيض والطماطم والجرير

والطحيّنة) استمدت خلدّها من أنّهما لم يتذوقا غيرها في ذلك الوقت .
وظلت تثير شهيتهما لها بشكل خالد !

قال عمر الخطاب ، أو عمر الخلد :

— أنا اقترح أن تعدّ المجموعة ورقة دراسية . يكون عنوانها
« البيروقراطية البرجوازية تدمر القطاع العام وملكية الشعب » .

أثار الاقتراح مشاعر مختلفة . نساءل سويلم . بعد أن مال برأسه
إلى أسفل وحك جيبته :

— ما هي النقاط التي ستناولها الورقة ؟

وأجاب عمر :

— كل ما قاله الزملاء هنا . عن مشاهداتهم في المجالات التي زاروها .

التقط عبد العظيم الفكرة . وجزاها بالاشتراك مع فتحي عدّة أجزاء .
وزعها على أفراد المجموعة . على أن يراجعها وينسّقها زميل الخلد .
ويصوغها في صياغتها النهائية . فقد كان اقتصاديا ، يدير البحوث في مصرف
كبير ، مؤثر في الاقتصاد القومي كله .

أعدت الورقة . حسن ما زال مرضيا عنه . تشجعه الرياسة بأن يكتب
ما يريد . وزعت الورقة على أعضاء الجهاز الطليعي . أحدثت دويا . رحبت
بها القيادة والأوساط الثورية . وذعر منها البيروقراطيون : البرجوازيون .
بدأت المجموعة تكون بؤرة عكنة لهم .

* * *

ورقة أخرى : أحدثت ذعرا أشد . لكنها بقينا أضرت بالمجموعة .
ومن الغريب أن فتحى هو الذي اقترحها . ولم تصبه الرعدة :

— اقترح أن تعدّ ورقة أخرى ، موضوعها ، الباشوات الجدد !

وعلق سويلم بأسلوبه التهكمي :

- انا اقترح ان يقدمه الورقة ، الاخ فتحي !
انتفض فتحي للاقتراح . اصابته القشعريرة الازلية :
— لا يا عم ، للجماعة رئيس .
ورد حسن :
— نصبتك رئيسا .
— ارفض بشيم .
وجاء صوت عبد العظيم الذى كان حماسيا دائما . وينم عن وظيفته
كمدرس .
— الاقتراح عظيم . والورقة مهمة . اذا كان هؤلاء جادين فى بنسأ،
مجتمع جديد فهذه الفئة لا يمكن ان نقوده .
وقال فتحي :
— الحمد لله وجدنا من يحمل الورقة . ويقدمها للقيادة !
ورد عبد العظيم :
— انا مستعد . وانا الذى سأكتبها !
قدمت الورقة . احدثت تلقا . فاق الذى احدثه الورقة السابقة
وجاء الوزير الى مكتب حسن . وعلى وجهه تمام غير عادى . بادره الوزير
— ماذا تعلمت ؟
— اى فعل ؟
— هذه الورقة للمعلقة بالباشوات الجدد .
— ما بالها ؟
— اثار زوبعة شديدة .
— وسيادة الرئيس ؟
— اول ورقة : لم يرض عنها نهائيا . مجر وعنكم حازت اعجاب

الرئيس . ومعظم التنظيم بما تعده من أوراق ثورية . لكنكم في هذه الورقة
- زودتوما حبتين « .

— سيادتك قائدى . وانا عضو في مجموعتك . كان يمكنك ان تقرا
لورقة ، وترفضها أو تعدلها بما تراه .

— يا بوعلى

قال كلمة ابو على ببسمة مبتورة .

— يا بوعلى . الثقة بك . وفي مجموعتك كبيرة . ونحن ننقل
ما تكتب ، ونقول . دون مراجعة .

— ما هي ملاحظات سيادة الرئيس ؟

— يقول الرئيس : ان نخفف حدة الورقة . وان نلغى عنوانها :
« الباشوات الجدد » .

— سوف ننزع عن الورقة اهم اسلحتها .

— هناك الفاظ اخرى . أنت استخدمتها من قبل : البروقراطية .. الخ .

وعدلت الورقة . لكن معناها . لم يمس . واعيدت الى حسن مرة
ثانية . مازالت « حامية » ! كانت اعادها للمرة الثانية . اشارة كافية لحسن .
تركها ولم يعد تنقيحها .

* * *

رحلة مجاهد كانت اكثر اثاره . دعا اللجنة كلها الى اجتماع شعبي .
يناقش مشكلات الجماهير . يعتقد في « المشيخة » التي يسكن فيها .
ابو الريش في السيدة زينب . وخطر لحسن خاطر شيطاني .

سأل مجاهد :

— هل أنت من نفس المصنع ، لذي يعمل فيه وجيه ؟

— وجيه من ؟

— وجيه برغوث !

— اسمه وجيه برغوث . . كيف تلد البراغيث وجهاء ؟ !

كان حسن قد اعطى فكرة عن تكرين الجماعة التي يرؤسها الوزير وهو عضو فيها ولم يذكر لهم اسماء . فهو بهذا لم يفش سر الجماعة . كما تتول المنظمات ، باستثناء فرد واحد . هو عامل النسيج . وجيه برغوث . فقد كان مصدر استفزاز ونقزز لحسن . كان يعتبره عالة على الطبقة العاملة . مسخا لها ولمعانها . اقترح حسن ان يدعى وجيه برغوث لحضور هذا الاجتماع الشعبي . لاقى الفكرة موافقة من الجميع . استحسناها مجاهد كثيرا .

دعاه حسن الى الاجتماع . كانت الدعوة رسمية . جاءت بعد ان قرا حسن تقرير جماعته ونشاطهم . امان مجموعة الوزير . بعد ان انتهى من التقرير خاطب وجيه برغوث قائلا :

— وقد قررت الجماعة دعوتك للاسهام في هذه الندوة .

تململ وجيه . اخذ يفكر في اسباب للهروب . لكنه سكت على الفور ، لما سمع الوزير يقول :

— لا بد ان نذهب . هذه منطقتك . ومشبخك . انت تمثل العمال في هذه الدائرة ولا بد لنا ان يلتقى بالناس .

لم يجد وجيه بدا من قبول الدعوة . اتفق مع حسن على المكان الذي يلتقيان فيه .

وفي اليوم الموعد . جاء وجيه يرفل في الحرير والذهب . يركب عربة انيقة . منحته اياها الحكومة . حيا المجموعة بجلال مكتسب ، مما جعله جلالا مضحكا في بعض مظاهره . كان لا يمكن للسيارة ان تدخل الحواري الضيقة . ترك العربة راغما . تأفف . لم يجد مناسما من السير على الاقدام . خاض مع المجموعة في الحارات التي غمرتها المجارى والمياه الجوفية ومياه

الغسيل . تسخ الحذاء الابيض الناصع . وتناثر الوحل على البدلة
الحربية البضاء . وتلطخت « الكارفة السولكا » .

الموكب كان جحيما لبرغوت . ومعة لاعضاء المجموعة . كانوا يلبسون
قممنا عادية . وينطلوننا واحذية . « منعودة » على الذوض في مثل هذه
لبرك .

اخيرا وصلوا الى مكان لاجتماع . استقبلوا بزوبعة من النصفيق
التهاتف . كان الخطيب الفوه في هذا الحفل هو مجاهد . دعا وجهه للخطابة .
حنوفا ، للعامل نائب الدائرة . كان يعلم انه عيب .

تحقق الدرس الذي اراد مجاهد وحسن ، ان يلتقاء للعامل المسوخ .
قال مجاهد في خطبته :

- ان الطبقة العاملة . تعرف خصومها . لكن اخطر ما منيت به
الطبقة العاملة ، ابان نضالها . هم اولئك الذين يخرجون من صفوفها .
وينقلبون حربا عليها . يمسخون فكرة العمل . تماما كالتبقات المستغلة .
ويعزلون انفسهم عن بيتهم واهلهم . ويذللون خلقا شائها يعوق التقدم .

عند هذا القدر ، تظاهر وجه برغوت بالمرض . المجموعة تعرف
حقيقة مرضه . هرب بجلده .

* * *

طرقات ، رمسية ، متباعدة ، على باب غرفته بالرياسة :

- تفضل .

لم يرفع راسه من اوراقه . لكن صرير الاكرة ابقظه : ضابط عظيم
جليل ، متوسط القامة ، نحيل الجسد . تنللا على كفيه ، سيوف متقاطعة .

ونصور . ونجوم . تضوى على صدره أوسمه ، وميداليات . تتركشها
شرائط حريرية ، حمراء ، وخضراء ، وزرقاء . وفي نظرة ثانية . اكتشف انه
محسن مرتضى ! « البوزباشى » . قائد سريه فى مدرسة ضباط الصف .
عندما كان شاويشا . هو الآن « فريق » قائد لفيلق كبير فى الجيش .

قفز من كرسيه . ليأخذه بالاحضان وبالقبلات . لم تمنعه الرتبة
الكبرى ، وبدلة الفريق . من ان يعبر عن اشواق ، وذكريات . عمرها اكثر
من عشرين عاما . كان وزير الرياسة يرافقه ، يمشى خلفه . شهد اللقاء .
الحرار . فهم لماذا طلب مرتضى ان يذهب لمفاجئته فى مكتبه . انسحب الوزير .
ليترك العواطف الجياشة تنساب . دون « عزول » :

— مازلت سيادتكم مشرقا بالشباب والحيوية .

— واثت كذلك . فيها عدا انك « سمئت » .

— نحن الآن ناكل !

كان حسن منظرهما على سماع اخبار الجيش . سألته :

— هل لك ان تعطينى فكرة عن تطور الجيش . منذ ان كنا فيه معا

فى الاربعمينات ؟

حك الفريق شعر راسه . الذى وخطه الشيب . ونظر الى حسن
بوجهه المستدير الوسيم . وطابع الحسن يفوح فى اسفل ذقنه . وقال :

— موضوع طويل . لكنى اتقول لك . ان الجندى اصبح اكثر اعتدادا

بكرامه . الفى البذل العسكري . واصبحت الخدمة العسكرية اجبارية
للجميع .

— هل يرجع الاعتداد . الى انكم برتون العساكر وضباط الصف الى

ضباط ؟

— نعم ، نرقبهم . ويصلون الى رتبة الرائد « الصاغ » .

— هذا بالضبط ما كان يحدث قديما . بصل العسكرى . او ضابط
الصف الى هذه الرتبة . بعد ان يكبرن قد شاب ، وضاع عمره . ويوضع في
مواقع لا تأثير لها في الجيش .

— ماذا تريد ان نقوله ؟

— اريد ان اتول ، بأن هذا قانون انجليزى استعمارى . وضعه الانجليز
والحكام في مصر ، حتى لا يبسل ابناء الشعب الى مناصب قيادية في الجيش .
فيصبحون خطرا على النظام .

—

سكوت مرتضى شجعه على المضي في القول :

— هذا النظام اكثر تطلنا . حتى من سياسة سعيد باشا . الذى
سمح بترقية العساكر الى مراتب الضباط دون قيد . وبهذا رقى احمد
عرابى . ابن الفلاحن الى الرتب العالية . ثم قاد حركة الفلاحين المصريين
ضد السادة : الخديو نوبقى . والانجليز . والانترك . والجراسمة . اولئك
الذين كانوا يتهنون المصرى . ويسفكون كرامته .

وقال مرتضى :

— النقطة الثانية : ان مستوى التدريب ارفع كثيرا . اصبح الجندى
المصرى كفنا في توجيه احدث الاسلحة .

— هل الاسلحة الروسية . وما يلحقها من تدريب . وتكتيك . ترقى
الى مستوى الاسلحة الانجليزية والامريكية ؟

— الروس في اداء الحرب وفنونها متفوقون . وقد يدهشك انهم
يفوقون كثيرا على الغرب في مجالات عدة .

— الاسلحة الروسية في حرب فينلاند تصدتها معروفة في عزيمة
الامريكيين .

— الامريكيون لم نهزمهم الاسلحة الروسية . فالجندي الفيتنامي كان سيهزم الامريكين بأية أسلحة . ان لديهم أسلحة من الصين . عقيدة الرجل الفيتنامي السياسية . وقيادته وتنظيمه واعداده ، هي التي جعلته يقهر اكبر قوة على الارض .

— هل صحيح . ان الضباط المصريين الممتازين . الذين تربوا في الاتحاد السوفيتي ابعدوا من الجيش ؟
— لا نجابة .

حول مرتضى الحديث الى نقطة اخرى :

— من التغييرات كذلك : الغاء نظام المراسلة في الجيش . النظام الذى كنت نفاذى بالقائه ، وقد عانيت أنت منه كثيرا .

اثارت هذه النقطة مواجع في صدر حسن . كانت كالمه ، ونكشها لمرتضى . لقد فرضوا عليه : وهو شاوليش . معلم ممتاز ، اول دفعته ، ان يعمل « مراسلة » لكعب الاتائد . لم يستطع حسن على هذا الموضوع صبورا . قال لمرتضى . وكأنه يهب في وجهه :

— اتقول انكم الغيتم نظم المراسلة ؟ هذا غير صحيح . الغيتم نظام المراسلة : بل امر عسكري كتابى . من الناحية الرسمية فحسب . ولكنه موجود ، على نطاق واسع بأوامر شفوية عملية .

— ماذا تعنى ؟

— الا تدري ان العساكر الآن ، يذهبون جماعات الى بيوت الضباط الكبار ، بعد ان كان الضابط له مراسلة واحدة . لم يعد الامر مقصورا على عسكري مراسلة : يقوم بدور الخدم في البيوت . . انما امتد الامر الى مسائل اكبر : اصبح للعساكر يعنون بالحدائق ويبنون الفلل .

غيرة قائمة ، نزحف على وجه مرتضى . الذى مازال صبوحا ، رغم تقدم السن . سعد حسن من الظاهرة بقوله :

— المودة الآن هي الانتاج . والمسافر يقومون الآن بزراعة ازارع ،
او « الوسايا » الجديدة التي تقطع للضباط .

١ تص عليه حسن قصته مع الفرعاء ، والالوية ، الذين زارهم في
هيلاتهم . بهت مرتضى ، وكأنه لا يعلم . لم يتكلم . ومضى حسن :

— أنت تعلم هذا كله ، لاشك .

— لا

— قالها مرتضى بعد تردد . خرجت من فمه متعسرة .

وقال حسن بصوت غير مسموع :

— المصيبة اعظم ، ان كنت لا تعلم !

تحسس مرتضى صدره . وكأنه ضاق بما سمع . ثم تنفس :

— ماذا اتقول لك ؟ وانت حديق . وعاهدتك على المراحة ..

— لا نقل الا ما يربحك ان تقول .

— يؤسفنى ان اتقول لك اننى رغم كونى قائدا لفيلق كبير ، لا املك

قيادته او توجيهه كما ينبغى . الجيش الآن امبراطورية كبرى . موصدة امام

الجميع ، حتى عبد الناصر ! ونحن مستشارون فنيون لا غير . نقوم بمهمة

فنية في الحدود المرسومة لنا .

— ماذا تقول ؟

— السياسة اوغلت في صفوف الجيش . ايفالا عميقا . واصبح

الفرعاء والالوية . يتصلون مباشرة بالمشير . وبعضهم بالرئيس . وآخرون

بالمخابرات . واصبحت بالجيش اوكار وقلاع . لا يستطيع فنى مثلى . ان

يسيطر عليها .

٢ ثم يشأ حسن ان يثير مواجع مرتضى . فهو قائد . بلا قيادة حقيقية ،

فكراته لا تجد سبيلها للنمو والانفراخ . نقل حديثه وجهة اخرى . سؤال

جهرى تردد قبل ان يلقيه :

— هل الإحرفات التي حدثت في مكتب المشير ؟ حوكم عليها العساكر
وصغار الموظفين ، وامتهنت انسابهم بالتعذيب البشع في السجون
العسكرية . واعفى من المحاكمة المسؤولين الكبار . والمشاركون في
الامبراطورية ؟

— أرجو ألا تستغل صداقتنا .

— هل لم تصل الدعوة الاشتراكية الى الجند . والى صغار الضباط ؟

— الدعوة الاشتراكية . والحديث في السياسة محرم في الجيش .

الدحريم هنا صارم .

حسن نغازله أمنية . يود أن يزور مدرسة ضباط الصف في الجيش .
بنوق لان يناغى ذكريات النضال ، ويتحسس مراحب الشباب . كذلك كانت
لديه رغبة شديدة لزيارة رئاسة الجيش العليا حيث مقر المشير . كان يحدا
في ذلك الوقت ، نفس المبني الذي كان يحثه ابراهيم عطا الله باشا . رئيس
أركان حرب الجيش . الذي كان حارسا عليه . عرض حسن على مرتضى
الامينين اللذين جالسا في صدره طويلا . قال له الفريق :

— زيارتك لمدرسة ضباط الصف ، موضوع سهل . على أن تعدد

الإلهام في الاشتراكية ، أو الثورة . أو السياسة . أو الجماهير .

— أعدك .

— سأرتب لك زيارة . وسأصل بك في الرئاسة . لاخبرك بموعدها

لما الإمنية الثانية فعمرة .

— عمرة على مرضى ؟

— هذا المكان ، عسير على أي انسان . ومع ذلك فمدير مكتب المش

عامر ، يعتبر صديقي . وهوانسان لطيف . وسأحاول ان أقدمك له

لا على أنك كنت عسكريا في تجيش ! ولكن على أنك تعمل في الرئاسة

واسمنا في الجامعة . الشرط الوحيد هنا ، الا نصرح له بماضيك المجيد !

ذهب حسن الى مدرسة ضباط الصف بالمناظرة . استقبله اركان الحرب .
وف قلبه رمفا حلوا . هذه مرابع الكفاح ، ومراتب الصبا . من هذه البقعة
وجب قلبه وجيب الحب الاوّل : حبه لعالية . وبدأ دراسته . حيث نال
الثقافة . والدوجيهية ، ثم الليسانس . لولا مراعاة اركان الحرب له . لقب
هدران العنبر الذى كان يضمه ، ويسهر فيه ليذاكر ، والجند نيام .

قاده اركان الحرب الى ارجاء المعسكر جميعا . لم يسمح له بلقاء
العساكر وضباط الصف - امنية عمره - طلب انه حسن ذلك اكثر من مرد .
كان يغير مجرى الحديث . المساحات التى تغطيها رمال الزينة ، زادت .
نوعت الوان الرمال . . اضيف الى اللون الاحمر القديم . الوان صفراء
وبرتقالية وبهية ! اكر الابواب اكثر لمعانا . يبدو ان " الشاويش " المرسله
في المكاتب اكثر تفرغا من حسن . واعلى كفاءة !

راى شاويش المكب فحياه . حياه الشاويش النحية العسكرية .
فذل هو واركان الحرب على قائد المدرسة . قدمه اركان الحرب للقائد . كان
بفرجة عتيد . استقبله القائد بحفوة كبيرة . اجلسه الى جوارده على
الاركة . تداعت لذكريات في ذهنه . كان منذ عشرين سنة . يقف خارج
الباب : مكان الشاويش . دق القائد الجرس . لمحضّر القهوة . تمايا .
كهمته في نلك الحين . لميدر القائد واركان الحرب . ان ضيفها كان
شاويشا للمكاتب . لم تتحقق امنيته في لقاء زملائه العساكر . لم يدرك
اركان الحرب انه باشر عليه لونا من القهر العانى . بحرمانه من لقاءهم .



الامنة الاخرى . وهى النسل الى " مشرية " الجيش ، كان
فحيتها طريفا : المني انجيل ذو الطابقتين . حراس غلاظ شداد . تتقاطع
بنادقهم ، وسنابكهم . يور من حراس . ليجد حراسا اكثر حداثة ،

وتكنولوجية . المدافع الرشاشة من كل لون يحملها جنود الساعة . واخذ « صول البوابة » . ثم شاويش مسلح بمدفع سريع الطلقات ، قصه الماسورة ، يصحبه الى مكتب « قومندان الحرس » ومنه الى السكرتارء الذى تتدرج درجات وربما ، ثم الى السكرتير الخاص . فمدير مكتب المشير

مدير المكتب رشيق . بجمع في مظهره . تعالى المنصب . وبمساعده الحديث . وشموخ القيادة . مدير مكتب الشخصية الثانية في مصر . الذى ينبرع على الامبراطورية العسكرية . الجيش الذى قهر فاروق . ويضع محر الماهر . في حديثه ولفنانه . مزج عجيب بين « ارستقراطية » العهد القديم . و « ارستقراطية » العهد الجديد ! كان يجلس على كرسيه هذا منذ عشرين عاما عقد مثله . لكنه كان ينسب الى « اسرة كبيرة ارستقراطية » بالمفهوم المعرى ، أى بمفهوم الاف الافدنة . كان قد جمع المجد من اطرافه : متزوج من اميرة من البيت المالك ، ويعمل ياورا لابراهيم عطا الله باشا . أما مديرتنا الاثيق الحالى . فلا يملك المجد الارستقراطى القديم . ولكن يملك القوة التى بطشت به . وهو وان لم يكن من عائلة على نفس المستوى . الا أنه ايضا من عائلة تدعى مجدا قديما . لا تملك الاف الافدنة . ولكنها تمتلك مئاتها ! وهو ساعد الشخصية التى تسيطر على الجيش ، ونطبق قانون الاصلاح الزراعى . ونصفى الاقتطاع . ومع كل هذا كان ودودا :

— أهلا يا دكتور . شرفت القيادة .

— القيادة يشرفها قادتها .

جرس التليفون يدق . عشرات التليفونات . مختلفة الالوان والاشكال . كدف يسيطر عليها ! الفنون الحديثة سهلت مهمته . كل تليفون له لون . وشكل . وطريقة في الرنين ! لهذا كان يتعامل معها ببسر ملحوظ :

— الو ... مين ؟

—

كان حسن يجلس بجانب منضدة المكتب الاذقية .. سمع جرس صوت
انثوى متهانت .. تذكر على الفور قسته مع تليفونات الباشا اركان الحرب .
عندما كان حارسه . والنساء اللانى يطلبنه ، ورد عليهن . أمنية من امانى
همره ، ان يسك بسماعة التليفون الآن . بود ان يقارن بين الاصوات
بموسيقاها . بين عهد وعهد . ! كيف يمكنه ، وهو فى عرين الامس .
نيفسا .

— مين ؟ الماظ هانم ؟

—

— سيادة « الباشا » غير موجود . اى رسالة ؟

—

— « اوريفوار » يا أفندم .

لم يكذب بضع سماعة التليفون . حتى رد تليفون آخر :

— الو ؟

—

— « مش ضرورى اقول مين » ؟ ... صباح جميل . يا غزالنى '

—

من الواضح ان هذه سديتته . دقت اجراس تليفونات اخرى . اعترض

العقيد :

— سامحنى . الداشا غير موجود . وعلى ان ارد على التليفونات

جميعا .

بعد ان انتهى من التليفونات ضغط زرا . جاء صول . يضرب الارض

بحذائه :

— أفندم .

— هات للدكتور شينا يشربه .

صول يعمل مراسلة . الحمد لله انا كنت « باشجاويش » فقط ،
كانت ادخل على رئيس اركان الحرب وحده . العساكر يدخلون لتلبية طلبات
مدير المكتب والسكرتير ... الامور تطورت !

ضغط العقيد على زر الجرس مرة اخرى . جاء ملازم اول . يبدو من
سنه . وهن مشيب عارضيه . انه من ضباط الصف ، الذين يرتقون حسن
درجة الصاغ فقط ..

— افندم ، جناب الباشا .

شقت عبارة « جناب الباشا » جناته . كانوا يطلقون على الخواجه
اليوناني الاتطاعي « جناب الخواجه » ، وعلى قائد مدرسة ضباط الصف
« جناب البكباشى » او « جناب القائد » . وعلى عميد كلية الحقوق بجامعة
الاسكندرية « جناب العميد » . تسائل حسن حينئذ عن الرابطة التى تجمع
هؤلاء : الخواجه الاتطاعي اليونانى ، والقائد المصرى ، والعميد الجامعى
يضاف اليهم « العتيد » برتبتين : جناب . وباشا . مازال التساؤل قائما :
ما الذى يربط هذا « العقيد » باصحاب « الجنابة » السابقين ؟ لعله الآن
يعرف الرابطة .

ورد « جناب الباشا » على الملازم اول :

— الفيلا على شاطئ النيل بالمعادي ، نعد الليلة . فالباشا « المشير »
سيمضى لسهرة هناك .. كانت القصص والروايات ، من مصادر ممنوعة .
تترى . « الباشا » المشير له سهرات خاصة ، مضية بالدخان المعسل .
المطعم ! تارة ... المقطر بالصهبا ، نارة اخرى . كانت تجمع بين الحسينيين
لثقت العقيد مرة اخرى الى الدكتور حسن :

— انا الآن تفرغت لك .

— اشكرك الى لقاء .

- ٣٤٥ -

- ٢٢ -

. - السيد زكريا محي الدين ، نائب رئيس الجمهورية . يطلبك في
الغليسون .

- اين ؟

- في غرفتك .

واسرع الى مكتبه :

- الو .

- صباح الخير يا حسن .

- اهلا سيادة النائب .

- هناك موضوع . اريد محادثتك فيه . هل تحضر الى مكبي ؟

ذعب الى مكتب نائب الرئيس :

لاول مرة يشهد مكثبا متواضعا ! انسان وسيم . بسيط المظهر .

انيق العبارة .

بدا نائب الرئيس حديثه . بصوت خفيض ، مند :

- نحن نريد ان نكون منظمة للشباب . يؤمن بمبادئ الثورة . ويذافح

عنها . ونود ان تسهم معنا في تكوينها .

- يسعدني المشاركة في هذا العمل .

- سنبدأ في اعداد الكادر الشبابي في معسكرات . يلتقون فيها

مبادئ الثورة والاشتراكية . وغير ذلك من المواد اللازمة لتثقيفهم . واعدادهم

كقيادة للشباب .

- سيادتك معرف اننى ازود الاتحاد الاشتراكي في محر الجديدة ،

وهي دائرة يهتم بها الرئيس .

— الرئيس وافق على اسهامك معنا . وسيعقد اجتماع في همد
المنى . في الدور الاول في العاشرة صباحا .

في الموعد المحدد . اجتمع المختارون : لاعداد منظمة الشباب . قدمه
زكريا محيي الدين . الوحيد الذي يعرفه حسن ، كاشتراكي ، محمد الخفيف .
كان هناك عشرة آخرون . معظمهم متخرجون من الكليات والجامعات
الامريكية . دكاترة وعلماء ، اجتماع وعلم نفس ونظم سياسية !

اقامه المعسكر في مرسى مطروح . البحر الابيض المتوسط مرة اخرى .
لم يكن بالبحر بجمعات ، او سفن . كتلك البجعة البيضاء التي حطته اول
مرة الى 'جنسرا' . لون الماء ليس فيروزيا او « لازورديا » . او سماويا .
ولكنه مزيج من هذه الالوان جميعا . مزيج لا نخلط فيه الالوان . بل تتوازي
جنباً لجنب ! ومهما كان اللون . فانت ترى قاع البحر . تكون رمال الشاطئ ،
البيضاء . مع الوان الماء ، نقابلا لونها ، يأخذ بالاصار . ويترسب مريحا
حنوا داخل الانسان . شاطئ ، يبز اجمل شواطىء العالم !

نصبت الخيام الرشيقة الصفراء على الشاطئ . اعطت للوحده
لمسة اخرى . تضيف الى روعتها .

جاء السيد زكريا محي الدين ، بالطائرة من القاهرة . ومعه طلعب
خيري وزير الشباب ، الذي كان مديرا للمخابرات . افتتح المعسكر الذي
اختر له كدفعة اولى نحو مائة شاب . التي كلمة الافتتاح . وتدعه وزير
الشباب . قال زكريا محي الدين كلاما منعشا . لم يستطع حسن ان يفرق
بينه وبين ما يقوله آخرون . اشتهروا بالاشتراكية . كعلى صبرى . ومع
تطور المعسكر ، اعجب حسن بزكريا محيي الدين ، وفوجىء ، بوعيه
وفهمه للاشتركية . اسهم اسهاما جيدا في المناقشات والحوارات . تساءل
حسن : لماذا انهم زكريا محيي الدين يانه ممثل الاعيان والبرجوازية ؟ بينما
كان يقول في الظاهر . والله اعلم بالسرائر ، ما يقوله الآخرون : وربما
تجاوزهم .

كلف حسن ومحمد الخفيف بالقاء المحاضرات الفكرية . وزع الاسانذة الأخرى على المجموعات الصغيرة التى يقسم إليها الشباب ، لمناقشة المحاضرة العامة . ورضى حسن .

الإستراكيون : على قلتهم . يتولون الجانب الفكرى . لا ضير أن يسهم الباتون الذين تعلموا فى المؤسسات الأمريكية . فى المناقشة فى المجموعات الصغيرة . قد يتسبب بعضهم فى مسخ ما يقال فى المحاضرة العامة . إلا أن الجرعة التى كان يقدمها حسن ومحمد الخفيف . للذين انضم لهما بعض الشباب انواعد ، كانت من التدفق والحرارة . ما يجعل اثرهما عميقا .

اقبل الشباب على المحاضرات ، وتحسبوا لها . عندما ينتهى من محاضرتة . بدوى تصفيق الشباب . يطول كثيرا الدرجة أخافته . زكريا محبى الدين على يمينه ، وطلعت خرى على يساره . يشاهدان ويسمعان . على الرغم من خوفه كان سعيدا . القيادة ممثلة فى المحاضرات وفى الحوار . لا بأس من التصفيق . زكريا محبى الدين . أخذته الحماسة ، ناقش بعمق .

انداح خبر المحاضرات ، واقبال الشباب ، وانباء الحوار ، الى امكنة بعيدة عن مرسى مطروح . الى الاسكندرية . وكان المعسكر . محل زيارات عدة ، متنوعة . زوار من الاتحاد الشتراكى . والقادة السياسية ، والتنظيم الطليعى ، ومجلس الامة . وغيرها . كان المعسكر بونقة ، ينصهر فيها الفكر الثورى . المحاضرات وحلقات المناقشة . تعمق وعى الشباب . هذه فرصة لاعداد الشباب اعدادا فكريا صلبا . هؤلاء هم القادة الذين سينشرون افكار الثورة فى شباب مصر . وجاءت مجموعات ارسلها اللبى عبد الناصر من الاسكندرية . والمخابرات . ومجلس الشعب . اشتركوا فى المناقشة . تصدى لهم الشباب . افكارهم منخلفة . وكان صراعا بعضه جيد وبعضه ردى .

فى صباح يوم من الايام . جاءت عربة بيك اب من الاسكندرية . عليها

بعض الناس ، لينضموا الى المعسكر . ومعهم جهاز تسجيل ! كانت هناك محاضرة سابقة على محاضرة حسن . لم نسجل . وحين بدأ محاضراته وضع جهاز التسجيل ايمه على المنضدة . نسأل :

— ما هذا ؟

— نريد ان نسجل المحاضرة . ليفيد منها أعضاء الاتحاد الاشتراكي و الاسكدرية .

— لا . لا داعى لذلك . سيانى دور الشباب منهم لينضم لهذا المعسكر . لم يستطيعوا التسجيل . شاهدتهم حسن ، بعد ساعة واحدة . ركبون سيارتهم . فى طريقهم انى خارج المعسكر . ودعم :

— « على طول كده لسه بدرى » !

طلب حسن ان ينضم الى المعسكر فتحى ومحمد عبيد . عبيد لا ريب افضل من العشرة الكرام الآخرين .

* * *

كانت رحلة مرسى مطروح رحلة لافضلان الطبيعة والدورة والحب . خلعت الطبيعة جمالها الساحر على صفحة البحر والرمال . ونفت حسن . وزملاؤه ، الثورة فى عقول الشباب ووجدانهم . كانوا يسمعون شبابا واعيا بمشكلة الانسان فى بلدهم وفى كل بلد . اما الحب فاوشك ان يضيع استغرق فى محاضراته . ترك زوجته فى رعاية ابنه . الذى بلغ عامين . رافقاه فى الرحلة . انشغل رفق بالازاهير الوانعات ، من حوله . اصبح له جيما . لم يعد ابوه يستروح عبيرهن معه . كان عبير الشباب الواعى بتضوع من حوله يشبعه ويثمله .

انشغل رفيق ، على الشاطئ . بصويجباته . اللانى يتلقن حوله . نرك امه يغريها فيروز الماء لتوغل فيه . تعبت فى مشوار العودة . تريد عونا . اشارت بندها الى عوارب شراعية ، نهر على مقربة . اعتقد ركابها انها نحبيهم ! ردوا الاشارة بأحسن منها !

كان يدسحب رفيق على الشاطىء ، سيدة مسديقة محبه . لم تكن تفرقه . رأت فريقا من الشباب على الشاطىء ، يهيم بالذهاب لتلبية برزدا منهمتم السيدة . خافت أن يعاكسوها . امتنعوا عن الذهاب . كادت تحدث كارثة . لولا أن فطن شباب الى الخطر . سبغ اليها بسرعة . عاونها على العودة سالمة .

استمرت عملية اعداد الشباب ، حتى تم تدريب خمس دفعات . نحو خمسمائة شاب . دعى حسن لدراسة بعض منظمات الشباب في تشيكوسلوفاكيا : منظمة الطلائع من ١٠ الى ١٥ سنة . ثم منظمة الشباب من ١٦ الى ٢٥ عاما . مكث اسبوعين . عاد بعدها حاملا تجربة غنية . قد تثرى التجربة المصرية ، بعد الامادة من ايجابياتها واطراح سلبياتها .

قابله في المطار صديقه : فتحى ومحمد عبيد . لم يكونا طلبتين كالعهد بهما . تولى عبيد الكلام . كانت هناك رعدة تنتاب فتحى . قال :

— أحداث جسيمة وقعت ، بعد ان سافرت .

— خيرا ؟

— قامت الدنيا علينا !

— ماذا حدث ؟

— الناس كلهم يقولون : ان حسن خالد واخرين ، يدرسون الماركسية

في مرسى مطروح .

— لكننا كنا ندرس امام نائب الرئيس ووزير الشباب . ماذا حدث ؟

— بعض اعضاء مجلس الامة ، ومندوبوا الليثى عبد الناصر ، والمخابرات بطبيعة الحال ، كتبوا تقريرا لعبد الناصر يقولون فيه هذا الكلام .

في اليوم التالى لومسوله . ذهب الى مدير مكتب النائب زكريا محبى

الدين . لينبئه بعودته من الخارج .

دخل المدير مكتب النائب ثم عاد ليقول :

— تقفصل ...

كان المدير صديقه .. فأضاف :

— سيادة النائب سألني عما اذا كنت انت طلبت المقابلة . فقلت له

نعم .

— ما المقصود بهذا السؤال ؟

— لا شيء . اردت ان اخبرك فحسب بما قال :

— اشكرك .

ودخل حسن على زكريا محيي الدين ، الذي لقيه لقاء عاديا . لم يظهر

على وجهه شيء :

— حمد الله على السلامة .

شرح له حسن الرحلة والزيارة ، واخبره بأنه اعد دراسة شاملة

عن منظمات الشباب والطلّاع في المجتمعات الاشتراكية . انظر الرجل

المنوي . ليقول له حسن شيئا عما جرى . لا بد انه سمع بما حدث في

المنظمة . كانت مواجهة بين القيادة الخطيرة . المشرفة على القوى السفلية

والعلوية في مصر ، وبين الكفاح والتجربة . استرسل حسن في حديثه ،

ولم يبد فيه ، انه علم شيئا ، سأل زكريا محيي الدين :

— كيف حال المنظمة . والشباب ، والاعداد ؟

— ألم تعلم بما حدث ؟

— لا ..

تردد الرجل . ثم قال :

— حدثت موزوعات خطيرة في غيابك : وجد الرئيس جمال على

منفذة مكتبه . تقريرا لاندري من وضعه . يقول ان حسن خالد وآخرين :

يدرسون الماركسية في مرسى مطروح !

تصنع حسن الاهتمام ، ولكنه لم يبلغ فيه . فهو أمام انسان واعر :
— لكن سيادتك . والسيد طلعت خيري ، وزير الشباب ، حضرنا
كل المحاضرات التي القيتها . فهل كنت ادرس الماركسية في وجودكما ؟

—

— لقد سمعت سيادتك كل كلمة قلتها . واسهيت معنا في المناقشة .
وافدنا من هذا الاسهام .

— هذا صحيح .

كانت هناك رنة اسي في تلك العبارة . واستمر حسن في شبه دفاع
من نفسه :

— يضاف الى ذلك . ان المحاضرات التي القيتها كانت مكتوبة . وسبق
ان قدمت الى القيادة . واقررتها . واجر الرئيس بنوزيمها على الجهاز
الطليمي .

صمت زكريا محيي الدين . نحس راسه الاصع . وبهدوء شديد
قال :

— هذا كله حدث ، ومع ذلك فقد كنتم تدرسون الماركسية !

وانبع ذلك بعبارة غريبة :

— ... ومع ذلك ، لماذا منعجون نديسها ، من يدرى ؟ قد نصبح
ماركسيين في المستقبل !

هذا الاصرار من زكريا محيي الدين على انهم كانوا يدرسون الماركسية .
كان خطيرا . وكان على حسن ان يواجه هذا القول بشئ ، من الشجاعة .
لا سيما وان موقفه سليم . قال فقط ما سبق للقيادة ان اقرته ، وعقب :

— اذا كنا قد استعنا ببعض مبادئ الاشتراكية الطلية . فان ذلك
كان مقصودا ! كانت تجربتنا الاشتراكية ، بغشاهها فتر فكري . فأردنا ان

نثرها بجرعات نظرية من الاشتراكية العلمية . لانتفاع الكوادر الشبابية .
وقد رأيت سيادتكم الحماس . الذى استقبل به الشباب المحاضرات . ولا يمكن
انشاء كادر بحى الثورة ، وينشر الوعي بها الا بهذه الجرعات القوية .

— اتفق معك . ولكن الدنيا تاملت علينا ، بعد هذا التقرير . اكبر
الظن ان الذى وضعه احد اعضاء مجلس الامة ، الذين زاروا المعسكر .
— لابد انه يرؤس مجلس ادارة شركة كبرى . وسيسيطر على « وسية »
في القطساع العام . وربما ورث « وسية اخرى » من ابيه . من الطبيعى
ان يكون مضادا للاشتراكية .

ستطه كبرى . ستطهها حسن . نسى في حماسه ان زكريا محيى الدين .
ورث عن ابيه « وسية زراعية » . وبينهم دائما بأنه قائد البرجوازية في ثورة
يوليو . حاول حسن ان يصحح كلامه ، لولا ان الرجل كان فطنا ، حاد
الذكاء . قال له :

— لا داعى لمثل هذا القول .

وسكت نائب رئيس الجمهورية . رأى حسن على وجهه معانى كثيرة .
خيل اليه انه يسائل نفسه : كيف يمكن لهذا الشخص . الذى كان عسكريا
في الجيش ، ان يضحك عليه ؟ وهو العقل المفكر ، والدينامو المحرك للقوى
القاهرة جميعا . كيف يضحك على الجميع . ودرس الماركسية ؟

احب حسن الا يسترسل في الحديث . بدا على وجه زكريا محيى الدين .
انه لا يريد ان يقال عنه ، انه ضحك عليه ، ودرس الماركسية امامه ، في
منظمة يشرف عليها . يبدو كذلك انه لا يريد — حتى هذه اللحظة — ان يقال
عنه ، انه برجوازي . وليس اشتراكي . قال :

— انما لم اهتم بهذا الكلام . الا بعد ان استدعانى جمال بنفسه ، وقال لى
اقرا التقرير . وسألنى . كيف يحدث هذا . حاولت اتناعه ، ولكن النار
كانت مشتعلة .

وختم حسن الحديث بمسائلا :

— هن سأذهب الى المنظمة ، ام اعود الى الجامعة ؟

قال له بنفس الهدوء الشديد :

— اذهب الى الجامعة !

* * *

زوار الفجر — لماذا يخارون وقت السحر . لينفضوا على الناس في مخادعهم ؟ ! الفجر هو اللحظة التي يشرق فيها النور على البشر . يبشرهم بنبض الحياة . وخفق الامل . يختاره القوى السفلية . نذيرا بالموت واليأس . المؤذن يصيح : « الله اكبر » . وهم ينعقون : « لقهر اكبر » !

جيس الباب يدق دقا منواصلا . ترعات ، على الباب عنيفة ، بالايدي والارجل . يستيقظ فرعا من النوم . هو وزوجته . يهرول الى الباب ليفتحه . يفتح كوابيس الفجر منزله . وجوه مغبرة . شوارب كشوارب النمر والتعالب . عيون منتفخة . يتطاير منها شرر . ملاون الحسالة . يسأله شخص فظ غليظ ، يبدو انه كبيرهم :

— انت حسن خالد .

— نعم انا « الدكتور » ! حسن خالد .

لاول مرة يلقب نفسه بالدكتور . رد الغليظ :

— دكتور . او « مش دكتور » . « مش مهم » .

وتفرق بعضهم على غرف المنزل ، يفتشونها :

— عم نبحتون ؟ عن اسحة ؟ المكتبة هناك !

توجه نفر منهم الى المكتبة . تلبوا في كتب بالمريسية والفرنسية
والانجليزية ، ثم وضعوها مرة اخرى . كأنهم فهموا ما فيها !

كانت زوجته ، قد استيقظت جزعة . وقفت بجادة على باب غرفة
النوم . تشهد مسرحية لا عهد لها بها . ربما لم تسمع بظلمها من قبل . جاءت
من بلد فيه ديمقراطية وحرية ، حيث يحترم أخص ما في الإنسان : عقله
وفكره .

قال الرجل الخليط بصوت أجش :

— تفضل معنا .

صرخت برندا : أين تذهبون بزوجي . زوجي أعطاكم فكره ، وذهنه ؛
وأعصابه . انفق سبع سنين دفاعا عن نظامكم . مناديا بمجتمع يتحرر
فيه الناس ، وأنتم منهم . حرمني ، وحرمت ابنته من عواطفه . تحيلنا التضحية
لأسعاد أسرنا الكبرى — الشعب المصري — الشعب الذي تنتمون اليه .

ثم اندفعت نحو باب الشقة ، إذ أخذوه من ذراعه ، واتجهوا به
الى الخارج . حاولت تخليصه من أيديهم ، صائحة صيحات بالانجليزية ،
لحسن الحظ لم يفهموها ! طمأنها وحاول تهدئتها . قال لها : سامعود
بسرعة .

أخذوه الى وزارة الداخلية . عرف مبانها . سيق الى مكتب ، يبدو
من أناقته وفخامته انه مكتب رتبة عليا . كتلة ضخمة من اللحم والشحم ؛
كرسي كبير ، تنكئ ثنباته على منضدة المكتب . حليق الشارب ، أصلع
الراس . لأنتم قسمانه من قسوة أو سماهة ، سلاه :

— أنت الدكتور حسن خالد ؟

الحمد لله ، مازال لقب « الدكتور » لصيقتا باسمه . يبدو ان الرتب
العليا تحافظ على الإلتاب ! ورد :

— نصم .

- هل تعرف فلانا . ؟

- لا . وحتى ما سمعت اسمه .

- ونلان ؟

- ولا هذا .

وهكذا هجر الرجل ، عدة أسماء . وكان رده أنه لا يعرفها ، ولم يسمح
لها وحبب المسائل :

- طيب تفضل .

- الى البيت ؟

- لا . نحتاج لسوائك مرة ثانية .

- لقد كنت بالامر في رياسة الجمهورية ! كان يمكن أن تسألوني ، أو
فأخونوني من هناك .

- انت تعلم ان هذه ليست اوامرنا .

يدعو ان القهر لا بد له من ارهاب . والا فقد جزءا من فلسفته واثره .
اذا تم القهر بوسائل مهذبة ، فقد جلاله وعظيمته . لا بد ان يرعب المعتقل
في منزله ، على مرأى من نساء الاسرة واطفالها . يتحتم ان يتحتم المنزل
في الفجر ، حتى يتم الفزع الاكبر . يجب ان يظن على الملأ ان البطش ينصب
على الاحرار وهم نيام ، في احضان نسائهم وابنتهم . أما من يريد ان يعيش
لللبلا ، فيمكنه ان يطمئن وينام .

بعد هذه الروضة التي التيمت في خاطره ، قال له النظيف :

- تفضل مع حضرة الضابط .

وتفضل مع حضرة الضابط . ولم يسأله احد خلال الشهرين ، الذي
هفتل فيهما في زنزانة انفرادية .

ركب هذه المرة حربة همرطة مقلولة ، لا نوافذ فيها . مازالت قبشة

الفجر نغطى المدينة . لم يدين طريقه . الجنود ينطلقون حوله . وذاكهم أساور « تكلبش » معصيه . دخل مكانا محنورا في صخر أشبه بالكهف . ثم فتحت له غرفة . بابها ثقيل من حديد صلد . ليست به ثغرة . عليه قفل كبير . ككف العفريت ! ومزلاج له سربر كصوت البوم . دخل الغرفة الخاوية . الأرض مبلطة ، ومحفرة بالاسمنت .

لم تكن نهبه الأرضيه الاسمنية . طالما افترش الأرض . كان فراشه من اللبن في وسية الخواجة اليونانى . لكن اللبن كان طريا . نام كذلك على مصطبة من الطين الجاف . مع الشيخ سليم . باشخولى الوسه . ويرقد على ألواح الخشب في الجيش لما كان عسكريا . لكنه كان ينام في الوسية والجيش في غرف ، وأجران . وعنابر . واسعة يدخلها الهواء . ويريب عليها . هذه الغرفة عرضها متر : وطولها متران . مساحتها كالقمر تماما . مذكوره بالزنزبين التى أسموها « اقفاص النور » . كان الأمريكيون يحلفاؤهم في الحرب الدننامية ، يضعون فيها الأسرى الفيتناميين من الاحرار والمناضلين .

واهم من ذلك ان الغرفة مظلمة حالكة . كان في جرن الخواجة اليونانى برى النجوم ، وبناعى القمر . سماء هذه الزنزانة قائم . ليت الزنزانة جحيما ترسل من سمانها شهابا . يعرف أن الشهب تحرق . ولكنه يدري أنها نضى ، قبل أن تحرق . الظلام هو الذى ازعق روحه . لم يقل له احد كلمة واحدة . الحراس الضباط لم يكلموه . الحراس الجنود . او المقهورون على الحراسة . ليست لديهم ارادة . ولا حتى ارادة الكلام .

لماذا بلقى به في هذا القفص ؟ كل ما سئل عنه : اتعرف فلانا . او فلانا ، وأجاب بأنه لا يعرف . ما الجريمة ؟ بعد أنلقى به في الزنزانة . ثلاثى صوت الإنهام . ثمده أمه حتى في ترجيعهمه اليه ! وتناعبت الإنكار السود . القفص الذى يسمها عن المعتقلات ، تصعق أى روح ، وتثير

اليأس والضياع في أى وجدان . القى به في هذا الجب . ثم ماذا ! أيتها هيب . الجب على الأتل عميق طويل ، له فتحة ! هل هذه هى لنهاية !

تمدد على الاسفلت . صلابة الاسفلت لا بزعهه . كنا في نوفمبر ١٩٦٦ . طلائع الشتاء قارسة . البرد تنكش معه عظامه ، ويقشعر لحمه . القشعريرة القاسية نصيب منه النخاع ، وتشعيره الخوف على الحرية . وعلى النضال . وعلى العرق المسكوب . مسكه شمب بود أن يتحرر من قهر الانسان ، واستغلاله لآخيه الانسان .

لا يدري ان كانت قد غشينه سنة من النوم . استيقظ غزعا . مشروخ الروح ، مكسور الجسد . الباب الثقيل للزنازة يفتح . شخصان بالملابس المدنية ، تعرف على احدهما . كان تلميذه في كلة الشرطة . حينما كان درس الاقتصاد بها :

— صباح الخير .

— صباح النور !

— « يه الحكاية ؟ »

— لا انرى .

— ما شأنك بالسياسة ؟

— انت تعلم اننى أعمل مع النورد ، في الجانب الإقتصادي والسياسي .

هز الضابط راسه في اسى :

— هذه نتائج السياسة .

بقيا معه فترة ، واسياه فيها . تركاه . اغلانا الباب خلفهما . خسوت الباب ، وهو يقفل ، يصفع قلبه . شعور بالضباع . ياليت ! الضياع يغشى الذهن ، فيجمد الوجدان ويريح . عمل شرح وجدانه ! تمنى ذلك . الوجدان المشروخ يمكن أن يلثم !

صنعة الباب ، قصة في الطلق ، سبيكة كهيئة ، تكتم النفس وتزق الأمل . هتخله من القصة جدران الزنزانة . عليها خطوط مربية : نسخ ورقعة ، ولث ، وكوفي ، خطوط كذلك هيروغليفية ! على ضوء الشحاعات الباعثة : التي تتسلل على استنحاء وخوف ! من بين الباب والجدار ، هرا :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » : التوقيع محمد .

« صاه ميل ككر الدوار ، تفرقتكم في العار » — مابل

« انفلاحون في ككور نجم ، سيحطبون الاقطاع » عناني

« الحزب القم »

لم تكمل هذه العبارة ! يبدو أن رسول التهر ، اقتحم الزنزانة في تلك اللحظة ، فبترت العبارة . لم يكملها كاتبها . الله أعلم بمصره . طلع أنه قرأ تحتها توقيعين : مؤاد مرسو ، ونبيل الهلالي .

« ثورة العمال والفلاحين قادمة » شهدى مطية

« الباقوات الجدد خربوا الثورة » ناصرى !

الكتابات مكتوبة الشكل الفني ، والتكفيك رائع ، رغم بدائية الوسائل . تناسقت العبارات . لم توضع عبارة مكان أخرى . أخذت موقعا في اللوحة الفنية ، فجعلها وتكلمها . كيف حصل المناضلون والفنانون ، على الأدوات ؟ أدوات للحفر والكثبة ، بالالوان تارة ، وبالأبيض والاسود تارة أخرى . لاحظ أن خطوط اللوحة الخاصة بالعمال والفلاحين ، حشرت بانظار الفنانين . سألت من أظنهم جاء خطعت على الرسوم ، صوة للدم المسفوك . لم يكن يدري ، أهذه دماء الجماهر يمتصها القاهرون ، أم هي دماء المناضلين الفنانين ، خضبت اللوحة ، لظلع عليها جمال الفن ، وقبح الواقع !

استخرقته اللوحة . كله بهوى الدم . هوايته للدم ، كاه مصحرا نهجته الفنانة . طافت به مقاض ومعارض أوروبا . خطر له خاطر مجنون . تمنى أن يمتثلوا برندا ! ويأتوا بها اليه ، لترى هذا المعرض الفضلى المتع .

انها لم ترمثه . حتى ولا لوحات القبر البشعة التي شهداها معا في برج
للقرن . لوحات الهوان الانساني في المصور الوسيطة . كم تمنى لو ظلت
لقرن الفن الفريد . وهذا لو بقيت معه ، تخفف مناءاته ، وتشارك معه
فيها . ربما تسهم بنفها في هذه اللوحات الضالدة !

لم تكن اللوحة خطوطا زخرافية فحسب ، كانت هناك رسوما .
موضح ادوات التمثيل والمهانة التي يتعرض لها المناضلون . اخذ يدرس
اللوحة ويتألمها . ان بها صفحات . الصفحة السابقة كانت على السطح .
ظيها صفحة اخرى ، بدأ القدم يتسرب اليها . تمنى فيها . حاول اكتشاف
ابصاها :

« مير مكرم يمثل كرامة المصريين » — ليس هناك توقيع ..

هل هذا محقول ؟ هل اعتقل مير مكرم في هذه الزنزانة ؟ ام ان هذا
أحد انصاره ؟ ما هو غير المعقول هنا ؟ هذه هي القلمة التي ذبح فيها محمد
على المباليد . لماذا لا يعتقل الوطنيين ؟ الاعتقال اجباننا اخف من الذبح !

« مرابي والفلاحون ، اصحاب هذا البلد » — التوقيع : نائر مرابي .

رسم الفنان المناضل رأس مرابي ، وطربوشه الشهير ، كخلفية للوحة .

« دنشواي وصحة لانجلترا » — التوقيع : « ابن ذبيح من دنشواي » .

وسجواره ترا توقيعيا آخر : فتحي رضوان .

الانجليز يذبحون الرجال في دنشواي ، ويمقتلون ابناءهم في القلمة .

« يسقط الملك ، والاتطاع ، والاستعمار » — لجنة الطلبة والعمال .

كان كل اولئك منقوشا على جدار واحد . لم يظن اليه الجدار الآخر ،

الا بعد ان فرغ من اللوحة المثيرة . كانت اللوحة على الجدار الآخر ، اكثر
اثارة : استغرق الفنان المناضل ، الذي أبدعها ، وقتا طويلا . وبذل جهدا
وعرها ، تصبى على الضغوط والظلال . يبدو انه ظل اعتقله . فطنوا الي
ملكة الابداع فيه : فلم يحرموه من الاستمتاع بها وتركوه !

كانت للوحة للاهرامات الخالدة . وقف خوفو امامها . يحوط به
كائنات من يمين وشمال . يمسك بسوط طويل له شعبتان . في نهاية الشعبه
الاولى « العجل ابيس » وفي نهاية الثانية « الشمس » . خوفو يرفع
السوط . وامامه عامل نرعونى ، مقوس الظهر . يحمل على كتفيه صخرة من
صخور الهرم . كان يصعد الهرم ليضعها في مكانها من البناء الشامخ .
امتدلى « العجل ابيس » كذلك ظهر العامل المصرى . لعرق لا يتساقط
قطرات من جبهه . ولكن يسيل روافد من جسده . وملابسه جميعا .

اللوحة - خطوطا والوانا وحفرا - نثر في ذهن حسن اسئلة عجز
عن الاجابة عليها : ايمكن ان يكون هذا الفنان الموهوب مجرما ؟ يقهر ابدعه
الانسائى ، في زلزلة طولها متران وعرضها متر ؟ كيف وجد الخيال في
مكان تخيم فيه الاشباح السود الثقال ؟

المصلون الفنانون . يتركون الجدار كله لهذه اللوحة وحدها . له
يكن الابداع وحده هو الذى حفزهم . ولكن الموضوع نفسه . هاهى مصر
بمنظورها العايل . فالملوك آلهة . والكهان آلهة . يسوق الملك والكهنة مصر
لبناء مقبرته . لم يكن القهر فحسب ، سوطا يمسك به خوفو . ولكن «العجل
ابيس » برهق كاهل العامل . يلهث انفاسه . يركبه . يجعل منه حمارا
مقدسا من حبر الآلهة ! لم تكن الآلهة بالصخرة الكبيرة ، تقصم ظهره .
بل ارادت ان تظهره من عرقه ودمه وعظامه جميعا . قصة الشعب المصرى
منذ سبعة الاف سنة لا تتغير . لكنها تتشكل خطوطا والوانا .

لكن ما بال الشمس تتدلى من الفرع الثانى للسوط ؟ الابداع هنا
محرر . هل الشمس آلهة اخرى « رع » . توازن « العجل » على الطرف
الآخر للسوط . وبهذا نسجم القداسة الدينية المزدوجة في استخدام العامل
ام ان الفنان لم يكن مكانها مكسورا ، سوداويا . كما هم حال نفر من
المثقفين في مصر . ولكنه مناضل متقاتل ، يسهم في اضاءة الطريق للكادحين .
الشمس كانت اشبه بالنور . يضى ، الطريق الى الحرية امام العامل المقبور .

كانت سعادة حسن بجدران الزنزانة بالغة . الجدران تطبق على صدره « ماديا » . ولكنها تعطيه متعة معنوية . شغلت وقته . رفعت معنوياته . هؤلاء هم المناضلون ضد القهر . من كل لون ، وملة . وفكر سياسي .

أمنته الرسوم والكلمات . لكنها أيضا أشقته . فرضت عليه تساؤلا : من الذى يحكم مصر على مر التاريخ ؟ الفرعون . الملك الاله . يعاونه الكهنة . تدمج السلطة الدينية بالدنيوية . تخلط الدنيا بالآخرة . يسفك عرق الشعب . وجهده ، سفكا لهيا . الملوك والخلفاء ، والسلاطين والولاة ، والمالِك والمشايع والاعيان والراساليون والخوارج ، وسائلهم متشابهة : مزيج من استغلال السلطة والدين . قلة تمنطى ظهر الشعب . كما اغتالها « العجل أبيض » . لا يكتفون بأن الجماهير تحمل لهم الصخور فوق ظهورها . تبني لهم القصور والفلا والاستراحات والاهرامات . ولكنها كذلك تقيم لهم صناعة وزراعة . تكفل لهم الترف والرخاء والسيادة .

خاطر غريب آخر وثب الى ذهنه . الوحيد الذى لم يحكم مصر . هو شعبها ! فقراء مصر . هم الريحيدون الذين لم يحكموها . تعجب للطاعة . كل حاكم تقريبا ينادى بالديمقراطية . والديمقراطية : اذا ما فسرت ببساطة . او بمعنى ، هى حكمة الاغلبية — العمال والفلاحون والمتقنون ، ومنخفضو الدخل هم الاغلبية . وبهذا فلا بد لتقيم الديمقراطية الحقيقية ، من أن يحكم الفقراء !

الفقراء كذلك هم المنجسون . القلة المترفة ، تعيش على انتاجهم . وحتى الطوائف ، ذات الوظائف الهامة . كالعلماء ، والادباء . والفكرن ، والفلاسفة . كيف يأكلون اذا لم يطعمهم الفلاح ؟ واذا لم يضرب الارض بفأسه ، تنتج لهم دقيقا وعسلا وسمنا . وكيف يلبسون ، وتلبس الطوائف الاخرى معهم . اذا لم يكسبهم العمال ؟ الفقراء المنجسون الحقيقيون ، هم الكثرة . ومن حقهم : ديمقراطيا واقتصاديا ، أن يسيطروا

ملء الأرض والمنج . وأن يقسم نانج كدعهم بالمعدل بينهم وأن يؤخذ جزء منه للفتية ، بدلا من أن « تبصره » القلة المترفة .



فتح باب الزنانة .. توهمت هواجسه ، حتى لا يرصدونها ! الصكرى يحضر له افطار الصباح . سألته :

— هل استطيع ان اذهب « للتواليت » ؟

— تواليت ؟

— هورة المياه !

— بيملك لمدة خمس دقائق .

— خمس دقائق ، لا تكفى ، لاننى عندى امسك .

— « بالله يابوى ، روح . انت (منتفلس) والا ايه ؟ »

كانت الدقائق الخمس التى امضاها فى الطريق الى دورة المياه ، وفى قضاء حاجته ، من اجمل الزهات فى حياته . ثلاثون خطوة الى دورة المياه ، تيز ككرا مشيته على كورنيش النيل ، والتميز ، والسين ، والبحر فى الاسكندرية ساعة الاصيل ! عاد من زهته المبتورة الى زنانه . طعم لا طعم له ولا لون . رائحته تصد بها ان يتقيا المعتلون . بلع منه شيئا ليحيا . مكح الصكرى الباب خلفه . الباب ثقيل ، يقفل الحياة تونه . صوت القفل والمزلاج يطعم امصابه . حاول ان يبعد النظر فى لوحات النضال . اخذ يدرسها ، ويستمعين بها فى التظلم على محنته .

تبعه خارها ببع هذه الزنانة وتلك التى ضمته فى الاربعينات . تلك كانت زنوانة جامية . حمر وزملاؤه نبيا حشرا . لكنه كله محشورا مع آهيه . هو يهوج الانسان . السجن لا يفزعه ، طالما ان فيه رتقاء . كانت الزنوانة كذلك هجرة . يتبولون ويتبرزون فى جرائد مكشوفة . غظاب

الزناينة ، التي عطنها ذبح الحرية ، الى مستودع لكل الروائح الكريمة ، لكن كل ذلك يهون ، طالما كانت الرزناينة جسامية ! أما الزناينة الفرعية ، فهي بشع . لا يمكن وصفها ، مهما كان المناضل المحتفل أدبيا ، أو نقاداً ، أو فنانياً ، أو فيلسوفاً . لهذا كان الفنانون المناضلون يتجهون برسومهم ومباراتهم الى المستقبل . الى التناول . هربوا من شعور ماض ، يلغى انسانية الانسان .

حينما اعتقل في الاربعينات ، آلمه ان يجد المعتقلين من المثقفين وطلاب الجامعات . لهذا ازدرج العلم . لم يستطع العلم ان يدرك المانة مع الانسان . لكنه هذه المرة لم يعبا بالعلم ، ولا بالعلماء . القمر ينصب على الجميع سواء بسواء . بدالة ان المساواة في هذا البلد ، لا تظهر جلية ، الا في القمر ! على ان العلم كان له محل عليه في هذه المحنة .

نضح بلب الزناينة ، في الحساء ، طميفه الضابط :

- بساء الخير .
- أهلا وسهلا .
- كيف حالك ؟
- كما عرى .
- حصل أمر .

النخلة التي نطق بها العبارة ، صديقة . فرح حسين بالدعوة . سهر على الاقل بضع خطوات . اصطحبه الضابط الى فناء ، يفصل بين الزناينات . جلسا مع ضابط آخر على « شلت » طلم الارض . الله ! . . نسيم الليل ، النجوم ، القمر ، السماء . طلب الضابط اليه هيايا . دار بينهم حديث خفيف ، انقلب الى حديث غثيل . هل الضابط :

— لماذا حملت في السليمة ؟

— انا حملت مع الثورة نفسها . واديت لهم خديت كثيرة .

— العمل بالسياسة خطأ . كنت معهم . أو ضدهم ؟
— هل لم يسأل عنى احد من رجال الثورة ؟
— كلهم سألوا عليك .
— ألم يدافع عنى احد ؟
— انا لا ادرى دفاعا . او اتهاما . سمير شريف . وشعراوى جمعة .
سالا عنك .

— هل لم يسأل عبد المجيد فريد ؟
— لا اعلم . على كل حال ، ليس هناك شىء ضدك ، وسيفرجون عنك .
— الله يطمئنك .

— انما لى نصيحة . ومن الممكن ان ينصح اللهيد استاذة . الفلسفة
فى هذا البلد ان تهرب « هبرة » كبيرة « وبس » . دعك من السياسة ،
واستخدم عليك وذكاكك فى « الهبر » .
— اسرق يعنى ؟

— لا ادرى . انا اقترح عليك الفكرة العامة . عليك ان تصوغها كما
نهوى . السرقة نوع واحد من انواع « الهبر » . هناك الوان اخرى .
وظيفة مرموقة ، دخلها كبير ، مشروع يدر ربحا وفرا . استيراد وتصدير .
نوكيلات للشركات الاجنبية الكبرى . انت الآن مؤهل علميا وسياسيا .
شد حيلك . والهبر يكون محليا . واجنبيا . ماذا اقول . وماذا اعيد ؟ انت
الاستاذ ام انا لا دعك من السياسة ، واتبع « الهبر » !

نقلته مكررة « الهبر » الى محمد خطاب — خفير جرن الوسية اليونانية —
هذه فلسفته ناهيا . التعبير فقط هو المختلف : كان يقول عنه « الاتصال
مالخيرات والتمتع بها » . خيرات لجرن من حبوب واتطان . فلسفة الوسية ،
هى هى ! لم تتغير . يقول بها خفير جرن الخراجة اليونانى . وضابط
الشرطة الذى يحرس المعتقلين . الذين يحاولون تغيير « لوسية الكبرى » !

كانت أمسية . استطاع ان يتنفس فيها . لكنها ضغطت على وجدانه .
نظام الوسية سائر في طريقته . وعندما رافقه الضابط الى زنزانته ، قال
له حسن :

— لى أمنية . ارجو ان نحققها لى .

— اذا كان ذلك في استطاعنى .

— خلال النهار . ارجو ان تنكروا باب الزنزانة « مواربا » . الباب
حين يتقل على . اوشك ان اموت . ولا تخف فلن اهرب ! عساكركم منبثون
في المعتقل .

— نهرب ؟ ! الزبانية كثيرون . في الصباح ، ساكون هنا وسأفتح
لك الباب .

وفي الصباح . فتح باب الزنزانة . بقى « مواربا » طول النهار .
استطاع حسن ان يستنشق الهواء من خلاله . وان يرى الضوء ، وان
تنحرك الغصة بعيدا عن مداخل الهواء في حنجرته .

* * *

عوى الذئاب ناستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكادت اطمير

مرق هذا البيت الشعري في ذهن حسن ، كما يمرق السهم . مازال
يذكره منذ ان قراه ، لأول مرة عندما كان صبيا في وسية الخواجة اليونانى .
قراه في كتاب « المنتخب من ادب العرب » . ثلاثون عاما ، وهو رابض في
لا وعبه . انطلق مع صرخة بشرية نفذت من باب زنزانته السميك . الشاعر
العربى فرضت عليه بينته ، لونا من الاغتراب عن المجتمع الانسانى . وجد
في مجتمع الذئاب انسا . لكن العواء كان يصدر عن انسان . لم يكن
الانسان يعوى كما تعوى الذئاب . فالذئاب تعوى عندما تجوع ، وعندما
تنشئ ! ولكن الانسان يئن فحسب . عندما يجوع ، ولكنه يعوى عندما
يقهر !

كانت سباط القهر ، تصل فرقتها الى اذنه ، وتنفذ الى خلاياه .
ادوات التمييز « التكنولوجيا » تجرش عظام المتعلمين . كان سواء
الانسان ، يرهق تارة الى زمجرة الاسود . ثم يتخافت الى انين الغزال ،
ومائة الاحمال ، و « موسوعة » الكلاب !

قلبه ينفطر ، اذ يمتحن الانسان : هذا الامتحان البربرى . على ان
الهيوان الذى يصيب الانسان هذه المرة ، ينصب على ابنائه ! هؤلاء هم
الشباب ، تلامذته فى منظمة الشباب . تسلحوا بفكر يخرق الحديد . ويغوص
الى جنور المشكلة الاجتماعية يمي ابعادها . ويدرك الحل لها . المحرمة
هى التى اخارت هذه الصنفون ، واختارت مظلبيها . وراجعت الفكر الذى
اعدوا طبقاله . وهامى تقهرهم بأبشع انواع القهر . وهى لا تحرى انها
لا تقهر الانفسها . وتقفى على العناصر ، التى يمكن ان تنافع منها : الشباب
الغورى ، الصالح ، الفلاحين ، المثقفين المستنيرين .

المضروبون ، وانصموتون ، والمجروشون ، هم تلامذته . ابناؤه .
فلذات ذهنه . كل شربة سوط تلسع قلبه . كل شرخة تفرخ روحه . كل
فحيح للالات او دوران لتروسها ، ينفث سما فى داخله ، ويمزق احشاءه .
ماذا يمكن ان يفعل ؟ هل الانسان عاجز عضليا وعقليا عن نجدة اخيه
الانسان ؟ ينجده ممن ؟ من اخيه الانسان . هل المهاتة تحيق بالمضروب
فحسب ؟ ام تمتد الى الضارب ؟ اتشفى الانسان كله : قاهرا او مغهورا ؟
اتوجد فحسب فى المجتمعات التى تنقسم الى طبقات قاهرة واخرى متهورة ؟

طفرت الى راسه فكرة مخبولة : بغب زنزانتي مفتوح ، لملا لا اخرج ،
واذهب الى مصدر الصوت ؟ واصرخ فى وجه الضارب ، واوقفه . واذكرك
بهوانه . قد يكون التذكير بالهيوان اكبر اثرا . الحديث من الشفقة ، والاخاء
بين الناس ، حديث لا يسمع ولا يدرك فى مجتمعات الغابة . وصل الى باب
زنزانته . العواء يهيب به ، والقهر « يجتزر » قديمه . العواء نفسه الصادر
من الشباب . يلعن ممنوياته . من يدريك ؟ قد تلهب السباط ظهره ، كما

ظهبت ظههور الشباب . في المنزل زوجة وطفل ينتظرانك سلبيا
لا مسحوتا . هذا عمل رومانسي لا خير يرجى منه . أنت لا تطيق حتى أن
يوجد الباب عليك . حصلت على امتياز، بفحمة . ائتم بالهواء يسر من كوة
الباب ، ولا تختنق . وتراجع جسده . لم تراجع هواطره . وتساءل
كلماته ، تسالوا غير مالوف :

في السجن الانفرادي ، هل يعتبر التعذيب أداة للتخفيف من المعتقل ! ؟
خيل اليه ذلك . وجد السجن الانفرادي ابشع ما يمكن أن يعاقب به
انسان . أنت لا تدري أن كنت موجودا أو غير موجود . حيا أم ميتا ؟ أملا
أم يائسا . تخرق رأسك أفكار سود . تجعلك تتساءل : أحيوان أنت أم
جبار ؟ أهذا مجتمع ونظام سياسي أم غابة ؟ لكلك في هذه الغابة ، لا تستطيع
أن تتحرك . هي غابة من حيث توانينها . لكنها ليست مسيحة كالغابة .
يضمون للنور المعتلين اقفاسا كالزنائين . ليست للاقفاس مخرج واسعة ،
يتغزه فيها النمر . ويلتقي بالنمرة ، كاقفاس الوحوش في حدائق الحيوان .
حتى الحيوانات الضعيفة في تلك الحدائق ، كالغزال والجاموس والزراف ،
محرومة من الاثارة . ليس هناك أسود أو نور ، فتربص بها . وتجرى
خلفها في سباق الموت والحياة . هذه الاثارة لا وجود لها في حدائق الحيوان .
ولا في الزنزين الانفرادية ، التي يكرم نزلاؤها - مثل حسن - فلا يضربون .
قد يكون ألم الحبس الانفرادي المجرى من التعذيب ، اشد لدى المناضل
المفكر : الذي يعلم بمجتمع سميد . الاسى واليأس يمدبانه بدرجة أكبر من
لسع السياط . المضروب ينتقل اليه من الفكر الى الجسد . تتحول بؤرة
جراحه من النفس الى البدن . وهي جراح أخف !

بلغ عذابه اجله ، اذ تمنع في الملاقة بين المعذب ، والمعذب . كان
المعذبون كذلك تلامذته . كان استاذا ، يدرس في كلية الشرطة . تخرج ككلم
من الضباط على يديه : هل يمكن أن يعذب فريق من ابنائى وتلامذتى ، فريفا
آخر من ابنائى وتلامذتى ؟ يالنعاستى ، علمت الضارب والمضروب . علمت
الامعة والبطل .

لا . لم اعلم الضباط هذه البربرية . وذلك الهوان . من اين نعلموها ؟
دولة الوسية . لفتنهم قيمها . السوط يمسك به لطفاعة من عهد الفراعين .
لماذا لا يستخدمه الضباط ؟ دولة الوسية توظفهم لهذا الغرض . يبنواون
مكانة اجتماعية ترفعهم فوق ملايين الكادحين . شركاء في السلطة . تشرئب
اعناقهم بها . حينما يجلدون اعناق الرجال .

انه حقا ، علم الشباب المقهور . يفخر بهم ويتيه . ينمئل فيهم تحرير
الشعب المصري كله . يرى فيهم القادة الذين سيضرون الوسية . ويجتنون
جذورها . سببون مجتمعا : ورف الظلال . مجتمعا ينهى فيه استغلال
الانسان للانسان .

هل يسعد أم يشقى ؟ حينما تفرقع السياط على ظهور الشباب ، يقفز
الرأسه سؤال : ايعتبر هو السبب في أن يؤتى بهذا الشباب الغض الى
هذه الجزرة ؟ امضه هذا الشعور كثير . على انه تحلل منه . الفضال
في التاريخ كله . كان بين قوى تاهرة هابطة ، ندافع في ياس عن امتيازاتها
العنقية . وقوى جديدة ساعدة . نمئل الكثرة البشرية ، وتناضل للتخلص
من القوى البربرية .

* * *

اخذته سنة من النوم في وقت القيلولة . ايقظه نلميذه الضابط منها .
جاء الى زفرانته ، بوجه باسم . 'صطحبه الى جلسة المساء والشاي .
لم يتنسه اليهما احد بن الضباط . غرسة لان يحادثه حديثا صريحا ، بقدر
ما يسمح للمراحة في هذا المكان . سألته سؤالاً مفاجئاً :

— هل عبد الناس مازل في الحكم ؟

— طبعاً . مابالك تسأل هذا السؤال ؟

— كيف يعتقل الذين ينادون ببيادنه . وبالثورة الاشتراكية ، وهو

مازال في السلطة ؟

— سؤال صعب . نريد أن تستدرجنى الى السياسة . وانت معلم
فلسفى : « الهبر » !

كانت السباط التى مزقت احشاءه طوال اليوم . مازالت جراحها
دامية . تردد كثيرا فى ان يفتح هذا الموضوع مع تلميذه . نلّم . انه حتى
لا يستطيع مناقشة تلاميذه فى موضوع يتعلق بكرامة الانسان . ماذا لو
تحدث معه فيه ؟ قال له دون تمهيد :

— هل نشترك فى تعذيب المعتقلين ؟ !

بهت الضابط عند سماع السؤال . تردد فى الاجابة . ثم قال بصوت .
لا 'فعال فيه ولا حسرة :

— طبعا !

— أنت ؟ ! الانسان الرقيق . التلميذ النجيب . ابن صديقى انجم .
لقد رباك ابوك تربية مهذبة طيبة .

— كل هذا اخفى . اثناء تدريبنا فى الكلية . ثم تلاشى تماما . حينما
وضعوا النجمة على كتفى !

— هل لا يدمى ضميرك . هذا التعذيب البشع . الذى نبشّره على
الانسان ؟

— وهل يتعذب ضمير عشماوى حين يقصف برقاب المحكوم عليهم
بالاعدام ؟

— عشماوى يعدم الذين قضت المحاكم باعدامهم .

— الفرق ليس كبيرا !

— الهذه الدرجة ؟

— نحن ضباط . نأكل العشب « والجانوه » من هذه الوظيفة . ونسبه
بها على الخلق . ونؤمر بالتعذيب فنستجيب .

— استنفذون أوامر التعذيب بالضبط ، أم تضيفون إليه ؟
— أنا أنفذ العلاج الذى بضعه القادة بالضبط . أعطى للمريض « الجرعة
والحقن » دون زيادة أو نقصان .
— كم أنت عادل !
— أنا أودى واجبى !
— وزملاؤك ؟
— لا شأن لى بهم .
— علمت أن بعضهم ينهش لحم المعتقل . ويمسح نخاعه . وكثرة
وحش يستمتع بالوليمة .

— لا أريد أن أحدث عن غيرى . إنما لانيك استاذى . وكنت تعطينى
دروساً خصوصية بالمنزل مجالية ، بحكم صداقتك لوالدى . سأقول لك :

التعذيب يثير فى الانسان غريزة غريبة . فبعض المعتذبين . يتشقى فى
المعتقل ، وكأنه عدوه . وكلما ألهب ظهره . أو نفخ أحشاءه . كلما تملكته
هذه الغريزة الحيوانية ، وكلما اقترب من حرفة الجزاره ! بفارق واحد .
أن الخروف أو العجل ، يذبح . ثم لا يحس بتقطع أعضائه . وتبلغ الوحشية
ذروتها . إذا صدرت من المعتقل إشارة أو احتجاج أو نأف . هنالك يعتبر
المعذب أنه أمين أمانة شخصية ! أحقت بكرامته . وعظيمته ، وعظمة امرته .
فبذلكه سماع بربرى . يمسب أواره على المعتقل . وقد نفق كثير من المعتقلين
بهذه الطريقة !

— أنت تستخدم كلمة « نفق » ؟

— فى مثل هذه البيئة . مستوى الحوار والانسان .

الكأس الذى شربها حسن . كانت مترعة بالطقم . لم يستطع أن
يحتسى كأساً أخرى . ولو أن فكرة خطيرة طافت براسه . أو شك أن
يسأله : هل تعذبنى ، وأنا استاذك ، كما تعذب الآخرين ؟ ولكنه ضم فكيه

ضما شديدا ، حتى لا يفلت لسانه . واجنب هو على سؤاله : وكان الضابط هو الذى يجيب : اعذبك ، واعذب ابى ، اذا جاء الى هنا .

كان قد مضى اسبوعان على اعتقاله . سأل الضابط :

— لقد قلت لى : انهم سيفرجون عنى .

— كان ذلك سيتم ، منذ يومين . لكن حدثت اعتقالات جديدة . فارجوا

الامراج عنك الى وقت قريب : « طول بالك » .

أخذ حسن يدرب نفسه على طول الليل . فى اليوم التالى جاء العسكرى بالانطار . ثم اغلق الزناينة بدفعة قوية وذهب . له يسطع حسن ان يلحق به . ليقول له . اترك الباب مفتوحا . كان يعتقد انه سيتركه من تلقاء نفسه . كما يحدث كل يوم . خرج حسن ينادى العسكرى : لا حياة لمن تنادى . فى اليوم التالى تشبث حسن بسترة العسكرى . رجاه ان يترك الباب مفتوحا ، نصف فتحة . قال العسكرى :

— الاوامر تحتم قفل الزنازين . وانه لا يستطيع . والا عوقب عقابا شديدا .

وفى لحظة من لحظات الضعف الانسانى . قال له حسن :

— انا عسكرى مثلك .

— كيف يابوى ؟

قص عليه حسن قصته فى ايجاز شديد . برزت عننا العسكرى . نذفع نحوه بحضنه ويقلبه . استبشر حسن . اعتقد انه سيترك له الباب مفتوحا . وعندما خرج العسكرى ، جذب الباب خلفه . سألته حسن :

— هل ستترك الباب مفتوحا ؟

— « ماقدرش يابوى » .

العسكرى عواطفه رقيقة . لكنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا . سألته وهو يتقل الباب :

— هل النقيب لطفى موجود ؟

— لا . قام بإجازة اسبوعين .

كان هذان الاسبوعان ، اسود ايام المعتقل . لم فتح في تخفيف سوادهما الفن النضالي الجميل المصور على الجدران . ولا الذكريات الحلوة . خلال الاربعين عاما . التي عاشها . الذكريات التي اجبرها ثمانية بثانية . نضال يجلب له سعادة منعمشة حينا ، وشقاء اسود احبانا كثيرا . تركه لطفى وهو فرح بإجازته . لم يوص به زملاءه . الذين لا يدري ان كانوا من تلاميذته . ام لا .



من سواد التوزانة انكالح انبجست من وجدته خطرات : انتصر على الجهل والجوع . حارب التخلف ، كشف عن جذوره الاستعمارية والراسمالية . لكن هذه جهود فردية . تلعب بخيال الفرديين . لكنها لا ترضيه . حينما قامت حركة الجيش نهال لهدفها : القضاء على الاقتطاع والراسمالية المستغلة . اسهم في معركة القناة في لندن . اتهج للناييمات في الستينات . تحولت حركة الجيش في نظره الى ثورة . النميم والاصلاح الزراعي طريقها الى الاشتراكية . داعبه الامل في تغيير الوسية . الفت الحكومة الاحزاب . فرح وتحفظ . فرح ، فالاحزاب اشتركت مع الملك والانجليز في استغلال الشعب . كلهم باشوات وخواجات . تحفظ فيما يتعلق بالديمقراطية والحرية . ذهب الى كلية الحقوق . كانت المعمل السياسي . ادرك اهمية العمل السياسي . يود ان يسهم في نوعية الجماهير بنظام الوسية . وفي تنظيمهم وتحريكهم لتغييرها . اترب الاحزاب الى هذا الهدف كان الوفد . الباشوات حقا يسيطرون عابه . لكن المجال للشباب الجديد مفتوح نسبيا في هذا الحزب . بيكته ان يجعل الجماهير نعي بأنها صاحبة السلطة . فنضار اثناءها . وتنبذ الباشوات . لذلك عندما الغيت الاحزاب ، سد امامه مجال للكفاح السياسي .

سدت الحكومة أمامه ابوابا أخرى . الحكومة التي جاءت بعد نجاح حركة الجيش في ١٩٥٢ . والحكومات السابقة عليها جميعا . انفتحت كلها على عمل وأحد : تحريم وتجريم أي حزب . يمثل تمثيلا حقيقيا العمال والفلاحين والمثقفين . الذين يريدون تغيير الوسية . المعتلات والسجون . فتحت خميسا لهؤلاء . أصبحوا أخطر من كبار المخدرات . والعمالين في الدعارة . والناهبين لارزاق الناس . وأموال المجتمع .

ماذا يصنع ؟ وقد أغلقت المنافذ أمامه ! حتى الشيوعيين واليساريين حلوا أحزابهم وتنظيماتهم . انضموا للنظام خوفا وطمعا . التنظيم الجماهيري الواعي . هو لحل تسليم الحاسم . إذا ما أردت تغيير الوسية . لكن الجماهير متنوعة عليه لأن . إلا من خلال المنظمات الرسمية . لهذا استجاب عندما اقترح عليه محمد عبيد دخول انتخابات الإتحاد الاشتراكي . اندمج مع النظام في العمل السياسي والاقتصادي . أسهم في التفتيش الاشتراكي لجماهير مدرج الجديدة . والإتحاد الاشتراكي . والتنظيم الطبيعي . ومنظمة الشباب .

كانت جهوده موجهة نحو الجماعة . لكنه كان يحس في أعماقه بأنه يقوم بعمل فردي . ماعدا عمله في منظمة الشباب . جهوده في النوعية الاشتراكية جهود عامة موجهة الى الجماهير المختلفة . قد سبهم في زيادة ادراكهم . لكن الجماهير هنا لا تربطها رابطة وثيقة . او تنظيم . أو عمل . سمح له بيت ما يشاء . من نوعي اشتراكي فيهم . عذا يخلق خلفية قوية للثورة . الامر مختلف في تنظيم الشباب . هؤلاء قوة نابضة . ملحم المبادئ ، الثورية بوجوداتهم . فاصير جزءا منها . لديهم الطاقة والقدرة على النضال . هم أيضا متجمعون في منظمة . ومتسمون الى مسائل . فالعمل الثوري بينهم ممكن . وقد يكون خطرا . كان هذا هو نفسهم . لانعاده عن منظمة الشباب ، عندما هاج ضده المناهضون للثورة . وهم في الوقت نفسه ، اعوان النظام .

نراعت في مخيلته ظاهرة طريفة : القهر هو العدو الوحيد الذى لم يستطع أن ينتصر عليه فرديا . هذا امر منطقي . فهو فرد ، والقهر قوة كبيرة شرسة . لا تفاهم معها . لا عقل لديها ولا عاطفة . تضرب بجهالة ووحشية ايا كانت الفريسة . وصل الى نتيجة مؤداها : الفرد يمكن . بكفاح مهين . ان يأكل بعد جوع . وان يتعلم بعد جهل . وان يتقدم بعد تخلف . ولكنه يستحيل عليه ان يقهر القهر وحده . حتى عنزة وأبو زيد الهلالي ، وسيف بن زى يزن . وأدهم الشرقاوى . لم يستطيعوا ! القهر ، لا يخلص اية جماعة بشرية منه الا اذا تجمعت ونظمت للقضاء عليه .

هذه الخطرات ، كانت تؤنسه في وحدته . رغم ان بعضها حلوا واكثرها مرير . لكنها حينما تنتهى . تضطرب به الوحدة . ويدلهم الظلام . حينئذ كان يلجأ الى الجدران . كانت له رفقا . حينما تتخافت الهاجسات ، تبرز خلوط اللوحات الخالدة ، وكلها هنا على الجدران . حروفها من نور . كيف يراها وسط هذا الظلام الفاحم ؟ من كثرة ما رآها . ابان النهار ، رسخت في عينيه . وبانت له مواعيد الظلام . عاش مع اللوحات النضالية لشعب مصر . اوقات مسكرة . يسهر معها . كان يخشى النوم . كوايبس الدنيا والآخرة نفض مضجعه . اشباح الوسية ننهال عليه ، وتسهد مآقيه . كانت اسمع اوقاته . هي ملك التى تتراخى فيها خواطره ، ويتخاضى النور الذى ينبض من الجدران . هناك تسلطوا عليه قوى القهر . ونهشه هاجسات البغى . وبخس الزنزانة قبرا . لن يبعث منه .



ظللت هذه حاله ، الى ان جاء يوم طلال انتظاره . ضجة في الفناء الذى تحسلف حوله للزنازين . الشاويش يعلن ارقام المعتقلين المفرج عنهم . وهى ارقام الزنازانات التى يسكنونها . فرح فرحة المبعوث من القبر ، تنفث فيه الحياة . على أولئك الذين يريدون أن يعرفوا شعور المبعوث يوم

القبيلة ، أن يجربوا الاعتقال في زنزانة فردية . لا مراء في أن اقرب شىء ، للخروج من القبر . هو الخروج من الزنزانة .

فارق الزنزانة رقم ١ . في معتقل القلعة . رأى فيها متحفا للنضال الوطنى ! هذه اللوحات . يمكن أن تمتع السياح ، وأولئك الذين يودون أن يتلقوا درسا في النضال . انه يرى أن يهدم معتقل القلعة . كما حدث عندما هدمت الجماهير سجن الباستيل 'بان الثورة الفرنسية . ولكنه يقترح أن تبقى هذه الزنزانة رمزا للقهر الأسود . ودليلا كذلك على نضال الشعب . منذ أيام الفراغة . ضد قوى القهر والاستغلال .

تجمع المخرج عنهم في عنبر كبير ليأخذوا فيه فترة انتقالية لمدة يومين . الوجوه شاحبة . اللحي طويشة تكن في العيون بريق ! كان لابد أن يجربوا الاعتقال الجماعى . ما احلاه ! لجماعية حلوة حتى في الاعتقل . الفردية عذدهم ، ترتبط بالانانية والنجس .

التقى في عنبر الاعتقال الجماعى بأجمل ما يمكن أن يلتقى به . كوكبا . من الشباب ، ابنانه . تلاميذه . فخر يشرف الانسان . وحماسة تغسل ادران المعتقل . كان أحدهم يردد الى جواره . دارت بينهما أحاديث منمشة قال لتلميذه :

— أنا سعيد إذ أراكم تحملون الرسالة .

— مسعادتك . سنبليغ الذروة اذا علمت أننا دفعنا بمحاضراتك الى الامام . وأزلنا عنها تحفظ السن والوظيفة . فأصبحت ثورة خالصة !
— هذا جميل .

— الشباب الذين تلقاه هنا في هذا العنبر ، ليسو نخبة الشباب . عنك عناصر نهز وجدانت . ونسعدك دوما . ونجعل الأيام . التى تضيئها معنا في المعتقل ، أياما مجزية .

سكت لحظة ثم اردف :

- لكن لماذا جاءوا بك الى هنا ولست شابا ؟
- هل الشباب مقصورا على من هم في العشرين ؟ لقد تجاوزت الاربعين منذ ثلاث سنوات فحسب .
- انا اهزل معك .
- جاءوا بي لاني علمتكم .
- هذا صحيح . وما انت تجد الازهار والشمس . التي غرست جذورها .

واراد الشاب الثرى ان يتخلف :

- لكنك طالما هاجمت المجتمع الطبقي في محاضراتك . المجتمع الذي ينقسم الى طبقات ومراتب .
- نعم .
- ما هذه " المرتبة " التي نفاها عليها . اليسست هذه طبقية ؟
- اعطاني اباي ، تلميذ مثلك .
- من منظمة الشباب ؟
- لا . من منظمة الشرطة !
- كيف ؟
- كنت ادرس الاتصاف في كلية الشرطة .
- انت محظوظ .
- كيف اكون محظوظا وقد امس بي الى هنا . فريقان من تلامذتي :
- فريق الشرطة وفريق منظمة الشباب !
- قهقها عاليا . تجمع حولهما مزيد من الشباب . وحينما يتجمع الشباب ،

ينزوح الحوار بين الثورة والفكامة . والحديث مع الشباب الواعى . عندما يجد أو يهزل ، يكون دائما هادفا .

هذه الباتة التى تجمعت حوله من أزمير محمر . بنفوح عطرها فى وجدانه . استروح فى العطر مستقبيل محمر . ورأى فى الوجود المنفجرة بالحياة . والرؤوس النابضة بالثورة . بسمة أمل . استشعر نوعا من الرضا عن نفسه . هذا هو العمل الجماعى . الفعال . الوحيد ، الذى قام به فى حياته . كان يتوق أن يؤثر فى الحياة السياسية . وأن يبت فكره فى مجموعة منظمة واعية . وهاهى نماذج من المجموعة . تطلع صدره . وتنالق فى ذهنه نورا ونارا .

كان هذا الشباب ، هو المنصر الوحيد الذى ثار فى وجه عدد الناصر والسادات . نادى بالديمقراطية التى تمكن الشعب من السيطرة على السلطة السياسية . طالب بالاشتراكية الحقّة . التى لا تجعل وسائل الانتاج فى يد قلة برجوازية مترفة ، ورثت الملك والقطاع والاستغلال . بل بالاشتراكية التى تملك فيها الجماهير وتسيطر على مؤسساتها الاقتصادية . أصابه شعور رضى . ابتأوه يحملون الرسالة . سينتمرون مهما كانت قوى القهر .

أخذ المعتقلون مرة أخرى الى وزارة الداخلية . هناك ، وشرت عليهم عملية أخرى من الامتحان . تلويث اصابع اليدين والقدمين : لاخذ بصماتها . أخذت عليهم تعهدات بعدم العمل فى السياسة .

تردد فى الذهاب الى رئاسة الجمهورية . ليشارك بحونه الاقتصادية . قد لا يسمح الحراس له بالدخول . تردد فى الذهاب الى مقر الاتحاد الاشتراكى بمصر الجديدة . ربما يكون شامعين وحسين فى انتظاره بزفة أخرى . قد تتوقع الزفة : فلا يدخلونه مبنى الاتحاد الذى كان يرؤسه . أتر أن يذهب الى جامعه بأسبوط .

انصلت القوى السلفية بالجامعة : ممنوع عليه ان يرافق الطلبة فى

رحلات . او يخلط بهم الا في المحاضرات . الحمد لله . تركوا له المحاضرات
منفذاً ينفس فيه .

* * *

كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، تنزل بمصر . انهيار الجيش . امام العدو
الصهيوني في خمسة ايام . وضع طبيعى . الباشوات الجدد . برنون
الباشوات القدامى . ضيعوا سنين طويلة من كفاح الجماهير . ما الفرق
بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ؟

مات عبد الناصر عام ١٩٧٠ . وجد خلفته « الاشتراكية » بلا جماهير
وملا جنود . اجتمعوا في يوم وليلة . واطلق قوى الوسية شرسة ضارية .
بعث ناجعة ١٩٦٧ قابل حسن صديقه وزير الرياضة في ناد بمصر
لجديدة . قال له الوزير في صوت ثابت ، لم يظهر فيه اثر للكارثة :

— هذا ما كنت تكتب عنه ، يا حسن انت وزملاؤك . طالما كنتم
عن البرجوازية ، التى تخرب القطاع العام . والامبراطورية التى تدهر
لجيش . والباشوات الجدد . والوسايا التى انقسمت اليها الوسية القديمة .
والقهر الذى ناقشته مجموعتك . واوشكتكم ان تكتبوا عنه . ثم تراجعتم !
لم يرد عليه . كانت النازلات مطبقة على قلبه ولسانه . لم تكن
الفجعة انهيار جيش . ولكن كانت انهيار امل ، راوده طوال حياته . وبذل
في سبيله عمره . ذيل اليه ان النظام سيغير الوسية الراسمالية . ويبنى
لاشتراكية . لم يكن خياله الا سرايا .

* * *

هذه الغفامة القائمة . التى انداحت من لقاءه مع الوزير ، لم تتسلل
الى وجدته . التفاؤل دائما رقيقته . شاركه كفاحه الفردى ، ونضاله العام .
عز عليه ان يتخلى عنه . وتركه يغادر بلاده كسفيا كلبا . شاء الا يكون
وزير الرياضة آخر من يرى في وطنه . ولا ان تكون كلماته آخر ما يسمع .

وصل الى المطار : سيقطع الى افريقيا . اعبر للامم المتحدة . سيعمل
استاذاً في معهد التخطيط والتنمية لدول افريقيا . بذاكار بالسنغال . في
طريقه الى الطائرة ، هروول نحوه رجلاين : مجاهد العامل . زميله في مجموعة
التنظيم الطليعى . وفوزى . تلميذه في منظمة الشباب . الذى كان يرقد
بجواره في الزنزانة الجماعية ، قبل الانفراج عنهما ! صاح فيهما متهللاً جذلاً :

— هل انتما مرئحلان كذلك ؟!

ورداً معا في صوت ثوى واثق :

— لا ! كيف نغادر ارض المعركة ؟ جننا لنوديمك .

— ما الذى جمعكما . وكيف علمتما بموعد سفري ؟

— لنا وسائلنا انخاصة !

وسكنا هنيهة . ثم تحدث فوزى بكل اندفاع الشباب : ووعيه :

— الى اين انت ذ عيب ؟ اهو هروب من المعركة ؟

وخزنه العبارة . اخترقت راسه الى قديمه . واجاب محزوناً :

— اهذا وفاء تلميذ لاستاذه ؟

— حسبك نسائل عن وفاء نائر لزميله !

— رحلنى ليست نخلبا عن المعركة . تصدت ان امضى هدنة . اسلح

فيها بمعرفة جديدة ، تسهم في نضالنا المقبل .

وتدخل مجاهد :

— انت تعرف حساسة الشباب : الذى سكبت الثورة في وجدانه .

ورد حسن :

— كم انا حفى بهذه الحساسة .

ثم النفث الى فوزى قائلاً :

— انت تعرف « الوسية الكبرى » وكهونها السفلة . مازالت تمارس

فيها توازن الغابة . فلفل احراش افريقيا . تبعث فينا املا جديدا . وتمدنا
غاباتها بوسائل فاعلة .

ورد فوزى ردا سريعا تويا :

— الامل هنا في مصر . والوسائل الحاسمة في يد شعبها .

وقال مجاهد :

— غابات افريقيا ، تموج بقوى شعبية ديمقراطية . نقاتل الاستعمار
ويعصمطرع مع حلفائه . اذا كنت ستدرس لنا هذه الحركات وتعود بسرعة .
فنحن نوافق على سفرك .

كان حضورهما للمطار ، مفاجأة حلوة ، اسعدته . وردت عليه فؤاده .
وانعمت روحه نورة واملا . ونعانقوا . لم يكونوا ثلاثة . انهم اربعون
مليوننا .

تم بحمد الله

رقم الايداع بدار الكتب
٥ - ٠٦٧ - ١٣٣ - ٩٧٧

٨٧/٨٠١٨
دار النمر للطباعة

الوارثون

فى روايته الأولى ، « الوسية » ، قدم لنا الدكتور خليل حسن خليل ، صورة فنية نابضة للمجتمع المصرى ، قبل عام ١٩٥٢ . وأوحى إلينا ، مع النقاد والكتاب الذين علقوا على الرواية ، أن مصر هى « الوسية » .

ويتابع فى روايته الثانية هذه : « الوارثون » ، الوسية بعد ١٩٥٢ . ويغوص بشخصه ، ورؤيته ، واحداث الرواية ، فى جذور المشكلة الإجتماعية ، ويرسمها فى لوحات معبرة ، وغايته إلقاء الضوء على سؤال محير : هل تغيرت الوسية ؟ وهل التغيير ثورة حقيقية ، أم أنها انقلبت إلى وسايا من نوع جديد ؟

إن الصور الجمالية ، التى تعرضها « الوارثون » ، هى محاولة لاستخدام الفن الروائى ، لتصوير فترة من أخطر الفترات ، التى مرت بها مصر : (١٩٥٠ - ١٩٧٠) . والمؤلف يطعم هذه الصور بمشاهد من الخلترا ، تتناول معركة تأميم قناة السويس ، والاستعمار الثقافى ، والاضطهاد اللونى .

● صورة الغلاف للفنانة برندا خليل .

مكتبة مطبول

٦ ميدان طلح حرب - القاهرة ب : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢